التيسير في التفسير

الجزء الخامس

الحج - الروم

تأليف

العالم الرباني الكبير فقيه القرآن

السيد/ بدر الدين بن أمير الدين الحوثي الحسيني

رضوان الله عليه

تحقيق

عبدالله بن حمود العزي   محمد بدر الدين الحوثي

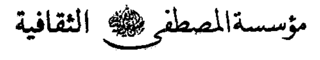


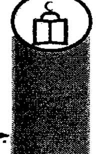
مؤسسة المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم الثقافية

التيسير في التفسير
تأليف العالم الربّاني الكبير فقيه القرآن السيد/ بدر الدين بن أمير الدين الحوثي رضوان الله عليه
تحقيق: السيد/ عبدالله بن حمود العزي ، السيد/ محمد بدر الدين الحوثي
الطبعة: الأولى ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م

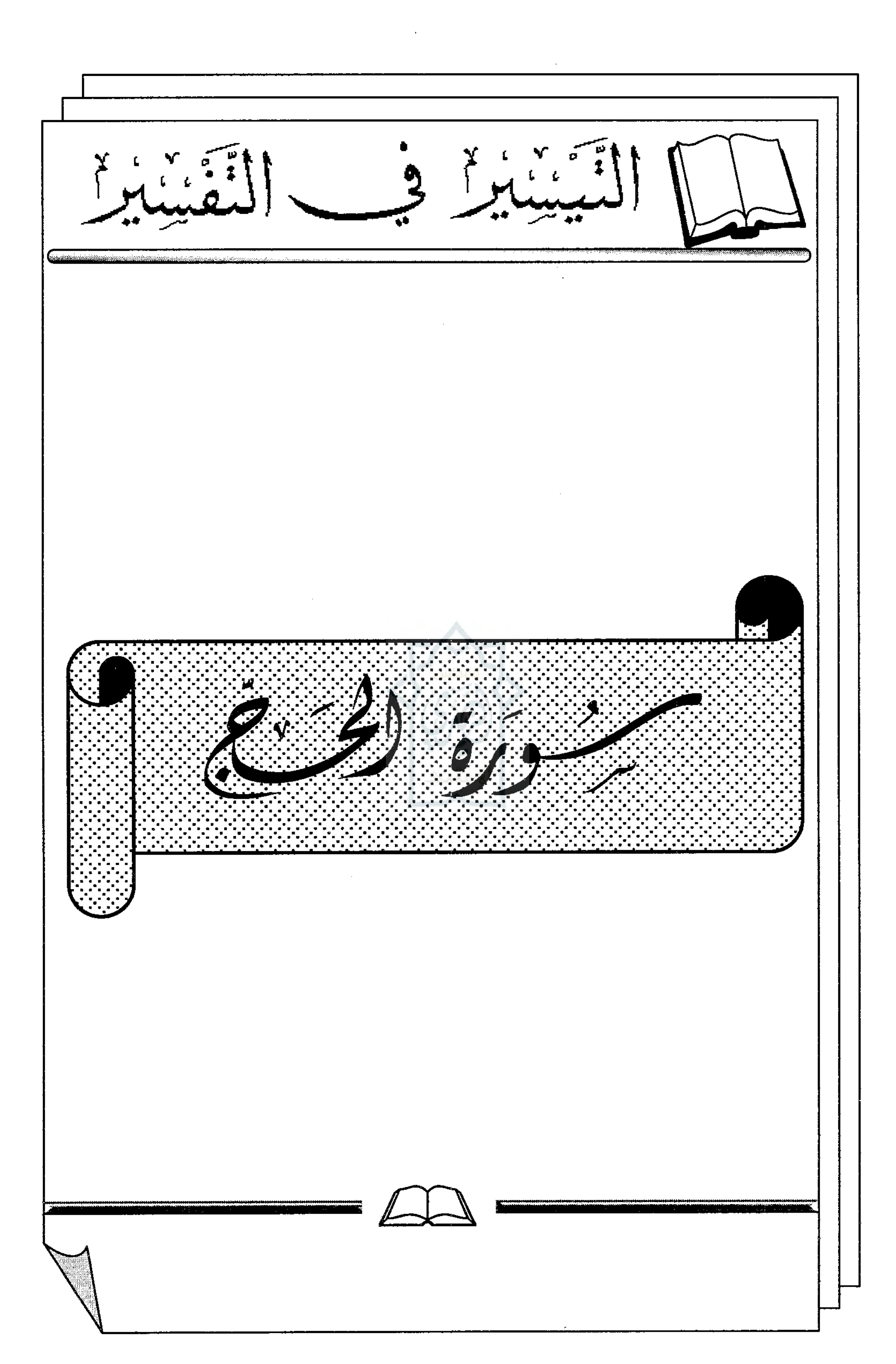
قياس القطع: (١٦,٥×٢٤)
عدد المجلدات: (٧)
الصف والإخراج: مؤسسة المصطفى ﷺ الثقافية
إخراج وتنسيق/ علي بن حمود العزي
رقم الإيداع بدار الكتب اليمنية: (٣٢٥/٢٠١٣م)







اليمن ـــ صعدة
جوال: (٠٠٩٦٧٧١١٣٧٢٧٦٢) ـ (٠٠٩٦٧-٧٣٧٩٩٢٧٧٧) ـ (٠٠٩٦٧-٧١١٦٦٤٧٥٩)
بريد: almostafa.ye@gmail.com ـ hbhbhd@gmail.com


التيسير في التفسير
سورة الحج



سُورَةُ الحَجّ

مدنية ٢٢ — آياتها ٧٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ

ابتداء تفسير (سورة الحج)

والراجح: أن بعضها (مكي) وبعضها (مدني)

وفي (مصابيح الشرفي): ((مكية غير ست آيات ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ..﴾ إلى ﴿..صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾)) انتهى. قلت: ومن قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ مدنية، ويترجح: أن قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ والآيتين الأخيرتين في السورة كل ذلك مدني، وقد قيل: إن السورة (مدنية).

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ﴾ اتقوا ربكم بالإيمان والطاعة لله، وقوله: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ﴾ تعليل يبين حاجة الناس إلى التقوى التي تنجي من فزع يوم القيامة، وتنجي من عذاب الله.

و﴿زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ﴾ إن حمل على الحقيقة فهي ما ذكره الله تعالى في قوله: ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ [الحاقة:١٤] ولكن حمله على المجاز قريب وهو أن المراد بزلزلة الساعة: أهوالها التي تكون قبل البعث وأهوالها التي تكون بعده، كما قال تعالى في (الأحزاب): ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [آية:١١] فقال تعالى: ﴿وَزُلْزِلُوا﴾ والمعنى في الفزع من اجتماع الأحزاب ضدهم لا برجفة الأرض.

وقوله تعالى: ﴿شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ يدل على أنها أهوال لا تحتمل والفزع فوق ما يتصور فينبغي لكل عاقل أن يستعد لها بتقوى الله.

حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾

﴿٢﴾ ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا﴾ سواء كان الضمير للساعة أم لزلزلتها؛ لأن الفزع من الساعة باعتبار زلزلتها وعذاب الله؛ ولأن الفزع من زلزلتها من أجل ما يكون من أهوال القيامة، أعم من رجفة الأرض وتحطم الجبال ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ تذهل: تنسى من شدة الهول ما أرضعته كأنها ليس لها ولد، وتضع كل ذات حمل في بطنها حملها من الفزع، وهذا في أول أهوال القيامة قبل هلاك الناس من الصيحة الأولى، فأما جعله مجرد تمثيل لا حقيقة فهو بعيد لأن أسلوب الكلام لا يناسبه، وعلى هذا فزلزلة الساعة أهوالها، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ﴾ أي في أول أهوال القيامة.

وقوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾ يراهم الرائي سكارى رؤية البصر، فهم في شكل السكارى في حركاتهم بلا شعور ﴿وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ لأن أذهانهم باقية، ولكنها متجهة إلى شيء واحد هو عذاب الله كما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ فالخوف منه هو الذي جعل الناس سكارى، وهذا في غير المتقين، لأن الله تعالى أمر بالتقوى؛ لأن التقوى تنجيهم من الفزع الأكبر ومن العذاب، بدليل قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ﴾ فدل بقوله تعالى: ﴿إِنَّ﴾ على التعليل، وبدليل قوله تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء:١٠٣] وغيرها.

كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ

﴿٣﴾ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ﴾ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ عطف على الأمر بالتقوى، وذكر زلزلة الساعة وعذاب الله الشديد، فكأنه قيل: ومع أن الأمر كذلك من الناس من يجادل في الله بغير علم، لا يستعد للآخرة ولا يتقي ربه ﴿مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ﴾ كانوا يجادلون في الله بجدالهم في قدرته وقياسهم لقدرة الله تعالى على قدرة المخلوق ﴿قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس:٧٨] ﴿وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الاسراء:٤٩].

وقوله تعالى: ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ لا يجادل بحجة يحصلها العلم إنما يجادل بالجهل، ومجرد الاستبعاد الذي لا يعتمد على علم ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ﴾ فأي شيطان دعاه إلى الباطل اتبعه سواء كان من شياطين الإنس أم من شياطين الجن، فيتبعه بلا حجة بل لهوى نفسه، وقوله: ﴿مَّرِيدٖ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «أي عاتٍ خارج عن طاعة الله تعالى عارٍ عن الخير من قولهم: شجرة مرداء» انتهى.

وفي (الصحاح): «والمارد: العاتي، وقد مَرُد الرجل بالضم مرادة فهو مارد ومريد» انتهى، وفي (مفردات الراغب): «والمارد والمريد من شياطين الجن والإنس المتعري من الخيرات من قولهم: شجر مرد إذا تعرى من الورق» انتهى.

﴿٤﴾ ﴿كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ ﴿كُتِبَ عَلَيۡهِ﴾ أي على الشيطان المذكور كتب عليه، حُكِمَ عليه حتى لا

ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ

ينفك عنه وصفه الذي هو ﴿أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ﴾ الشيطان هذا أو كتب عليه جعل عليه سمة يعرف بها ولا تنفك عنه ﴿فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ ومعنى تولاه الشيطان: استحوذ عليه وسيطر عليه ﴿فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ﴾ عن سبيل الله ﴿وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ بدلاً من هداية الله له إلى الجنة فالتعبير بالهداية مشاكلة تقديرية مع لطف الجمع بين يضل ويهدي.

﴿٥﴾ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ خطاب للبشر كلهم لضرورة أن يعلموا بالبعث ويعرفوا دلائل قدرة الله تعالى على كل شيء ﴿إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ﴾ في شك وقلق من أن البعث سيكون، فهذه الآيات تفيد العلم اليقين بقدرة الله تعالى على البعث الذي هو إحياء الموتى وإخراجهم من القبور، وتدفع استبعاد ذلك ﴿فَإِنَّا﴾ أي فإن الله ﴿خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ وذلك إما خلق آدم الذي

هو أبو البشر، وإما خلق آدم وذريته؛ لأن المني من الغذاء والغذاء أصله من الشجرة والشجر تنشأ من الماء والتراب، فهذا دليل قدرة خارقة لا تقاس على قدرة المخلوقين أن يتحول التراب إلى إنسان يسمع ويبصر، فكيف لا يقدر على النشأة الآخرة.

﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ وكذلك خلق الإنسان من النطفة التي هي المني السائل وتحويل النطفة إلى إنسان له صورة ومفاصل وأعصاب وعروق وغير ذلك ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ وهي الدم الجامد تحولت النطفة دماً جامداً ﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ والمضغة كقطعة لحم ممضوغة مخلقة ببعض صورة الإنسان قبل تحولها إلى عظام، وغير مخلقة لم تتخلق إلا عند استحالتها إلى عظام فتصير إنساناً مجهزاً بأعضائه ومفاصل وصور أعضائه المختلفة وقلبه وكبده وغير ذلك مما فيه من دلائل قدرة خالقه ومصوره ومحييه، فهذا هو الدليل الأول.

وقوله تعالى: ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ يحتمل أنه تعليل لخلق الإنسان من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة، أي أنه خلقه من هذا ليكون دليلاً على قدرة خالقه وعلمه ولو شاء لخلقه اختراعاً أو من شيء واحد من غير تطوير لخلقه، وهذا أظهر الاحتمالين، والاحتمال الثاني: أنه تعليل لإخبار الله تعالى بذلك، وذكره للناس ليبين لهم حتى يذهب عنهم الريب من البعث.

والدليل الثاني على قدرة الله تعالى على البعث وعلمه: قوله تعالى: ﴿وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يبقي الله في أرحام النساء ما شاء من الحمل من ذكر أو أنثى ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ﴾ هو نهاية مدة الحمل ﴿مُّسَمًّى﴾ محدود بحد مسمى، إما مسمى في الكتاب، وإما مسمى يعرفه الناس ويسمونه،

وهو في الغالب (تسعة أشهر) تضع في التاسع أو تزيد قليلاً، فإقرار الحمل في الرحم آية بينة لأن النطفة سائلة من شأنها أن تسقط من الرحم لولا أن الله تعالى أبقاها لتكون إنساناً، فحفظه في البطن آية تدل على قدرة الله وعلمه.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا﴾ أي نخرجكم من الأرحام حال كونكم طفلاً قد كمل خلقكم وتصويركم واستغنيتم عن البقاء في أرحام النساء، وصلحتم للعيش بعد الخروج منها، فإقرار الحمل في حال كونه نطفة أو علقة آية عظمى، ثم إخراجه وقد كبر وتمكن في البطن بكبره وضيق مخرجه، آية عظمى تدل على قدرته تعالى وعلمه ولطف تدبيره وقدرته على البعث.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ﴾ نخرجكم طفلاً لتبلغوا أشدكم أي لتنمو أجسادكم وقواكم حتى تبلغوا أشدكم أي كمال قواكم ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾ قبل بلوغ أشده أو بعده ﴿وَمِنكُم مَّن﴾ يبقى و ﴿يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ﴾ إلى حال الضعف الشديد وزوال العقل ﴿لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗا﴾ فتصريف حالات الإنسان من حمل إلى طفولة إلى شباب إلى هرم إلى مصيره خرفاً لا يعلم شيئاً بعد أن كان ذا علم، دلائل على مصرِّفه ومدبر أحواله، ودليل على أنه كما صرفه في الدنيا في حالاته المذكورة قادر على أن يصرفه من الموات إلى حي بعد الموت.

وقوله تعالى: ﴿لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗا﴾ أي يرد إلى أرذل العمر وأفسله، لكي تذهب عنه قوة العلم ويصير كالطفل الصغير لا يعلم شيئاً، فتكون في ذلك آية تدل على الفعَّال لما يريد الذي وقّت حمله، ووقّت طفولته، ووقّت شبابه، ووقّت علمه.

ولو كان صانعه ما يتوهم من الطبيعة لكان على حالة واحدة لا يتحول عنها، ولو كان نموه وقوته للطبع في المأكول ونحوه لما زال ينمو ولما رجع إلى الضعف بعد القوة وإلى الجهل بعد العلم، ولكن صانعه الفعال لما يريد دبره لحياته على ما يريد وصرف أحواله كما يريد، وكذلك يحييه بعد الموت ويعيده كما بدأه.

والدليل الثالث: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ فترى الأرض إذا أبطأ عنها الماء هامدة كأنها ميتة؛ لأنها لا تصلح لإنبات نبات ونباتها يابس ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا﴾ أنزل الله ﴿عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ قال سيد قطب: «وهي حركة عجيبة سجلها القرآن قبل أن تسجلها الملاحظة العلمية بمئات الأعوام، فالتربة الجافة حين ينزل عليها الماء تتحرك حركة اهتزاز وهي تتشرب الماء وتنتفخ» انتهى.

وفي (مصابيح الشرفي) رحمه الله: «أي تحركت بالنبات واهتز نباتها، واهتزازه شدة حركته..» إلى أن قال: «..ومعنى قوله: ﴿وَرَبَتْ﴾ أي انتفخت» انتهى، ويحتمل ﴿ٱهْتَزَّتْ﴾: أنه اهتزت من وقع المطر؛ لأنها مُعدَّة لشرب الماء، والله أعلم، وقوله: ﴿وَرَبَتْ﴾ صارت لتداخل الماء بين أجزائها وارتفاعها كأنها منتفخة.

وأما قوله تعالى: ﴿وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ﴾ فهو يحقق أن حالة الأرض تحولت من كونها هامدة إلى كونها مُنبِتة فكأنها صارت لها حياة بعد موت، فذلك دليل على قدرة الله تعالى على بعث الموتى.

وأما قوله: ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍۭ﴾ فهو يذكر بتمام حيوية الأرض حيث صلح؛ لأنها صلحت لإنبات أنواع النبات المختلفة لم تقتصر على نوع من الأنواع ولا على زوج من الأنواع.

ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا

وهو كذلك يذكر بقدرة الله تعالى حيث خلق الأزواج كلها على اختلافها الواسع الذي يدل على سعة قدرته تعالى وسعة علمه مما يدل على قدرته على البعث، وهو كذلك يذكر بنعمة الله على الإنسان بما خلق له ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ جميل المنظر، وبعض النبات يكون قوتاً وبعضه فاكهة وبعضها يجمع بين الأمرين، وبعض الفواكه يجمع لوناً يلتذ به الناظر ورائحة لذيذة للشم وطعماً لذيذاً وشكلاً جميلاً، مع نفعها في التغذية، فسبحان القادر على كل شيء العليم بكل شيء، وما أكفر الإنسان، يجحد قدرة الله على إعادته وهو يرى هذه الآيات! وتذكره بها الآيات القرآنية وتذكره بنعم الله عليه فيأبى إلا العناد!.

﴿٦-٧﴾ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من قوله تعالى: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..بَهِيجٍ﴾ ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ وقع ذلك بسبب أن الله هو الحق، فلولا الله لم يكن شيء من ذلك، فذلك دليل على الله يعرف به أن الله هو الحق، وأن الكفر به هو الباطل؛ وبسبب ﴿أَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ ولذلك أحيا الإنسان بعد أن كان تراباً...الخ وأحيا الأرض بعد أن كانت هامدة؛ وبسبب ﴿أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فلقدرته على كل شيء خلق الإنسان والنبات؛ وبسبب ﴿أَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ أي القيامة ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾.

هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ

﴿٨﴾ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ عطف على ذكر الدلائل ومدلولها، فكأنه تعالى قال: ومع ذلك ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ﴾ استناداً إلى جهله أو تجاهله، لا بحجة من عقل حصل له بها العلم، ولا بهدى إلى الحق حصل له من مصدر هداية محقق مثل: النبي والوصي، ولا بكتاب من كتب الله تعالى منير للبصيرة تبصر به الحق كما يرى البصر بالنور، وفي هذه الآية الكريمة إشارة إلى ما يحتج به أو يعمل به.

﴿٩﴾ ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «﴿ثَانِيَ عِطْفِهِۦ﴾ معناه: متكبر متجبّر» انتهى.

وهذا لأنه يقال في المعرض: ثنى عِطفه، وإعراض الكافر عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم تكبر وتجبر، والعِطف: قال الراغب: «عِطفا الإنسان جانباه من لدن رأسه إلى وركه» ومثله في (الصحاح).

وثنيُه: تحويله عن مواجهة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وسائر الدعاة إلى الله ﴿لِيُضِلَّ﴾ من يتبعه ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي ليتبعوه في باطله ويقتدوا به في الإعراض والتكبر ﴿لَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ عقاب عاجل بإهانته وفضحه ﴿وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ أي ندخله جهنم خالداً فيها، وذكر يوم القيامة لأن الحكم عليه وإدخاله النار يكون في يوم القيامة.

﴿١٠﴾ ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ العذاب والخزي ﴿بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ أي يقال له ذلك.

فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ﴾ فالعذاب بسبب ما قدمت يداه، وبسبب أن الله ليس بظلام ﴿لِّلْعَبِيدِ﴾ فلم يخل في الدنيا الظالمين والمفسدين إلا لأنه يجزيهم في الآخرة، فالتعذيب في الآخرة عدل وإنصاف للمظلومين الذين أغواهم الجبارون والذين كانوا يعذبونهم لأنهم أسلموا وليرجعوا إلى الكفر والشرك.

﴿١١﴾ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ معناه: على شك» انتهى، وأصل الحرف الطرف فجعل الشاك كأنه على حرف معرَّضٌ للسقوط لأنه غير ثابت في دينه ﴿فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ﴾ سكنت نفسه على ما هو عليه من الدين رغبة في الخير الذي ناله ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ﴾ ضر من الكفار أو أذى أو تخويف ابتلي بذلك واختبر بتخلية الظالم أو الفتنة بمعنى التعذيب وهو أظهر هنا؛ لأن الكفار كانوا يعذبون بعض من أسلم ليرجع إلى الشرك والكفر ﴿ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ أي ارتد إلى الكفر ليتخلص من فتنة الناس، كأنه سقط على وجهه، وهذا يناسب تشبيهه أنه في عبادته على حرف.

﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا﴾ لأن حياته صارت وَبالاً عليه؛ لأنه كلما عاش زاد في أسباب عذابه في الآخرة، فقد فاتته الحياة الدنيا التي يتمتع فيها المؤمن ويعمل لآخرته وهي الحياة الطيبة، وأيضاً الكافر في معيشة ضنك لحرصه على الدنيا وتأسفه على ما فات من مطالبها ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ لأنه اجتمع عليه ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ حيث فاتته الجنة وصار من أهل النار.

يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ ﴿١٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ

﴿١٢﴾ ﴿يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ﴾ ﴿يَدۡعُواْ﴾ هذا المنقلب ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ما يتخذه إلهاً وهو لا ينفعه فلا يفيده دعاؤه شيئاً، ومعبوده لا يضره فلا يحتاج إلى أن يدعوه ليأمن ضره ﴿ذَٰلِكَ﴾ الدعاء الذي هو الشرك ﴿هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ﴾ لأنه بُعْد عن سبيل الحق وغواية صيرته بعيداً عن الحق كمن ضل عن الطريق وصار بينه وبين الطريق مسافة بعيدة لغير فائدة من المعبود ولا ملجأ من ضر يناله إن لم يعبده، لا ذا ولا ذاك.

﴿١٣﴾ ﴿يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ﴾ الراجح أن ﴿يَدۡعُواْ﴾ إعادة للأولى ليرتب عليها قوله: ﴿لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ﴾ كما أعاد في (سورة التوبة) ﴿كَيۡفَ﴾ ورتب عليه ﴿وَإِن يَظۡهَرُوا عَلَيۡكُمۡ﴾ [آية:٨] بعد قوله: ﴿كَيۡفَ يَكُونُ لِلۡمُشۡرِكِينَ عَهۡدٌ﴾ [آية:٦].

وقوله تعالى: ﴿لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦ﴾ مبتدأ خبره ما دل عليه قوله تعالى: ﴿لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ﴾ أما قوله تعالى: ﴿لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦ﴾ فهو إسناد مجازي والمراد: الضر الحاصل بسببه أقرب من نفعه لمن يدعوه ففي الدنيا يخافه ولا فائدة له في خوفه، ويتلف له مالاً بلا فائدة، وبعضهم قتل ولده تقرباً وذلك ضرر عظيم، وأما في الآخرة فضرر الشرك عذاب شديد دائم ولا يشفعون للمشرك بل يكونون له أعداء ويكفرون بعبادته.

وأما قوله تعالى: ﴿لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ﴾ فهو جواب قسم مقدر، أي أقسم لبئس المولى هو، وسماه مولى تهكماً بالمشرك الذي اتخذه إلهاً مالكاً له.

ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ

وقوله تعالى: ﴿وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ﴾ كذلك فالعشير الصاحب الذي تعاشره وتجالسه وهذه الأصنام لا تسمع معاشرها ولا تراه ولا تدري ما يقول لها، ولا تعلم أنه عاكف عليها.

وإعراب قوله تعالى: ﴿لَمَن ضَرُّهُۥٓ﴾ اللام (لام الإبتداء) مؤكدة للجملة، و(مَن) اسم موصول مبتدأ، وقوله: ﴿ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦ﴾ مبتدأ وخبر، وهما صلة الموصول، والعائد الضمير في ضره، و﴿مِن نَّفۡعِهِۦ﴾ جار ومجرور متعلق بأقرب، وهو (اسم تفضيل).

وقوله تعالى: ﴿لَبِئۡسَ﴾ (اللام) جواب القسم، و(بئس) كلمة ذم فاعله المولى والعشير، والمخصوص بالذم ضمير مقدر أي هو، أي الصنم الذي يدعوه المشرك، وخبر المبتدأ الذي هو الموصول قد دل عليه جواب القسم وأغنى عنه لقيامه مقامه.

وحاصل قوله تعالى: ﴿لَمَن ضَرُّهُۥٓ﴾ إلى آخر الآية الذم للصنم والتهكم بمن اتخذه مولى وعشيراً وهو لا ينفع ولا يضر وهو يسبب الضر لا النفع.

﴿١٤﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ مقابلة بين المؤمن والمشرك، فالمؤمن ينفعه إيمانه وعمله نفعاً دائماً في الجنات في الآخرة في دار رحمة الله وكرامته، والمشرك عكسه، والجنات هنا بساتين عظيمة متعددة مذكورة في (سورة الرحمن) وتشتمل عليها جنة الخلد التي وعد المتقون، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ تأكيد للوعد المذكور.

بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ

﴿١٥﴾ ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾ ﴿مَن كَانَ﴾ من الكفار يرجو أن يبطل أمر الرسول ﷺ بكيده ويظن أن لن ينصر الله رسوله ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ بعلاقة ووسيلة إلى السماء ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ من هناك ما ينزل على الرسول ﷺ بواسطة الملائكة إن قدر على ذلك.

﴿فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾ يغيظ الكفار الحاسدين للرسول ﷺ وهو الوحي، فهذا أشد الكيد إن قدر عليه، قطع الوحي النازل من السماء بواسطة الملائكة بأن يتفق هو مع الملائكة على أن لا ينزلوا بوحي الله على رسول الله ﷺ وحاشاهم، لكنه لو وقع ذلك فلينظر هل يذهبن كيده أمر الرسول ﷺ وإرسال الله له ووحيه إليه؟ والجواب: لا يذهبه؛ لأن الله غالب على أمره، فلا بد أن يرسل رسوله برسالاته ويوحي إليه ما أراد، ولو انقطع الوحي من السماء بأي طريقة شاءها؛ لأن الله يفعل ما يشاء.

وهذا التفسير مبني على أن الضمير في ﴿يَنصُرَهُ﴾ للرسول ﷺ وهو ظاهر كما عاد عليه في ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ [الجن:١] ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١] لأن القرآن أنزل عليه والأذهان حين يبلغه موجهة إلى المبلغ والخوض فيه في ذلك الظرف كالخوض في القرآن، وقد عاد الضمير إلى القرآن في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ وهذا في الرسول المبلغ للقرآن.

ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمۡ تَرَ

والمعنى: أن الله تعالى ينصره ويظهر دينه على الدين كله ولو كره المشركون، وهذا موافق لتفسير الإمام الهادي عليه السلام الذي حكاه الشرفي، ولولا ما في النسخة من الغلط من بعض النساخ لنقلته هنا، وكذلك تفسير الحسين بن القاسم عليه السلام الذي حكاه الشرفي في (المصابيح) وعلى هذا فمفعول (يقطع) مقدر يدل عليه ﴿مَا يَغِيظُ﴾ أي فليقطع ما يغيظه.

﴿١٦﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يُرِيدُ﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ الذي مضى من هذه السورة ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾ أي القرآن ﴿ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ﴾ أي حال كونه آيات بينات، أي دلائل واضحات؛ ولأن ﴿ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يُرِيدُ﴾ أنزلناه.

﴿١٧﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الإيمان الكامل الذي منه الإيمان بما أنزل على محمد والذي هو الإيمان الباعث على الطاعة لله ولرسوله ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ اليهود ﴿وَٱلصَّٰبِينَ﴾ فرقة خرجت من دين إلى دين قيل إن أصلهم من النصارى وعبدوا النجوم ـ والله أعلم.

وقال في (الكشاف): «جعل الصابون مع النصارى لأنهم نوع منهم» انتهى، وقد مر تفسير أكثر من هذا ﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ المنتمين إلى دين عيسى ﴿وَٱلۡمَجُوسَ﴾ أهل ملة مخالفة للإسلام أظن من دينهم عبادة النار، ومن دينهم نكاح البنت والأخت والأم وسائر القرائب.

أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾

﴿وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ﴾ اختصوا بهذا الإسم مع أن في غيرهم من الملل مشركين لكن المشركين من العرب ليس لهم دين يجمعهم إلا الشرك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ﴾ بين المذكورين من أول الآية يحكم بينهم ويميز بينهم ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ فهو شهيد على أعمال أهل الملل كلهم وعقائدهم وأقوالهم لا يغيب عنه شيء من ذلك، فهو حاكم عليهم وشهيد على ما عملوا لا يغيب عنه شيء منه.

قال الإمام علي عليه السلام فيما رواه في (نهج البلاغة): «اتقوا معاصي الله في الخلوات، فإن الحاكم هو الشاهد» أو كما قال.

﴿١٨﴾ ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ۩﴾ ﴿يَسۡجُدُ لَهُۥ﴾ ينقاد له على ما سخره له ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ لا يمتنع من قضاء الله فيه، ألا ترى أن الشباب يهرم فلا يستطيع دفع الهرم، وكذلك يمرض فلا يستطيع دفع المرض بالقوة، ولكن قد يستطيع بما جعل الله من الدواء أو نحوه من الأسباب التي جعلها الله أسباباً، فالإنسان خاضع لتصرف الله فيه وتصريف الله لأحواله.

﴿وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ﴾ على ما سخرهما الله تعالى تجريان، وكذلك ﴿ٱلنُّجُومُ﴾ وأرسى ﴿ٱلۡجِبَالُ﴾ فاستقرت في أماكنها، وصرف حال

هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ

﴿ٱلشَّجَرُ﴾ كما صرف حال الإنسان ﴿وَٱلدَّوَآبُّ﴾ ومن ذلك سيرها في وظائفها كالديك يسبح والهر يصطاد وغير ذلك ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ ينقاد ويخضع لله اختياراً ﴿وَكَثِيرٌ﴾ أي من الناس ﴿حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ وهو لا يستطيع أن يخالف إلا في الأمور الاختيارية دون الاضطرارية.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: معنى سجود الناس فهو خضوعهم بالاتضاع، ومعنى سجود هذه الجمادات وغيرها من الحيوانات فهو بالطباع، فكلها ذليل مقهور خاضع بقدرة الله مجبور، قال الشاعر:

بجيش تظل الخيل في حجراته ترى الأُكم منها سُجَّداً للحوافر»

انتهى.

﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ ومن استحق العذاب بتكبره عن السجود الاختياري فلا يستطيع أحد أن ينقذه من عذاب الهون، وإن ظن المشركون أن شركاءهم سيشفعون لهم فهو أمل خائب؛ لأن الله يفعل ما يشاء.

﴿١٩-٢٠﴾ ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ﴾ ﴿هَٰذَانِ﴾ إشارة إلى فريقين: فريق مؤمن يدعو إلى الله، وفريق كافر يحارب الدعوة إلى الله.

وقد روى المحدثون أن هذه الآية نزلت في ثلاثة من المؤمنين وهم: علي عليه السلام، وحمزة، وعبيدة بن الحارث، وثلاثة من المشركين: الوليد بن عتبة، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، برز الثلاثة من المشركين فبرز لهم الثلاثة من المؤمنين، وذلك في أول (وقعة بدر) ونزول الآية فيهم، رواه البخاري في جامعه المسمى (الصحيح) في [ج٥/ ص٧] من نسخة خالية عن الشروح في (كتاب المغازي) ومن ألفاظه بعد السند: «عن قيس سمعت أبا ذرّ يقسم قسماً: إن هذه الآية ﴿هَـٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُواْ فِى رَبِّهِمْ﴾ نزلت في الذين برزوا يوم بدر: حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث، وعتبة وشيبة ابني ربيعة والوليد بن عتبة» انتهى.

وروى أبو داود في (سننه) في [المجلد الثاني ص٥٢-٥٣] عن علي [عليه السلام] قال: تقدم - يعني عتبة بن ربيعة - وتبعه ابنه وأخوه فنادى من يبارز؟ فانتدب له شباب من الأنصار، فقال: من أنتم؟ فأخبروه، فقال: لا حاجة لنا فيكم إنما أردنا بني عمنا، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يا حمزة قم، يا علي قم، يا عبيدة بن الحارث» فأقبل حمزة إلى عتبة، وأقبلت إلى شيبة، واختلف بين عبيدة والوليد ضربتان فأثخن كل واحد منهما صاحبه، ثم ملنا على الوليد فقتلناه واحتملنا عبيدة، انتهى.

قال الشرفي في (المصابيح): «وقال في (البرهان): هذه الآية نزلت في ثلاثة من المسلمين قتلوا ثلاثة من المشركين يوم بدر، ومنهم أمير المؤمنين علي عليه السلام قتل الوليد بن عتبة، وحمزة بن عبد المطلب قتل عتبة بن ربيعة،، وعبيدة بن الحارث قتل شيبة بن ربيعة» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿خَصْمَانِ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ﴾ [ص:٢١] في إطلاق الخصم على الجمع، وقوله تعالى: ﴿ٱخۡتَصَمُواْ﴾ جاء ضمير الجمع على المعنى، وقوله تعالى: ﴿فِي رَبِّهِمۡ﴾ اختصم المؤمنون والكافرون في ربهم؛ لأن قتال المؤمنين للكافرين المقصود به إعلاء كلمة الله وإظهار دينه، والقتال من المشركين سببه التعصب للشرك والتكذيب للرسول ﷺ والتكذيب بالقرآن فهم رادون لأمر الله، وشاكون في قدرته على البعث، وقائلون: ﴿مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الملك:٩].

وقوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٌ﴾ تشبيه بتفصيل القميص فمعناه أعدت لهم ثياب ﴿مِّن نَّارٍ﴾ شبهت بالثياب لاشتمالها عليهم كما تشتمل الثياب بل أشد، وقوله تعالى: ﴿يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ﴾ يفيد نزوله عليهم من فوقهم، وبذلك يعظم وقعه على رؤوسهم.

﴿يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ﴾ ﴿يُصۡهَرُ﴾ يذاب ﴿بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ﴾ ولذلك يقطع أمعاءهم، فقد خرق الرؤوس إلى البطون وأذيب به ما في البطون، وقوله تعالى: ﴿وَٱلۡجُلُودُ﴾ لعله عند وقوعه على رؤوسهم، ينزل بعضه على خارج أبدانهم فيذيب الجلود، وهذا أظهر، وقد مر في (سورة الكهف): ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ [الكهف:٢٩].

(٢١) ﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٍ﴾ ﴿مَّقَٰمِعُ﴾ آلات ضرب يضربون بها، قال الراغب: «جمع مقمع وهو ما يضرب به ويذلل» انتهى.

وقال في (الصحاح): «المقمعة: واحدة المقامع من حديد كالمحجن يضرب بها رأس الفيل، وقد قمعته إذا ضربته بها» انتهى، وقال (صاحب القاموس): «المِقمعة كمِكنسة العمودُ من حديد، أو كالمحجن يضرب بها رأس الفيل، وخشبة يضرب بها الإنسان على رأسه» انتهى المراد.

أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ

فقد اتفق الراغب و(صاحب القاموس) على: أن كلمة (المقامع) تستعمل في الحديد والخشب وهو الراجح؛ لأن الله تعالى وصف المقامع بأنها من حديد، ولو كان الحديد من مفهوم المقامع لكان الوصف بأنها من حديد كالتكرار، والمعنى: أن الكفار المذكورين يضربون بمقامع من حديد فهو عذاب ثالث.

﴿٢٢﴾ ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ﴾ كلما حاولوا بالتحرك من أماكنهم ﴿أُعِيدُواْ﴾ ليبقوا ﴿فِيهَا﴾ والإعادة باعتبار ردّهم في أماكنهم التي تزحزحوا منها في محاولتهم للخروج، وهذه المحاولة يؤدي إليها غم شديد لا تجويز منهم للخروج بعد قول مالك لهم: ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف:٧٧].

ويحتمل: أن ينسوا ويجوّزوا الخروج إذا لم تكن أبوابها في جهة فوق، والآية هذه إن كانت صفة للمقامع، فالمعنى أعيدوا في النار بها أي بالمقامع لكن ذلك يتوقف على قرينة، وإذا لم توجد فالظاهر استقلال هذه الآية، وأن المذكور تعذيب نفسي كقوله تعالى: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ أي وقيل لهم: ذوقوا عذاب الحريق، وكآية (السجدة) ﴿الم﴾.

﴿٢٣﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ﴾ هنا الفعل مضارع، والآية التي في الكفار قطعت فعل ماضٍ.

ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ ٱلَّذِي جَعَلۡنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٢٥﴾ وَإِذۡ بَوَّأۡنَا

ولعل السر في ذلك: أن الذين كفروا قتلوا في هذه الخصومة فاستحقوا العذاب حتماً، والذين آمنوا بقي منهم اثنان يحتاجان إلى الاستمرار في الإيمان والعمل الصالح، فناسب حالهم ذكر وعد الله وحكمه في الذين آمنوا وعملوا الصالحات الماضين منهم والباقين منهم جملة ليفهم الباقون أنهم محتاجون إلى الثبات على الإيمان والعمل الصالح.

وقوله تعالى: ﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ﴾ السوار ملبوس للمعصم ويحتمل للعضد مع المعصم، وقوله تعالى: ﴿وَلُؤۡلُؤٗا﴾ معطوف على محل ﴿أَسَاوِرَ﴾ أو محل الجار والمجرور، أي ويحلون فيها لؤلؤاً، ويحتمل أن تطرز به ثيابهم أو يكون منه أسورة أو غير ذلك. وقوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ﴾ هذا اللباس الحقيقي يقابل لباس الكفار المجازي، وما تفيده الآية من النعيم يقابل ذلك العذاب لينظر الإنسان ويميز بين عاقبة الكفر وعاقبة الإيمان.

﴿٢٤﴾ ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ ﴿وَهُدُوٓاْ﴾ أي أهل الإيمان والعمل الصالح ﴿هُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ وهو زيادة في نعيمهم حيث لا يسمعون فيها لغواً ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ فهم يرغبون في العدل والإحسان ويرضون بقسمة الله بينهم لا حسد ولا غل فيهم.

﴿٢٥﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ ٱلَّذِي جَعَلۡنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ لعل هذه في الذين لم يقتلوا في يوم (بدر) والأولى في الذين قتلوا في (بدر) أو هذه عامة للفريقين إن كانت متقدمة في النزول.

وقوله تعالى: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي يمنعون عن دين الله بتعذيب من آمن مثلاً ﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي ويصدون عن المسجد الحرام؛ لأنهم يضطرون المؤمنين بتعذيبهم يضطرونهم إلى الهجرة من مكة، فهاجروا أولاً إلى الحبشة وثانياً إلى المدينة المنورة، والمسجد الحرام هو الكعبة المشرفة.

قال الشرفي في (المصابيح): «وقيل: المراد بالمسجد الحرام (مكة) والأظهر أن المراد به: الكعبة» انتهى.

وأقول: يمكن الجمع بين القولين بأن المراد بالصد عن المسجد الحرام إخراج المؤمنين من مكة للهجرة، فهو كناية والقول بأن المراد به الكعبة فهو صحيح أن المراد بالمسجد الكعبة لكن الصد عنها وقع بإخراج أهلها من مكة، وقوله تعالى: ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ يفيد تكرر الصد بطول مدته؛ لأن هذا الفعل المضارع هو فعل العادة المتكررة.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلْنَـٰهُ لِلنَّاسِ﴾ بيان أن إخراج أهله منه ظلم لهم؛ لأن المسجد هذا جعله الله للناس كافة للعبادة فليس لأحد أن يختص به، فأما منع المشركين منه حين نزل قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة:٢٨] فهو ناسخ سببه العلة المذكورة وهو ناسخ في حقهم دون غيرهم، ويسمى تخصيصاً من العموم.

وقوله تعالى: ﴿سَوَآءً ٱلْعَـٰكِفُ فِيهِ﴾ أي في هذا المسجد ﴿وَٱلْبَادِ﴾ الذي ليس من أهل مكة، وأصله البادي، ولعل العاكف فيه الذي هو العاكف في الكعبة قد يظن أنه أولى من الوارد إليها لكن لعل ذلك كناية أريد فيها الحقيقة ليدل على ساكني مكة بالأولى، فهم سواء هم والبادي.

قال الشرفي: «والبادي: من كان من أهل البادية» انتهى، وهو موافق لما في (الصحاح).

لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ

وإن أريد به الساكن في البادية فأهل القرى البعيدة مثله»، فالراجح: أنه كناية عن الوافد إلى مكة سواء كان بدوياً أم حضرياً، ولعل البدوي خص بالذكر لأنه يستضعف، وفي الآية رد على من يدعي من الشيعة في عصرنا أن البيت ميراث أهل البيت ولا يجوز عنده الحج إلا بإذنهم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدۡ فِيهِ﴾ أي في المسجد الحرام ﴿بِإِلۡحَادِۭ﴾ أي بعدول عن الحق ﴿بِظُلۡمٖ﴾ أعم من الشرك فيه فهو يعم كل معصية متعمدة ويعم الجور وسب أولياء الله ومدح الظلمة وغير ذلك، وهو يتناول المشركين الذين نصبوا أصنامهم على الكعبة.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «﴿وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ﴾ معناه: بعدول عن الحق» انتهى.

قال في (الكشاف): «وقوله ﴿بِإِلۡحَادِۭ﴾ حالان مترادفتان ومفعول ﴿يُرِدۡ﴾ متروك ليتناول كل متناول كأنه قال: ومن يرد فيه مراداً مّا عادلاً عن القصد ظالماً ﴿نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ قال: يعني أن الواجب على من كان فيه أن يضبط نفسه ويسلك طريق السداد والعدل في جميع ما يهم به ويقصده» انتهى المراد.

ولعل فائدة ﴿بِظُلۡمٖ﴾ تحقيق المراد بالإلحاد؛ لأنه في أصل اللغة الميل أو العدول، قال في (لسان العرب): «ومعنى الإلحاد في اللغة: الميل عن القصد» انتهى.

﴿٢٦﴾ ﴿وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ ﴿وَإِذۡ﴾ واذكر ﴿إِذۡ بَوَّأۡنَا﴾ قال الراغب: «وبوأت له مكاناً: سويته له» انتهى.

رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ

وقال (صاحب الصحاح): «وبوأت للرجل منزلاً وبوّأته منزلاً، بمعنى: أي هيأته ومكنت لـه فيه» انتهى، فالمعنى: هيأنا لإبراهيم مكان البيت ليبنيه فيه.

وقوله تعالى: ﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ﴾ أَنْ مفسِّرة لبوأنا بمعنى أن تهيئة مكان البيت هي النهي عن الشرك وأمره بتطهير البيت.

قال في (الكشاف): «فإن قلت: كيف يكون النهي عن الشرك والأمر بتطهير البيت تفسيراً للتبوئة؟ قلت: كانت التبوئة مقصودة من أجل العبادة فكأنه قيل تعبدنا إبراهيم قلنا لـه: ﴿لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ من الأصنام والأوثان والأقذار أن تطرح حوله» انتهى.

ويحتمل: ﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾ في بناء البيت ولا في غيره، فكأنه قيل: أن ابنِ لي بيتاً خالصاً لي وأخلص العبادة لي، والمعنى: أن تهيئة مكان البيت كانت على أساس أن يبني إبراهيم بيتاً خالصاً لله، ويعبد الله وحده فيه، ولا يشرك به شيئاً.

وقوله تعالى: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ أي هذا البيت الذي بوأنا لك مكانه، البيت الخالص لي، طهره من كل رجس، أي لا يدخله رجس ولا يلحقه ولا يجاوره، طَهِّره ﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ به ﴿وَالْقَائِمِينَ﴾ للصلاة أو أي عبادة فيه أو حوله ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ المصلين، فهذه الآيات تفيد أن المشركين جعلوه على خلاف ما أسس له، فجعلوا عليه الأصنام وهو لله وحده ونجسوه بالشرك وغيره، وقد أمر الله بتطهيره لعبادته الخالصة له، ولعل المشركين كانوا ينجسونه بدماء ما يذبحونه للأصنام ويجعلون عليها من دمه ـ والله أعلم.

﴿٢٧﴾ ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ هذا من كلام الله تعالى لخليله إبراهيم عليه السلام أمره أن

ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ

يدعو الناس إلى الحج بدليل (واو العطف) في أول الآية، وقوله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ﴾ أي بينهم ليبلغ الشاهد الغائب.

وقوله تعالى: ﴿يَأۡتُوكَ رِجَالٗا﴾ أي يأتوك وأنت بمكة، رجالاً أي مشاة ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ﴾ أي ركباناً على كل ضامر أي خفيف اللحم سريع في مشيه وهو يصلح للإبل والخيل، ولكن الراجح: أنه هنا للإبل إذ هي أوفق للسفر تحمل الزاد وترعى من الشجر كالطلح والأثل وتصبر من شرب الماء، أو هو عام للإبل والخيل، وقوله تعالى: ﴿يَأۡتِينَ﴾ أي كل ضامر يأتينك أو نحو هذا.

وقوله تعالى: ﴿مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «والفج: الطريق بين الجبلين، ثم يستعمل في سائر الطرق اتساعاً، والفج ـ أيضاً ـ مكان واسع، والعميق البعيد، وقال الراغب: الفج شقة يكتنفها جبلان ويستعمل في الطريق الواسع» انتهى.

وفي الآية دلالة على قوة الرغبة في الحج بحيث يسافر له مشياً على الأقدام وبحيث يسافر إليه من بعيد، وعلى كثرة السفر إلى البيت؛ لأن الطرق لا تتسع إلا من كثرة المارة، فهي تدل على أن الله تعالى وعد خليله إذا دعا الناس أن يجعل في قلوب كثير من الناس الرغبة في إجابة دعوته، وهذا شيء باقٍ إلى اليوم، حتى أن بعض من اعتاد الحج إذا تخلّف يبكي حين يسمع الملبين في (الراديو) أو يشاهدهم في (التلفزيون) شوقاً إلى الحج.

﴿٢٨﴾ ﴿لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ﴾ ﴿لِّيَشۡهَدُواْ﴾ تعليل لقوله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ﴾ وكانت المنافع التي يشهدونها في الحج

في عهد إبراهيم عليه السلام والله أعلم، منها: تعليمه لهم مناسك الحج وغيرها، وتذكيرهم بآيات الله ليعرفوا الله ويصح إيمانهم بالله وباليوم الآخر وغير ذلك ـ والله أعلم ـ ولعل منها: آراءً اجتماعية، ونصب إسماعيل خليفة له مع كونه رسولاً وغير ذلك، وأما بعد إبراهيم عليه السلام فلكل زمان منافع تناسبه، ففي عهد رسول الله محمد صلى الله عليه وآله وسلم شهدوا في (حجة الوداع) تعليمه لهم مناسكهم، و(خطبة عرفة) و(خطبة منى).. وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ﴾ ذكر الله هذا هو ذكره عند نحر البدن وذبح غيرها ﴿مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ والأنعام هي الأزواج الثمانية المذكورة في (سورة الأنعام) فحاصل المعنى: يذبحوا وينحروا لله وحده ذاكرين اسمه، وقوله تعالى: ﴿عَلَى مَا رَزَقَهُمْ﴾ يشير إلى دليل واضح لإبطال ما كان يفعله المشركون من النحر لغير الله والذبح مع أن الله رزقهم الأنعام فاستعملوها لغيره كفراً لنعمته.

وقوله تعالى: ﴿فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ﴾ في (مجموع الإمام زيد بن علي عليهما السلام): عن أبيه عن جده عن علي عليه السلام من حديث: «..والأيام المعلومات أيام العشر» انتهى، يعني من ذي الحجة، وهذا يدل على فضل هذه الأيام حيث اختارها الله ـ عزَّ وجل ـ لذكر اسمه على النحائر والذبائح مع أن النحر والذبح في الحج إنما يكون في اليوم العاشر منها، ولولا هذا الحديث عن علي عليه السلام لكان الراجح: أنها (أيام النحر) التي هي اليوم العاشر من ذي الحجة ويومان بعده.

وقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ أي من الأنعام التي تذكرون اسم الله على نحرها وذبحها، وهي هدايا تهدى إلى البيت يهديها القارن وغيره فلا بأس أن يأكل منها من أهداها ﴿وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ ﴿الْبَائِسَ﴾ صاحب البؤس أي شدة الحال من الإعدام و﴿الْفَقِيرَ﴾ المحتاج.

(٢٩) ﴿ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ﴾

﴿ثُمَّ﴾ بعد ذكر اسم الله على بهيمة الأنعام يوم النحر أي بعد النحر ومثله الذبح ﴿لۡيَقۡضُواْ﴾ (اللام) لام الأمر، بمعنى قد حل لهم قضاء التفث الذي كان محظوراً لأجل الإحرام، ويفيد (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «أن معنى قضاء التفث: الأخذ من الشارب، وقص الأظفار، وحلق الرأس والعانة، ونتف الإبط» انتهى.

قال في (الصحاح): «التفث في المناسك: ما كان من نحو قص الأظفار والشارب وحلق الرأس والعانة ورمي الجمار ونحر البدن وأشباه ذلك، قال أبو عبيدة: ولم يجئ فيه شِعر يحتج به» انتهى، وقوله: «ونحر البدن»؛ بعيد لأن الآية معطوفة على الآية التي تفيد نحر البدن بـ(ثم).

وقال الشرفي في (المصابيح): «قالوا: التفث في كلام العرب كل قاذورة تلحق الإنسان فيجب عليه نقصها، قال القفال: قال نفطويه سألت أعرابياً فصيحاً ما معنى قوله: ﴿ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ﴾ قال: ما أقرأ القرآن ولكنا نقول للرجل: ما أتفثك وما أذربكِ والمراد: قضى إزالة التفث» انتهى.

وفي (القاموس): «التَفَث ـ محركة ـ في المناسك الشعث وما كان من نحو قص الأظفار والشارب وحلق العانة وغير ذلك» انتهى، ولم يذكر فيه الرمي ولا النحر.

وفي (مفردات الراغب): «﴿ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ﴾ أي أزالوا وسخهم يقال: قضى الشيء يقضي إذا قطعه وأزاله، وأصل التفث: وسخ الظفر وغير ذلك مما شأنه أن يزال عن البدن» انتهى، وهو موافق لما حكاه الشرفي.

وقوله تعالى: ﴿وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ﴾ النذر هو الإيجاب على النفس لله ومثال هذا، الوفاء بهديٍ نذر به لله أو صدقة أو صلاة.

ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ

وقوله تعالى: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ أي الطواف الضروري في الحج الذي لا يتم الحج بدونه، وهو يسمى طواف النساء؛ لأن الحاج إذا فعله حل له النساء، ونحن نسميه طواف الزيارة، ونسمي الأول طواف القدوم، والبيت العتيق: الكعبة شرفها الله، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: طواف النحر، وهو طواف الزيارة، وسمي البيت عتيقاً لأنه أعتق من الجبابرة فلم يَدَّعِه جبار أنه له، و﴿ٱلْعَتِيقِ﴾ الكريم» انتهى.

وفي (المصابيح): «وقال الحسين بن القاسم عليه السلام معنى: ﴿بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ أي البيت الرفيع المجيد الكريم، وكل ما كان جيداً كريماً يسمى عتيقاً» انتهى المراد، وفي (الصحاح): «العتق: الكرَم، يقال: ما أبيَن العتق في وجه فلان، يعني الكرم» انتهى.

وهذا أرجح في تفسير الآية؛ لأن العتق بالمعنى الأول أصله في ما كان مملوكاً ثم حرر، وكرم البيت: أنه بني للعبادة والطواف حوله، وأنه قبلة لأهل الأرض لصلاتهم، وأن الصلاة فيه أفضل منها في غيره كما في الحديث الشريف، وقال تعالى: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ﴾ [المائدة:٩٧].

﴿٣٠﴾ ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ قال (صاحب الكشاف): «أي الأمر والشأن ذلك، كما يقدم الكاتب جملة من كتابه في بعض المعاني ثم إذا أراد الخوض في معنى آخر قال: هذا وقد كان كذا» انتهى.

والإشارة إلى ما ذكر من شأن البيت وما يتعلق به، وعطف عليه قوله تعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾ لِتُعَظَّمَ حرمة الله في البيت والحرم ومواضع مناسك الحج وغيرها، فلا تغيّر عما جعلها الله، ولا يقتل فيها نفس، ولا تجعل فيها أصنام.

وقوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أي ما ذكره الله في القرآن يتلى على الناس ويسمعونه، وقد كان نزل تحريم الميتة والدم وما أهل به لغير الله في (سورة الأنعام) ثم نزلت آية (المائدة) فأفادت تحريم المقتولة بالأسباب المذكورة فيها، ولعل قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ للحال والاستقبال فهو شامل لما في الآيتين ونحوهما.

وقوله تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ تفريع على قوله تعالى: ﴿أَنْ لاَ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾ والرجس النجاسة، قال الراغب: «الرجس: الشيء القذر» انتهى، وقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ قالوا (مِن) للبيان، قال في (الكشاف): «بيان للرجس وتمييز له، كقولك: عندي عشرون من الدراهم؛ لأن الرجس مبهم يتناول غير شيء كأنه قيل: فاجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان» انتهى، ولم يترجح هذا، ولو قيل: فاجتنبوا الأوثان من الرجس لصح جعلها للبيان، لأن الله تعالى قال: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ﴾ [المائدة:٩٠] فالراجح في (مِن) أنها للابتداء، ليفيد: أن ﴿ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ مصدر رجس وهو أعم من عبادتها والتبرك بها وعبادتها أعم من العكوف عليها والنذر لها والدعوة إليها والتعصب لها والقتال لحمايتها، وعلى الجملة كل باطل بسببها وجعلها سبباً، كقول إبراهيم عليه السلام الذي حكاه الله ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ﴾ [إبراهيم:٣٦] وعلى جعل مِن للبيان لا يكون متناولاً إلا لقرب الأوثان والعكوف عليها ولمسها.

مُشْرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ۝ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن

وقوله تعالى: ﴿وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ قال في (الصحاح): «الزور: الكذب» انتهى، ومثله أفاد الراغب وغيره، فإضافة قول إليه على معنى أن تقولوا الزور وهذا يعم زور المشركين وسائر الكفار وزور غيرهم وفي الكذب، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً» أخرجه الإمام أبو طالب في (أماليه) ومحله (الباب الثاني والثلاثون) وعنه صلى الله عليه وآله وسلم: «الكذب مجانب للإيمان، وإن العبد ليهبط إلى أسفل درك في جهنم بالكذب» أخرجه المرشد بالله عليه السلام في (الأمالي) [ج/١ ص١٨].

۝ ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ في (تفسير الإمام القاسم عليه السلام) الذي حكاه الشرفي في (المصابيح) في تفسير (سورة لم يكن): «والحنيف: هو الطائع المستقيم الخاشع» انتهى، فالمعنى: واجتنبوا قول الزور مستقيمين خاشعين لله غير مشركين به، ولعله أعاد قوله: ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾ بعد قوله تعالى: ﴿فاجتنبوا الرجس﴾ كقوله تعالى في إبراهيم عليه السلام: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة:١٣٥] وقول إبراهيم عليه السلام: ﴿حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:٧٩] ولعله لدفع توهم العرب أن من حج واختتن فهو حنيف وإن كان مشركاً ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي سقط وهوى من السماء ﴿فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ﴾ تأكله متخطفةً له وهو يهوي في الهواء، قال الراغب: «الخطف والاختطاف: الاختلاس بالسرعة» انتهى، فالخطف أخذ بسرعة.

تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ

وقوله تعالى: ﴿أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ أي في حال هويه وخروره تعصف به الريح حتى تصيره في مكان سحيق هوت به إليه، ومعنى سحيق: بعيد، وقوله تعالى: ﴿أَوْ تَهْوِى﴾ عطف على (تخطفه) فالتشبيه بمن خر من السماء فيعرض له أحد أمرين: أن تخطفه الطير ﴿أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ ولعل هذه خطاب للمسلمين، كقوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ..﴾ الآية [آل عمران:٨٦].

ووجه التشبيه: أن من أشرك بالله لا يبقى له وسيلة نجاة بل يخذل ويترك للشياطين، فهو صائر إلى النار لا محالة كما أن الذي خرّ من السماء لا يبقى له وسيلة نجاة من الهلكة بل تغلبه الطير، أو الريح التي تصيره في مكان سحيق فلا يدفنه الناس بل تأكله السباع، سواء كان البعد في مهواة من الجبل لا يستطيع الناس بلوغها، أو كان البعد في قفر لا يبلغه الناس، وقعت له مهلكة الخرور من السماء وأدته إلى إحدى المهلكتين، وكذلك من أشرك بالله فتولاه الشيطان فأضله وهداه إلى عذاب السعير.

﴿٣٢﴾ ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ مثل الأولى أداة انتقال من موضوع إلى موضوع ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «ومعنى ﴿يُعَظِّمْ﴾ أي يُجلّ وينزّه معالم دين الله انتهى، فشعائر الله: أعلام عبادته: كالكعبة، وعرفات، والمشعر الحرام، فـ﴿مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ احترامها وصيانتها عن الشرك وعن اتخاذها لغير الدين وكذلك المساجد، كما قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلاَ الْهَدْيَ وَلاَ الْقَلاَئِدَ﴾.

وقال بعض المفسرين: «والشعائر: جمع شعيرة، وهي العلامة، وشعائر الله: الأعلام التي نصبها الله تعالى لطاعته، كما قال: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ [البقرة:١٥٨] وقال: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ..﴾ الآية [الحج:٣٦] والمراد بها [أي هنا] البدن التي تساق هدياً..» إلخ.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ إن كانت الشعائر هنا عامة لأعلام الدين فتعظيمها من تقوى القلوب وأنث الضمير كما في قول الشاعر:

وما حب الديار شغفن قلبي .....

وإن كانت الشعائر هنا هي هدايا الحجاج التي تهدى إلى البيت وتشعر بشق سنامها في الجانب الأيمن حتى يدمى ليُعلم أنها هدي لتحترم فيصح عود الضمير إليها بمعنى أن إهداءها ونحرها من تقوى القلوب، أي تبعث عليه تقوى القلوب لطلب المغفرة والرحمة، ولا حاجة إلى تقدير مضاف أو أكثر لأنه قد رجع الضمير إليها باعتبارها من شعائر الله؛ على أن معنى مِن السببية أو الابتداء وهذا الوجه هو الراجح، أعني أن الشعائر هنا خاصة بالبدن ونحوها.

(٣٣) ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾ في (مجموع الإمام زيد بن علي عليهما السلام): «عن أبيه عن جده عن علي عليه السلام: في البدنة تُنتج؟ قال: لا يشرب من لبنها إلا فضلاً عن ولدها.. إلى قوله: ..فإن لم يجد ما يحمل عليه ولدها حمله على أمه التي ولدته وعدله غير باغ ولا عاد ولا متعد. حدثني زيد بن علي عن أبيه عن جده عن علي عليه السلام: من اعتل ظهر عليه فليركب بدنته بالمعروف، ورأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رجالاً يمشون فأمرهم فركبوا هديه ولستم براكبي سنة أهدى من سنة نبيكم صلى الله عليه وآله وسلم» انتهى.

بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ

ففي هذا بيان المنافع في البدن، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام): «فالمنافع: شرب ألبانها، وجز أوبارها، وركوب ظهورها» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إلى حين نحرها إلى يوم النحر أو في اليومين ثانيه وثالثه ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ﴾ اعلم أن (محل) يصلح مصدراً واسم زمان واسم مكان، فجعل غايتها البيت يدل على أنه عبارة عن مكان حِل نحر الهدايا، وأنه مجاور للبيت العتيق منتهٍ إلى البيت العتيق إذ لا يصح جعل البيت غاية للمصدر ولا للزمان إلا بتأويل.

أما جعله غاية لمكان حلها فواضح ليفيد أنه الحرم وهذا هو مذهب الناصر عليه السلام وعلى هذا فالنحر في منى لأنه من الحرم والحجيج يصيرون إليه يوم النحر لرمي الجمرة ويحتمل تعينه لفعل النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولصيانة مكة عن الدماء الكثيرة أن تراق حول الكعبة وإن كان الحرم كله مكاناً عند الضرورة كما هو كله مكان حل في العمرة مطلقاً ﴿ٱلْعَتِيقِ﴾ قد مر تفسيره، ويحتمل: أنه القديم، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ [آل عمران:٩٦].

﴿٣٤﴾ ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ ﴿مَنسَكًا﴾ موضع نسك كما جعل لنا الحرم ومنى موضع نسك ننحر أو نذبح فيه لله وحده ﴿لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ جعل لكل أمة منسكاً ليتقربوا إلى الله بذكر اسمه على ما ينحرون أو يذبحون أي بالنحر والذبح له وحده، فهذا قد جعله الله لكل أمة.

وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا

وظاهره من عهد آدم عليه السلام لا يخص إبراهيم عليه السلام وذريته فالمشركون بنحرهم لغير الله وذبحهم عدلوا عن الحق الذي شرعه الله للأمم كلها ﴿فَإِلَٰهُكُمْ﴾ أي إله الموجودين والأمم كلها ﴿إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ غير متعدد ولا مركب ﴿فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟﴾ بعبادته وحده بالنحر والذبح وكل عبادة اجعلوا وجوهكم وأنفسكم له وحده ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾.

قال الشرفي في قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾: «المتواضعين لله من الخبت، وهو المطمئن من الأرض، يعني المطيعين الخاشعين» انتهى.

وقال الراغب: «ثم استعمل الإخبات استعمال اللين والتواضع.» إلى قوله: «.. ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ أي المتواضعين نحو ﴿لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ [الأعراف:٢٠٦]» انتهى، ثم فسر تعالى ﴿ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ فقال تعالى:

﴿٣٥﴾ ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ فهذه صفات المخبتين المتواضعين لله ﴿إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ﴾ أي خافت ﴿قُلُوبُهُمْ﴾ لأنهم مؤمنون بالله واليوم الآخر فهم يخافون عذاب الله ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ﴾ لأنهم يرضون بما ابتلاهم الله به فيصبرون أنفسهم عما ينافي الرضى به من قول أو فعل.

في الحديث النبوي: «تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول ما يسخط الرب» وفي حديث آخر: «ليس منا من حلق، ولا من سلق، ولا من خرق، ولا من دعى بالويل والثبور» انتهى، وسواء كانت المصيبة في النفس كالمرض أو في أهل أو نحو ذلك أو في المال أو كانت خوفاً أو جوعاً أو نحو ذلك، فالمخبتون صابرون على كل ما أصابهم.

وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَـٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَـٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا

﴿وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ فهذه الخصلة العظمى من صفاتهم كما أنها من صفات كل مؤمن، وقوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ كما قال تعالى في صفة الأبرار: ﴿وآتى المَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾ الآية [البقرة:١٧٧] وهذه صفات المخبتين الباعث عليها الإيمان الصحيح الباعث على تقوى الله وعلى الرغبة في التقرب إليه.

﴿٣٦﴾ ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَـٰهَا لَكُم مِّن شَعَـٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَـٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «قال في (البرهان): ﴿وَٱلْبُدْنَ﴾ هي الإبل، وسمي بدناً لأنه مُبدَّنة بالسِمَن» انتهى، وفي (الصحاح): «والبدنة ناقة أو بقرة تنحر بمكة، سميت بذلك لأنهم كانوا يسمنونها» انتهى، وكذا في (لسان العرب): «ناقة أو بقرة» انتهى.

وقال في (الكشاف): ﴿ٱلْبُدْنَ﴾ جمع بدنة سميت لعظم بدنها وهي الإبل خاصة؛ ولأن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ألحق البقر بالإبل حين قال: «البدنة عن سبعة، والبقرة عن سبعة» فجعل البقر في حكم الإبل صارت البدنة في الشريعة متناولة للجنسين عند أبي حنيفة وأصحابه، وإلا فالبدن هي الإبل وعليه تدل الآية» انتهى.

وأفاد الإمام الهادي عليه السلام في (الأحكام): «أن البدنة من الإبل فقط» انتهى. وأفاد في (مجموع الإمام زيد بن علي عليهما السلام): أن البدنة من الإبل؛ لأنه قال: «حدثني زيد بن علي عن أبيه عن جده عن علي عليهم السلام في قوله تعالى: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَـٰهَا لَكُم مِّن شَعَـٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ﴾ قال: معقولة على ثلاث ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ أي

فإذا نحرت ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ قال: ﴿الْقَانِعَ﴾ الذي يسأل ﴿وَالْمُعْتَرَّ﴾ الذي يتعرض ولا يسأل. حدثني زيد بن علي عن أبيه عن جده عن علي عليه السلام في رجل ضلت بدنته فأيس منها فاشترى مثلها مكانها أو خيراً منها قال: ثم وجد الأولى قال عليه السلام: ينحرهما جميعاً، حدثني زيد بن علي عن أبيه عن جده عن علي عليه السلام في البدنة تُنتَج قال: لا يشرب من لبنها إلا فضلاً عن ولدها، فإذا بلغت نحرهما جميعاً» انتهى.

فقوله: «معقولة» يدل على: أنها من الإبل لأنها هي التي تُعقَل، أي تُربَط يدها معطوفة على شكلها حين تكون باركة، وكذلك قوله: فإذا نحرت، وقوله: ينحرهما، وقوله: نحرهما، كل ذلك يدل على أنها من الإبل لأن البقر تذبح ولا تنحر، وكذلك قوله: «حدثني زيد بن علي عن أبيه عن جده عن علي عليه السلام: من اعتل ظهر عليه فليركب بدنته بالمعروف» انتهى، فالحاصل: أنها الإبل، والمراد: الإبل التي تهدى إلى البيت.

﴿جَعَلْنَاهَا لَكُمْ﴾ أوجدناها لكم وسخرناها لكم وشرعنا لكم إهداءها فبذلك جعلناها لكم؛ لأن الركوب إنما هو للإبل أما البقر فلا تركب في العادة، وقوله تعالى: ﴿مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ قال الشرفي: ومعنى «﴿مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ أي من أعلام الشريعة التي شرعها الله وأضافها إلى اسمه تعظيماً لها» انتهى.

﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ يحتمل خير الدنيا بإصلاح الضمير ومعاونة الفقير وبمعاونته يصلح المجتمع وخير الآخرة الثواب، وأيضاً من الخير منافع أهلها بشرب لبنها وركوبها والأكل منها ويحتمل أن فيها من الخير ما لا نعلمه ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ﴾ فاذكروا الله عند نحرها وهي ﴿صَوَافَّ﴾ جمع (صافة) إن أريد صف قوائمها الثلاث في قيامها.

ويحتمل: جمع (صافات) إن أريد أن تصف الإبل صفاً مثل صف المصلين متجهة إلى القبلة فتنحر في حال صفها، وهذا أرجح وحكاه الشرفي عن (صاحب البرهان).

قال الشرفي في (المصابيح): وقال المفسرون: الذكر هو أن يقول عند النحر: (الله أكبر، لا إله إلا الله والله أكبر، اللهم منك وإليك) وقوله تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا﴾ كناية عن الأمر بنحرها لله وحده لا شريك له، والكناية يراد فيها المعنيان الحقيقي والمجازي، هذا الراجح عندي وإن قيل في الكناية تحتمل إرادة المعنيين.

﴿فَإِذَا وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا﴾ سقطت جنوبها لأنها تنحر قائمة، وهذا دليل على أن البدن: هي الإبل، وهو ما عناه (صاحب الكشاف) فيما نقلته فيما مر.

وفي كلام حكاه الشرفي عن محمد بن القاسم عليه السلام: ﴿فَإِذَا وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا﴾ يعني فإذا خرَّت سقوطاً إلى الأرض» انتهى، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام): ﴿فَإِذَا وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا﴾ معناه: «سقطت» انتهى، وفي (الصحاح): «الوجبة: السقطة مع الهدة» انتهى المراد.

﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّ﴾ اختلف تفسير (القانع) و(المعتر) قال (صاحب القاموس): «القُنوع ـ بالضم ـ السؤال والتذلل والرضى بالقسم ضِدّ» انتهى المراد.

وقال في (الصحاح): «القنوع: السؤال والتذلل في المسألة ـ ثم قال ـ: وقال الفراء: هو الذي يسألك فما أعطيته قَبِله ـ ثم قال ـ: وقال بعض أهل العلم: إن القنوع قد يكون بمعنى الرضى، والقانع بمعنى الراضي وهو من الأضداد» وأنشد:

وقالوا قد زُهِيتَ فقلت: كلاً ولكني أعزَّني القنوع»

انتهى المراد.

وفي (أساس البلاغة) للزمخشري: «العز في القناعة، والذل في القنوع وهو السؤال، وفلان قنع بالمعيشة وقنيع وقنوع وقانع، أنشد الكسائي:

فإن ملكت كفَّاك قَوطاً فكن به قنيعاً فإن المتقي الله قانع»

انتهى المراد.

ولكونه من الأضداد وقع الاختلاف فيه من حيث هو في الآية الكريمة، ففي (مجموع الإمام زيد بن علي): عن أبيه عن جده عن علي عليه السلام.. إلى قوله:.. «﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّ﴾ قال: ﴿ٱلۡقَانِعَ﴾ الذي يسأل ﴿وَٱلۡمُعۡتَرَّ﴾ الذي يتعرض ولا يسأل» انتهى.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام): فـ﴿ٱلۡقَانِعَ﴾ السائل، وقال: الجالس في بيته ﴿وَٱلۡمُعۡتَرَّ﴾ الذي يأتيك ولا يسألك، وفي (أحكام الإمام الهادي) عليه السلام: «﴿ٱلۡقَانِعَ﴾ المتعفف لا يسأل مع الحاجة، ﴿وَٱلۡمُعۡتَرَّ﴾ السائل» ورواه فيها عن جده القاسم ومثله في (أمالي أحمد بن عيسى عليهما السلام) عن القاسم عليه السلام.

وقد أفادت الآية الكريمة: الأمر بإطعامهما، سواء كان (القانع) السائل أم الذي يتعفف عن السؤال وهو محتاج، والمعتر الذي يتعرض ولا يسأل أم الذي يسأل، قال في (لسان العرب): «والمعتر الفقير..» إلى أن قال: «.. عراه واعتراه وعرَّه يعُرُّه عَرّاً واعترَّه واعترَّ به إذا أتاه فطلب معروفه..» إلى أن قال: «.. قال جماعة من أهل اللغة: القانع الذي يسأل، والمعتر الذي يطيف بك يطلب ما عندك سأل أو سكت عن السؤال» ثم قال: «وأصله من قولك: عررته عَرّاً فأنا عار إذا أتيته تطلب معروفه، واعتررته بمعناه» انتهى، فوجه تفسير الإمام القاسم عليه السلام: أنه قد فسّر (القانع) بالمتعفف الذي لا يسأل مع الحاجة، فاستلزم ذلك تفسير (المعتر) بالسائل لمقابلته بـ(القانع) مع صلاحية لفظ (المعتر) له.

لَكُمۡ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٣٧﴾ ۞إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ

﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ﴾ كذلك التسخير للبدن المهداة سخرنا لكم الإبل ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ أي تشكرون نعمة الله عليكم إما مطلقاً وإما نعمته بالإبل.

﴿٣٧﴾ ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمۡ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا﴾ لأنه يطعِم ولا يطعَم ﴿وَلَا دِمَآؤُهَا﴾ إشارة إلى ما يفعل المشركون بأصنامهم حين يضمخونها بدم ما يذبحون لها، ولأن الدم نفسه ليس المقرب إليه ﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡ﴾ والتقوى اجتناب معاصي الله والتوبة إلى الله.

فإن قيل: التقوى غير الهدايا أو الهدايا جزء من التقوى متى كانت واجبة فما علاقة التقوى هنا بالهدايا؟

فالجواب: إن التقوى أساس قبول العمل؛ لأن الله تعالى قال فيما حكاه مقرراً له: ﴿**إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ**﴾ [المائدة:٢٧] فالمعنى: يناله التقوى والهدايا متى كانت من التقوى، ونظير هذا قوله تعالى في الصلاة إلى بيت المقدس قبل النسخ ﴿**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ**﴾ [البقرة:١٤٣].

وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ﴾ مشاكلة لقوله تعالى: ﴿**لَنْ يَنَالَ اللَّهَ**﴾ والمعنى لن يتقبل ولكن يتقبل ﴿كَذَٰلِكَ﴾ التسخير ﴿سَخَّرَهَا لَكُمۡ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ﴾ قال في (الكشاف): «اختصر الكلام بأن ضمن التكبير معنى الشكر وعدّي تعديته» انتهى.

﴿يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ﴾

يعني: أنه عدي التكبير بـ﴿عَلَىٰ﴾ لأجل تضمينه معنى الشكر، ثم قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فأفاد: أن نحر البدن لله من عمل المحسنين وتفسير ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ مذكور في أول (سورة لقمان). انتهى موضوع (الحج) وتوابعه ويأتي موضوع (الجهاد).

﴿٣٨﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ ﴿يُدَٰفِعُ﴾ فعل مضارع يصلح للحال والاستقبال، والمدافعة عن جملة المؤمنين لا يلزم منها الدفع عن كل شخص ولكن معناها يدل بالالتزام على النصر متى كانوا جنداً متوحداً متمسكاً بشروط النصر ومنها الصبر، نعم ومن النصر التأليف بينهم حتى يتوحدوا ويصبروا، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ تعليل للدفاع عنهم بأنه تعالى لا يحب أعداءهم الخونة الكفرة.

قال بعض المفسرين: «وإنما كانوا مكثرين في الخيانة والكفران، لأن الله حملهم أمانة الدين الحق، وجعلها وديعة عند فطرتهم لينالوا بحفظه ورعايته سعادة الدارين وعرفهم إياه من طريق الرسالة، فخانوه بالجحد والإنكار وغمرهم بنعمه الظاهرة والباطنة فكفروا بها ولم يشكروه بالعبودية» انتهى.

قلت: ومن نعمة الله على قريش إنزال الكتاب فيهم وإرسال الرسول منهم فكفروا هذه النعمة إلا من آمن وحاربوا رسول الله ﷺ بعد إخراجه من بلده وصدوه عن المسجد الحرام، فلعل الله سماهم ﴿كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ لكفرهم هذه النعمة وكذلك خيانتهم بالمؤامرة ضد الرسول.

﴿٣٩﴾ ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ ﴿أُذِنَ﴾ أذن الله للذين يقاتلهم الكفار أن يقاتلوا الكفار، وقد كان المؤمنون

بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾

قيل لهم: كفوا أيديكم، فلما كانوا في وقت وقعة بدْر أذن لهم ووعدهم إحدى الطائفتين أنها لهم، وأشار إلى علة للأذن ﴿بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟﴾ ظلمهم الكفار بإخراجهم من ديارهم وتعذيب بعضهم وغير ذلك ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ تشجيع لهم على الجهاد بأن يكونوا راجين للنصر وإن كانوا أذلة قليلي العدد والعدة كثيري الأعداء.

﴿٤٠﴾ ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دِفَاعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟﴾ من صفات الذين أذن لهم ﴿أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم﴾ اضطروا إلى الهجرة أولاً: إلى (الحبشة) وثانياً: إلى (طيبة) أخرجوا ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ أي بغير حق للكفار الذين أخرجوهم لم يكن لهم حق في أن يخرجوهم ﴿إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ استثناء منقطع والمعنى ليس لهم سبب لإخراجهم إنما أخرجوهم لئلا يقولوا ربنا الله أي لئلا يوحدوا الله ويعبدوه وحده ويبرؤوا من الشرك؛ لأن ربهم الله أي المالك لنا هو الله وحده ونحن عباده وحده، فعبادة غيره باطل؛ لأن كل من سوى الله عبد مربوب.

﴿وَلَوْلَا دِفَاعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أي بالجهاد ﴿لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ﴾ يعبد الله فيها حين كان الترهب غير مذموم ﴿وَبِيَعٌ﴾ للعبادة يعبد الله فيها النصارى قبل نسخ شريعتهم ﴿وَصَلَوَاتٌ﴾ تركت خوفاً من الكفار، وبعض المفسرين فسر الصلوات بمواضع صلاة ﴿وَمَسَاجِدُ﴾ هدمت كل ذلك لولا الجهاد لبطل دين الله بغلبة الكفار ومحاربتهم له، وهذا ـ أيضاً ـ تعليل لتشريع الجهاد يبين أنه ضروري لحماية دين الله وإحياء ذكر الله كثيراً.

ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤١﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ

﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ ﴿مَن﴾ عبارة عن الجند والحزب؛ لأن السياق في الذين يقاتلون الذين أذن لهم وكانوا جنداً، فهي كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات:١٧٣] وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة:٥٦] وقوله تعالى: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ..﴾ الآية [الأنفال:٦٥-٦٦].

وهذا في المجاهدين في سبيل الله، والنصر ــ أيضاً ـ يشرط فيه طاعتهم لقائدهم وترك التنازع والتوبة إلى الله واجتناب الغلول والتزام طاعة الله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ [آل عمران:١٥٥].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ تأكيد للوعد بالنصر ودلالة على أنه لا يستبعد نصر الأقلين المستضعفين؛ لأن الله تعالى إذا أراد نصرهم فهو قوي عزيز، وأكد ذلك بـ(إن) و(اللام) ليذهب استبعادهم للنصر، ويقوى رجاؤهم له.

﴿٤١﴾ ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ من صفات الذين أذن لهم في القتال ﴿إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ بنصرهم على أعدائهم ﴿أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ وهذه من صفة المؤمنين الثابتين على الإيمان في حال أن قد تمكنوا في الأرض.

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ

﴿وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ﴾ لأن مهمتهم إقامة دين الله ودفع الباطل ودفع التظالم ودفع الفساد في الدين فبهم يحيى الحق ويخمل الباطل؛ ولذلك فهم أهل لأن يأذن الله لهم في القتال وينصرهم ويمكن لهم في الأرض ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ يقدر فيها ما يشاء ويهيئ لها ما يشاء، فمتى أراد أن تكون العاقبة النصر هيأ لها أسبابه.

قال سيد قطب في سياق تفسير هذه الآية: «هؤلاء هم الذين ينصرون الله، إذ ينصرون نهجه الذي أراده للناس في الحياة، معتزين بالله وحده دون سواه، وهؤلاء هم الذين يعدهم الله بالنصر على وجه التحقيق واليقين فهو النصر القائم على أسبابه ومقتضياته المشروط بتكاليفه وأعبائه والأمر بعد ذلك لله يصرفه كيف يشاء، فيبدل الهزيمة نصراً، والنصر هزيمة عندما تختل القوائم أو تهمل التكاليف ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾.

إلى قوله: «..وهو نصر له سببه وله ثمنه وله تكاليفه وله شروطه فلا يعطى لأحد جزافاً أو محاباة ولا يبقى لأحد لا يحقق غايته ومقتضاه» انتهى.

﴿٤٢-٤٤﴾ ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ * وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ يا محمد ﴿فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ أمم كذبوا رسلهم وكذبوا بآيات الله التي جاءتهم بها رسلهم، وقد مرت قصصهم مفصلة في سور منها: (سورة الأعراف)، و(سورة هود)، و(سورة النحل).

عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن

وقوله تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ﴾ عدل به عن أسلوب المذكورين قبله هنا وفي (سورة الشعراء) ولعل شعيباً أرسل إلى قبيلتين إحداهما قومه والأخرى بينه وبينهم علاقة ومعرفة بسبب أنهم مثلاً أخواله أو صهوره فكان بعض أصحاب مدين قومه وبعضهم غير قومه ـ والله أعلم، وكذلك قال تعالى: ﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾ لأن موسى من بني إسرائيل وأرسل إلى فرعون وملئه وهم من القبط، ففي هذه الجملة تسلية لرسول الله ﷺ في تكذيب قومه له.

وقوله تعالى: ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ تسلية أيضاً لرسول الله ﷺ في الإملاء لقومه حيث أمهلهم الله نحو ثلاث عشرة سنة بل أكثر، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ دلالة على أن الإمهال ليس معناه الإهمال وإنما هو لحكمة ثم يأخذهم، ولعله تعالى قد أخذ بعضهم في خلال المدة المذكورة لقوله تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [الحجر:٩٥] ثم أخذ منهم سبعين يوم بدر ثم عدداً منهم يوم أحد، ثم في بقية المعارك بينه وبينهم وبينه وبين اليهود ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي أنه كان شديداً على الكافرين، وفسره في الآية التي بعد هذه، وفي هذا فائدتان: التسلية لرسول الله ﷺ بأن لهم نهاية تكون فرجاً له، والإنذار للمكذبين.

قال الشرفي في تفسير هذه: «أي كيف إنكاري عليهم بالعذاب وتغييري» انتهى المراد، وقال (صاحب الصحاح): «والنكير والإنكار: تغيير المنكر» انتهى.

﴿٤٥﴾ ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ ﴿فَكَأَيِّن﴾ أي فكم ﴿مِّن قَرْيَةٍ﴾ وهذا تكثير للقرى التي أهلكها.

تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥۚ وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن

وقوله تعالى: ﴿قَرۡيَةٍ﴾ كناية يريد فيها الحقيقة والمجاز فليس كقوله: ﴿وَاسْئَلِ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف:٨٢] فمن حيث أراد تعالى أهلها قال: ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ ومن حيث أراد الحقيقة، قال تعالى ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ أي ساقطة حيطانها على سقوفها ﴿وَبِئۡرٖ مُّعَطَّلَةٖ﴾ أي وكم من بئر معطلة أي متروكة لا يؤخذ من مائها؛ لأن أهلها قد هلكوا لم يبقَ منهم أحد ﴿وَقَصۡرٖ مَّشِيدٍ﴾ أي وكم من قصر مشيد معطل غير مسكون.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: مزَيَّن بالشِّيد، وهو الجص والجيّار» انتهى، أي معنى ﴿مَّشِيدٍ﴾ وقال في (الصحاح): «والجيّار: الصَّاروج، قال الأخطل يصف بيتاً:

كأنها بُرجُ رومِيٍّ يشيِّده لُزَّ بطين وآجُرٌّ وجيَّار

انتهى، وقال في (الصحاح): «الصاروج: النورة وأخلاطها فارسي معرب» انتهى، قال الشرفي في (المصابيح): «أي وكم من قصر مشيد أي أخليناه عن ساكنه فترك ذلك لدلالة ﴿مُّعَطَّلَةٖ﴾ عليه» انتهى، ومثله في (الكشاف).

﴿٤٦﴾ ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ﴾ أي هؤلاء الكافرون الذين أذن الله لرسوله بقتالهم، والسؤال بمعنى النفي، مثل: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾ [الشرح:١] و(الفاء) للتفريع على قوله تعالى: ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ﴾ أي قد ساروا في الأرض ورأوا آثار القرى أو بعضها التي أهلكها الله.

وقوله تعالى: ﴿فَتَكُونَ﴾ منصوب في جواب السؤال أي إن من شأنهم إذا ساروا في الأرض وشاهدوا آثار القرى المهلكة أن يعتبروا بهم ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ فيفكرون في آيات الله الدالة على صدق رسول الله في إنذاره لهم وفي كل ما جاء به عن الله ﴿أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ آيات الله، سماع تفهُّم وطلب لمعرفة الحق بأن مشاهدة آثار قرى المهلكين تثير الاعتبار في القلوب السليمة الباقية على فطرتها، أما إذا كانت القلوب لا يؤثر فيها ذلك لفسادها وتحولها عن فطرتها، فإنها لا يفيدها شيء، فكأن من لا يعتبر بشيء من تلك القرى كالأعمى الذي لا يبصر، بل هو أسوأ حالاً لأن أعمى البصر يستعين بمن يهديه من قائد أو غيره وبما يهديه من عصا ولمس وسمع، أما أعمى القلب فهو معرض عمن يهديه ولا يتطلب الهدى بأي وسيلة.

ولذلك قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ قال (صاحب الكشاف): «فلما أريد إثبات ما هو خلاف المعتقد من نسبة العمى إلى القلوب حقيقة ونفيه عن الأبصار [أي مجازاً] احتاج هذا التصوير إلى زيادة وفضل تعريف ليتقرر أن مكان العمى هو القلوب لا الأبصار كما تقول: ليس المضاء للسيف ولكنه للسانك الذي بين فكيك تقرير لما ادعيته للسانه..» إلى قوله: «..وكأنك تقول: ما نفيت المضاء عن السيف وأثبتُّه للسانك فلتة ولا سهواً مني، ولكني تعمدت إياه بعينه تعمداً» انتهى.

قلت: وهذا يبطل القاعدة التي تقول: علامة المجاز صحة نفيه، ومثله قول الشاعر:

ليس من مات فاستراح بميت ... إنما الميت ميت الأحياء

إنما الميت من يعيش كئيباً ... كاسفاً بالُه قليل الرجاء

قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

ومنه الحديث الشريف: «ليس المسكين هذا الطواف عليكم ترده التمرة والتمرتان واللقمة واللقمتان» قالوا: فمن المسكين يا رسول الله؟ قال: «الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يُفطَن له فيتصدق عليه، ولا يقوم فيسأل الناس» انتهى.

﴿٤٧﴾ ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾ عطف على بيان أنهم عمي القلوب فكأنه تعالى قال: ومع ذلك يستعجلونك يا محمد ﴿بِالْعَذَابِ﴾ يطالبونك بتعجيل العذاب تكذيباً منهم بوقوعه أي عجِّله إن كان واقعاً ﴿وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ فالعذاب واقع بهم لا محالة سواء عجله الله أم أخره ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ﴾ أي في قدرته وعلمه ﴿كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ فلو شاء لعجل لهم العذاب.

قال الشرفي في (المصابيح): «وأما الهادي عليه السلام فقال: المعنى في ذلك أنه إخبار من الله سبحانه عن نفاذ قدرته وإمضاء مشيته وسرعة فعله يخبر سبحانه أنه ينفذ في يوم واحد ما ينفذه جميع الخلق إذا اعتونوا عليه في ألف سنة..» الخ، وقوله تعالى: ﴿مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ تحقيق للسنين المذكورة، بأنها هذه السنون التي هي اثنا عشر شهراً.

﴿٤٨﴾ ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ هذه من الرد على استعجالهم بالعذاب تفيد: أنهم متعرضون للعذاب العاجل كما عذب الله القرى قبلهم وتبين أن الإملاء ليس معناه أنه لا يعذب المكذبين، فعلى هؤلاء المكذبين أن يحذروا ولا يستعجلوا تكذيباً بالرسول فالماضي تجربة لهم إن عقلوا.

لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى

وقوله تعالى: ﴿وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ يذكر بالجزاء بالآخرة وأن هلاكهم العاجل لم يكن نهاية أمرهم، بل لا بد من مصيرهم إلى الله في موقف الحساب والجزاء، وتلك المهمة العظمى التي يقول عندها الشقي: ﴿يَالَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾ [الحاقة:٢٧].

﴿٤٩-٥١﴾ ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ * وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله للناس كافة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ليس علي إلا إنذاركم إنذاراً بيناً بالحجة الواضحة وليس علي أن أكرهكم على الإيمان ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بما جئت به من الآيات وبما أنذرتهم ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ كما بلغتهم ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ للذنوب الماضية قبل الإيمان، من الشرك وغيره ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ فهم نفعوا أنفسهم والرزق الكريم في الجنة الباقية أبداً ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ﴾ بالجدال فيها كفراً بها فما ضروا إلا أنفسهم فـ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ قال الشرفي: ﴿مُعَـٰجِزِينَ﴾ أي مغالبين» انتهى.

﴿٥٢﴾ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا﴾ عطف على الكلام في المكذبين، أو على آخر آية فيهم التي هي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿مِن قَبۡلِكَ﴾ أي من قبلك يا محمد فلك فيهم أسوة، وقوله تعالى: ﴿مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ يترجح أن فيه اختصاراً والمعنى: ولا نبأنا من نبي؛ لأن النبي الذي ينبأ بالوحي إليه بشريعة، والرسول الذي يرسله الله إلى أمة بشريعة كما يفيده معنى الكلمتين في اللغة.

فالنبي إذا أرسل صار رسولاً لأن كل رسول نبيء فيكون عطفه على رسول مشكلاً، فلذلك ترجح تقدير: نبأنا، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾ [البقرة:٢٤٦] أي وأبعدنا من أبنائنا.

قال في (مغني اللبيب) في أقسام العطف: «والثاني عشر: عطف عامل، حذف وبقي معموله على عامل آخر مذكور، يجمعهما معنى واحد كقوله:

وزججن الحواجب والعيونا

أي وكحلنا العيون، والجامع بينهما التحسين» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ قيل في تفسير ﴿تَمَنَّىٰٓ﴾: قرأ، وقيل: تمنى على حقيقته فقوله تعالى: ﴿أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ الملقى محذوف، والمعروف من فعل الشيطان الوسوسة والتضليل، فالمعنى ألقى وسوسة في صدق ما قرأه النبيء وإن كان تمنى، ذَكَرَ أمنية كتمني النصر للدين، فكذلك يوسوس الشيطان فيما ذكره أنه لن يكون، والتمني هنا إظهار الرغبة في تعجيل ما يرجوه لا تمني المستحيل، ومنه قول محمد بن عبد الله النفس الزكية عليه السلام:

متى ترى للعدل نوراً وقد أسلمني ظلم إلى ظلم
أمنية طال عذابي بها كأنني فيها أخو حلم

فالوسواس في مثل هذا وسوسة الشيطان في صدق رؤيا رسول الله ﷺ ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ..﴾ الآية [الفتح:٢٧] وفي مثل ما يروى عنه ﷺ أنها ستفتح لـه كنوز كسرى وقيصر.

فأما رواية (الغرانيق) فأكتفي فيها بكلام الإمام القاسم بن محمد عليه السلام نقله الشرفي في (المصابيح) فقال: «وما أحسن قول إمامنا المنصور بالله القاسم بن محمد عليه السلام بن رسول الله ـ رحمة الله عليه ـ جواباً لمن سأله ما صحة ما في (الكشاف) فقال عليه السلام ما هذا لفظه: اعلم أن التمني مصدر والأمنية واحدة الأماني وهي اسم من التمني وهو مشترك، وكذلك الأمنية لأنها فرعه والمراد بهما في الآية الكريمة القراءة إذ هي أحد معانيها، قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ﴾ [البقرة:٧٨] أي إلا قراءة من دون فهم ما أراد الله به، وقال كعب بن مالك:

تمنى كتابَ الله أوّل ليله ... البيت

أي قرأ [في الأم اقرأ وهو غلط.تمت منه] وبذلك فسّر كثير غير جار الله ومن وافقه [وبعضهم] فسروه بالتمني المعروف الذي هو محبة النفس لشيء غير حاصل والصحيح الأول وسأبين لك وجهه في أثناء جوابي إن شاء الله تعالى.

ثم اختلفوا في تأويل ﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِيٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ فذهبت الحشوية وتابعهم جار الله إلى أن الشيطان لعنه الله ألقى على لسان رسول الله ﷺ وحاشاه عن ذلك بعد تلاوته في (سورة النجم) قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى﴾ [آية:١٩-٢٠] ما اخترصوه زوراً وتجارياً على الله تعالى من قولهم: تلك الغرانيق العلى..الخ، قالوا: كان ذلك في حال سهوٍ من رسول الله ﷺ واعتذر جار الله بقوله: وكان تمكين الشيطان محنة من الله ، عزَّ وجلَّ ـ وابتلاء زاد المنافقون به شكاً وظلمة والمؤمنون نوراً وإيقاناً [انتهى]

وذلك باطل؛ لأن الله سبحانه يقول: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩] وقال تعالى: ﴿لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت:٤٢] ويقول: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر:٤٢] ﴿[إِنَّهُ] لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل:٩٩-١٠٠].

فإذا كان كما يفترون وقد تمكن إبليس ـ لعنه الله ـ من صرف قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى﴾ [النجم:١٩-٢٠] عن إحكامها إلى أبطل الأباطيل لمّا جعله لعنه الله صدر مدح [بزعمهم لها] الأصنام على لسان نبيه سيد الأنام طهرهما [أي الآية والرسول ﷺ] الله عن ذلك، ومن أين لا سلطان له على المؤمنين وقد تمكن [بزعمهم] من رسول [الله] رأس المؤمنين وزعيمهم؟ ثم العجب من اعتذار جار الله حيث جعل كلام إبليس شبيهاً بسورة [من] القرآن حيث ازداد المنافقون شكاً وظلمة والمؤمنون نوراً وإيقاناً، ولا يعلم شيئاً كذلك إلا ما يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة:١٢٤-١٢٥].

وإذا كان كلامه [لعنه الله] نوراً للمؤمنين فقد صار صديقاً لهم لما منحهم منه من اليقين الحاصل بسببه، وإذا كان صديقاً فما معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر:٦] فليس هو عدواً إلا لحزبه خاصة، ولو في وقتٍ مّا فياللّه من أمة ضلت عن هداتها.

وذهبت أئمة أهل البيت ـ صلوات الله عليهم وعلى جدهم ـ إلى أن معنى الآية غير ذلك؛ لأن الأنبياء ـ صلوات الله عليهم ـ لا يجوز عليهم السهو والغلط في مثل ذلك وإلا لم نأمن وقوعه في سائر الشرائع، وقد وقفت على تفسير لبعضهم عليهم السلام مجملاً ولم أقف على تفسير حال رقمي هذا الجواب مفصلاً لأحد منهم..» الخ.

وذكر الشرفي في (جواب للقاضي عياض) يذكر فيه أن رواية الغرانيق باطلة، وأنه لم يروها أحد من (أهل الصحاح) ورد عليه ابن حجر في (حاشية الكشاف).

قلت: الرواية سواء كانت موضوعة بالنسبة إلى سندها أم كانت ضعيفة أم قوية عند من يقبل المرسل فهي باطلة لا تُلْجِئ إلى التأويل الذي ذكره (صاحب الكشاف) وإنما يحتاج إلى التأويل فيما كان ثابتاً، وفي القرآن كفاية لإبطال الرواية وغنية عن التأويل للتمكين المزعوم!

﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي يبطله ويذهب مثل: نسخت الشمس الظل، فإن كان التشكيك في القراءة فهو مثل التشكيك في صدق الوعيد بـ﴿سَقَرَ..﴾ ﴿...عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر:٣٠] وأحكام الآيات مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلاَئِكَةً﴾ الآية [المدثر:٣١] وغير ذلك، وإن كان بالتشكيك في الأمنية التي هي مثل النصر على كسرى وقيصر ومثل دخول ﴿الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ..﴾ الآية [الفتح:٢٧] فنسخ التشكيك بتكرر النصر بما فيه عبرة بحيث لا يستبعد نصر الله لرسوله، وإظهاره لدينه حتى ينتصر المسلمون ويدخلوا المسجد الحرام إن شاء الله آمنين، ويغنموا كنوز كسرى وقيصر.

قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ بجعلها واضحة لا سبيل للشيطان إلى التشكيك فيها، وهذا يشير إلى أن ما ألقى الشيطان فيه كان من المتشابه الذي يتبعه الذين في قلوبهم زيغ، وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ فجعل المتشابه وهو عليم بما يلقي الشيطان فيه وهو حكيم بذلك وفي كل شيء من أقواله وأفعاله سبحانه وتعالى.

﴿٥٣﴾ ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ مكن الشيطان من إلقاء وسوسته في الأمنية أو في القراءة ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ من وسواسه ﴿فِتْنَةً﴾ واختباراً ﴿لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي شك في صدق الرسول ﷺ فيظهر به أمرهم.

﴿وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ الذين لا تتأثر قلوبهم من سماع آيات الله تتلى عليهم وما فيها من الوعيد لا يفيدهم خوفاً، فيظهر منهم الجدال في آيات الله أو في صدق رسول الله في أمنيته لأن المتشابه يكون عندهم فرصة للجدال به ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ فبظلمهم لا يتحرجون من الشقاق لله ولرسوله بعيدين من الإيمان والطاعة بل يشاقون بالجدال في آيات الله والتشكيك في صدق القرآن وصدق الرسول ظلماً وانقياداً للشيطان.

﴿٥٤﴾ ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ ومكن

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً أَوۡ يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ فَٱلَّذِينَ

الشيطان من إلقاء وسواسة في قراءة الرسول أو أمنيته ثم نسخه وأحكم آياته ﴿لِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ الذين هداهم الله للنظر الصحيح فعلموا أن الرسول حق وأن القرآن حق، فقالوا: ﴿آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران:٧] وعلموا أن وسواس الشيطان باطل وأن كلام الله وكلام رسوله هو الحق وما قرأه الرسول وما تمناه كله حق من رب الرسول الذي آتاه القرآن وأرسله بالحق ﴿فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ﴾ بالقرآن أو بما قرأه وما تمناه ويرفضوا وسواس الشيطان ويدفعوه بالنظر الصحيح في دلائل صدق الرسول ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الحج:٥٤] ولذلك لا يرتابون عند عروض الأسباب التي يرتاب لأجلها الذين في قلوبهم مرض بل يزدادون إيماناً وتسليماً أن هدى الله هو الهدى.

وقوله تعالى: ﴿فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡ﴾ قال في (الصحاح): «والإخبات: الخشوع، يقال: أخبت لله وفيه خَبْتَة أي تواضع» انتهى.

وفي (مصابيح الشرفي): «أي تخشع وتواضع لذكر الله وتلين لا كالمشركين القاسية قلوبهم من ذكر الله» انتهى، وقوله تعالى: ﴿فَتُخۡبِتَ لَهُۥ﴾ أي للذي يؤمنون به.

﴿٥٥﴾ ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً أَوۡ يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَقِيمٍ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ هنا كافرون معينون تمردوا وقست قلوبهم فخذلوا وبعُدُوا عن اليقين بالقرآن، وهذا يرجح أن الضمائر للقرآن في الآية الماضية في قوله تعالى: ﴿أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ﴾ والمرية: الشك، والساعة البعث وما بعده، فهم يبعثون على ما ماتوا عليه.

ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ

فإذا شاهدوا أهوال القيامة أو إذا أتاهم عذاب يوم عقيم آمنوا حين لا ينفع الإيمان، فاليقين منهم يحصل بإتيان الساعة أو إتيان عذابهم، وليس في هذا تكرار؛ لأن الساعة أولها البعث، فإذا بعثوا فقد أتتهم الساعة، والعذاب عذاب جهنم وهو لا يقارن البعث.

قال الشرفي في (المصابيح): «وقال الحسين بن القاسم عليه السلام: العقيم: هو المعقوم الممنوع من رحمة الله الكريم» انتهى المراد. وهذا في حق أعداء الله يكون يوم الحساب والجزاء عقيماً عليهم لا يفيدهم خيراً قط، بل هو شر خالص دائم.

﴿٥٦-٥٧﴾ ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ * وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ﴾ يوم إذ تأتيهم الساعة ويأتيهم عذاب يوم عقيم، الملك ﴿لِّلَّهِ﴾ وحده لا ينازعه أحد فالأمر لله وحده والحكم له وحده ﴿يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ﴾ بين المؤمنين والمرتابين الكافرين ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ هذا بيان الحكم للمؤمنين والذين كفروا بيان الحكم عليهم فهو حكم يلزمه وقوع المحكوم به ماله من دافع؛ لأن الملك يومئذ لله وحده، أو هو نفس الحكم إثابة المؤمنين وتعذيب الكافرين وإهانتهم.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يحتمل: كفر النعمة لأن كفر الجحود قد دل عليه التكذيب بالآيات، ويحتمل: الجحود لأنه مقابل الذين آمنوا، ولا ينافيه ذكر التكذيب بالآيات لأن الجحود باليوم الآخر وبالرسول استلزم التكذيب بآيات الله، كأنه قيل: جحدوا لأنهم كذبوا بآياتنا، وهذا أوفق للسياق من أول السورة فهو أرجح.

ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلًا يَرۡضَوۡنَهُۥۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٞ ﴿٥٩﴾ ۞ ذَٰلِكَۖ وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ﴿٦٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ

﴿٥٨-٥٩﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ * لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلًا يَرۡضَوۡنَهُۥۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٞ﴾ هذا ترغيب في الهجرة لئلا يمنع المؤمن خوف القتل أو الموت، فالقتل والموت ليس نهاية أمرهم بل يستقبلون رزقاً حسناً من الله ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ لأنه كريم لا يصعب عليه الكثير من الرزق لأنه على كل شيء قدير وهو بكل شيء عليم، فلا يخفى عليه كيف يجعل الرزق حسناً.

﴿لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلًا يَرۡضَوۡنَهُۥ﴾ وهو الجنة أو إدخال الجنة، وكيف لا يرضونه وينسون به ما لحقهم في الدنيا من مشاق الهجرة والقتل أو الموت ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ﴾ فهو يعلم ما يرضيهم ﴿حَلِيمٞ﴾ فهو يغفر لهم ما سبق منهم فتابوا منه وما هو صغير لا ينقص من نعيمهم لأجله.

﴿٦٠﴾ ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ مر الكلام فيها وحاصله أنها تقال لأن ما بعدها كلام في موضوع خلاف موضوع ما قبلها، وقوله تعالى: ﴿وَمَنۡ عَاقَبَ ..﴾ إلى آخر الآية تشجيع على إعادة العقاب وتكراره كلما تكرر العدوان إلا أن السياق في الذين هاجروا فالعطف بقوله تعالى ﴿وَمَنۡ﴾ متعلق بالمهاجرين؛ لأن الكفار كانوا قد ظلموهم بمكة قبل الهجرة، وقوله تعالى: ﴿بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾ أي بمثل ما اعتدي عليه به.

فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ أَلَمۡ تَرَ

وقوله تعالى: ﴿عُوقِبَ﴾ مشاكلة أو سمي الكل من الابتداء وما تعقبه كله معاقبة؛ لأنه مداولة ومناوبة كالمعاقبة بين المسافرين يمشي أحدهم عقبته في المشي ويركب تارة وهكذا غيره، والأول أوضح فهو أرجح، فمن اعتدى عليه المشركون فعاقبهم بمثل عدوانهم ﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾ وعد مؤكد بـ(اللام) و(نون التوكيد) فهذا كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ [الشورى:٣٩] في أنه ترغيب في الانتصار، ولعل ذلك ليحافظ المؤمن على عزته، فأما العفو فهو أفضل لكن عند قوة المظلوم وضعف الظالم فالانتقام حينئذ سهل لكن العفو عند القدرة أفضل؛ ولذلك قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى:٤٠] فأما الطغاة الظالمين فلا يستحقون العفو عنهم؛ لكونهم مصرين على ظلمهم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ﴾ تعليل للنصر فهو للمؤمن عفو ومغفرة، كما قال نوح عليه السلام: ﴿ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [هود:٤١] لأن الله تعالى لو شاء منعه النصر لأجل زلاته كما أن الكبائر تمنع النصر.

﴿٦١﴾ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ النصر بقدرة الله الذي ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ فيقلب الحالتين وهو تصرف عظيم لا يقدر عليه غيره وفيه إشارة إلى تبديل حالة المؤمنين من الضعف إلى القوة وحالة أعدائهم من القوة إلى الضعف بواسطة نصر المؤمنين والله أعلم ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ﴾ فلا يخفى عليه حال المظلوم والظالم.

أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى

﴿٦٢﴾ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل بسبب أن ﴿ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾؛ لأن ذلك دليل عليه وعلى قدرة لا تماثلها قدرة مخلوق فهو الخالق الرازق الذي يستحق العبادة وأن ما يدعو المشركون من دون الله ﴿هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ لعجز شركائهم عن النفع والضر وكونهم عباداً مملوكين لله ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ لأنه قادر على كل شيء عليم بكل شيء ولذلك خالف بين الليل والنهار بمقادير محدودة محكمة على نظام دقيق في الشتاء والصيف.

﴿٦٣﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ وفي ذلك دلائل على قدرته وعلمه وإنعامه على عباده فهو ربهم المستحق للعبادة وحده لا شريك له، وفي قوله تعالى: ﴿فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ أي بالنبات دلالة على قدرته على إحياء الموتى كما أحيا الأرض بعد موتها، ففي هذه الآية رد على المشركين بتقرير أن الله هو القادر العالم الخالق الرازق وبتقرير إمكان البعث وأنه غير بعيد في قدرة الله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ﴾ لما يشاء يكونه من حيث لا يحتسب المخلوق ﴿خَبِيرٌ﴾ عليم بخبر المخلوقين من صلاح وفساد، فلا بد من البعث للجزاء.

﴿٦٤﴾ ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ فالملائكة له عباد وما في الأرض كله له، فأصنام المشركين

فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ

ومعبودوهم كلها عباد لله ليس لها شيء من الربوبية ولا الإلهية ولا الملك والله هو رب من في السموات ومن في الأرض فهو المستحق أن يعبدوه ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ عن عبادتهم ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ المستحق للحمد لإسباغه النعم على عباده، سواء شكروا أم كفروا.

﴿٦٥﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ من دلائل قدرة الله تعالى وعلمه وإنعامه على الناس ﴿أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من جبالها ونباتها وحيوانها لكل حيوان منفعة للإنسان وغير ذلك.

﴿وَٱلْفُلْكَ﴾ سخرها لنا ﴿تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ للرياح أن تسيرها ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ ولو أذن لهما لتصادمتا، وهكذا الأرض والنجوم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ حيث يسر لهم المعيشة في الأرض بتيسير حاجاتهم في الأرض وتيسير سفرهم في البحر وسلامتهم من وقوع السماء عليهم فكل ذلك رأفة ورحمة، والرأفة أبلغ من الرحمة، وهو تعالى منزه عن الرقة ولكنه يفعل بعباده ما هو رأفة ورحمة.

فائدة: قال بعض المفسرين: «وقد اختصت هذه الآيات بخصوصية لا توجد في جميع القرآن الكريم إلا فيها فهي ثمان آيات متوالية ختمت كل منها باسمين من أسماء الله الحسنى وراء لفظ الجلالة..» الخ.

إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن

قلت: وهي أواخر (سورة الحشر) لا تكاد تتوافق إلا في ﴿عَلِيمٌ﴾؛ لأنه في آية الحشر: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ﴾ [آية:٢٢] وإلا في اسمه تعالى ﴿الرحيم﴾ فأما اسم الجلالة فهو في كل آية هنا وهناك، فالأسماء الواضحة في هذه الآيات خمسة عشر وفي آخر (الحشر) خمسة عشر، تكون تسعة وعشرين والجلالة توفيها ثلاثين، وفي سائر القرآن أسماء مفرقة ففي أول (سورة الحديد) اختصت بخمسة و (سورة الصمد) اختصت باسمين، واختصت (آية الكرسي) بثلاثة، وأسماء الله تعالى في القرآن كله كثيرة، وقد جمعت منها في كتيب جملة مفسرة ـ والحمد لله.

﴿٦٦﴾ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ﴾ ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة:٢٨] هذا رد على المشركين في شركهم وفي تكذيبهم بالبعث استبعاداً لقدرة الله تعالى عليه مع أنه قد أحياهم أول مرة، وهو المتصرف فيهم كيف يشاء بحياة أو موت لا دافع لأمره من شركائهم ولا من غيرهم فله الخلق وله الأمر، والإنسان كثير الكفر، لأن الآيات البينات كثيرة، آيات الكون وآيات القرآن المعجز، وذلك كله لا يمنع أكثر الناس من الكفر.

﴿٦٧﴾ ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ ما أنت يا محمد بدعاً من الرسل ولا شريعتك بدعاً من الشرائع فقد جعلنا ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ﴾ ﴿مَنسَكًا﴾ أي عبادة وشريعة وكلها دين واحد تحت عنوان (الإسلام) ﴿هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ عاملون

جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٧٠﴾ وَيَعۡبُدُونَ مِن

به فاعمل بمنسكنا الذي جعلنا لك فلا تترك للكفار فرصة ليجادلوك في الأمر الذي جاءك من الله ﴿وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ غير مبال بهم ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ﴾ لا ينحرف عن الحق أبداً.

﴿٦٨﴾ ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ﴾ أي الكفار ﴿فَقُلِ﴾ لهم بدلاً من جدالهم ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ فهو يحاسبكم ويجازيكم.

﴿٦٩﴾ ﴿ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾ ﴿ٱللَّهُ يَحۡكُمُ﴾ بينك وبينهم أو الله يحكم ﴿بَيۡنَكُمۡ﴾ أيها الناس كلكم ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾ في الدنيا فيتجلى الحق لكم أجمعين **﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗا﴾** [آل عمران:٣٠].

﴿٧٠﴾ ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ قد علمت ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ فهو على كل شيء شهيد وهو يحكم بين عباده فيما قدموا لا ينسى شيئاً منه ولا يغلط وهذا معنى ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ﴾ مجاز، أي إنه محفوظ لا ينسى منه شيئاً ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ لأنه واجب له العلم بكل شيء فلا يتكلف علماً ولا حفظاً.

دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ

﴿٧١﴾ ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ ومع أن الله يحكم بين عباده يوم القيامة ومع أنه يعلم ما في السماء والأرض ولا ينسى شيئاً مع ذلك كله يعبد المشركون من دون الله ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا﴾ يحتجون به ﴿وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ يفيده نظر صحيح فيما يعبدون أو في الكون لم يعتمدوا على سمع ولا عقل، فشركهم ظلم عظيم؛ لأنهم يعلمون أن الله الذي خلقهم ورزقهم فتركوا موجب هذا بدون مستند فما لهم من نصير لا شركاؤهم تنصرهم ولا غيرها.

﴿٧٢﴾ ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ﴾ مع جهلهم واعتمادهم على هوى أنفسهم وعبادة شركائهم بدون حجة فهم في أشد الحاجة إلى سماع آيات الله لتنقذهم من شر جهلهم ومن شفا حفرة من النار، فإذا تتلى عليهم آيات القرآن الذي هو من الله آيات ﴿بَيِّنَـٰتٍ﴾ الدلالة يفهمها السامع الذي يريد أن يفهم وينتفع، إذا تتلى عليهم استكبروا وغضبوا حتى يعرف في وجوههم الغضب والعداوة للقارئ عليهم ﴿يَكَادُونَ﴾ من الغيظ ﴿يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا﴾ لأنهم يجدون الآيات الكريمة تبين بطلان شركهم ويخافون أن يتبعها الناس ويتركوا الشرك الذي يتعصبون له.

تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ

قال في (الصحاح): «السطوة: القهر بالبطش» انتهى، وعلى هذا فهم يكادون يبطشون ليقهروا القارئ حتى يسكت عن النكير عليهم والدعوة إلى الله.

﴿قُلْ﴾ يا رسول الله ﴿أَفَأُنَبِّئُكُم﴾ إذا كرهتم هذا القرآن وشق عليكم ما تسمعون منه أنبئكم ﴿بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ﴾ تصيرون إليه إن بقيتم على كفركم ﴿ٱلنَّارُ﴾ هو النار ﴿وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ لمن صار إليه، هي أي تلك النار.

﴿٧٣﴾ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ كثر في القرآن الحكيم نسبة الضرب إلى المثل، قال الراغب: «وضرب المثل هو من ضرب الدراهم» انتهى، فمعنى ﴿ضُرِبَ مَثَلٌ﴾ صنع وصيغ دلالة على إحكام المثل، قال الراغب: «وهو أي المثل ذكر شيء أثره يظهر في غيره» انتهى.

والحاصل: من تتبع الآيات القرآنية أن المثل يعم ما فيه دلالة أو عبرة وما يحتج به احتجاجاً صحيحاً أو غير صحيح أو تشبيه يحتج به ولعله الأصل في اسم المثل، ولأهمية المضروب مثلاً باعتبار أنه يكون حجة أو عبرة أو نحو ذلك فرّع تعالى عليه قوله: ﴿فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي الأصنام التي يدعوها أهل مكة ومن حولهم من العرب ﴿لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ﴾ ليتعاونوا على خلقه ويخلقوه، وهذا مثل واضح للمشركين وغيرهم فيه عبرة لهم لدلالته على ضعفهم عن الخلق على الإطلاق.

﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا﴾ مما جعل لهم المشركون من الطعام أو نحوه فأخذه الذباب على ضعفه ﴿لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ لا يحاولون إنقاذ ما يسلبه الذباب لعجزهم عن المحاولة فضلاً عن الإنقاذ، والمثل هذا مناسب لضعف الأصنام وحقارتها، لأن الناس في عادتهم يطلبون بثأر قتيل أو مال مسروق أو مغصوب.

فأما قوله تعالى: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ فهو يفسر المثل أنه بيان لضعف شركائهم فإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يطلبون إنقاذه من الذباب ضعف الطالب حينئذ وهو طالب الإنقاذ والمطلوب الذي هو الذباب ليسترجع منه ما سلب وهذا على فرض أنهم طلبوا الذباب ليستنقذوا ما سلبهم.

فقوله تعالى: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ﴾ متصل تمام الإتصال بقوله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ فهو من تمام جواب الشرط داخل في حيز فرض ما يكشف ضعف الأصنام، وقيل ضعف الطالب الذباب والمطلوب الصنم وهو قول ضعيف لأن الذباب لا يطلب الصنم حقيقة ولا حكماً إنما يطلب ما يأكله.

وقال الشرفي في (المصابيح): «عن الهادي عليه السلام قال [الله]: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ يريد تعالى ضعف وسخف فلم يعقل من طلب من غير الله تعالى طلبةً وأشرك مع الله غيره في العبادة، وقوله: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ فمعناه: ضعف المطلوب إليه والمرغوب إليه والمعبود دون الله على أن يعطي سائله أو يجازيَ بخير عابده أو يقضي له حاجة لعجزه عن ذلك وقِلتِهِ أن يكون كذلك» انتهى.

ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ

وما ذكره عليه السلام هو ما سيق لإفادته الكلام وهو موافق جواباً لما حكى الله عنهم بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ لأنهم كانوا يعبدونهم بدعائهم أي بطلبهم أن يقضوا لهم بعض حاجاتهم مثل شفاء مريض أو بركة في أنعام أو حفظ للمسافر أو غير ذلك، فمعنى دعائهم لهم طلبهم لبعض الحاجات منهم.

﴿٧٤﴾ ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ﴾ أي المشركون ما قدروا الله ﴿حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ حيث جعلوا أصنامهم العاجزة الذليلة شركاء لله القوي العزيز، قال الشرفي: «يعني ما عظموه حق تعظيمه ولا عرفوه حق معرفته» انتهى المراد.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام): «﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ معناه: ما عظموه حق عظمته ولا عرفوه حق معرفته ولا وصفوه حق وصفه» انتهى.

﴿٧٥﴾ ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ ﴿يَصْطَفِى﴾ يختار صفوة وخيرة ﴿مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ مثل جبريل عليه السلام اصطفاه الله رسولاً إلى محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ ولذلك اصطفى محمداً رسولاً صلى الله عليه وآله وسلم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ تعليل للاصطفاء للرسل يتضمن أن الله تعالى يسمع ما يقول الناس من الحق والباطل والخلاف بينهم والتنازع على أغراض الدنيا ومطالبها وكذلك يرى ما يفعلون من طلب الحاجات والخلاف عليها والحروب، فيصطفي رسلاً

وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾

ليعلموهم حسن التعامل بينهم ويوقفوهم على الحق وكذلك يردوهم عن طاعة الشيطان إلى طاعة ربهم وينذروهم ويبشروا المتقين محتجين عليهم بالمعجزات وما أنزل الله من آياته.

﴿٧٦﴾ ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ الضمير للرسل المصطفين من الملائكة ومن الناس فهو سبحانه وتعالى اصطفاهم؛ لأنه تعالى ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ ما بين أيديهم مستقبلهم من أعمالهم وشكرهم للنعمة وتبليغهم للرسالة وما يلاقون من مشقة في التبليغ أو تكذيب من الناس أو نحو ذلك، وما خلفهم ماضيهم الذي يدل المخلوقين على أنهم أهل للإصطفاء عند من يستعمل عقله ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ فهو أحكم الحاكمين وهو أعلم حيث يجعل رسالاته، فإليه يرد الحكم في اختيار الرسول وفي اختيار زمانه ومكانه وغير ذلك، وكذلك إليه ترجع أمور الخلائق كلهم فهو ربهم ومدبر أحوالهم؛ ولذلك فعليه يتوكل المتوكلون.

﴿٧٧﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟﴾ الراجح أنه كناية عن الصلاة مرادٌ فيه المعنى الحقيقي ﴿وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ أعم من الركوع والسجود؛ لأنه يعم كل طاعة خالصة لله، والراجح أن معناه اعبدوه وحده لا تشركوا به ﴿وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ﴾ الراجح: أنه هنا نفع المخلوقين.

قال الشرفي في (المصابيح): «ابن عباس الخير صلة الأرحام ومكارم الأخلاق» انتهى.

وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾

﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ افعلوا هذه الأربع لعلكم تفلحون رجاء أن تفلحوا في الآخرة بالنجاة من النار والفوز بالجنة، وفعل الخير ظاهره عموم الواجب والمندوب، فالأمر به دلالة على سبب التوفيق للفلاح كما في حديث: «أربع تحول الشقاء سعادة، وتقي مصارع السوء..» وحديث: «من يضمن لي واحدة أضمن له أربعاً..» أحد الأربع: يدخل جنة ربه.

﴿٧٨﴾ ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ قال في (لسان العرب): «وجاهد العدوّ مجاهدة وجهاداً قاتله ـ ثم قال ـ: الجهاد محاربة الأعداء وهو المبالغة واستفراغ ما في الوسع والطاقة من قول أو فعل» انتهى.

فالمراد غالبوا العدو؛ لأن الجهاد صيغة مفاعلة مثل القتال والضراب وسواء كان من الجُهد بضم الجيم بمعنى المغالبة في الجهد والمشقة مثل المغالبة في الصبر أم من الجَهد بالفتح بمعنى الطاقة بمعنى المغالبة في القدرة فهو يفيد قتال العدو.

وقوله تعالى: ﴿فِي ٱللَّهِ﴾ أي لنصره وإعلاء كلمته؛ لأن ﴿فِي﴾ تفيد السببية كقول الشاعر:

يلومونني في اشتراء النخيـ ـيل أهلي فكلهم ألوَمُ

أي بسبب اشتراء النخيل.

قال في (مغني اللبيب) في معاني (في): «والثالث التعليل نحو ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾ [يوسف:٣٢] ﴿لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ﴾ [النور:١٤] وفي الحديث: أن امرأة دخلت النار في هرة حبستها» انتهى.

فتحصل: أن ﴿جَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ﴾ قاتلوا في الله من أجل الله، فأما استعمال الجهاد في مدافعة هوى النفس فالراجح: أنه مجاز وإن صح المعنى لكن لا يقصر عليه الجهاد في الله؛ لأن القتال هو الحقيقة وهو مصرح به في آيات عديدة.

وقوله تعالى: ﴿حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ ما استطعتم؛ لأنه يحق لله بذل النفس لأنها لـه وبذل المال لأنه لـه من قبل أن يشتريهما من المؤمن، ثم قد اشتراهما من المؤمن بأن لـه الجنة وتلك تجارة رابحة توجب إبلاغ الطاقة فيه.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ هيأكم وأكملكم لهذا الشأن للجهاد في الله؛ فلهذا جعل الرسول منكم وأنزل القرآن فيكم؛ لأنكم تجاهدون في الله ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ الحرج: الضيق، والمراد الحرج الزائد على الدين من حيث هو تكليف واختبار ومنه الجهاد كما هو مصرح به في أول الآية، لكنه لم يكلفنا قتل أنفسنا إذا تبنا ليغفر لنا ووضع عنا الإصر الذي كلف به بنوا إسرائيل، كما قال تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف:١٥٧] وكذلك يسره لهم أي للمخاطبين بأن القرآن أنزله الله بلسانهم والرسول أرسله منهم، كما قال تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنكُمْ﴾ [البقرة:١٥١].

وأيضاً قال تعالى: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ فهو دين تركه لكم أبوكم إبراهيم لم نكلفكم اتباع دين لم نكلفه أباكم إبراهيم الخليل فلكم فيه أسوة حسنة فاجتمع لكم تيسير هذا الدين، والخطاب للأمة المسلمة التي دعا الله بها إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً..﴾ إلى قوله: ﴿..رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ﴾ [البقرة:١٢٨-١٢٩].

قال الشرفي في (المصابيح): «والحق الذي عليه أئمة أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم رضي الله عنهم أن المراد بهذه الآية أهل البيت عليهم السلام» انتهى.

قلت: لا بد من المجاز إما بجعل الخطاب خاصاً في قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وإما بجعل ﴿أَبِيكُمْ﴾ مجازاً عن المتبوع، لكن قوله تعالى: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾ يوافق قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر:٣٢] و(حديث الاصطفاء) فيه زيادة توضيح، ويناسبه الواقع حيث كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعلي عليه السلام وحمزة، وجعفر، وعبيدة، مفضلين في الجهاد، وفي شجاعتهم وبذلهم أنفسهم لله، كما لا يخفى على من عرف جهادهم فهم أحق بقوله تعالى: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾ فهذه قرينة ترجح أن أباكم هو أب حقيقي أبو النسب وذلك أبلغ في التأسي المعلق على أبوّته عليه السلام أبوة النسب.

وعلى هذا: فقوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ خاص بهم كما نزل قوله تعالى: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ﴾ فيهم وفي عدوهم، إلا أن جعفر كان في الحبشة يوم بدر، فلم يذكر في الرواية التي مر ذكرها.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا﴾ أي الله تعالى الذي أمركم بقوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ﴾ هو سماكم المسلمين من قبل أي من قبل نزول القرآن، ولعل ذلك في بشارة سبقت لأبيهم إبراهيم، أو أحد الأنبياء من بعده ـ والله أعلم.

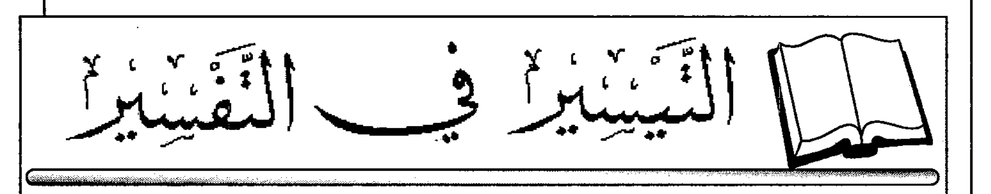
وقولــه تعــالى: ﴿وَفِي هَـٰذَا﴾ أي سمــاكم المســلمين في هــذا القــرآن أي المسلمين أنفسهم لله بعبادتهم لـه وحده لا شريك لـه إسلاماً صادقاً مقبولاً، فطبِّقـوا هـذا بالجهـاد في الله ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾ يـوم القيامـة ويشهد بما شاهده منكم من الجهاد في الله كما هو شهيد علـى مـن شـاهدهم في عصره كلهم، بدليل قوله تعالى: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء:٤١] وغيرهـا ﴿وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ بمـا شـاهدتم مـنهم مـن طاعـة أو معصية، وهذا لا ينافي شهادة الرسول عليهم، فإذا جاهدتم في الله كنتم الخيرة من الناس الموجودين فكنتم شهداء عليهم، فقولـه تعـالى: ﴿لِيَكُونَ﴾ تعليـل لقوله تعالى: ﴿وَجَـٰهِدُواْ﴾ أو للجهاد المأمور به.

وقوله تعالى: ﴿فَأَقِيمُواْ﴾ تفريع علـى قولـه تعـالى: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ ومـا بعدها إما باعتبار أنـه شـكر للنعمـة المـذكورة وإمـا للاسـتعانة علـى القيـام للجهاد ودعوة الناس إليـه كمـا يؤيـده قولـه تعـالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ﴾ إلى آخرها وإما للأمرين معاً.

وقولُه تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ﴾ أي اجعلـوه عاصـماً لكـم في اسـتعمال أسباب ذلك من التوكل عليه والإخلاص لـه وصـدق النيـة، وهـذا للقيـام بالواجب والسلامة من العصيان ومن غلبة العدو؛ ولذلك قـال تعـالى: ﴿هُوَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ فهـو متـولي أمـوركم ومحسـن رعـايتكم، فاعتصـموا بـه ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ لأنه العليم بكـل شـيء القـدير علـى كـل شـيء الكـريم الـرحيم فاعتصموا به لذلك ﴿وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ لأنه الغالب على أمـره فاعتصـموا بـه لينصـركم علـى عـدوكم، وهـذا الختـام لهـذه الآيـة المبـدوءة بقولـه تعـالى: ﴿وَجَـٰهِدُواْ﴾ يرجح أن ما بينهما راجع إلى الحث على الجهاد في الله.

وبالله التوفيق




التيسير في التفسير


سورة المؤمنون





سُورَةُ المُؤْمِنُونَ

ترتيبها ٢٣ — آياتها ١١٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ

بدء تفسير سورة ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾

وهي (مكية) كما يظهر من مواضيعها

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿قَدْ﴾ تؤكد تحقق الفلاح لهم، والفلاح الظفر بالخير الدائم، وقال في (الصحاح): «الفلاح: الفوز والنجاة والبقاء» انتهى المراد.

وفي (أساس البلاغة): «هو البقاء في الخير» انتهى، وهذا المعنى هو المناسب للآية، وقد يستعمل الفلاح في الظفر بالبغية، كقول الشاعر:

أفلح من كانت له قوصَرَّة ... يأكل منها كل يوم مرة

ويستعمل في الخلود كما قال الشاعر:

لو أن حياً مدرك الفلاح ... أدركه ملاعب الرماح

وتحقيق الفلاح للمؤمنين إما مجاز مثل: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ [الكهف:٩٩] وإما لأنهم صاروا بالإيمان والتقوى في أول الفلاح من حيث أن حياتهم الدنيا طيبة نافعة لهم بما يعملون فيها للآخرة، وطيبة بما يرزقون فيها من القناعة، وطيبة لسلامتها من مفاسد المعاصي، فعاشوا حياة طيبة وعاقبتهم في الآخرة الجنة، ويرجح أن المراد: أفلحوا في الآخرة، تعقيب صفاتهم بقوله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ..﴾ الآية؛ لأنها تبين فلاحهم.

﴿٢﴾ ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ﴾ هذه صفة من صفات المؤمنين لأن الخشوع الذي هو ذلة المصلي لله هو من إقامة الصلاة وإقامة الصلاة من صفات المؤمنين كما في آية التوبة.

﴿٣﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ﴾ وهذه الصفة الثانية، اللغو من الكلام: هو الذي ينبغي أن يترك من فضول الكلام كالسب والكذب والغيبة والنميمة، وإعراضهم عن اللغو نوعان: أحدهما: إعراضهم عن التكلم به عند عروض سبب له، والثاني: إعراضهم عنه إذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه لا يكافئون سفيهاً ولا يدخلون مع الخايض في الباطل بل يعرضون عنه بمرور[هم] عن صاحبه، قال تعالى في صفة الجنة: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ [مريم:٦٢].

﴿٤﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾ وهذه الصفة الثالثة، قال الشرفي في (المصابيح): «أي مؤدون للتزكية التي هي فعل المزكي؛ لأن الزكاة اسم مشترك بين ما يخرج من النصاب وبين فعل المزكي وهو المراد هنا.

قال الشرفي: وقيل ﴿فَٰعِلُونَ﴾ للتزكية، وهو ما يكونون به زاكين عند الله من أفعال الخير عند الله» انتهى المراد.

ويرجح هذا القول: أن الزكاة هنا لم تقرن بالصلاة كما قرن إيتاء المال، بل فصل بينهما بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ وأيضاً أسند إلى الزكاة هنا ﴿فَٰعِلُونَ﴾ وفي غيره ﴿يُؤْتُونَ﴾ [الأعراف:١٥٦] وأيضاً السورة (مكية) قالوا: ولم تشرع الزكاة من الأنصباء إلا في المدينة، ولذلك يترجح: أن هذه الآية كقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ [الشمس:٩] وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ [الأعلى:١٤].

حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ

وعلى هذا: فتعم إنفاق المال وغيره من مكارم الأخلاق، ويؤكد ذلك أن بقية الآيات في هذا السياق لا تفيد هذا المعنى وهو من صفات المؤمنين لأن أول الصفات المذكورة وآخرها في الصلاة وما بينهما هذه الآية والآيات في حفظ الفروج ورعاية الأمانة والعهد، وذلك مما يؤكد أن معناه: تزكية النفس، الذي أفادت الآيتان في (سورة الشمس) و(سورة الأعلى) أنه سبب الفلاح، وهذه الآية واقعة في سياق: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ وسياق صفاتهم، وهذه الزكاة هي غير الطهارة، بدليل قوله تعالى: ﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ﴾ [التوبة:١٠٣] لأن العطف يقتضي التغاير، فهي الطيب والصلاح المعبر عنه بكرم الأخلاق فهو معنى إيجابي.

﴿٥-٧﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ هذه من صفات المؤمنين أنهم حافظون حفظاً مستمراً لفروجهم كما تدل عليه الجملة الاسمية ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾ وحقيقة الزوجة في اللغة: ما مُلّكها الرجل لتكون قرينة حياته تمليك العلاقة المعبر عنها بالزواج لا ملك المال؛ ولذلك جعل لهما اسم النوعين المتقابلين من المخلوقات، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات:٤٩] وقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى﴾ [النجم:٤٥] وهذا الذي قد ثبت في اللغة ولم يثبت غيره، وكلام الزمخشري في تسمية المتعة زواجاً عند تفسيره لهذه الآية غير مسلم، ولعله ذهب إلى أن اسمه (نكاح) أما اسم (الزواج) فلا نسلم لـه إن كان عناه.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ﴾ أي الجواري المملوكات إذا ملك الرجل الجارية كلها حلت له كما تحل له الزوجة، وفي ذلك فائدتان:

الأولى: إغناؤها وتحصينها من الحرام.

الثانية: أن ذلك قد يؤديها إلى الحرية إذا علقت من سيدها وكان لها منه ولد، فإذا مات سيدها صارت حرة على الخلاف بين أهل الفقه في اشتراط بقاء الولد بعد أبيه وعدم الاشتراط.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ تفسير للاستثناء أي غير ملومين في مجامعتهم ونحوها لا الزوج ولا الزوجة، ومن فوائد هذا التفسير: ألا يخرج الكلام مخرج الحث على ترك حفظ الفروج على الأزواج، لو قيل: إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم لا يحفظون فروجهم، مع أن الإكثار المؤدي إلى الضرر مذموم والاقتصاد ممدوح لحفظ الصحة وحفظ القوة للحاجة إلى القوة في الجهاد وغيره وفي الأعمال النافعة.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ أي غير ذلك المستثنى وهو يعم الزنى واللواط والاستمتاع في غير الفرج الحلال ونكاح اليد والمتعة عندنا؛ لأنها مبنية على عقد إجارة وليس من الزواج عندنا، وهو عند الإمامية من الزواج.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ﴾ أي طلب ﴿وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «المتناهون في العدوان، وقال (صاحب الصحاح): والعدوان: الظلم الصراح، وقد عدى عليه وتعدى عليه واعتدى كله بمعنى» انتهى، وقال قبل هذا: «والعداء ـ أيضاً ـ تجاوز الحد والظلم يقال: عدا عليه عدواً..» إلى قوله: «..ومنه قوله تعالى: ﴿فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا﴾ [الأنعام:١٠٨]» انتهى.

وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا

ومنه قول الله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا﴾ [يونس:٩٠] وقوله تعالى: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ﴾ [البقرة:١٧٣] فظهر: أن العدو تجاوز الحد ظلماً، وفي الآية تأكيد حيث أفاد التحذير من الابتغاء الذي هو مقدمة المعصية.

﴿٨﴾ ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ رعاية العهد والأمانة المحافظة على الوفاء بالعهد واجتناب النكث للعهد، والمحافظة على ترك الخيانة في الأمانة، وهذه من صفات المؤمنين.

﴿٩﴾ ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ وهذه من صفات المؤمنين يحافظون على صلواتهم كلها في أوقاتها، فمن لا يحافظ على كل الصلوات المفروضة فليس منهم، والراجح: أن الذي يتلهى في الليل ويؤخر النوم حتى يسبب ذلك لفوت صلاة الفجر وهو يعلم أن ذلك يؤدي إلى فوت صلاة الفجر وقد جربه مراراً ثم لا ينتهي عن تأخير النوم ولا يحاول سبباً للقيام من النوم في وقت صلاة الفجر فليس من الذين هم على صلواتهم يحافظون؛ لأن الشمس تطلع وهو لم يصلِّ الفجر، وأعظم منه من يضيع المغرب والعشاء في لهوه حتى يصبح أو يتلهى أكثر الليل ثم ينام وهو لم يصلِّ المغرب والعشاء فيرقد إلى الصباح عمداً؛ لأنه مكلف في حال يقضته بالمحافظة على الصلاة ولم يرخص له في التحيل لترك الصلاة بالنوم.

﴿١٠-١١﴾ ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿أُولَٰئِكَ﴾ المؤمنون المتصفون بالصفات المذكورة ﴿هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ لأنهم

أخذوا ما أعد لغيرهم لو آمنوا واتقوا، فلم يدخلوا الجنة لأنهم لم يكونوا لها أهلاً، فأخذ المؤمنون المتقون ما كان لمن فاتته الجنة لسوء اختياره، أو هو مجاز لأنهم استحقوها كما يستحق الميراث ـ والله أعلم.

قال في (الكشاف): «ثم ترجم (الوارثين) بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ﴾ فجاء بفخامة وجزالة لإرثهم لا تخفى على الناظر» انتهى، ولعله يعني ما في الأولى من الحصر والإبهام وفي الثانية من التفصيل والبيان لما أبهم.

قال (صاحب الصحاح): «الفردوس: البستان، قال الفراء: هو عربي والفردوس حديقة في الجنة، ثم قال: وكرْم مُفَرْدَس أي مُعَرَّش» انتهى، وقال الشرقي في (المصابيح): «وفي (البرهان) الفردوس حضائر العنب» انتهى المراد، وفي (أساس البلاغة): «هو البستان الواسع الحسن» انتهى، ولعله أخذ اعتبار الحُسْن من قولهم: كرم مفردس.

وفي (لسان العرب): «الفردوس: البستان، قال الفراء: هو عربي، قال ابن سيده: الفردوس: الوادي الخصيب عند العرب كالبستان، ثم قال: والفردوس الروضة عن السيرافي: والفردوس خضرة الأعناب، ثم قال: والعرب تسمي الموضع الذي فيه كرْم فردوساً، وقال أهل اللغة: الفردوس مذكّر، وإنما أنّث في قوله تعالى: ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ لأنه عنى به الجنة» انتهى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً﴾ [الكهف:١٠٧] يقوي أن الفردوس: العنب وغيره، لأن الجنات فيها من كل فاكهة زوجان.

ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ

﴿١٢﴾ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ آية عظيمة تدل على قدرته على إعادة المؤمنين وإعطائهم الفردوس؛ لأن الإنسان محكم الصنعة فيه أعضاء محكمة الصنع لما يراد بها كالسمع والبصر والفؤاد واليدين والرجلين واللسان والشفتين، ومن عجائب صنعه قدرة الكلام والنطق بالحروف، والسلالة: هي المني فكيف تحولت إنساناً سميعاً بصيراً إن في ذلك لدليلاً على الخالق القدير على كل شيء العليم بكل شيء، وقوله تعالى: ﴿مِّن طِينٍ﴾ يترجح في معناه: أن السلالة أصلها الغذاء والغذاء أصله النبات أو ما أصله النبات والنبات أصله من طين تمتصه أصوله مع الماء.

﴿١٣﴾ ﴿ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ وهذه آية عظمى تدل على الخالق المدبر حيث دبر للنطفة وهي المني، قراراً تستقر فيه مكيناً ثابتاً يتحمل وجود النطفة فيه وكبرها حتى يكمل خلق الإنسان ولا يضعف عنه.

﴿١٤﴾ ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ﴾ تصرف الخالق في النطفة وهي في سبيل أن تكون عظاماً فحولها علقة دماً جامداً، ثم حول العلقة مضغة لحماً كقطعة لحم، ثم جعل المضغة عظاماً مصورة صوراً مختلفة محكمة الصنع.

فالجمجمة فيها فتحات للسمع والبصر ومكان لمواصلة العنق، وكذلك العنق فيه مفصل للإلتفات، وهو عظام متواصلة متصلة بسلسلة الظهر

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ

وفيها مفصل للإلتفات، وتنتهي إلى الحوض المصنوع صنعة عجيبة وفيها محل لمفصل إحدى الفخذين من جهة ومحل لمفصل الأخرى من جهة، وطريق بينهما لمخرج البول والغائط، ثم عظام الرِّجلين واليدين وفيها مفاصل تدل على الخالق المدبر، فلولا مفاصل الرجلين ما استطاع الإنسان القعود والقيام، ولولا مفاصل اليدين ما استطاع الأكل والشرب بهما.

وقوله تعالى: ﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾ في هذا اللحم مع تجميله للإنسان آيات، في شبكة العروق المقسمة إلى ضاربة يحركها ضخ الدم وساكنة وفي الأعصاب من الرأس إلى الظهر، ثم الرجلين واليدين، وفي كل عضو آية تدل على الخالق المدبر الحكيم، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ بقلبٍ وسمع وبصر ورئتين ومعدة وأمعاء منفوخ فيه الروح ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾ فجلَّ جلاله وعظم شأنه ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ لإتقانه صنعه وإبقاء مصنوعه لأجله.

﴿١٥-١٦﴾ ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ فالخالق تصرف في الإنسان من أول وجوده إلى نهايته وأحياه وأماته لأجله، ثم يعيده يوم القيامة كما بدأه في هذه الدنيا، فالنشأة دليل على قدرته على الإعادة، وأنه غير بعيد في قدرته البعث كما بدأ خلقه من طين، وبذلك يتضح فلاح المؤمنين الذين أعدوا للآخرة أسباب الفلاح.

﴿١٧﴾ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾ ﴿سَبْعَ طَرَآئِقَ﴾ المتبادر منه سبع سموات كما صرح بها في آيات من القرآن، فأما تسميتها طرائق، فيحتمل: أنها من أجل أنها متطابقة، بعضها فوق بعض فكانت كل واحدة طريقة.

لَقَـٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّـٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَـٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ

قال الراغب: «وجمع طريقة: طرائق، قال: ﴿كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا﴾ [الجن:١١] إشارة إلى اختلافهم في درجاتهم، كقوله: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [آل عمران:١٦٣] وأطباق السماء يقال لها طرائق، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ﴾ انتهى.

وفي (لسان العرب): «وكل ما وضع بعضه على بعض فقد طورق ـ ثم قال ـ : وقوله عزَّ وجل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ﴾ قال الزجاج: أراد السموات السبع، وإنما سميت بذلك لتراكبها، ثم قال: وقال الفرّاء: ﴿سَبْعَ طَرَآئِقَ﴾ يعني: السموات السبع كل سماء طريقة» انتهى، وفي (مصابيح الشرفي) نحو هذا.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ كقوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ﴾ [يس:٨١] فلا يخفى عليه كيف يخلق في إعادة الخلق كما لم يخفَ عليه الخلق في المرة الأولى، ولا تجوز عليه الغفلة لأنها نسيان وفقدان علم، وهو سبحانه واجب له العلم.

﴿١٨﴾ ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّـٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَـٰدِرُونَ﴾ في هذا دلالة على قدرته تعالى وعلمه وعلى إنعامه على عباده، والماء من أعظم النعم بل هو ضروري للحياة، وقوله تعالى: ﴿بِقَدَرٍ﴾ أي بتحديد لنزوله على قدر الحاجة بغير ضرر فهو ينزل كأنه ينزل من غربال متتابعاً حتى يحصل الكفاية، ولو أنزله دفعة لهدم البيوت والأموال.

وقوله تعالى: ﴿مَآءَۢ﴾ أي ماء معروفاً أنه عذب يروي الناس والأنعام والشجر والزرع وقوله تعالى: ﴿فَأَسۡكَنَّٰهُ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ جعله باقياً في الأرض في الأنهار والآبار يجري إليها من مجارٍ في بطن الأرض.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابِۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ تنبيه على النعمة في إسكانه في الأرض أن ذلك لأنه لم يرد ذهابه ولو شاء لذهب به بأي سبب أو بغير سبب، وأسباب ذهابه متعددة مثل تكثير مجاريه بحيث ينتشر في بطن الأرض، ومثل سد المجاري بحيث يحتبس في بطن الأرض حتى تبلعه، والله على كل شيء قدير، ومن شأن الأرض أن تبلع الماء ويذهب في بطنها متفرقاً لكن الله أراد نفع الإنسان بإسكانه فيه فهيأ السبب لبقائه نعمة للإنسان.

﴿١٩﴾ ﴿فَأَنشَأۡنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ لَّكُمۡ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٞ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾ ﴿فَأَنشَأۡنَا لَكُم بِهِۦ﴾ أي بالماء الذي أسكناه في الأرض ﴿جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ﴾ لولا الماء ما وجدت، وجمع الأعناب لتعدد أنواع العنب، والنخيل يكون أنواعاً من الرطب والتمر.

وقوله تعالى: ﴿لَّكُمۡ فِيهَا﴾ أي في الجنات ﴿فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٞ﴾ من أنواع العنب والزبيب وأنواع الرطب والتمر، ويحتمل فيها فواكه أخر، وهي تدل على قدرته تعالى وعلمه وعلى إنعامه على عباده وهم يغفلون عن هذه الآيات من حيث هي آيات، ومن حيث هي نعم.

﴿وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾ وهذه آية عظيمة؛ لأن ذلك تابع للتناسب بينها وبين الإنسان بحيث صلحت له واستلذها وتغذى بها، مع أنها مخلوقة من الماء والتراب ومع أنها أنواع كثيرة، فالذي خلق أعضاء الإنسان أدوات الأكل،

لِّلْأَكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ

وأدوات الهضم، وأدوات التغذية، وجعله مُعَدّاً لأكل ما ينتفع به من الفواكه والتغذي به من جهة.

وجعل الفواكه معدّة للإنسان صالحة لأن يأكلها صالحة لأن يلتذ بها وتنهضم له وتغذّيه من الجهة الأخرى، إن في ذلك لدليلاً على الخالق الرازق القادر العالم المدبر لشأن الإنسان، وذلك دليل على أنه قادر على البعث.

﴿٢٠﴾ ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْأَكِلِينَ﴾ ﴿وَشَجَرَةً﴾ عطف على جنات، أي وأنشأنا لكم به شجرة ﴿تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ﴾ أي تخرج من الجبل الذي كلم الله موسى من جانبه فهي شجرة مباركة وهي شجرة الزيتون ﴿تَنبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾ الذي هو (زيت الزيتون) يعتصر من الزيتون الذي هو ثمر هذه الشجرة، والإنسان يحتاج إلى الدهن لجلده وشعره، وفي (تذكرة داود) في زيت الزيتون: «والإدّهان به كل يوم يمنع الشيب، ويصلح الشَعر ويمنع سقوطه، ويقطع العفن، ويشدُّ الأعضاء» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَصِبْغٍ لِّلْأَكِلِينَ﴾ يصبغ الآكل لقمته من هذا الزيت فيكون إداماً جيّداً مشهيّاً للأكل، وفيه منافع كثيرة قال في كتاب (الغذاء لا الدواء) في زيت الزيتون: «فهذا الزيت يمتاز عن غيره من الأدهان والزيوت بصفات كثيرة تعود على الإنسان بالصحة والعافية فهو أسهل هضماً من جميع الزيوت الأخرى..إلى قوله.. فإن امتصاصه وهضمه أسهل على الجسم من امتصاص وهضم أي مادة أخرى..الخ، وذكر من فوائده زيادة القدرة على التفكير والذكاء وأنه من خير الأدوية الكبدية» انتهى.

(٢١) ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ﴿لَعِبْرَةً﴾ دلالة تعرفون بها سعة نعم الله عليكم وفضله وقدرته وعلمه، والأنعام: الإبل هنا، مع أن في البقر والغنم نعماً كثيرة ﴿نسْقِيكُمْ مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ وذلك اللبن النافع الخالص الذي لم يؤثر فيه شيء مما في بطونها من الفرث والدم الجاري في جدران المعدة والأمعاء ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ﴾ وهي مفصلة في (سورة النحل) فارجع إليها.

﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ فهي نعمة عظمى على الإنسان حيث أحل له أكلها وهي حيوان مثله تحب الحياة وتنفر من أسباب الموت ولكنه سبحانه سيجعل لها في الآخرة عوضاً مما لحقها في الدنيا من مشاق تسخيرها للإنسان.

(٢٢) ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ وفي هذا تذكير للإنسان بنعمة الله عليه ودعوة إلى شكر نعمة الله بعبادته وحده والإيمان برسوله وكتابه، وفيه دلالة على حسن تدبيره لحاجات الإنسان وعلى قدرة الله تعالى على ما يشاء وعلى علمه بكل شيء، فقد صنع الإبل صنعة تناسب تسخيرها لنفع الإنسان فالجمل يبرك حتى يحمله الإنسان أثقاله ويركب عليه ثم يقوم الجمل ويسافر المسافة البعيدة بحمله وراكبه.

وكذلك ﴿ٱلْفُلْكِ﴾ التي هي السفائن في البحر، يحمل عليها الإنسان وتسافر به المسافة البعيدة أياماً كثيرة تسوقها الرياح وهي من الخشب المؤلف بالمسامير، والله صانع الخشب وصانع الحديد ومجري الرياح ﴿إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ﴾ [الشورى:٣٣] وهو سبحانه علم الإنسان صنعتها لتصلح لذلك، فهذه كلها آية تدل على قدرة الله تعالى على كل شيء وعلمه بكل شيء، وأنه قادر على البعث بعد الموت وأن وعده الحق.

أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ

﴿٢٣﴾ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ هذا ابتداء ذكر آيات وعبر للمكذبين الآخرين ليحذروا أن يصيبهم مثل ما أصاب المكذبين الأولين، وقوله: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ أي غير الله ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ عذاب الله وقد أشركتم به بغير حق ولا حجة من الله إنما هو هوى أنفسكم دعاكم إلى الظلم العظيم.

﴿٢٤﴾ ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ﴿مِن قَوْمِهِۦ﴾ أي من قوم نوح ﴿مَا هَٰذَآ﴾ أي ما نوح ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ ليس ملكاً، بناءً منهم على أن لا يصلح أن يرسل الله رسولاً من البشر بدون حجة لهم في ذلك ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ أي لو شاء الإرسال إلينا لأنزل ملائكة، وهذه دعوى بلا حجة.

وقولهم: ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي ما سمعنا بإرسال بشر في آبائنا الأولين، ولعل سبب ذلك أن آباءهم الأولين لم يشركوا وكانوا على دين آدم، أما آدم فكان موجوداً وعنده الهدى من الله فيعلم أولاده ويربيهم عليه، لم يكن بشكل رسول بعث إلى قومه لينهاهم عن الشرك ويدعوهم إلى الله، فمضى آدم والأولون من ذريته على التوحيد؛ فلذلك لم يسمع قوم نوح برسول بعث إلى قومه، وهذا على فرض أن نوحاً أول الرسل بعد آدم - والله أعلم.

حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى

أما (صاحب الكشاف) فقد جوز أنهم تعمدوا الكذب، وهذا إنما يستقيم لو كان الخبر بالرسول السابق خفياً يمكن جحده تغريراً على من لم يسمع؛ لأنه إذا كان معلوماً عندهم كلهم فلا فائدة في نفيه فيما بينهم، كما يفيده سياق الكلام أنهم يقول ذلك بعضهم لبعض.

﴿٢٥﴾ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ ﴿إِنْ﴾ أي ما ﴿هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ﴾ مجنون أو دخلت ﴿بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ فحولته عن حالته الأصلية فادعى أن الله أرسله إليكم ولم يرسله مبالغة منهم في الكفر، وقولهم: ﴿فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي لا تعجلوا على تصديقه وانتظروا حتى يذهب عنه الجنون ويرجع إلى حالته الأصلية، ومثل هذا لا ينطلي على من يريد الهدى لأنه يميز بين السليم من الجنون والمجنون بسهولة، وأوضح رد عليهم أنه جاء بالحق وغاية الجنون خلاف ذلك.

﴿٢٦﴾ ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ ﴿ٱنصُرْنِي﴾ على قومي بسبب تكذيبهم لي أي أهلكهم، وهذا إجمال لما فصل الله في (سورة نوح).

﴿٢٧﴾ ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ﴾ إلى نوح إجابة لدعائه ﴿أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ﴾ أي السفينة لتنجو فيها أنت

ٱلۡفُلۡكِ فَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلۡنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ وَإِن كُنَّا

ومن معك من الغرق ﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾ برعايتنا لك ﴿وَوَحۡيِنَا﴾ تعليمنا لك لتصنعها صالحة، مثلاً كيف تأخذ ألواحاً من الشجر المناسب للغرض المطلوب ، وكيف تبنيها من الألواح وتضم بعضها إلى بعض بالمسامير، وتجعل اتساعها بقدر الحاجة، وتجعل ارتفاعها بقدر الحاجة، وتجعلها طبقات لتتسع للحيوان من كل زوجين اثنين..إلى غير ذلك من التعليم.

﴿فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ بعد إكمال صنعتها ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ بالماء ليكون علامة لمجيء أمر الله الذي هو إنزال العذاب بالغرق ﴿فَٱسۡلُكۡ﴾ فأدخل ﴿فِيهَا﴾ أي في السفينة ﴿مِن كُلٍّ زَوۡجَيۡنِ﴾ نوعين ذكراً وأنثى ﴿ٱثۡنَيۡنِ﴾ فردين مثل زوجين من الإبل وزوجين من البقر وزوجين من الضأن وهكذا.

وقوله تعالى: ﴿وَأَهۡلَكَ﴾ أي واسلك في السفينة أهلك ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ﴾ الحكم من الله بغرقه وهم الذين ظلموا ﴿مِنۡهُمۡ وَلَا تُخَٰطِبۡنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ لا تطالب بنجاة أحد منهم أو تسأل لماذا عذبته ﴿إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾ فلا تنازع في غرقهم؛ لأنه أمر محتوم.

﴿٢٨﴾ ﴿فَإِذَا ٱسۡتَوَيۡتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلۡفُلۡكِ فَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ﴿فَإِذَا ٱسۡتَوَيۡتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ﴾ ركبتم على حال الاستواء مثلاً قاعدين غير مائلين إلى جهة ولا منكوسين فذلك علامة أن قد هلك قومك ونجوت أنت ومن معك ﴿فَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فاشكر نعمة الله عليكم بحمده.

لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن

﴿٢٩﴾ ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ ﴿وَقُل﴾ عطف على: ﴿فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ﴿رَّبِّ أَنزِلْنِي﴾ من السفينة ﴿مُنزَلًا مُّبَارَكًا﴾ فيه خير كثير يحيى فيه الدين ويتيسر فيه الرزق وتصلح الحالة ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ المنزل للأضياف الذي يعطيهم النزل أي الضيافة ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ لسعة فضلك وأنت الأكرم الذي لا ينقصه البذل والجود، فهو عند نزوله من السفينة وخروجه إلى الأرض يكون كالضيف النازل، لكنه نازل هو ومن معه يرجون من ربهم الرزق وتيسير أمرهم؛ وهو خير المنزلين لأنه خير الرازقين، ولعل نوحاً أمر بهذا الدعاء ليرتبط به أصحابه وبنوه عند خروجهم من السفينة، ويعتقدوا أن الله أحسن نزلهم بسبب دعاء نبيئهم صلى الله عليه وسلم.

﴿٣٠﴾ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ ﴿لَآيَٰتٍ﴾ دلائل تدل على قدرة الله تعالى وعلمه، وأنه لا يهمل عباده بل يحسن تدبير أمورهم بإرسال الرسل وإظهار دلائل صدقهم ونصرهم ونصر من معهم وإهلاك أعدائهم، وفي السفينة نفسها آيات تدل على قدرة الله تعالى وعلمه وفضله ونعمته حيث نجى فيها رسوله والمؤمنين به ويسر نزولها على جبل مستوية ثابتة في مكان نزولها حتى يخرجوا منها آمنين وما معهم فيها من الأنعام وغيرها.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ أي وإن كنا مبتلين نبتلي عبادنا بما يميز بينهم فيظهر بالابتلاء المؤمن وغيره والثابت على الإيمان وغيره لتجزى كل نفس بما تسعى، ابتلى قوم نوح بنبيئهم فما آمن معه إلا قليل، وابتلاه بقومه فصبر على البلوى حتى جاء الفرج له ولمن صبر معه بنجاتهم وهلاك عدوهم.

قَوۡمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَتۡرَفۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يَأۡكُلُ مِمَّا تَأۡكُلُونَ مِنۡهُ وَيَشۡرَبُ مِمَّا تَشۡرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنۡ

﴿٣١﴾ ﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ﴾ ﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ ثم أنشأ الله من بعد قوم نوح ﴿قَرۡنًا ءَاخَرِينَ﴾ بعد زمان تناسل فيه ذرية بعدهم حتى كثروا.

قال الراغب: «والقَرن: القوم المقترنون في زمن واحد» وهذا السياق يوضح فيه تتابع القرون وتتابع الرسل على طريقة واحدة في دعوتهم إلى عبادة الله وحده، وترك الشرك، فكفى ذكر القرن وذكر الإرسال إليهم وذكر تكذيبهم له وإهلاكهم وأنشاء قرن بعدهم وإرسال رسول وهكذا كما أفاده قوله تعالى فيما يأتي قريباً: ﴿كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةٗ رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُۖ فَأَتۡبَعۡنَا بَعۡضَهُم بَعۡضٗا﴾ فلهذا لم يذكر اسم هذا القرن، ولا اسم رسوله، وقد قيل: إنهم عاد قوم هود ـ والله أعلم.

﴿٣٢﴾ ﴿فَأَرۡسَلۡنَا فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ ﴿فِيهِمۡ﴾ أي في القرن المذكور ﴿رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ﴾ يعرفونه فلا ينكرونه ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ إلى آخر الآية تفسير لإرسال الرسول، فقد أمر الرسول أن يقول لهم: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي أفلا تتقون عذاب الله وأنتم على الشرك فتتوبوا إلى الله وتعبدوه وحده؟.

﴿٣٣﴾ ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَتۡرَفۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يَأۡكُلُ مِمَّا تَأۡكُلُونَ مِنۡهُ وَيَشۡرَبُ مِمَّا تَشۡرَبُونَ﴾ ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِ﴾ أكابر القوم الذين توحد رأيهم ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بالرسول وآياته ﴿وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ فلم يخافوا الله بل تجرأوا على تكذيب الرسول وجادلوا في رسالته، ولقاء الآخرة: اللقاء في الآخرة أي لقاء الله في يوم الحساب.

أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ

﴿وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي وسعنا لهم في الرزق وشهواتهم فجعلوا النعمة سبباً للكفر؛ لأنهم بسببها استكبروا عن اتباع الرسول واستحقروه حيث لم يكن معدوداً من عظمائهم الذين يعظمونهم لأجل كثرة مالِهم، فأنِفوا من اتباعه وقالوا: ﴿مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ فلا يصح أن يكون رسولاً من الله إليكم، وكأنهم نسوا أن الله أرسل نوحاً وهو بشر مثل قومه فقالوا ما هذا إلا بشر مثلكم في أنه بشر وحققوا أنه بشر مثلهم بقولهم: ﴿يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ وهو لم يدع أنه من جنس آخر غير البشر وإنما ادعى أن الله أرسله إليهم وجاءهم بالبينة.

﴿٣٤﴾ ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ ﴿أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ﴾ فتركتم الشرك من أجله ﴿إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ تخسرون أصنامكم ودينكم.

﴿٣٥﴾ ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ هذا منهم جدال في صدقه في دعواه الرسالة ينكرون عليه الوعد بالبعث بعد أن صاروا تراباً وعظاماً، ويجعلون هذا الوعد حجة لهم على أنه غير رسول، وليست حجة صحيحة إنما هي مجرد استبعاد والاستبعاد لا تبطل به حجة الرسول الدالة على صدقه أعني المعجزة التي جعلها الله دليلاً على صدقه.

﴿٣٦﴾ ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ ﴿هَيْهَاتَ﴾ أرادوا بَعُدَ ما توعدون وكرروها تأكيداً، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: ما أبعَدَ ذلك» انتهى. وهذا من جدالهم في الرسالة.

هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ

﴿٣٧﴾ ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ أنكروا الوعد بالبعث ثم استبعدوه ثم جزموا بأنه غير واقع، كل ذلك جادلوا به تكذيباً للرسول ونفياً للرسالة، وقولهم: ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أي الجنس يموت بعضه ويحيى بعض آخر، وهذا جهل منهم بالله أحكم الحاكمين، المنزه عن العبث وعن الإهمال جعلوه يحيي أمة ثم يميتها، ثم يحيي أخرى ثم يميتها، وهكذا من غير فائدة أو حكمة في الإماتة وتعاقب الأمم في الحياة والموت، من غير نظر إلى أنه يكون فيهم الظالم والمظلوم، والمحسن والمسيء، وأن قولهم هذا يؤدي إلى أن الله مكن الظالم من ظلم المظلوم ثم أماتهما، وأمات المحسن والمسيء بلا جزاء ولا إنصاف للمظلوم سبحان الله وتعالى عما يصفون.

﴿٣٨﴾ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ﴾ لما احتجوا بدعواهم واستبعادهم للبعث عقبوا ذلك بتصريحهم بتكذيب الرسول وإصرارهم على ترك الإيمان به وترك التصديق له جاعلين هذا التكذيب كالنتيجة لاحتجاجهم بنفي البعث الذي يعدهم به، وقالوا: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ﴾ أي لا رسول، استمراراً في زعمهم أن البشر لا يصلح للرسالة فقد جادلوا في الرسالة بأنه بشر وبأنه وَعَد بالبعث عناداً وأعلنوا أنهم لن يؤمنوا له.

﴿٣٩﴾ ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ ﴿قَالَ﴾ رسولهم الذي جادلوا في رسالته ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِي﴾ لأنه لم يبقَ أمل في إيمانهم فانصرني بسبب تكذيبهم لي.

ٱلصَّيۡحَةُ بِٱلۡحَقِّ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ غُثَآءٗۚ فَبُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا تَتۡرَاۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةٗ رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُۚ فَأَتۡبَعۡنَا بَعۡضَهُم

﴿٤٠﴾ ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٖ لَّيُصۡبِحُنَّ نَٰدِمِينَ﴾ فيكشف ندمهم على ترك الإيمان أنهم كانوا يعلمون أنك رسول من الله صادق، وأنهم إنما كذبوك معاندين للحق متمردين على ربهم.

﴿٤١﴾ ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ بِٱلۡحَقِّ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ غُثَآءٗۚ فَبُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ﴿ٱلصَّيۡحَةُ﴾ العذاب المهلك، قال في (الصحاح): «العذاب وأصله من الأوّل» انتهى، يعني: أصله من الصوت، ومثله في (لسان العرب)، وقوله تعالى: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ أخذاً بالحق أي اقتضاه الحق.

﴿فَجَعَلۡنَٰهُمۡ غُثَآءٗ﴾ قال (صاحب الكشاف): «شبههم في دمارهم بالغثاء وهو حميل السيل مما بَلِيَ واسودّ من العيدان والورق» انتهى، ولعله يشير إلى تغيرهم بما يقع عليهم من الشمس والأمطار والرياح حتى بليت أجسادهم كما يبلى الغثاء ﴿فَبُعۡدٗا﴾ تعبير عن بغضهم والغضب عليهم مثل: ﴿قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ﴾ [البروج:٤] لأجل ظلمهم بالتكذيب والجدال بالباطل وغيره.

﴿٤٢﴾ ﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قُرُونًا ءَاخَرِينَ﴾ من بعد القوم المهلكين أنشأ الله قروناً أمماً يرسل إليهم رسلاً فيكذبونهم فتكون النهاية هلاكهم بالعذاب.

﴿٤٣﴾ ﴿مَا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ﴾ ﴿أَجَلَهَا﴾ أجل هلاكها لأن الله تعالى لا يعاجلها بالعذاب قبل أن يمهلها مدة محدودة فيها تبلغها فيها حجة الرسول وتدعى إلى التوبة، ويبتلى بها الرسل والمؤمنون، وتترادف الحجج على أمته حتى تبلغ أجلها المحدود فتهلك بما كذبت بآيات الله وجادلت بالباطل وهمت برسولها لتأخذه وبظلمها كله.

بَعۡضٗا وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَۚ فَبُعۡدٗا لِّقَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ

﴿٤٤﴾ ﴿ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا تَتۡرَاۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةٗ رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُۚ فَأَتۡبَعۡنَا بَعۡضَهُم بَعۡضٗا وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَۚ فَبُعۡدٗا لِّقَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ قال في (الكشاف): «﴿تَتۡرَا﴾ فعلى الألف للتأنيث لأن الرسل جماعة» انتهى، والمعنى: متواترين يتبع بعضهم بعضاً مع فاصل زمني محدود، قال الشرفي في (المصابيح): «قال في (البرهان): يعني متواترين يتبع بعضهم بعضاً بين كل اثنين [دهر] وهو [كذا في المصابيح] طويل» انتهى المراد.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا﴾ عطف على ﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَا﴾ لأن الله ينشئ القرن ثم يرسل إليهم رسولاً لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴿كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةٗ رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ اغتراراً بالحياة العاجلة وانقياداً للكبر والحسد واتباعاً للهوى ﴿فَأَتۡبَعۡنَا بَعۡضَهُم بَعۡضٗا﴾ أي أهلكناهم كما أهلكنا من قبلهم أتبعناهم في الهلاك.

﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام): «معناه: يُتمَثل بهم في الشر ولا يقال ذلك في الخير، وفي (مفردات الراغب): أي أخباراً يُتمثَّل بهم» انتهى، ولعل حاصل هذا المعنى: جعلناهم مثلاً يُعتبَر بهم، كقوله تعالى: ﴿فَجَعَلۡنَاهُمۡ سَلَفًا وَمَثَلاً للآخِرِينَ﴾ [الزخرف:٥٦] ﴿فَبُعۡدٗا لِّقَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ تعبير عن السخط والغضب عليهم وأصله دعاء عليهم بالهلاك قال تعالى: ﴿ألاَ بُعۡدًا لِمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ﴾ [هود:٩٥].

﴿٤٥﴾ ﴿ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ﴾ ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ مصحوبين بآياتنا التسع ﴿وَسُلۡطَٰنٖ﴾ هيبة ونصر ﴿مُّبِينٍ﴾ كما قال تعالى:

وَكَانُواْ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ

﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ [القصص:٣٥] وكقوله تعالى: ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ [الحشر:٦].

﴿٤٦﴾ ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا عَالِينَ﴾ ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ أي أرسلناهما إلى فرعون ﴿وَمَلَإِيْهِۦ﴾ كبراء قومه أو وزرائه ﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ﴾ أنفوا عن قبول الحق واستحقروا موسى وهارون واستعظموا أنفسهم.

﴿وَكَانُواْ قَوْمًا عَالِينَ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «﴿وَكَانُواْ قَوْمًا عَالِينَ﴾ متطاولين على [في المصابيح: عن، وهو غلط تصحيف] الناس، قاهرين لهم بالبغي والظلم» انتهى.

وقد وُصِف فرعون بالعلو المذموم في هذه الآية، وفي قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس:٨٣] وقوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل:١٤] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص:٤] و(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَكَانُواْ قَوْمًا عَالِينَ﴾ هي واو تسميها النحاة واو الاعتراض ولكنها تأتي في خلال الكلام وفي أول الكلام الأخير.

﴿٤٧﴾ ﴿فَقَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾ ﴿فَقَالُوٓاْ﴾ أي فرعون وملئه ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ أي لو كانا رسولين ما كانا بشرين، كما قال فرعون: ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ [الزخرف:٥٣] ﴿وَقَوْمُهُمَا﴾ أي بنو إسرائيل ﴿لَنَا عَٰبِدُونَ﴾ أي مطيعون خاضعون مسخرون.

لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا

قال الشرفي في (المصابيح): «قال في (البرهان): لأن بني إسرائيل كانت تعبد فرعون وفرعون كان يعبد الأصنام» انتهى، أي وموسى وهارون من بني إسرائيل فكيف نؤمن لهما، بل لنا الفضل عليهما كما لنا الفضل على قومهما.

﴿٤٨﴾ ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ﴾ فكذب فرعون وملؤه الرسولين موسى وهارون ﴿فَكَانُوا۟ مِنَ﴾ جملة الأمم ﴿ٱلْمُهْلَكِينَ﴾ بسبب تكذيبهم لرسلهم؛ لأنه تعالى أغرق فرعون وقومه كبراءهم وأتباعهم وأنجى موسى وهارون ومن معهما من المؤمنين.

﴿٤٩﴾ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ لعل بني إسرائيل الذين هم قوم موسى وهارون ﴿يَهْتَدُونَ﴾ بما في الكتاب من الهدى، والكتاب هو (التوراة).

﴿٥٠﴾ ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رُبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ ﴿ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ أي عيسى عليه السلام وكل منهما آية تدل على قدرة الله تعالى وعلمه، قال الشرفي في (المصابيح): «قال في (البرهان): فآيته أنه خلق من غير ذكر، وآيتها أنها حملت من غير فحل، ثم تكلم في المهد فكان كلامه آية له وبراءة لها» انتهى.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام): «﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رُبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ معناه: ضممناهما، أي عيسى وأمه عليهما السلام و﴿رُبْوَةٍ﴾ مكان مرتفع، ويقال: رَبوة بالفتح، والمعين: الماء الظاهر» انتهى المراد.

تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۢ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرۡهُمۡ فِي

أي جعلنا لهما مأوى ربوة موضع من الأرض مرتفع ﴿ذَاتِ قَرَارٖ﴾ صالحة للقرار فيها بالأمن وتيسر الرزق ﴿وَمَعِينٖ﴾ للشرب والطهور وسائر ما يحتاجان له الماء، وفي (الصحاح): «وماء معين: أي جار» انتهى، فهي بلدة طيبة يفرغان فيها للذكر والعبادة ولا تضرهما بوخامة لارتفاعها.

﴿٥١﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾ أحل الله لهم الطيبات لم يحرم عليهم ما حرم على الذين هادوا بظلمهم ولا ما حرم المشركون على أنفسهم بغير حق ﴿وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ عملاً صالحاً فهم بشر لا تنافي رسالتهم أكلهم من الطيبات، وهم مكلفون بعبادة ربهم ﴿إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾ فلا أضيع عمل عامل منكم.

﴿٥٢﴾ ﴿وَأَنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ﴾ ﴿وإنَّ﴾ بكسر الهمزة استئناف، وأما بفتح الهمزة فعلى تقدير لام التعليل أي فاتقون لأن هذه الملة ملتكم حق وصواب ليس فيها باطل ﴿وَٰحِدَةٗ﴾ لا تفرق بينكم ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ﴾ الخالق لكم الرازق.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال محمد بن القاسم عليه السلام: الأمة في (لسان العرب) القصد [أمَّ] يؤم [قصد] يقول الله سبحانه: إن قصدكم الذي تقصدون وأمتكم التي تؤمّون واحدة، يعني سبحانه طريقاً واحداً غير اثنين إذ كلهم [أي الرسل] مأمور بعبادة الله وحده والسلوك في سبيله وقصده وخلع الأنداد من دونه والشهادة له بوحدانيته وأنه لا إله ولا رب غيره فربهم الله..» الخ.

غَمۡرَتِهِمۡ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم

وقال الشرفي في (المصابيح) أيضاً: «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: يقول عز وجل: إن دينكم دين واحد وهو التوحيد والعدل [أي توحيد الله وإثبات عدله] وإثبات الوعد والوعيد [أي التصديق والإقرار بوعد الله ووعيده] والنبوءة والإمامة، فهذا دين واحد ليس فيه اختلاف بين أحد من الأنبياء صلوات الله عليهم وغيرهم من المسلمين، والأمة هاهنا هي الدين والملة والمذهب» انتهى.

﴿٥٣﴾ ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ﴾ ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ﴾ الفاء للتفريع أي أن الله أرسل رسله بملة واحدة هي عبادته وحده وأمرهم أن يتقوه لأنه ربهم فاقتطع الناس أمر الرسل الذي كانوا عليه أو الذي أمروهم به تقطعوه بينهم ﴿كُلُّ حِزۡبِۭ﴾ أخذ قطعة اقتطعها لنفسه ﴿زُبُرٗا﴾ إما كتباً وإما قطعاً كقطع الذهب والفضة ﴿كُلُّ حِزۡبِۭ﴾ أي كل قوم ﴿بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ﴾ لاختصاصهم به وانتمائهم إليه تعصباً لـه؛ لأنه دينهم والمعنى أنهم لم يتبعوا الرسل اتباعاً كاملاً ليتقوا الله بل اكتفى كل حزب منهم ببعض منه في حين لا يكفي ولا يقبل منهم.

﴿٥٤﴾ ﴿فَذَرۡهُمۡ فِي غَمۡرَتِهِمۡ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ ﴿فَذَرۡهُمۡ﴾ يا رسول الله اترك هذه الفرق التي تقطت أديانها ﴿فِي غَمۡرَتِهِمۡ﴾ في جهلهم وغفلتهم واشتغالهم بدنياهم تشبيهاً لهم بمن غمره ماء.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ إما ذرهم حتى حين الجهاد في سبيل الله، وإما حتى حين تنتهي دنياهم التي هي متاع قليل، ويمكن الجمع بين الأمرين لأن الجهاد مستقبل وهلاكهم به وبغيره مستقبل، وهذا هو الراجح، وهذه الآية تشبه قوله تعالى: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ [البقرة:١٠٩].

مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا نُكَلِّفُ

﴿٥٥-٥٦﴾ ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿أَيَحْسَبُونَ﴾ سؤال توبيخ على هذا الحسبان أنما يمدهم الله به أي يعطيهم ﴿مِن مَّالٍ وَبَنِينَ﴾ أيحسبون أن ذلك مسارعة من الله لهم ﴿فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ والمؤجل منها مثلها، والخيرات الخير، فهذا الحسبان غلط ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ أن هذا المعجل فتنة والمؤجل عذاب بكفرهم وإجرامهم.

﴿٥٧-٦١﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ * وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ * وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ * أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ﴾ ﴿مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ قال في (لسان العرب): «وإذا قلت: أشفقت منه، فإنما تعني حذرته» انتهى.

وعلى هذا: فالمعنى: أن الخشية بعثتهم على الحذر من عذاب الله، هذا إذا كان المعنى مشفقون منه، فإن كان المعنى: مشفقون على أنفسهم، فقال في (لسان العرب): «ابن سيده: وأشفق عليه حذر» انتهى، وفي (الصحاح): «وإذا قلت: أشفقت منه فإنما تعني حذرته» انتهى، وفي (القاموس): «وشفق وأشفق حاذر أو لا يقال إلا أشفق» انتهى، والحذر هنا هو التقوى.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أي يصدقون بها وبما دلت عليه تصديقاً باعثاً على العمل بها واتباعها وذلك لأنهم لا يعرضون عنها ولا يجادلون فيها بل ينظرون فيها نظراً صحيحاً فيعلمون صحتها ويعرفون ما تدل عليه.

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ﴾ فلا يتبعون حكماً مخالفاً لحكمه، ولا يجعلون لغيره حكماً، ولا يعبدون غيره؛ لأنهم مؤمنون بأن ربهم الله وحده فلا حكم فيهم إلا له وحده، ومن حكمه طاعة رسوله واتباعه وطاعة أولي الأمر في الحق الذي لا يخالف طاعة ربهم.

﴿يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ﴾ قال الراغب: «الإيتاء: الإعطاء» انتهى، قال تعالى: ﴿وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ [النور:٣٣] أي اعطوهم واستعماله في القرآن كثير، روى الناصر الحسن بن علي الأطروش عليه السلام في (البساط) [ص/٧٨]: قال: حدثنا وكيع، قال: حدثنا مالك بن مغول، عن عبد الرحمن بن سعيد بن وهب، عن عائشة، قالت: قلت لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ﴾ هو الرجل يزني ويسرق ويشرب الخمر؟ فقال: «لا يا ابنة أبي بكر، ولكن هو الرجل يصوم ويصلي ويتصدق وهو يخاف ألا يقبل منه» انتهى.

فمعنى: ﴿يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ﴾ يتصدقون ويؤتون الزكاة وغيرها من الحقوق ﴿وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ﴾ خائفة، وقوله تعالى: ﴿أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ﴾ أي قلوبهم خائفة من أنهم إلى ربهم راجعون، أو لأنهم إلى ربهم راجعون، وفي تكرار كلمة ﴿رَبِّهِمۡ﴾ دلالة على كثرة ذكرهم لله من حيث هو ربهم المالك لهم، وقوة تعبّدهم لله.

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ أي أهل هذه الصفات الأربع يسارعون في كسب الخيرات لأن تقواهم وإيمانهم وأعمالهم وإنفاقهم كلها حسنات مضاعفة لهم في الآخرة، فمسارعتهم في أسباب الثواب مسارعة في الثواب وهو الخير الكبير ﴿وَهُمۡ لَهَا﴾ أي الخيرات ﴿سَٰبِقُونَ﴾ لأنهم يسبقون الجنة وتفوت غيرهم.

نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ

وحاصل المعنى: يسارعون في خيرات الآخرة بمسارعتهم في الطاعة ﴿وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ لأنهم هم الذين يفوزون بالخيرات في الآخرة فسبقوها بسبقهم إلى طاعة الله.

﴿٦٢﴾ ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ لا نكلفها ما تضيق عنه ولا تتحمله؛ ولذلك فالجنة تنال بأسباب ممكنة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ﴾ لعله ما يكتبه الحفظة، كقوله تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية:٢٩] وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ لا ينقص عليهم شيء من حسناتهم، وهذا ترغيب في العمل للخيرات بأنه في وسع الإنسان وبأنه لا يضيع منه شيء.

﴿٦٣﴾ ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾ ﴿قُلُوبُهُمْ﴾ أي الكفار ﴿فِى غَمْرَةٍ﴾ في غفلة شاملة للقلوب كأنها في غمرة من الماء ﴿مِّنْ هَٰذَا﴾ إما مِن هذا الوعد والوعيد، وإما من هذا المذكور في الآيات الماضية، فهم غافلون عن الآخرة وعن الجنة والعمل لها لأنها غارقة في التوجه إلى الدنيا وإلى الأغراض الدنيوية والأهواء ﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ﴾ تحول بينهم وبين الطاعة والمسارعة في الخيرات لأنها ذنوب تفسد القلوب وشواغل دنيوية يؤثرونها على الطاعة لإيثارهم الحياة الدنيا على الآخرة؛ ولذلك قال تعالى: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ﴾ كلمة إضراب عن الترغيب لهم في المسارعة في الخيرات.

أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم بِٱلۡعَذَابِ إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجۡـَٔرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدۡ كَانَتۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسۡتَكۡبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرٗا تَهۡجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ أَمۡ

﴿٦٤﴾ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم بِٱلۡعَذَابِ إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ﴾ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ غاية لأعمالهم التي تحول بينهم وبين المسارعة في الخيرات ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم بِٱلۡعَذَابِ﴾ فهم لا ينفكون معرضين عن الحق مصرين على الباطل حتى يأخذ الله مترفيهم بالعذاب.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «يعني بالمترف: الموسع عليه في الدنيا حتى بغوا وكفروا، والعذاب بالسيف يوم بدر، وقوله: ﴿يَجۡـَٔرُونَ﴾ معناه: يرفعون أصواتهم» انتهى.

فعبيد الدنيا الذين توفرت لهم الأرزاق ووسعت لهم النعمة هم الطغاة المجادلون في آيات الله الدعاة إلى عصيان الله ورسوله فكانوا أحق بتعجيل العذاب لدفع فسادهم، ويحتمل: أن المراد بالعذاب عذاب الآخرة؛ وخصهم بالذكر لأنهم مقدمون إلى النار قبل الضعفاء.

﴿٦٥﴾ ﴿لَا تَجۡـَٔرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾ ﴿لَا تَجۡـَٔرُواْ﴾ أي لا يفيدكم الجؤار لأنه لا ناصر لكم ينصركم حين يسمع جؤاركم ﴿إِنَّكُم مِّنَّا﴾ أي من الله ﴿لَا تُنصَرُونَ﴾ لأن الله غالب على أمره، وأنا أفهم من قوله ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ أنه يوم القيامة.

﴿٦٦﴾ ﴿قَدۡ كَانَتۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ تَنكِصُونَ﴾ ﴿قَدۡ كَانَتۡ﴾ حين جاءكم الرسول ﴿ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ وهذا مما يرجح أن المراد بالعذاب: عذاب الآخرة، فقد قامت عليهم الحجة ﴿فَكُنتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ تَنكِصُونَ﴾.

قال الراغب: «النكوص: الإحجام عن الشيء» انتهى، يعني: التأخر عن الشيء فراراً منه، فالمعنى: أنهم كانوا يتجنبون اتباع الآيات أو استماعها فراراً من الحق، فهم ظلموا أنفسهم بامتناعهم من تصديق النذير.

(٦٧) ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ﴾ ﴿مُسْتَكْبِرِينَ﴾ حال من ﴿تَنكِصُونَ﴾ مستكبرين بالنكوص كأنكم تتأخرون عما القرب منه عار عليكم ودناءة ﴿سَامِرًا﴾ تتحدثون الليل فيما بينكم ﴿تُهْجِرُونَ﴾ أي حديث هجر على قراءة ﴿تَهْجُرُونَ﴾ بفتح (التاء) وضم (الجيم) أو حديث إهجار على قراءة ﴿تُهْجِرُونَ﴾ بضم (التاء) وكسر (الجيم).

قال الشرفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: السامر هم الذين يسمرون ويتحدثون في أمر القرآن بالليل خاصة لأن السمير عند العرب وفي لغتهم لا يكون إلا بالليل، قال الشاعر:

وباتوا بشعب لهم سامراً إذا ما خبت نارهم أوقدوا»

انتهى، وقال في (الصحاح): «والسامر أيضاً السُّمَّار وهم القوم يسمرون كما يقال للحُجّاج حاج» انتهى، وفي (لسان العرب) مثله، وفي (أساس البلاغة): «وباتوا سُمَّاراً وسامراً» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿تَهْجُرُونَ﴾ أما على قراءة فتح التاء وضم الجيم، فمعناه: أنهم يتكلمون بكلام يشبه الهذيان؛ لأنهم يسترسلون في القول الباطل بغير تثبت ولا تورع كأنهم لا عقول لهم، وأما على قراءة ضم (التاء) فمعناه: أنهم يتكلمون بالكلام الفاحش.

قال الشرفي في (المصابيح): «وكانوا يجتمعون في الليل حول البيت يسمرون وعامة سمرهم ذكر القرآن والطعن فيه بأنه شعر وسحر، وسب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم».

جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن

﴿٦٨﴾ ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ أي القرآن الذي سمعوه ووجدوه حكيماً محكماً يعجزون عن الإتيان بمثله، بل قد تدبروه حتى علموا عجزهم عن الإتيان بمثله ولكن منعهم الكبر عن الإيمان به ﴿أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ بل قد جاء آباءهم الأولين الرسول والكتاب، كما قال تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ..﴾ الآية [البقرة:٢١٣] وهذه الجملة كقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾.

﴿٦٩﴾ ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ بل قد عرفوه وعاش بينهم قبل الرسالة أربعين عاماً فما أنكروه، وهذا من نعمة الله عليهم ومن تمام الحجة عليهم أنهم يعرفون رسولهم فلا تنكره أنفسهم.

﴿٧٠﴾ ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ قال في (الصحاح): «والجِنة: الجِن ـ ثم قال ـ : والجنة: الجنون» انتهى، ومثله في (مفردات الراغب) والمعنى واحد، أي يقولون: به جن يخبلونه فهو مجنون بسبب دخولهم فيه على قولهم، أو﴿يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ أي جنون ﴿بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ وهم زعموا أن به جنة من أجل أنه جاءهم بدعوى الرسالة والقرآن وذلك حق لا يدل على أنه مجنون، وقد رد الله عليهم بقوله: ﴿بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ هنا وفي (سورة الصافات) أو لأن المجنون يخلط في كلامه الحق والباطل بما يظهر أنه به مجنون ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ فلذلك تَقَوَّلوا فيه الأقاويل الباطلة مجنون، شاعر، ساحر..

فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ

﴿٧١﴾ ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾ ﴿أَهْوَاءَهُمْ﴾ أهواء المشركين الذين يهوون أن يبقى الشرك والكفر باليوم الآخر وأن يموت الرسول ويبطل الإسلام ويكون الحكم لهم يحكمون في عباد الله كيف شاءوا ويكون الملائكة أرباباً لهم وشفعاء إلى غير ذلك من أهوائهم، فلو اتبعها الحق وجعل أمره تبعاً لها لما كان في بقاء العالم حكمة تقتضي بقاءه بل كانت الحكمة تقتضي إعدامه؛ لأنه حينئذ يكون قد فسد ولم يبق فيه مجال للحق أن يحكم هو وأن يكون هو المتبوع لا التابع لأن الحكم قد صار لأهوائهم، فأهمل العالم وفسد أهله كلهم.

﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ﴾ بشرفهم الذي به يذكرون في العالم؛ لأن الذكر والشرف والعز هو في اتباع القرآن والتمسك به وهو الحق الذي به قامت السموات والأرض من حيث أنه حكم الله في عباده ﴿فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾ وهذا غاية السفه أن يعرضوا عما فيه صلاح أحوالهم وعزتهم وشرفهم لأجل هوى أنفسهم، وقد شهدت بذلك تجربة أحوال العرب في الماضي والحال فقد كان لهم العز والقوة حين أسلموا، وكان اعتماد الجمهور على القرآن والحكم للقرآن حتى غلبوا كسرى وقيصر، وحين أعرضوا عن القرآن في هذا الزمان اختل نظامهم وذهبت عزتهم وقهرهم الكفار، ولن تعود لهم قوتهم إلا إذا رجعوا إلى الله.

﴿٧٢﴾ ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ ﴿خَرْجًا﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام): «معناه: غَلَّة» انتهى، وفسره في (الصحاح) بالإتاوة، وذكر قول الشاعر:

إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾ ۞وَلَوۡ رَحِمۡنَٰهُمۡ وَكَشَفۡنَا مَا بِهِم مِّن ضُرّٖ لَّلَجُّواْ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ

أفي كل أسواق العراق إتاوةٌ وفي كل ما باع امرؤ مكس درهم

وحاصل المعنى: أم تسألهم مالاً أجراً على الرسالة ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ﴾ أي رزقه ﴿خَيۡرٞ﴾ من خراج منهم، وقوله: ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ﴾ مشاكلة، وقول الشاعر:

اعطوه خَرْجَاً واتقوا بضريبة فعل الذليل وبيعةً لم تربح

يفيد: أن الضريبة تسمى خرجاً، وفي (لسان العرب): «والخرج والخراج واحد: وهو شيء يخرجه القوم في السنة من مالهم بقدر معلوم ثم قال الأزهري: والخرج أن يؤدي إليك العبد خراجه أي غلته، والرعية تؤدي الخرج إلى الولاة» انتهى المراد.

﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيۡرٞ﴾ أي إن الله يرزقك خيراً من خراجهم، ومعنى ﴿أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ﴾ أي إنك لا تسألهم خرجاً حتى يعتذروا بخوف المغرم لأن معنى بل وهمزة السؤال الذي معناه النفي، مثل: ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ﴾ [الشرح:١].

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ لأنه يبتدئ عباده بالإحسان ولا يطلب منهم مكافأة ويستمر فضله لعباده طول حياتهم مع عصيان أكثرهم له.

﴿٧٣﴾ ﴿وَإِنَّكَ لَتَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ ﴿وَإِنَّكَ﴾ يا رسول الله ﴿لَتَدۡعُوهُمۡ﴾ لتدعوا قومك ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ إلى الحق الذي لا غواية فيه، بل هو أشبه بالطريق الواضح المستقيم الذي لا عوج فيه ولا انقطاع فهم في عصيانك فوتوا رشدَهم.

يَعۡمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدۡ أَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡعَذَابِ فَمَا ٱسۡتَكَانُواْ لِرَبِّهِمۡ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابًا ذَا عَذَابٖ شَدِيدٍ إِذَا هُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ ﴿٧٧﴾

﴿٧٤﴾ ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ﴾ النشأة الآخرة وما فيها من الحساب والجزاء هي وعد الله الذي لا يتخلف؛ لأنه أصدق القائلين، فالطريق إلى إثباتها طريق واضح والإنسان بأهوائه وطمع الشيطان في إغوائه لا يصلحه إلا الإيمان بالآخرة وما فيها من الحساب والثواب والعقاب ليردع الإنسان عن الظلم وعن اتباع الباطل خوفه من النار ويحمله على الإحسان رغبته في الثواب.

فإذا لم يؤمن بالآخرة فقد الوازع عن الظلم والباطل، وفقد الباعث على الإحسان إلى من لا يرجو منه نفعاً ولا يخاف منه ضرراً، ولذا قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ * وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ [الماعون:١-٣] فهو ناكب عن الصراط عادل عن طريق الحق والصواب، يقال: نكب عن الطريق أي مشى جانباً خارجاً عن الطريق.

في (أمالي أبي طالب) في (فضائل الحسن والحسين): قال سعد [بن أبي وقاص] للحسن عليه السلام يا أبا محمد إن المشي قد ثقل على جماعة ممن معك والناس إذا رأوكما تمشيان لم تطب أنفسهم بأن يركبوا فلو ركبتما، فقال الحسن عليه السلام: «لا نركب قد جعلت على نفسي أن أمشي ولكن أتنكّب الطريق فأخذ جانباً».

﴿٧٥﴾ ﴿وَلَوۡ رَحِمۡنَٰهُمۡ وَكَشَفۡنَا مَا بِهِم مِّن ضُرّٖ لَّلَجُّواْ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ ﴿وَلَوۡ رَحِمۡنَٰهُمۡ﴾ في هذه الدنيا ﴿وَكَشَفۡنَا مَا بِهِم مِّن ضُرّٖ﴾ أي ما بقومك الذين لا يؤمنون بالآخرة من ضر وهذا يدل على أنهم في ضر.

قال الشرفي في (المصابيح): ﴿وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ﴾ أي الهزال والجوع والقحط الذي أسنتهم وسائر مضار الدنيا ﴿لَّلَجُّواْ فِي طُغْيَـٰنِهِمْ﴾ أي أكثروا وبالغوا في ظلمهم بعداوة رسول الله ﷺ. ثم قال الشرفي: وفي (البرهان): قيل إن النبي ﷺ دعا عليهم فقال «اللهم اجعل عليهم سنين كسني [في نسخة (المصابيح): كسنين وهو غلط من الناسخ.تمت] يوسف عليه السلام» انتهى.

ولفظ الحديث في (الكشاف) في تفسير (سورة الدخان): «اللهم اشدد وطأتك على مضر، واجعلها عليهم سنين كسني يوسف» انتهى.

والعمه: قال فيه الراغب: «العمه: التردد في الأمر من التحيّر» انتهى.

(٧٦) ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَـٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَـٰهُم﴾ هو القتل والأسر في بدر انتهى، قال (صاحب الصحاح): «والاستكانة: الخضوع» انتهى، وقوله تعالى: ﴿لِرَبِّهِمْ﴾ أي لم يخضعوا راجعين إلى ربهم منقادين له ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ وما يدعون الله دعاء تذلل لله.

قال في (الصحاح): «وتضرع إلى الله: أي ابتهل، قال الفراء: جاء فلان يتضرع ويتعرض بمعنى إذا جاء يطلب إليك حاجة» انتهى.

(٧٧) ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ غاية لقسوتهم وإصرارهم بانتقالهم إلى الإبلاس ﴿إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ لعله الصحو المستمر وعدم المطر بحيث تجف بلادهم وتيبس مراعيهم وأشجارهم ويفقدون الزرع وحتى يشتد عليهم حالهم بالجوع المميت للأنعام وبعض الناس فمثل هذه الحالة يدعو إلى التضرع، ولكن هؤلاء القوم لا يتضرعون بل يسكتون سكوت حيرة ويأس من الفرج. قال في (الصحاح): «والإبلاس ـ أيضاً ـ الانكسار والحزن، يقال: أبلس فلان، إذا سكت غمّاً» انتهى.

وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَـٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ

﴿٧٨﴾ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ ﴿ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ آيات تدل على قدرة الله تعالى وعلمه ونعم توجب شكر العبد لربه الذي أنعم عليه بهذه النعم العظيمة، وفضله بالعقل على البهائم، والله تعالى هو المنعم بها علينا ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أَنْعُمَهُ عليكم، وأين الشكر ممن عبد غيره وكذّب رسوله وجادل في آياته؟ أما شركاؤهم فلم ينعموا عليهم بهذه النعم وهم يعلمون، والأفئدة جمع فؤاد وهو القلب أو باطن القلب والمراد ما فيه من العقل.

﴿٧٩﴾ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ قال الراغب: «يقال: ذرأ الله الخلق، أي أوجد أشخاصهم» انتهى، فالله تعالى هو الذي أوجدكم في الأرض التي مهّدها لكم دون شركاء المشركين، وهم مقرّون بذلك ﴿وَإِلَيْهِ﴾ وحده ﴿تُحْشَرُونَ﴾ من القبور إلى موقف السؤال والحساب والحكم بين العباد فالله وحده هو الذي يسألكم ويحكم فيكم وبينكم لا شريك له ولا معقب لحكمه، وذرء الخلق أولاً دليل على حشرهم.

﴿٨٠﴾ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَـٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ﴾ لا يقدر على الإحياء إلا هو ﴿وَيُمِيتُ﴾ لا يقدر أحد على تأخير الموت إذا قضاه ﴿وَلَهُ﴾ وحده ﴿ٱخْتِلَـٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ كل منهما يخلف الآخر بتدبير الله وتقديره لمدة كل منهما، ولا يقدر على ذلك إلا الله ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فتؤمنوا بأنه قادر على أن يحييكم بعد موتكم وتحذروا مما أنذركم.

ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ

﴿٨١-٨٣﴾ ﴿بَلْ قَالُواْ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ * قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ما عقلوا ﴿بَلْ قَالُواْ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ إنكار البعث بعد أن يموتوا ويكونوا تراباً وعظاماً، ثم قالوا: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا﴾ فغالطوا مع أن الوعد حجة عليهم وعلى آبائهم، ثم جحدوا فقالوا: ﴿إِنْ هَٰذَآ﴾ القرآن الذي أنذرهم بالآخرة ﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وأساطير: جمع أسطورة.

قال في (أساس البلاغة): «وهذه أسطورة من أساطير الأولين مما كتبوا من أعاجيب أحاديثهم» انتهى، وقد علم الكافرون أنهم عجزوا عن الإتيان بسورة من مثله في الحكمة والإحكام أفلا أتوا بأسطورة من مثله إن كان أساطير، لقد علموا الحق، ولكنهم عاندوا لأنهم عرب جاءهم القرآن بلسان عربي مبين.

﴿٨٤-٨٥﴾ ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أفلا تتذكرون أنه ربكم فتعبدوه وحده، وتتركوا شركاءكم الذين ليس لهم شيء منكم ولا من رزقكم، وإنما هم مملوكون عباد أمثالكم.

﴿٨٦-٨٧﴾ ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ ﴿وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ الذي له الملك العظيم ﴿سَيَقُولُونَ﴾ السموات والملك العظيم ﴿لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ الله الذي له الملك وله السموات السبع فتؤمنوا بكتابه ورسوله وتطيعوه وتعبدوه وحده.

مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ قُل رَّبِّ إِمَّا

﴿٨٨-٨٩﴾ ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾.

قال الشرفي في (المصابيح): «﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي مِلكه ومِلك التصرف فيه، وزيادة (التاء) و(الواو) للمبالغة» انتهى، وقال الراغب: «والملكوت مختص بملك الله تعالى، وهو مصدر مَلَك أدخلت فيه التاء نحو رحموت ورهبوت» انتهى.

﴿وَهُوَ يُجِيرُ﴾ من شاء ممن شاء فلا ينال من أجاره الله بل من أجاره الله فهو محفوظ ﴿وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ بل من شاء الله أن يعذبه أو يهلكه أو يصيبه فلن يجيره من الله أحد ولا ملجأ له من الله ﴿سَيَقُولُونَ﴾ هذه الغلبة والقهر كلها ﴿لِلَّهِ﴾ وحده ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله ﴿فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ فمن أين تسحرون من أين تخدعون عن عبادة الله وحده وعن توحيده؟ إنه من اتباع الظن وما تهوى الأنفس وهو أيضاً طاعة الشيطان، فمن هنا انخدعتم كأنكم مسحورون لا تميزون بين الحق والباطل والرشد والغواية.

﴿٩٠-٩٢﴾ ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ﴾ وهو توحيد الله ونفي الشريك وتقبيح الشرك،

تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ

وكذلك أنهم يبعثون يوم القيامة وغير ذلك مما جاء به الرسول والقرآن ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ في زعمهم إثبات الشركاء لله وزعمهم إثبات الولد ﴿لَكَٰذِبُونَ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ نفي مؤكد بـ(ما) وبـ(مِن) ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ فحقق بهذا كذبهم في دعوى اتخاذ ولد، وأضاف الاحتجاج على نفي الشريك.

فقال تعالى: ﴿إِذًا﴾ أي لو كان معه إله ﴿لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ﴾ لأنه لا يكون إله إلا لو كان رباً مالكاً، ولا يكون رباً مالكاً إلا لو كان خالقاً ففرض تعدد الآلهة يستلزم فرض تعدد الخالقين حتى يكون لكل إله مخلوقين يختص بهم وذلك يؤدي إلى أن يذهب كل إله ناحية بما خلق ليمتاز بما خلق ويعبدوه وحده ولا يعبدوا غيره، فلما كان لا يوجد من يدعي بعض المخلوقين أنه هو خالقهم دون الله تبين أنه لا يوجد خالق غير الله، وتبين أنه لا رب إلا الله، فتبين أنه لا إله مع الله ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ من دعواهم عليه اتخاذ الولد وهو الغني ودعواهم الرضى بشريك والله هو العزيز الحكيم.

وقوله تعالى: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ يبين أنه هو الذي يعلم من عبده ومن لم يعبده، وتنفع عبادته العابدين ﴿فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ الذين قال تعالى فيهم: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لاَ يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر:١٤] فتعالى عنهم أن يكونوا له أنداداً أو يقرنوا به سبحانه وتعالى.

﴿٩٣-٩٥﴾ ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ * رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ * وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ﴾ ﴿قُل﴾ يا رسول الله

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ۝٩٦ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ۝٩٧ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ۝٩٨ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ﴾

داعياً لربك ﴿رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي﴾ أي إن أريتني ﴿مَا يُوعَدُونَ﴾ من فتح باب ذي عذاب شديد أو غيره من العذاب ﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أخرجني من بينهم كما أخرجت لوطاً وغيره حتى لا ينالني ما نالهم من العذاب ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ﴾ بأن نعجله في حياتك إن كان العذاب المعجل، فإن كان عذاب الآخرة فكذلك هو تعالى قادر على بعثهم وبعث الرسول وإراءته العذاب الذي يعذبون به؛ لأنه على كل شيء قدير.

(٩٦) ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ ﴿ادْفَعْ﴾ يا رسول الله سيئة الكافرين بك وغيرهم ادفعها بالكلمة التي هي أحسن أو الصنيعة التي هي أحسن أو الفِعلة التي هي أحسن، والتي هي أحسن يعم ذلك على سبيل البدل. والدفع ﴿بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أبلغ من دفع الإساءة بالإحسان؛ لأن التي هي أحسن مفضلة على الحسنة ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ كقولهم شاعر وساحر ونحو ذلك من كلامهم الباطل، فاجعل أمرهم إلى الله؛ لأنه أعلم بما يقولون، وكذلك قولهم الباطل على الله كِل أمرهم إلى الله فيه وفي كل ما يصفون من الباطل؛ لأن الله أعلم بما يصفون، وهو يجازيهم عليه.

قال الشرفي في (المصابيح): «وهذا وإن كان خطاباً للنبي صلى الله عليه وآله وسلم فالمراد به جميع الأمة» انتهى.

(٩٧-٩٨) ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ۝ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ ﴿أَعُوذُ بِكَ﴾ ألجأ إليك ﴿مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾ قال الشرفي في

رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ

(المصابيح): «وهمزاتهم اغواؤهم بالمعاصي وحثهم عليها من همز الرائض الدابة إذا نخسها بالمهمازة [كذا] حثاً لها» انتهى المراد.

وهذا معطوف على قوله تعالى: ﴿ادْفَعْ﴾ فالراجح أنه تعوذ من إغواء الشياطين وخطراتهم الداعية إلى الظلم ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحۡضُرُونِ﴾ أي من أن يحضروني، فظاهره أن حضورهم شرّ يدعو الإنسان إلى الباطل، فهو حجة للهادي عليه السلام في طريقة إغواء الشيطان للإنسان.

﴿٩٩-١٠٠﴾ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ * لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ راجع إلى ما تفيده الآيات من قوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ من متاركة الكفار.

كأنه قيل: تاركهم فغايتهم الندامة عند الموت ﴿إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ﴾ أنتَ وملائكتك الحاضرون لقبض روحي ارجعوني إلى حالتي التي كنت فيها حالة العيش بسلام ﴿لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا﴾ أي ارجعوني لهذا الغرض ﴿لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ﴾ من أهل ومال فأصلح أهلي بدعوتهم إلى الإيمان وأنفق على ضعفاء المؤمنين وفي معاونة الإسلام ﴿كَلَّآۚ﴾ زجر عن هذا الطلب ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ﴾ طلب الرجعة للغرض المذكور ﴿هُوَ قَآئِلُهَا﴾ في حال أن ﴿مِن وَرَآئِهِم﴾ هو وأمثاله ﴿بَرۡزَخٌ﴾ حاجز عن العودة إلى الحياة والعيش ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ ليرجعوا إلى الله فيسألهم ويحكم فيهم ويعذبهم.

أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَـٰلِحُونَ

﴿١٠١﴾ ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ يوم يسمعون الصيحة وبعثوا كلهم من تقدم موته ومن تأخر ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ لأن الأنساب لم يبقَ لها معنى فقد الغيث ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ﴾ [عبس:٣٤-٣٦] ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾ [النحل:١١١] ﴿وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ لا يسأل والد ولده، ولا أخ أخاه، ولا زوج زوجه مثلاً كيف صرت بعدي؟ فالمراد سؤال العطف ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس:٣٧] وهذا السياق في الكفار.

فأما المؤمنون فهم يتساءلون، كما قال تعالى: ﴿فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ [الطور:٢٥-٢٦] وقال تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [الصافات:٥٠] فالتساؤل بينهم مذكور في السور (المكية) و(سورة المدثر) من أقدمها.

﴿١٠٢﴾ ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ ﴿فَمَن﴾ تفريع على ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ فالمعنى: يبعثون ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ بعد البعث عند الحساب، وثقل الموازين كناية عن العمل الصالح مع الإيمان ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ كما قال تعالى في أول السورة: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

﴿١٠٣﴾ ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ﴾ ﴿خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ لفقدانه الحسنات المقبولة، فلم يكن له ما يرجح موازينه بل كانت فارغة ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ فحياتهم ليست لهم إنما هي لجزائهم بما يستحقون؛ لأنهم ﴿فِى جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ﴾ لا يموتون.

﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ

﴿١٠٤﴾ ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ معناه: تشويه حتى تقلص شفته العليا وتبلغ وسط رأسه وتسترخي شفته السفلى» انتهى.

وفي (أساس البلاغة): «لفحته النار: أحرقت بَشَرتَه» انتهى، وفي (الصحاح): «لفحته النار والسموم: أحرقته» انتهى، وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾ مكشرون أسنانُهم مكشوفة، قال في (الصحاح): «الكلوح: تكشر في عبوس» انتهى.

﴿١٠٥﴾ ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ ﴿أَلَمْ تَكُنْ﴾ أي قد كانت ﴿ءَايَتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ والسؤال سؤال تقرير على قيام الحجة عليهم وعلى تكذيبهم بآيات الله.

﴿١٠٦﴾ ﴿قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ لم يجحدوا مجيئ آيات الله تتلى عليهم ولا أنهم كانوا بها يكذبون واعترفوا أنها غلبت عليهم شقوتهم، ولعل المراد غلبت عليهم أسباب شقوتهم من هوى أنفسهم وحسدهم وكبرهم ونحو ذلك، فهي التي حملتهم على التكذيب بآيات الله فشقوا بسببها، ونظيره في الاعتذار قول قوم موسى: ﴿مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾ [طه:٨٧].

ويحتمل: أنهم أرادوا أن حظهم كان هو الشقاء أمراً طبيعياً كما يزعم الجاهلون كما يجعلون الغنى من حسن الحظ ولكن هذا لا يستقيم؛ لأنهم يعترفون كما في قولهم ﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ فلا يستقيم إلا أن يكونوا أرادوا أن شقوتهم بعثتهم على التكذيب بآيات الله وغيرها من أسباب النار،

عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾

فيعود إلى الإقرار وكان كالمعنى الأول، وهو الموافق لما في (سورة الملك): ﴿فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ [آية:٩] وقولهم: ﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾ أي غاوين عن طريق الحق.

﴿١٠٧﴾ ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ ﴿أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾ من النار ﴿فَإِنْ عُدْنَا﴾ إلى التكذيب ﴿فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ نستحق التعذيب.

﴿١٠٨-١١١﴾ ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ * إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ * فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سُخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ * إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ ﴿ٱخْسَـُٔوا۟﴾ زجر لهم عن طلب الخروج وإهانة لهم.

قال الشرفي في (المصابيح): «وهذه كلمة تستعملها العرب للكلاب خاصة، ثم يستعيرونها للناس» انتهى، وقال الراغب: «خسأْتُ الكلبَ فخسأ، أي زجرته مستهيناً به فانزجر، وذلك إذا قلت له: اخسأ» انتهى.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ﴾ تعليل لهذا الزجر بأنهم كانوا يسخرون من أولياء الله ويضحكون بسبب أنهم ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ فالسخرية منهم من أجل هذا محاربة لدين الله ومحاولة للصد عن سبيل الله، وكذلك الضحك منهم.

﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾﴾

فعظمت الجريمة من حيث هي ظلم لأولياء الله من أجله نسوا ذكر الله وخذلوا وعظمت من حيث هي استخفاف بدين الله، وعظمت من حيث هي محاربة لدين الله فاستحق أعداء الله أن يقول لهم: ﴿ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا﴾ أي في النار ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ﴾ أي المؤمنين ﴿بِمَا صَبَرُوٓاْ﴾ على الإيمان والتقوى، وتحملوا أذى الكفار في سبيل الثبات على دين الله ﴿جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ ﴿أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ لأنهم هم الذين يزحزحون عن النار ويدخلون الجنة دونكم، قال الراغب: «الفوز: الظفر بالخير مع حصول السلامة» انتهى.

﴿١١٢-١١٤﴾ ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ * قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ قال الله لأهل النار: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ في الحياة الأولى ﴿عَدَدَ سِنِينَ﴾ فالسؤال عن عدد المدة من السنين ﴿قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ إما أنهم قد نسوا، وإما أرادوا تقليل المدة؛ لأن المدة الطويلة إذا مضت كانت كأنها قليل، ويحتمل: كم لبثتم في بطن الأرض بعد الموت.

والأول أظهر لقوله تعالى: ﴿قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ بمعنى: أنهم اغتروا بالحياة الدنيا وما كانت ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ لأنهم يرون الأموات منهم ويعلمون أنهم يموتون، فلو كانوا يعلمون ما اغتروا بها لكنهم يأبون أن يسمعوا أو يعقلوا، ففاتهم العلم الذي كان ينقذهم من الاغترار بالدنيا.

أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ

﴿١١٥﴾ ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ ﴿أَفَحَسِبْتُمْ﴾ التفات من خطاب أهل النار إلى خطاب من وعظهم الله تعالى بالموعظة الماضية، وهي تأكيد للإنذار وتبكيت على حسبان أنما خلقهم الله عبثاً لغير حكمة قال في (الصحاح): «العبث: اللعب» انتهى.

وقال الراغب: «العبث: أن يخلط بعمله لعباً ـ ثم قال ـ : ويقال لما ليس له غرض صحيح عبث» انتهى.

﴿وَأَنَّكُمْ﴾ وحسبتم أنكم ﴿إِلَيْنَا﴾ إلى ملك يوم الدين ﴿لَا تُرْجَعُونَ﴾ بالبعث والسوق إلى موقف الحساب حيث يسألهم رب العالمين الذي يرجعون إليه وحده لا شريك له.

﴿١١٦﴾ ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ ﴿فَتَعَٰلَى﴾ تفريع على ما مر في السورة من الاحتجاج والرد على المشركين والمكذبين للرسل والمكذبين بيوم الدين (تعالى): ترفع وتنزه عن كل ضعف وعن كل نقص وعن كل عيب ﴿ٱلْمَلِكُ﴾ الذي له الأمر والتصرف في عباده ﴿ٱلْحَقُّ﴾ لأنه المالك لكل شيء، فولايته على كل شيء هي الحق، ولا شريك له في الملك؛ لأن كل من سواه مخلوق مربوب غير خالق.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ لا إله إلا هو كما دل عليه ما مر من الاحتجاج؛ لأن هذه الآية كالنتيجة لما مر، رب العرش الكريم مالك الملك الكريم، ووصف الملك بأنه كريم يفيد: أنه مُلك عدلٍ وتفضلٍ ورحمةٍ وإحسانٍ وإنعامٍ وكلِّ معاني الكرم.

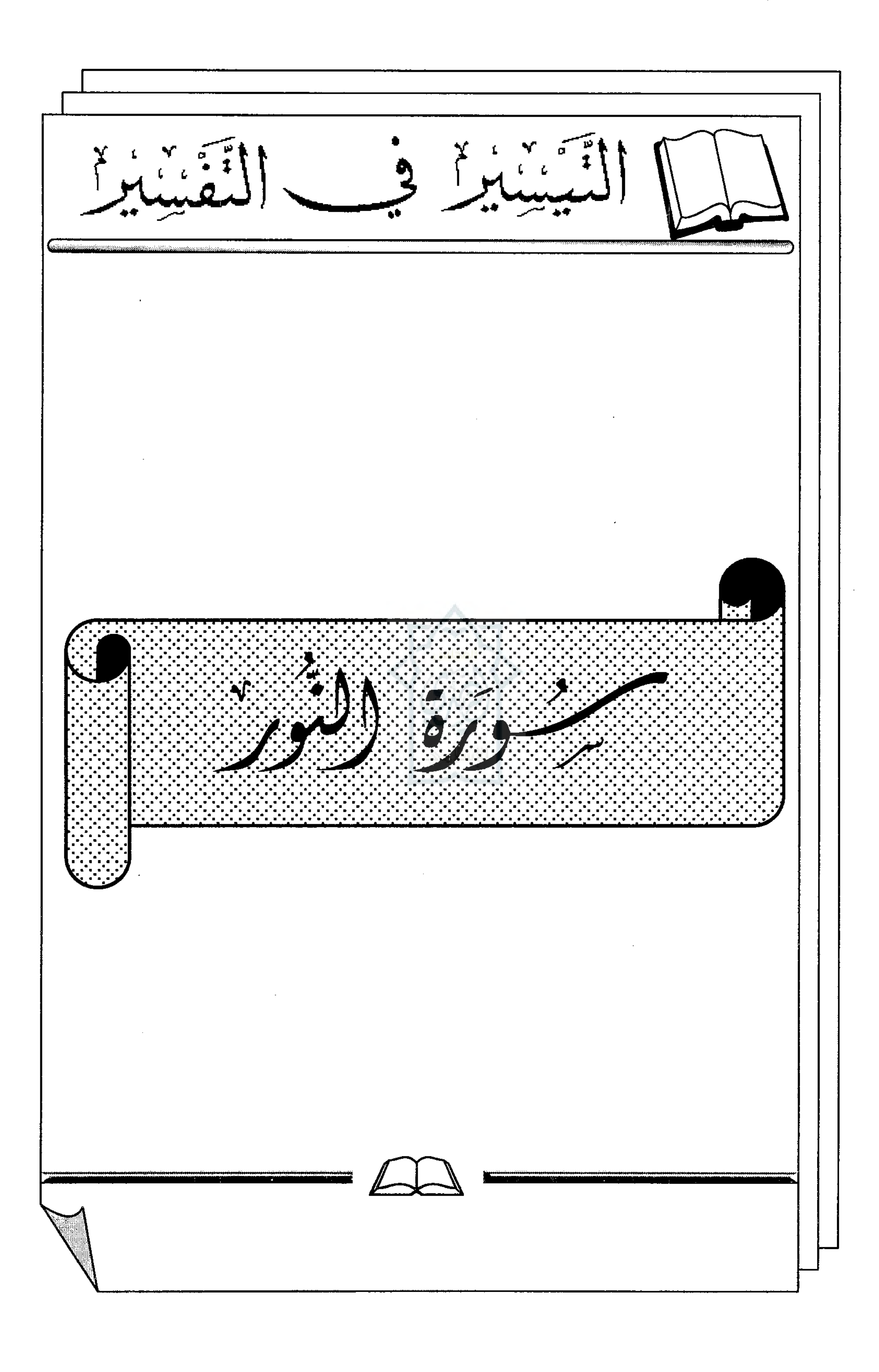
إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾

﴿١١٧﴾ ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ ﴿وَمَن يَدْعُ﴾ **عطف على (آية التوحيد)** الذي ثبت بالحجج الماضية ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ يبين دليلاً آخر على بطلان الشرك وهو أنه ﴿لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ﴾ يوم القيامة ﴿عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ المالك لـه الذي استحق عليه أن يعبده ولا يشرك به، ولا حساب لـه عند معبوده الذي دعاه مع الله ولا يفيده شيئاً بل يكفر بعبادته ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ لأنعم الله بعبادة غيره وباستعمال نعمه في معصيته، فلا يظفر بما رجا في عبادة غير الله من النصر أو الشفاعة أو أي نفع أو دفع بل يخيب رجاؤه وتتحقق خسارته.

﴿١١٨﴾ ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ ﴿وَقُل﴾ عطف أي ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ عبادة لربك وشكراً لنعمته عليك بما نزل لك من الهدى والنصر بالحجة على الأعداء، وفي هذا الدعاء مشابهة لقول نوح عليه السلام: ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [هود:٤١] في أنه تذلل لله تعالى وابتعاد من العجب.

والحمد لله رب العالمين،،،




التيسير في التفسير
سورة النور



سورة النور آياتها ٦٤ ترتيبها ٢٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا

مبتدأ تفسير (سورة النور) وهي (مدنية)

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ هذه الآية تدل على أهمية استماع المخاطبين لهذه السورة واتباعها وتنفيذ أحكام الله تعالى فيها؛ لأن الله جل جلاله أنزلها وهو أحكم الحاكمين ومالك العالمين يحكم ما يريد ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ إما فرضنا أحكامها وأوجبناها، كقوله تعالى: ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾ [مريم:٨٠].

قال الشرفي في (المصابيح): «وأصل الفرض القطع، أي جعلناها واجبة مقطوعاً بها، أو فرضنا عليك تبليغها وعليك قبولها وتصديقها» انتهى.

وقال الشرفي في تفسير قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾ [القصص:٨٥]: «أي أوجب عليك تلاوته والعمل بما فيه وحمّلك تأديته وتبليغه» انتهى.

وإما فرضنا السورة أوجبنا تعلمها وتبليغها وحفظها، وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ آيات هي آيات السورة كلها ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ مفهومات بسهولة واضحة الدلالة ﴿لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ حين تفهمونها فلا تغفلوا عن التمسك بها.

﴿٢﴾ ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا

طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿ٱلزَّانِيَةُ﴾ المرأة الزانية التي جامعها أجنبي عنها ليس بينهما زواج ولا هو مالك لها ﴿وَٱلزَّانِي﴾ الرجل الذي واقعها ﴿فَٱجْلِدُواْ﴾ هذا أمر موجّه إلى المسلمين، فعليهم أن يعينوا من يقيم أمر الله في هذه الآية وفي سائر آيات الحدود ﴿كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا﴾ من الزانية والزاني ﴿مِاْئَةَ جَلْدَةٍ﴾ فالزاني يجلد مائة جلدة، والزانية تجلد مائة جلدة.

﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ﴾ لا تأخذكم لا تغلبكم رأفة بهما ﴿فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ لا تأخذكم في دين الله في طاعته وامتثال أمره، والرأفة رحمة ورقة فلا يجوز التقصير في طاعة الله لأجل الرحمة لهما بل على المسلمين إقامة الحد كاملاً كما أمر الله، والجلد: ضرب يؤلم الجلد ولا يكسر عظماً ولا يتجاوز الجلد إلى الجرح في اللحم خلف الجلد، وقد قدر بأن تكون العصى التي يجلد بها في غلظ الإبهام ويضرب الضارب ملصقاً عضده بضلعه.

وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ تأكيد للحكم وأن لا تأخذ المسلمين بهما رأفة إن كانوا يؤمنون، والمعنى الحث على امتثال أمر الله في هذا الحد والدلالة على أن من تغلبهم الرأفة بهما ليسوا مؤمنين؛ لأن الإيمان بالله يبعث على طاعته، والإيمان باليوم الآخر يبعث على الحذر من النار وطلب الجنة.

وقوله تعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ﴾ دلالة على أنه لا يجوز أن يقام الحد في السرّ؛ وذلك ليجتمع على المحدود العذاب البدني والعذاب النفسي، وقوله: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لعيتبروا بعذابهما، ولعله أيضاً لأن افتضاحهما عند المؤمنين أشد عليهما من حضور الفساق والله أعلم وأحكم، وهذا الحكم عام للبكر والمحصن.

يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًاۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ

﴿٣﴾ ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وهذا أدب للزاني والزانية وتنزيه للمؤمنين من تزوج أهل هذه الرذيلة، فلا تحل الزانية لمؤمن ما لم تتب إلى الله، ولا يحل الزاني لمؤمنة ما لم يتب إلى الله.

﴿٤-٥﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًاۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ * إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿يَرْمُونَ﴾ يقذفون ﴿ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ أي يقولون فيهن إنهن زنين، شبه هذا الكلام فيهن برميهن بحجر أو نحوها؛ لأنه موجع، والمحصنات المصونات المحفوظات والعفيفات اللاتي يحصن فروجهن بالعفة واجتناب مواقع التهم.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ يشهدون عليهن بالزنا، وهذا يدل على أن المراد في قوله تعالى: ﴿يَرْمُونَ﴾ الرمي بالزنا؛ لأن الزنى هو الذي لا يحكم به إلا بشهادة أربعة أو إقرار أربع مرات.

وقد سبق في القرآن اشتراط الأربعة في قوله تعالى: ﴿وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ..﴾ الآية [النساء:١٥] وأيضاً هذه الآية معطوفة على حكم الزانيين فالعطف قرينة تعيّن أن المراد بالرمي الرمي بالزنا.

وقوله تعالى: ﴿فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةً﴾ فحد القاذف ثمانين جلدة، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدًا﴾ زجر عن القذف كما أن الحد زجر، فلا تقبل شهادة القاذف ولو ظن صدقه؛ لأن الله تعالى سلب أهليته لقبول شهادته ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ الخبثة الفاجرون؛ لأن القذف ظلم من حيث أنه موجع للمقذوفة، ومن حيث أنه يجر عليها محاولة الزناة لأن يزنوا بها، ولذلك فالقذف مفسدة عظمى، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ فقد خرجوا من الفسق بالتوبة.

قال الشرفي في (المصابيح): «ومذهب أهل البيت عليهم السلام أن رد شهادة القاذف معلق بنفس القذف، والتأبيد ينصرف إلى كونه قاذفاً، فإذا تاب عن القذف قبلت شهادته» انتهى.

وقد يقال: في هذا نظر؛ لأن في (مجموع الإمام زيد بن علي): عن أبيه عن جده عن علي عليه السلام قال: «لا تجوز شهادة متهم، ولا ظنين، ولا محدود في قذف، ولا مجرب في كذب..» إلخ، والمحدود في القذف لا تخرجه التوبة عن كونه محدوداً في قذف؛ لأن المراد بالمحدود الذي قد حد في قذف.

ويؤكد هذا أن الآية فيها تأبيد بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدًا﴾ ولو كان مثل غيره من الفساق ما كان للتأبيد فائدة، ولا كان في ذكره في الآية مزيد زجر؛ لأن القاذف يرجو التوبة فتعود له مكانته في قبول الشهادة، فأما الاستثناء بقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ﴾ فليس راجعاً إلى النهي عن قبول شهادته، بدليل أن الله تعالى فسر الاستثناء بقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ والرحمة والمغفرة تخرجه من اسم الفسق وعذابه، ولا يلزم أن تعود له المكانة في المجتمع كما كان قبل القذف.

وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَـٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَـٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلْخَـٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَـٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ

ألا ترى أن القاتل عمداً لا يرث ولو تاب، أو لا ترى أن آدم عليه السلام تاب وقبل الله توبته ولم يلزم من ذلك أن لا يخرجه من الجنة مع أن الله تعالى قد غفر له ورحمه، وأيضاً يمكن أن يظهر التوبة وهو غير تائب، فلو شرع الله قبول شهادته لأدى إلى قبول شهادة من لم يتب؛ لأن الأحكام تتبع الظاهر، وهو ضرر عظيم لإمكان أن يشهد بالزنى كما قذف أولاً ـ والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟﴾ من الإصلاح أن يبرئ المقذوفة ويعلن بتبرئتها عند كل من بلغه القذف.

﴿٦-٧﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَـٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَـٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ﴾ أي والرجال الذين يرمون أزواجهم أي الزوجات بالزنا فيقول إن زوجته زنت ﴿وَلَمْ يَكُن﴾ له ﴿شُهَدَآءُ﴾ أي الأربعة الشهداء على الزنا ﴿إِلَّآ أَنفُسُهُمْ﴾ أي يشهد الزوج لنفسه.

﴿فَشَهَـٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَـٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ﴾ أي يقول: أشهد بالله إني لمن الصادقين ﴿وَٱلْخَـٰمِسَةُ﴾ أي والشهادة الخامسة لفظها: ﴿أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ أي هذه الشهادة تجزي عن أربعة شهداء، إلا أن من شرط قبولها في حد المرأة أن تنكل عن الأيمان على أنها بريئة، وأما سقوط حد القذف عن الزوج فقد سقط بأيمانه.

ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَـٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو

قال الإمام الهادي عليه السلام في (الأحكام): «فإن نكل الزوج [أي عن الشهادات الخمس أو الأربع] ضرب ثمانين وخلّي، وذاك حد القاذف، وإن نكلت هي [أي زوجته نكلت عن الأيمان أنه كاذب] رجمت» انتهى المراد.

﴿٨-٩﴾ ﴿وَيَدْرَؤُاْ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَـٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ * وَٱلْخَـٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ ﴿وَيَدْرَؤُاْ﴾ يدفع ﴿عَنْهَا﴾ عن المرأة المقذوفة ﴿ٱلْعَذَابَ﴾ الحد المحكوم به على الزانية ﴿أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَـٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ﴾ فتقول هي: أشهد بالله ﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ في رميه لي بالزنا ﴿وَٱلْخَـٰمِسَةَ﴾ الشهادة الخامسة ﴿أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ إن كان زوجها من الصادقين في قذفه لها بالزنا، أي دعت على نفسها بغضب الله إن كان زوجها صادقاً في رميه لها بالزنا.

﴿١٠﴾ ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ فضل الله ورحمته بما أنزل لكم من الحكمة والهدى، وحذف جواب ﴿لَوْلَا﴾ لفهمه من السياق فقد شرع الله حد الزانيين لتطهير المجتمع من هذه الرذيلة، وشرع حد القاذف بلا بينة له على ما رمى به المقذوفة.

وكان أمر الزوجين مهمّاً، إن شرط على الزوج أربعة شهداء فكيف يستطيع أن يصبر عند عدم الشهداء لا يقتل ولا يقذف، وإن حكم بتصديق دعواه عليها بدون شهداء فقد يكون كاذباً، فكان اللعان حلاً للمشكلة؛ لأن الزوج يشتفي به حيث قد دعت على نفسها بغضب الله وعرضت نفسها لعذاب الآخرة على كذبها إن كانت كاذبة أو يشتفي بالحد إن نكلت عن الأيمان، وهي تشتفي إن كان كاذباً عليها بأنه قد دعى على نفسه بلعنة الله وهو كاذب، وهي مباهلة عظيمة يتوقع فيها على الكاذب عذاب شديد.

بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ أي ولولا أن الله تواب حكيم فكان من حكمته تعريض العاصين للتوبة فأمهلهم ولم يعاجلهم بعذاب من عنده وأحالهم على العقوبة المشروطة بالبينة أو بالإقرار، وجعل القاذف كاذباً إذا لم تكن له بينة، كل ذلك تعريض على التوبة بالإمهال فضلاً ورحمة؛ ولأنه سبحانه ﴿تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ ومن حكمته هذا التشريع الخاص بالزوجين المناسب لما بينهما من الحق الخاص.

﴿١١﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ﴾ الإفك قال فيه في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: الكذب والبهتان» انتهى.

﴿عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ جماعة منكم أو خاص بالجماعة المتعاضدة، قال الراغب: «والعصبة: جماعة متعصبة متعاضدة» انتهى، وفي (الصحاح): «والعُصْبة من الرجال ما بين العشرة إلى الأربعين» انتهى.

﴿لَا تَحْسَبُوهُ﴾ أيها المؤمنون البريئون ﴿شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لعواقبه الحميدة التي جاءت بسببه من تعظيم الإفك والتشنيع على أهله وتبرئة من نسب إليه، والزجر عن العودة إلى الإفك وغير ذلك ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم﴾ أي من الذين جاءوا بالإفك ﴿مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ﴾ بقدر ما اكتسب يلحقه الإثم.

﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ﴾ معظمه من حيث ابتداه وأكده وأغرى به الآخرين ﴿لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ولم يسم القرآن من قيل فيه، ولا كلفنا معرفته

لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ ﴿١٢﴾ لَّوۡلَا جَآءُو عَلَيۡهِ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَۚ فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ فِي

فلا حاجة إلى اعتماد رواية الزهري وأتباعه في قولهم: إنها (عائشة) وإن كانت هذه الرواية قد اشتهرت، ولم يشتهر أنها (مارية القبطية) فإن سبب الشهرة ليست كثرة الأسانيد إلى من يوثق به إنما سببها نشر الرواية في الكتب الكثيرة، وقد يحتمل أن لبني أمية غرضاً في جعلها عائشة ـ والله أعلم ـ بالحقيقة فلنقف ولا نتكلف ما لا نعلم.

﴿١٢﴾ ﴿لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ﴾ ﴿لَّوۡلَآ﴾ قال (صاحب مغني اللبيب) في ﴿لَّوۡلَآ﴾: «الثالث أن تكون للتوبيخ والتنديم فتختص بالماضي» انتهى المراد.

﴿إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ﴾ حين سمعتم الإفك ﴿ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا﴾ فكان على المؤمنين حين سمعوا الإفك أن لا يظنوا صدقه ولا يشكوا بل يرجحوا كذبه لظنهم الخير فيمن قيل فيه الإفك لإيمانه؛ لأن على المؤمنين أن يظن بعضهم في بعض خيراً فضلاً عن أن يظن سوءاً.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ﴾ عطف على ﴿ظَنَّ﴾ أي لولا قالوا إذ سمعتموه ﴿هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ﴾ فجزمتم بكذب قائله وحكمتم أنه إفك مبين استناداً إلى ما تعرفونه من إيمان المقول فيه الإفك، فكان هذا هو واجبكم إذ سمعتموه، وقوله: ﴿مُّبِينٞ﴾ أي بيّن أنه إفك.

﴿١٣﴾ ﴿لَّوۡلَا جَآءُو عَلَيۡهِ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَۚ فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾ يترجح أن هذه الآية من حكاية مقول: ﴿قَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ﴾

ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ

أي حكموا بأنه إفك، واحتجوا لذلك بأن (أهل الإفك) لم يأتوا بالشهداء، وبدءوا بقولهم: ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ يريدون: أنه لو كان صدقاً لجاءوا عليه بأربعة شهداء يشهدون أنهم رأوا ما زعموه، فإن كان صدقاً فهلاً جاءوا عليه بأربعة شهداء ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ﴾ إنما تناقلوا الكلام بينهم بدون بينة ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي في حكمه ﴿هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ تنزيهاً للمؤمنين من التهمة فضلاً عن تصديق قول الزور.

﴿١٤﴾ ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ﴾ بالإمهال والتعريض على التوبة والرحمة في الآخرة لمن تاب والفضل له ﴿لَمَسَّكُمْ فِي مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ﴾ أفضتم: خضتم بغير تقيّد ولا تحرز من الإثم ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ عذاب عظيم عاجل صيانة للمجتمع الإسلامي من ذلك الخوض.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «﴿فِي مَآ أَفَضْتُمْ﴾ معناه: خضتم فيه» انتهى، وقال (صاحب الصحاح): «وأفاضوا في الحديث، أي اندفعوا فيه» انتهى.

﴿١٥﴾ ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ ﴿إِذْ﴾ إما متعلق بقوله تعالى: ﴿لَمَسَّكُمْ﴾ أي لمسكم عذاب عظيم حين تلقون الإفك بألسنتكم، وإما متعلق بقوله تعالى: ﴿أَفَضْتُمْ﴾ فيه تفصيل لمعنى الإفاضة.

بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾

وقوله تعالى ﴿تَلَقَّوْنَهُۥ﴾ أي الإفك ﴿بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ أصل تلقي الكلام أن يكون بالسمع والقلب، ولكن المخاطبين يتلقونه ليحدثوا به فكأنه لم يصل إلى أسماعهم إنما انتقل من لسان تكلم به إلى لسان حكاه من غير نظر في صحته أو أنه غير صحيح.

وقوله تعالى: ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ بأفواهكم وحدها ليس للقلب به علم، وقوله تعالى: ﴿مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي الإفك ما ليس لكم به علم، أي القول الذي ليس لكم به أي بمعناه علم ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ﴾ ذلك القول ﴿هَيِّنًا﴾ سهلاً لا بأس به ﴿وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ لما فيه من المفاسد:

فمنها: أن تقبله وحكايته يعطي المنافق وسيلة لسوء القول في المسلمين وبالتالي لسوء القول في الإسلام بناء على صدق الخبر، فمتى شاء المنافق قذف امرأة فشاع كلامه بين المسلمين، وإذا تكرر ذلك وظن الناس أن الإفك صدق عابوا على المسلمين وظنوا أن لو كان الإسلام حقاً ما كان أهله بهذه الحالة.

ومنها: ظلم المقذوفة والإغراء بها.

ومنها: تهوين الزنا في نفوس ضعفاء الإسلام إذا اعتقدوا انتشاره بين المسلمين فيجرِّيهم ذلك على الزنا، فكان تطهير المجتمع عن القذف وسيلة لتطهيره عن الزنا أو تقليله كما أن حد الزاني وسيلة لذلك.

﴿١٦﴾ ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ مرّ الكلام في لولا أنها تنديم وتوبيخ

﴿إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم﴾ هلاّ قلتم حين سمعتم الإفك: ﴿مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَـٰذَا﴾ لأن قبحه معروف من قبل نزول هذا الزجر من حيث أنه ظلم للمقول فيه من حيث أنه تسرع إلى هتك عرض مؤمن.

فقد كان اللائق بالسامعين أن يقولوا لمن كلمهم به، ما يكون لنا أن نتكلم بهذا بدلاً من أن تسارعوا إلى نقله ﴿مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَـٰذَا﴾ نفي بالغ؛ لأن معناه أنه لا يليق بحالنا كأنه لا يتصور وقوعه منا، وهو أبلغ مما لو قالوا: لن نتكلم بهذا، وللفرق بينهما قال تعالى: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ فجمع بين نفي الوقوع وما هو قريب من نفي الإمكان.

﴿سُبْحَـٰنَكَ﴾ قال (صاحب الصحاح): «والعرب تقول: سبحان مِن كذا إذا تعجّبَت منه، قال الأعشى:

أقول لما جاءني فخره سُبحانَ مِن علقمة الفاجر

يقول العجب منه إذ يفخر» انتهى.

وحكى الشرفي في [المصابيح] عن بعضهم أن سبحانك تحتمل التعجب والتنزيه، قلت: فيحتمل التعجب من حلم الله تعالى حين لم يعاجل أهل الإفك، ويحتمل: التعجب من جرأتهم على هذا البهتان العظيم.

قال الراغب: «بُهِت أي دَهِش وتحيّر، ثم قال: ﴿هَـٰذَا بُهْتَـٰنٌ عَظِيمٌ﴾ أي كذب يُبهَت سامعه لفضاعته» انتهى، وقوله: ﴿عَظِيمٌ﴾ يدل على زيادة قبحه على قبح بعض البهتان.

(١٧) ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ ﴿يَعِظُكُمُ﴾ يحذّركم ويزجركم، قال الراغب: «الوعظ زجر مقترن بتخويف» انتهى.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَـٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ

﴿أَن تَعُودُوا۟﴾ أي يعظكم من أن تعودوا أو لئلا تعودوا ﴿لِمِثْلِهِۦٓ﴾ لمثل هذا الإفك الذي قد وقع ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي أنكم إن عدتم لمثله فلستم بمؤمنين.

﴿١٨﴾ ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾ فهي حجة عليكم ونعمة.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ عليم بكل شيء ومنه الحكمة في التكاليف، ومنه علمه تعالى بمن يمتثل ومن يخالف، حكيم فقوله حق وصواب ليس فيه شيء خارج عن الحكمة، وكذلك حكيم في إمهال بعض العصاة ثم تعذيبهم وغير ذلك، فكل قوله وحكمه وفعله مطابق للحكمة، ومن ذلك زجره وتحذيره من الإفك.

﴿١٩﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَـٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَـٰحِشَةُ﴾ مثل الزنا يحبون أن يشيع ينتشر ويتعدد وقوعه ويكثر فاعلوه ممن هم في الأصل من الذين آمنوا، وهذا الحب سببه عداوة أهله للإيمان ورغبتهم في أن تسوء سمعة المؤمنين ليزهد الناس في الدخول في الإسلام، فهؤلاء هم الكفار والمنافقون ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ بمثل حد القذف إن قذفوا وغيره مما ينال المنافقين ﴿وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ عذاب النار ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ يترجح: أن (الواو) في ﴿وَأَنتُمْ﴾ للحال أي أن الله يعلم الشيء في حال أنكم لا تعلمونه، فهو يعلم مَن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة؛ لأنه ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾.

عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟

﴿٢٠﴾ ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿لَوْلَا﴾ جوابها محذوف يدل عليه السياق فالله سبحانه يعلم أسرار العباد كلها ومعاصيهم الكثيرة ومنها الزنا والقذف ومحبة أن تشيع الفاحشة، فلولا فضل الله على المؤمنين بفتح باب التوبة والإمهال والدعوة إليها ورحمته بذلك وبالتعليم والمواعظ.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ معطوف على ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ لولا ذلك ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ بالعباد، والرأفة رحمة عظيمة، والله تعالى منزّه عن الرقّة ولكن يفعل لعباده فعل الرؤوف الرحيم بالدعوة إلى ما ينجيهم من عذابه والتحذير من أسباب عقابه، قال تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران:٣٠] وكذلك بنعم من الحلال تغني عن الحرام وغير ذلك.

﴿٢١﴾ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ الخطوة: اسم مصدر خطا يخطو ﴿خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ﴾ المعاصي التي يتبعه فيها العصاة واحدة بعد واحدة، كأن الشيطان يمشي في طريقه خطوة فيتبعه العاصي فيزيد خطوة وهكذا حتى يصير بعيداً من الحق.

ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ

وعلى هذا: تفيد الآية وجوب المسارعة إلى التوبة عند كل زلة، وأن لا يؤخر التوبة حتى تقع زلة ثانية، بل وأن يحذر الذين آمنوا من الوقوع في الزلة الأولى لأنها أول خطوة من خطوات الشيطان ﴿وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ﴾ أي الشيطان ﴿يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ فاتباعه يؤدي إلى الفحشاء والمنكر وهما من المعاصي إلا أن الفحشاء يفهم منها مثل: الزنا واللواط، والمنكر مثل: عقوق الوالدين، وظلم اليتيم..ونحوه مما تنكره قلوب الناس.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ بإرسال الرسول وإنزال القرآن وغير ذلك من أسباب الهدى وبالألطاف ﴿مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ لأن الإنسان يجتمع عليه الجهل وحب العاجلة وهوى النفس والشيطان فيكون أقرب إلى الخبث ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾ بالهداية إلى التعلم وإلى استعمال العقل وغير ذلك وعلى هذا فينبغي الاعتصام بالله بالعزم على طاعته وتقواه والجد في طاعته ومدافعة هوى النفس والإخلاص لله والدعاء بطلب التوفيق والتسديد والثبات على الطاعة وحسن الخاتمة.

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يسمع من يتبع خطوات الشيطان ويعلم ما يصنع وما يخفي وما يعلن، وكذلك يسمع من يذكر الله ويدعوه ويقول الحق ويجتنب القول الباطل ويعلم توبته وصلاح نيته.

﴿٢٢﴾ ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿يَأْتَلِ﴾ يستعمل بمعنى يقصر كقول امرئ القيس:

ألا رب خصـم فيك ألوى رددته نصيـح على تعذاله غير مؤتلي

أي غير مقصر في النصح والعذل، ويستعمل بمعنى: يحلف، والسياق يترجح فيه الأول؛ لأن الأغنياء مظنة التقصير في إيتاء أولى القربى واليتامى والمساكين وليسوا مظنة أن يحلف الواحد منهم أن لا يؤتي المذكورين كلهم لبعد أن يغضب عليهم كلهم إذا كان سليماً من النفاق، فالحث على ترك التقصير في الإنفاق هو المتوقع.

فإن قيل: ما المانع أن الخطاب للأغنياء المنافقين وهم مظنة أن يحلف الواحد منهم لبغضهم للمؤمنين كلهم؟

قلنا: إن قوله تعالى: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ وكذا قوله: ﴿مِنكُمْ﴾ دليل على أن الخطاب للذين آمنوا كما هو في أول الآية.

﴿أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ﴾ الواجدون لما يفضل عن حاجتهم وحاجة من ينفقون عليه ﴿وَٱلسَّعَةِ﴾ أي الواجدون للرزق الواسع الذين لم تضيَّق عليهم الحال ﴿أَن يُؤْتُوٓاْ﴾ أي يعطوا، وفي كلام الراغب: أن الإيتاء أخص من الإعطاء؛ لأنه قال: «الإتيان: مجيء بسهولة» انتهى.

و﴿أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أعم من الأقربين قالوا: هم مَن ولَدَه جدًّا أبويه ﴿وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ كانوا محتاجين وكان إعطاؤهم من الإنفاق في سبيل الله؛ لأنه معاونة لهم على الثبات على الهجرة في سبيل الله، كما أن منعهم مما دعا إليه المنافقون لينفضوا من عند رسول الله ﷺ وهو يعم المهاجرين في سبيل الله في أي عصر كانوا.

﴿وَلْيَعْفُواْ﴾ عمن آذاهم ﴿وَلْيَصْفَحُوٓاْ﴾ يستعملوا الحلم ويعرضوا عما وقع ممن آذاهم كأنه لم يقع، قال في (الصحاح): «وصفحت عن فلان، إذا أعرضت عن ذنبه» انتهى.

لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ

﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: معناه: أليس تحبون أن يغفر الله لكم، فإذا كنتم تحبون ذلك فتقربوا إليه بالعفو عمن أساء إليكم» انتهى المراد.

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فتعرضوا لمغفرته ورحمته.

﴿٢٣-٢٦﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ * يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ * ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ ﴿ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ المحفوظات من الزنا بصيانتهن وعفتهن ﴿ٱلْغَٰفِلَٰتِ﴾ عن وسائل خداع الرجال وحيل ميلهم إلى الزنا ﴿لُعِنُواْ﴾ طردوا من رحمة الله ﴿فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ﴾ ومن لعنهم في الدنيا جلدهم ثمانين، ولعل منه سلب التوفيق للتوبة؛ لأن هذا فيمن يعتاد القذف لا فيمن فرطت منه مرة قبل نزول القرآن بالزجر العظيم عن القذف، لأن قوله تعالى: ﴿يَرْمُونَ﴾ ظاهره فيمن يكرر ذلك ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ في الآخرة.

بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ﴾ الراجح: أن الجملة متعلقة بقوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ﴾ أي يعذبون يوم تشهد عليهم ﴿أَلْسِنَتُهُمْ﴾ بالقذف، وهذا خاص بهم والله أعلم ﴿وَأَيْدِيهِمْ﴾ تشهد عليهم ﴿وَأَرْجُلُهُم﴾ تشهد عليهم، الثلاثة الشهود ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من القذف وسائر معاصيهم.

﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم تشهد عليهم الثلاثة أي يوم القيامة ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ﴾ أي جزاءهم ﴿الْحَقَّ﴾ الذي يستحقونه بجرائمهم ﴿وَيَعْلَمُونَ﴾ يومئذ ﴿أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ لذلك يلجأون إليه حين تقطعت بهم الأسباب، فيقولون: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا﴾ [السجدة:١٢] ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ [المؤمنون:١٠٦] ﴿الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ الحق البيّن؛ لأنه حاسبهم وحكم عليهم ووجدوا ما وعدهم حقاً، فعلموا ﴿أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾.

﴿الْخَبِيثَاتُ﴾ من الكلمات ﴿لِلْخَبِيثِينَ﴾ فهم المستحقون لها ﴿وَالْخَبِيثُونَ﴾ أهل ﴿لِلْخَبِيثَاتِ﴾ ﴿وَالطَّيِّبَاتُ﴾ الكلمات الطيبات ﴿لِلطَّيِّبِينَ﴾ فهم المستحقون لها ﴿وَالطَّيِّبُونَ﴾ أهل ﴿لِلطَّيِّبَاتِ﴾ ألا ترى أن الفاجر يستحق أن يقال له: فاجر، وخبيث، وفاسق، وأشباه ذلك من الذم الصادق، والمؤمن يصلح أن يقال له: طيب، زكي، تقي، صالح..ونحو ذلك.

﴿أُولَٰئِكَ﴾ الطيبون ﴿مُبَرَّءُونَ﴾ مما يقول القاذفون الخبيثون ﴿لَهُم﴾ أي للطيبين ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أي ينجون من النار بمغفرة ذنوبهم ويدخلون الجنة يرزقون فيها رزقاً كريماً، رزقاً مصحوباً بالتكرمة لهم فيه وبه كما يكرم الأضياف.

لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ

﴿٢٧﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ابتداء موضوع يناسب الموضوع الماضي؛ لأنه يعين على العفة وعلى السلامة من التهمة ﴿لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ﴾ تطلبوا الأنس فتأمنوا من أن يكون صاحب البيت غير آذن، وتأمنوا من التهمة في الدخول، وتأمنوا من الوقوع في الفاحشة، وتأمنوا من الخلوة بالأجنبية.

﴿وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ أي تقولوا لأهلها: «السلام عليكم» ليأنسوا بدخولكم عليهم؛ لأن السلام إعلان أمان، ولئلا تبغتوهم بالدخول فجأة ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الأدب ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي أن لا تدخلوا حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها أي على أهل البيوت خير لكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ تنتبهون لفائدة هذا الأدب إذا عملتم به فالعمل به يبين لكم فوائده ـ والله أعلم.

﴿٢٨﴾ ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ﴾ لم يأذنوا لكم في الدخول بل قالوا لكم: ارجعوا ﴿فَٱرْجِعُواْ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ أطيب لكم فلا تأنفوا من الرجوع حين يقال لكم ارجعوا ولا تراجعوا في ذلك ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ فإن رجعتم علم وإن عصيتم هذا الأمر علم؛ لأنه بكل ما تعملون عليم.

فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ﴿٢٩﴾ قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ

﴿٢٩﴾ ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٖ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ﴾ ﴿جُنَاحٌ﴾ قال في (الصحاح): «والجناح: الإثم» انتهى ﴿أَن تَدۡخُلُواْ﴾ أي في أن تدخلوا؛ أو لأن تدخلوا أو نحو ذلك ﴿فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمۡ﴾ ظاهره أن يكون المتاع فيها قبل الدخول، وذلك مثل أن يكون في البيت بضاعة أو علف أو يكون البيت مخزناً للداخل، هذا الظاهر.

قال الشرفي في (المصابيح): «ومعنى ﴿فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمۡ﴾ أي منفعة كالاستكنان من الحر والبرد وإيواء الرجال والسلع والبيع والشراء، وفي [البرهان] متاع لكم يعني عروض الأموال التي هي متاع التجار» انتهى.

والأولى أن الآية تصدق على كل متاع حتى الظل، فأما المتاع الحاصل بالدخول كراحة المسافر فيدخل بالقياس؛ لأن ذلك مجاز، فأما المساجد فقد دل على دخولها للصلاة قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ..﴾ الآية وقوله تعالى: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ [التوبة:١٠٨] وغير ذلك، وأما القباب التي فيها الصالحون فالزيارة فيها بمنزلة الاستظلال؛ لأن الزيارة منفعة للزائر.

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ﴾ فلا يخفى عليه المقاصد الصالحة في الدخول والمقاصد الفاسدة وهو يجزي كلاً بما عمل.

﴿٣٠﴾ ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾ ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أبلغهم هذا الأمر

وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَا ۖ وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوۡ ءَابَآئِهِنَّ أَوۡ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآئِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوۡ نِسَآئِهِنَّ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٣١﴾

﴿يَغُضُّواْ﴾ الراجح: أنه جزم؛ لأنه في معنى الأمر، كأنه قيل: قل لهم غضوا، أو قيل ليغضوا، وعلى قول بعض النحاة: إن تقل يغضوا وهو مستقيم هنا لأن المؤمنين يطيعون الله ورسوله ﴿يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ﴾ ﴿مِنۡ﴾ للتبعيض والمعنى مفهوم من السياق.

وفي الحديث: «يا علي إن لك كنزاً في الجنة وإنك ذو قرنيها فلا تتبع النظرة النظرة فإنما لك الأولى وليست لك الأخرى» أخرجه الطحاوي في (شرح معاني الآثار) [ج٣/ ص١٥] وأخرجه ابن أبي شيبة في (المصنف) [ج١٢/ ص٦٤] وأحمد بن حنبل في (المسند) [ج١/ ص١٥٩] وأفاد في حاشية (المصنِّف) أنه أخرجه الحاكم [ج٣/ ص١٢٣] والمفهوم من الآية غض البصر عن النظر لشهوة وعن النظر الذي هو مظنة إثارة الشهوة.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾ تحذير من الإشارة بالعين ومن النظر كليهما لغرض فاسد.

﴿٣١﴾ ﴿وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَا ۖ وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبۡدِينَ

زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

﴿يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «وفي معنى هذه الآية من أولها يقول الهادي عليه السلام ما لفظه: «الغض من البصر: هو أن لا ترفع بصرها إلى من لا يجوز لها النظر إليه، وحفظ الفرج فهو حفظها عما حرم الله عليها، وما ظهر من الزينة فهو ما لا بد منه من الكحل والخاتم، فهذا ما لا يقدر[ن] أن يسترنه، والضرب بالخمر على الجيوب فهو إرخاء الخمر على الوجوه حتى تبلغ الصدور وتستر الوجوه كلها، والخُمر: فهي المقانع.

وأما قوله: ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ فيقول: أهل ملتهن من النساء المسلمات لا من الذميّات والمشركات، وهذه الآية تحرِّم على المسلمة إظهار زينتها والتبذل للذمية ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ فهن الذميات المملوكات فيقول لا جناح عليها أن تبديها للذمية إذا كانت مملوكتها دون الحرة منهن ﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ﴾ فقد قيل: إنهن العنانة الذين لا يأتون النساء ولا يقدرون عليهن ولا يرغبون فيهن ولا بهن أرب [لهم] في مجامعتهن، والطفل فهو الصغير من الغلمان أبناء الخمس والست والسبع.

﴿ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ فهم الذين لا يعلمو[ن] ما يكون بين الرجال والنساء ولم يفهموا ذلك ولم يقفوا عليه بعد، والضرب بالأرجل الذي نهين عنه كان المتبرجات في الجاهلية يفعلنه حتى يتحشتحش [كذا] الحلي ويصلصل الخلخال في أرجلهن فيسمع الرجال فيعلمون لا [كذا] أن في أرجلهن حلياً، فأمر الله سبحانه أن لا يفعلن من ذلك شيئاً» انتهى.

قوله: (والخُمر: فهي المقانع) أي ما تلبسه المرأة على رأسها تغطيه به، والخمار: ثوب يصلح إرساله من على الرأس إلى فوق الجيب بحيث يكون بعضه على الرأس وبعضه على الجيب [الجيب: هو ما يسمى في لهجتنا: الفِقرة ـ تمت].

وقوله تعالى: ﴿أَوِ ٱلتَّـٰبِعِينَ﴾ الراجح: أنهم الضعفاء في البدن والفكر فهم محتاجون إلى من يقوم بأمورهم؛ ولذلك فهم تابعون لمن يقوم بحاجاتهم يوجههم كيف شاء فيتبعون توجيهه فيما فهموا أو أطاقوا، وهم ثلاثة أصناف: صنف معاتيه ما بين المجانين والعقلاء وهم مع ذلك ضعفاء من أصل خلقهم، وصنف مجانين ضعفاء كذلك، وصنف شيوخ في أرذل العمر.

وقوله تعالى: ﴿لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ لضعف أبدانهم وأفكارهم وعدم الشهوة للنساء فيهم كلهم؛ ولذلك فهم كالأطفال الذين لم يظهروا على عورات النساء لم يعرفوا عورات النساء ولم يطلعوا عليها، والراجح في معنى عورات النساء هنا أنها مثل عورات البيوت وعورة الفارس أي جهات ضعفهن التي يدخُل من طريقتها عليهن من آرائهن، ويعبر عنها بنقاط الضعف، فهؤلاء غافلون عن ذلك معرضون عنه كما لا يخفى من إعراض الطفل الصغير.

وفي تفسير الإمام الهادي عليه السلام جعلهم أبناء سبع سنين فما دون وهو أحوط، وقوله: يتحشتحش لعله غلط، ولعل الأصل: يتحسحس بدون (تاء) بعد السين وبـ(سين) مهملة مكررة من الحسيس الصوت ـ والله أعلم.

وهذا الحجاب صيانة للنساء والرجال، وإبعاد لهم عن الفاحشة، كما أن تركه يسبب كثرة اغتصاب النساء، وهو أمر شنيع يجعل الناس كالحمير.

وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا

﴿٣٢﴾ ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿وَأَنكِحُواْ﴾ لعله يصدق على الزواج والملك الذي يحصل به النكاح، و﴿ٱلْأَيَـٰمَىٰ﴾: غير المزوجات من النساء وغير المزوجين من الرجال.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ﴾ وهن النساء اللاتي لا أزواج لهن، والأيامى من الرجال أيضاً» انتهى، يعني: الرجال الذين لا نساء لهم. وفي (الصحاح): «الأيامى: الذين لا أزواج لهم من الرجال والنساء» انتهى.

وظاهره الوجوب على أولياء النساء الأيامى أن يزوجوهن، وعلى من خطب إليه الكفو المرضي خلقه ودينه أن يزوجه إذا كان أيِّماً، وكذلك الوجوب على الإمام أن يزوج الأيِّم المعسر من بيت المال، فالأمر للجميع يتوجه إلى الإمام مثل آيات الحدود، وإنما خصصت للولي حيث يخطب عنده المستطيع؛ لأنه لا يتكلف كلفة تحوج إلى السلطة، والأمر الموجه إلى الكل يتوجه إلى من يختص به، كقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ﴾ [البقرة:٢٢١] ﴿وَلاَ تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة:٢٢١] ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق:١] وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ الراجح: أن المراد به: الصالحين للإنكاح وهو الصلاح المتعلق بالنكاح ببلوغهما سن النكاح وسلامتهما من الموانع عن النكاح من المرض والعيوب التي يفسخ بها النكاح، وكون كل منهما مأموناً على الآخر إن لم يرغب فيه وفي حال الغضب ونحو ذلك من وجوه الصلاح للنكاح للعبيد والإماء من القيام بالحقوق الزوجية ونحوها.

يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ

وقوله تعالى: ﴿إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ﴾ أي إن يكن الخاطب فقيراً فلا يتركوا إنكاحه لفقره، وقد روي عن جعفر بن محمد عن أبيه عليه السلام، أنه قال: «من ترك التزويج مخافة الفاقة أساء بربه الظن، إن الله ـ عزَّ وجل ـ يقول: ﴿إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾» رواه محمد بن منصور المرادي في (أمالي أحمد بن عيسى عليه السلام) بإسناده، وكم من غني ينقلب فقيراً وكم من فقير يستغني، فحبس البنت عن الفقير انتظاراً للغني غلط، ومخالفة للآية الكريمة.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ واسع الرحمة واسع النعمة، عليم بأحوال عباده وبالمطيع منهم والعاصي وبكل شيء، وتزويج الأيامى من أسباب الصيانة عن الزنا.

﴿٣٣﴾ ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ﴾ (اللام) للأمر، والعفة: الكف عما يعاب، وفي قصيدة عنترة إحدى (المعلقات السبع):

يخبرك من شهد الوقيعة أنني ... أغشى الوغى وأعف عند المغنم

وروي عن أمير المؤمنين علي عليه السلام بعد قتله لعمرو بن ود:

وعففت عن أثوابه ولوَ انَّني ... كنت المقطَّر بزَّني أثوابي

وأما في الآية الكريمة فالمراد ـ والله أعلم ـ العفة عن الزنا ونحوه، قال الشرفي في (المصابيح): «والسين للطلب، كأن المستعفف [في نسخة المصابيح: كأن المستضعف وهو غلط وما أثبته يرشد إليه السياق] طالب من نفسه العفاف وحاملها عليه» انتهى.

فيطلب العفاف من نفسه بالتخويف لها من عذاب الله واجتناب جلساء السوء وشغل الأوقات بعمل أو مطالعة أو كتابة واجتناب ما يثير الشهوة من مأكول أو نظر أو رائحة أو سماع أو تفكير ويعمل لتقريب الزواج بالدعاء وتلاوة يس في كل ليلة وتحصيل المال ولو قرضاً ويحافظ على رجاء الزواج قريباً ويحذر القنوط ويصمم على الصبر؛ لأن العزم الصادق يعين على العفاف وإذا خطب مراراً ولم يرضوا فليخطب في امرأة من أهل بلدِهِ وعند من يرغب فيه لعقيدة أو مذهب أو غير ذلك كحسن الخلق.

فإن كان السبب فقره خطب عند أهل الدين، وإن كان السبب عيباً في بعض أخلاقه أصلح نفسه، وإن كان السبب حبسه لقريبته عن الزواج زوَّجها ولا يمسكها لتصنع له الطعام، أو كان السبب حبسها عن زوجها أرسلها لزوجها، ولا يظلمها لئلا يعاقب بتأخير زواجه، ويستعين بالله بتقواه وبالدعاء.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُغۡنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ أي يصبروا على حاجة النكاح فيثبتوا على العفة حتى يغنيهم الله بزواج أو ملك من فضله فيرجوا فضله؛ لأن فضله واسع.

﴿وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَكَاتِبُوهُمۡ إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗا﴾ الكتاب المكاتبة بين العبد ومولاه على قدر من المال معلوم يدفعه العبد لسيده على أنه حرّ متى أوفى بالمال المذكور، وقوله تعالى: ﴿إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗا﴾ شرط في وجوب الكتاب، والخير الدين والعقل الراجح والنية الصالحة، ولكن العلم إنما يتعلق بالمشاهد كالصلاة والصدق وطاعة السيد ونحو ذلك مما يدل على الخير الباطن فيحمل الخير عليه.

وقوله تعالى: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡ﴾ ظاهر الخطاب بهذا الأمر أنه للسيد المكاتِب لعبده فيعينه ولو بالإنفاق عليه، وفي (مجموع الإمام زيد بن علي): عن أبيه عن جده عن علي عليه السلام: أنه كان يستحب أن يحط من المكاتب ربع الكتابة، ويتلو ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡ﴾ انتهى.

وهذا يدل على أن الأمر موجَّه إلى السيد المكاتب كما يفيده السياق، وقوله تعالى: ﴿مِّن مَّالِ ٱللَّهِ﴾ إشارة إلى الترغيب بأن الله أعطاكم وأنتم عباده فاعطوهم كما أعطاكم ربكم، ونظير: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلاَ تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور:٢٢].

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡ﴾ دليل على أن معنى مال الله هو ما رزق السادة؛ لأنه مال الله آتاه المكاتِب لعبده، فأما تفسيره بمال الله من الغنائم أعني سهمه فيبعِّده قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡ﴾ والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ﴾ و﴿فَتَيَٰتِكُمۡ﴾ يعم الإماء المملوكات، والبغاء: الزنا من المرأة، يقال للزانية: بغيّ، وفي القرآن الكريم: ﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريم:٢٨].

وفيه أيضاً: ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُنْ بَغِيًّا﴾ [مريم:٢٠] والفتاة: الشابة، ولا يبعد أنه يعم الجواري المملوكات والبنات؛ لأن بنت الرجل تضاف إليه كما تضاف المملوكة.

وقد حكى الشرفي في (المصابيح: «عن الحسن بن أحمد الناصر بن يحيى الهادي عليه السلام أنه قال: ومعنى هذا أن يقول الرجل: لا أزوِّج حرمتي إلا من ذي شرف ومال ويسار وحسن حال، فيدعوها المنع من التزويج إلى ما حرم الله عليها فنهاه عن تعريضها للفتنة وأمره بتزويجها، والفتاة المرأة التي لم تزوّج، الحَدَثة، والإحسان إليهن والتأديب بآداب الله خير من حمية الجاهلية، والبغاء: الزنا المشتهر بعلامة تكون لصاحبته» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ فيه تشنيع بالمكره لهن لأن من حقه أن ينهاهن عن البغاء فضلاً عن أن يأذن به لهن فضلاً عن أن يكرههن عليه، فإذا أكرههن عليه وهن يردن التحصن كان ذلك دليلاً على لؤم شنيع.

وقال الشرفي في (المصابيح): «وإنما أدخل ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ لأن الإكراه لا يتأتى إلا مع إرادة التحصن» انتهى، ونظيره قولك: إن لقيت فلاناً فأبلغه السلام، أي: إنه لترتيب الطلب عليه لا أنه شرط.

وقال الشرفي ـ أيضاً ـ : وكان لعبد الله بن أبَيّ ـ رأس المنافقين ـ ست جوار يكرههن على البغاء وضرب عليهن ضرائب فشكت منهن معاذة ومسكة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فنزلت» انتهى، يعني نزلت الآية، وفيها: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ﴾ أو نزلت هذه الجملة، وقوله: وضرب عليهن ضرائب، أي على جواريه كلفهن أن يدفعن له الضريبة لأنهن يأخذن من الزناة أجراً على الزنا، وقوله: ومسكة في (الكشاف): ومسيكة.

وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ

وقوله تعالى: ﴿لِّتَبۡتَغُواْ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي لا تكرهوهن لهذا الغرض الدنيء عرض الحياة الدنيا، وليس شرطاً وإنما هو لمنع الإكراه على كل حال، ولو كان لهذا الغرض، وبالأولى إذا لم يكن إلا لمجرد السفاهة أو للتوصل إلى الزنا عوضاً عن الزنا وذلك أقبح ﴿وَمَن يُكۡرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ يغفر للمكرهات إذا لم يفعلن البغاء إلا للإكراه، وقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ﴾ تأكيد وتحقيق لهذا الشرط في الغفران للمكرَهات والرحمة.

﴿وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖ وَمَثَلٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ ﴿٣٤﴾ ﴿ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَاتٍ﴾ هي آيات القرآن ومنها ما سبق في هذه السورة من الآيات فهي بينات قاطعات لعلة الراجعين إلى أعمال الجاهلية ورجسها والباقين على الجهل بما أنزل الله من الدين ﴿وَمَثَلٗا﴾ هي صفة ثانية للقرآن باعتبار ما فيه من العبر، أو هي بمعنى: أنزلنا مثلاً، أي في القرآن.

﴿وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ كذلك صفة للقرآن، أو بمعنى في القرآن، والموعظة: الزجر والتخويف، وقوله تعالى: ﴿لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ خصهم تعالى لأنهم هم الذين ينتفعون بالموعظة فيتركون أسباب العذاب، فالحجة بينة بالغة على من أبى والنفع عظيم لمن اتبع.

ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ

﴿٣٥﴾ ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ هذه الآية الكريمة كالتعليل للآية التي قبلها.

فقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ كقوله تعالى في نبيئه: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب:٤٦] إنها استنارت ببيانه وإلهامه وبما جعل من العقول والبصائر والحاصل بهداه لأهل السموات وأهل الأرض، ألا ترى أنه تعالى سمى القرآن نوراً، فقال تعالى: ﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى:٥٢] فالبصائر نور، والرسل نور، والكتب نور، وكل ذلك من الله تعالى.

وقد نبَّه على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ وقوله: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ﴾ والشيء لا يضاف إلى نفسه، فتبين أن المراد: أنه منوِّر السموات والأرض، والمراد: النور الذي ترى به البصائر، ولذلك شبهه بنور المصباح ليدل على ما نعقله بما نحسه، أما نور الأبصار فهو من الشمس وغيرها، فهو لا يمثل بنور المصباح، والمصباح: نار يستضاء بها في الظلمة، والمشكاة: كوّة غير نافذة وهي تجمع الضوء ﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ﴾ تحفظه لا يطفأ وتجمع نوره وتقوّيه ﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾ أي يشع منها نور ينضاف إلى نور المصباح، والدري: من الكواكب.

قال في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «﴿كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ وهي من النجوم التي تجري، والدري: المضيء» انتهى المراد، والمعنى: المضيء بالنسبة إلى الكواكب أي أن ضوءه أقوى، ولعله سمي درياً على التشبيه؛ لأن الدر يرى في الظلام كأنه ينير، وفي (معلقة لبيد):

وتضيء في وجه الظلام منيرة كجمانة البحري سل نظامها

يعني كالدرة، وفي (صحاح الجوهري): «والكواكب الدّريّ: الثاقب المضيء، نسب إلى الدُّر لبياضه، وقد يكسر (الدال) فيقال: دِرّي، مثل سُخري وسِخري» انتهى المراد.

﴿يُوقَدُ﴾ المصباح ﴿مِن﴾ زيت ﴿شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ بارك الله فيها، فكان من بركتها الزيت الذي فيه فوائد، منها: أنه يوقد به المصباح، ومنها: أنه دهن نافع، ومنها: أنه صبغ للآكلين، وقد مر في (سورة المؤمنون): ﴿تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ..﴾ الآية [آية:٢٠].

﴿زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ مواجهة للشمس في النهار كله فثمرها الزيتون صالح ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ أي أنه قوي الصلاحية للإنارة به في المصباح حتى يكاد ينير ﴿وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ يوقد بها.

﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ لأنه اجتمع نور المصباح ونور الزجاجة كما مر، واجتمع النور في الزجاجة في المشكاة، وهذا يدل على أن نور الله عظيم، وإنما تعمى عنه قلوب الجاهلين والغافلين لإعراضهم عنه.

﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ فيهتدون به ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ﴾ ليفهموا فهماً كاملاً كما في هذه الآية الكريمة ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ فضَرْبُه للمثل وتمثيله هو الصواب، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٧٤].

فإن سأل سائل فقال: لماذا شبه نور الله سبحانه بهذا النور المذكور ولو شبه بضوء الشمس كان أدل على قوة نور الله؟

قلنا: إن مركز نور الله ضمائر أوليائه، كما قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ..﴾ [الحديد:٢٨] وقال تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا..﴾ [الأنعام:١٢٢] فالتشبيه بهذا الاعتبار يناسبه المثل المذكور في الآية الكريمة، ويؤكد هذا تعقيب الآية بذكر المساجد وعمارها للدلالة على مواقع هذا النور في الأرض، وعلى هذا فمن أعظم مواقع هذا النور رسول الله ﷺ وعلي والحسنان وفاطمة صلى الله عليهم وعلى آلهم وسلم.

وقد روى الطبراني في (الكبير) [ج١٢/ ص٣١٧] بإسناده: عن عبد الله بن عمر في قوله: ﴿كَمِشْكَاةٍ﴾ قال: جوف محمد، والزجاجة: قلبه، والمصباح: النور الذي في قلبه.. إلى آخره. ومن شعر الإمام الناصر الحسن بن علي الأطروش، رواه الإمام المنصوربالله في (الشافي):

فاجهد لكل الذي يرضى الإله	وحبل عمرك بالإمهال موصول
فأنت من دَوْحَةٍ زيتونة وقدت	فيها لنور إله الخلق تمثيل
نور إذا غشي الأنوار مشرقه	أضحى لها فيه تغسيق وتأفيل
نور يقل بهذا الناس عارفه	له لدى علماء الحق تأويل
أتى بشعيانه في سفره وأتى	بذكر أوصافه موسى وحزقيل
محمد وعلي والبتول ومن	قد كان يأتيهم وبالوحي جبريل
وعترة المصطفى بالرسِّ عنصرنا	الطاهرين المقاديس البهاليل»

انتهى المراد، ولعله سقط من القصيدة بيت قبل هذا البيت أو أبيات.

تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم

وقوله تعالى: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ يرغّب في طلب الهدى لنوره، وقوله: ﴿مَن يَشَآءُ﴾ أي من هو أهل لأن يهديه الله بزهده في الدنيا وورعه وتقواه وتفرغه لعبادته، وقوله تعالى: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ﴾ أي ليفهموا المعاني بضرب الأمثال، كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٣].

﴿٣٦-٣٧﴾ ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ * رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾.

﴿فِى بُيُوتٍ﴾ إما متعلق بما قبله أي هذا النور في بيوت، أو يهدي الله لنوره في بيوت، فأما تعلقه بمشكاة فبعيد؛ لأن المثل قد انتهى وعقب بقوله تعالى: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَلَ لِلنَّاسِ﴾ وإما خبر مقدم والمبتدأ مؤخر، وهو قوله تعالى: ﴿رِجَالٌ﴾ وهو غير خارج عن السياق؛ لأنه يبيّن رجالاً جعل الله لهم نوراً هو المعرفة الكاملة المؤدية إلى الإيمان القوي.

﴿فِى بيُوتٍ﴾ وحقيقة البيت هو ما يصلح لأن يبات فيه، والمساجد يبيت فيها العاكفون والمسافر الذي لم يجد مأوى.

وقوله تعالى: ﴿أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾ أي يرفع شأنها باحترامها وتطييبها واجتناب إدخال ما ينفر فيها كرائحة الثوم وتجنيبها النجاسات، وقد فسرها الإمام الهادي عليه السلام في (الأحكام) بالمساجد في باب الاعتكاف أعني ﴿فِى بيُوتٍ﴾ وذكر الآية هذه والتي بعدها مما يفهم منه ارتباطهما.

وقـول الله تعـالى: ﴿وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ﴾ يرشـد إلى إكثـار الـذكر في المساجد لفضله على الذكر في غيرها، والذكر النافع مـا توافـق عليـه القلـب واللسان؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ [الأعراف:٢٠٥].

وقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ * رِجَالٞ ..﴾ يشعر حيث قال تعالى: ﴿رِجَالٞ﴾ ولم يقل أناس أن المحمود هو ملازمة الرجال للمسـاجد دون النساء، وكذلك قوله تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾ [التوبة:١٠٨] حيث خصهم بالذكر، ولم يقل: مصلون أو أناس ـ والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ﴾ التجارة مبايعة في طلـب الـربح، وقوله تعالى: ﴿وَلَا بَيۡعٌ﴾ لعله خصه بالذكر؛ لأنـه قـد يكـون لـيس لغـرض التجارة بل للحاجة إلى بيع السلعة، ولأن المتَّجر يحرص علـى البيـع أكثـر إذا وجد المشتري، فهؤلاء الذين حبب الله إلـيهم الـذكر والتسـبيح لا يصـرفهم عنهما تجارة ولا بيع.

وقال تعالى: ﴿لَّا تُلۡهِيهِمۡ﴾ إشارة إلى أن الاشتغال بـالأغراض الدنيويـة يعتـبر لهواً وشغلاً يضيع به الوقـت لغـير فائـدة تسـتحق إضـاعة الوقـت عنـد عمـار المساجد الذين يحيونها بالذكر والتسبيح، وإشارة إلى أن المهم اجتنـاب مـا يلـهي القلب عن إحضاره للـذكر؛ لأن التجـارة والبيـع يمكـن أن يصـحبهما في أكثـر الوقت الذكر والتسبيح باللسان لا بالقلب؛ لأنه ينصرف إلى التجارة والبيع.

وقوله تعالى: ﴿وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ يفهـم منـه: أنـه لا يصـرفهم عـن إقامتهـا تجارة ولا بيع فما هي الإقامة؟!

الراجح: أنها الجماعة في أفضـل الوقـت، وإحضـار الـذهن والإخـلاص والذلة لله مع إتمام أذكارها وأركانها، فهذا إقامة للصلاة مثـل إقامـة السـوق إذا كثر فيه الناس وتحرك البيع والشراء.

مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ

وقوله تعالى: ﴿وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ يفيد أنهم يؤتون الزكاة ولا يشغلهم عن إيتائها تجارة ولا بيع، وأن ذلك لا ينافي تفرغهم للعبادة؛ لأن إيتاء الزكاة من العبادة.

وقوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ فالخوف: هو المحرك لهم خوف اليوم العبوس القمطرير، الذي تتقلب لهوله القلوب والأبصار.

قال الشرفي في (المصابيح): «أي تَغيَّر فتضطرب فيه القلوب من الهول، وتشخص فيه الأبصار فلا تقرّ في أماكنها من الفزع» انتهى المراد، وهذا موافق لقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم:٤٢] ولو فسر تغير القلوب: بفراغها من العقول، لكان موافقاً لقول الله تعالى: ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ [إبراهيم:٤٣] وقوله تعالى: ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى..﴾ الآية [الحج:٢].

﴿٣٨﴾ ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ﴿لِيَجْزِيَهُمُ﴾ يسبح له ولا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة كل ذلك يفعلونه ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾ وأحسن ما عملوا هو القُرَب؛ لأن من الأعمال ما هو مباح أو مكروه ومنها الزلات التي يتوبون منها، والمعاصي إن كانت قد سبقت منهم قبل صلاحهم وتابوا منها فلا يجزونها، ولكن يجزون أحسن أعمالهم أي يثيبهم الله على أحسن ما عملوا.

﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ زيادة على جزائهم تفضُّلاً، وهذا يدل على رغبة في الثواب مع الخوف من هول يوم القيامة وسوء الحساب ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ رزق الدنيا ورزق الآخرة ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ على الرزق، وفيه إشارة إلى أن الله يرزقهم لتفرغهم لعبادته واشتغالهم بها عن كسب الرزق إلا أنه قد يقدر في الدنيا عليهم رزقهم لحكمة في ذلك.

ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ

﴿٣٩﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ ﴿أَعْمَٰلُهُمْ﴾ إما حسنة كإطعام الجائع وقرى الضيف وإغاثة الملهوف فهذه ﴿كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ﴾ أي لا يجزونها في الآخرة، بل هي يومئذ كسراب، والسراب: شيء يرى في النهار في الحر يرى من بعيد كأنه ماء، وقوله تعالى: ﴿بِقِيعَةٍ﴾ أي بقيعان إن كان جمعاً مثل جار وجيرة، وإلا فهو: القاع المستوي من الأرض، كما قال في (الصحاح) و(مفردات الراغب).

﴿يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً﴾ الظمآن العطشان، أي يحسب السراب ماء ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ﴾ أي جاء الظمآن السراب ﴿لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ لأنه إنما يرى من بعيد، وهكذا أعمال الكافر كعمارة المشركين للمسجد الحرام وكذا ما عمل الإنسان ولو لم يكن كافراً في حال العمل ثم كفر بعده فقد حبط بالكفر، فهو وإن زعموا أنه قربة لهم لا يفيدهم في الآخرة شيئاً.

﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾ عنده حيث صار في المفازة، وهذا من المثل، وإن طابق الممثل في إثبات جزاء كفره وتوفيته حسابه اللائق به، فهو أبلغ في التمثيل، ومعنى أيقن بالله من بعد فوات الأوان وذلك عند الوقوف بين يديه يوم القيامة.

قال سيد قطب في (تفسيره): «والتعبير يرسم لحال الكافرين ومثالهم مشهدين عجيبين حافلين بالحركة والحياة، في المشهد الأول يرسم أعمالهم كسراب في أرض مكشوفة مبسوطة يلتمع التماعاً كاذباً فيتبعه صاحبه الظامئ

وهو يتوقع الريّ غافلاً عما ينتظره هناك، وفجأة يتحرك المشهد حركة عنيفة فهذا السائر وراء السراب الظامئ الذي يتوقع الشراب الغافل عما ينتظره هناك يصل فلا يجد ماء يرويه، إنما يجد المفاجأة المذهلة التي لم تخطر له ببال المرعبة التي تقطع الأوصال وتورث الخبال ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾ الله الذي كفر به وجحده وخاصمه وعاداه وجده هنالك ينتظره، ولو وجد في هذه المفاجأة خصماً له من بني البشر لروّعه وهو ذاهل غافل على غير استعداد، فكيف وهو يجد الله القوي المنتقم الجبار ﴿فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾ هكذا في سرعة عاجلة تتناسق مع البغتة والفجأة» انتهى.

ولا يقال: يلزم من هذا تشبيه الخالق أي من قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾ لأنه لم يذكر له مكاناً محيطاً أو مقِلاً، ولا قال إنه وجده بالرؤية أو بحاسة، والوجدان لا يتوقف على ذلك، وأيضاً التشبيه لا يستلزم أن يكون المثل واقعاً بل قد يكون مفروضاً مقدراً متخيَّلاً، كما قال الشاعر:

فكأن محمرّ الشقيق ... إذا تصوب أو تصعّدْ
أعلام ياقوت نُشِرنَ ... على رماح من زبرجد

وأما قوله تعالى: ﴿عِندَهُۥ﴾ فهو كقوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ..﴾ الآية [المجادلة:٧] وفي كلام أمير المؤمنين عليه السلام: «ومع كل شيء لا بمقارنة» انتهى.

ويمكن اعتبار المعية والعندية من حيث أنه لا مسافة بينه تعالى وبين عباده؛ لأنه ليس له مكان، والبعد يتوقف على كونه في مكان بعيد.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ إما بمعنى إحاطة علمه بكل شيء جملة وتفصيلاً من غير نظر ولا تأمل، وإما بمعنى ﴿سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ الآتي يوم القيامة أي حسابه للكافرين؛ لأن كل آت قريب، والأول أرجح.

بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ

وتقدم قولي: أعمالهم إما حسنة.. الخ، فأقول: وإما قبيحة كالشـرك ووأد البنات وغير ذلك، وفيه المثل بقول الله ـ عزّ وجل ـ:

﴿٤٠﴾ ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ فأعمال الذين كفروا توقع في قلوبهم الظلمات المتراكمة لأنها تعمي بصائرهم وتبعدهم عن معرفة الحق، ومع كثرة القبائح والاستمرار عليها تتراكم ظلماتها في قلوبهم، فهي كما لو اجتمع وتراكم طبقات من الأمواج، والأمواج: هي ما يجتمع بقوة الرياح عليه إذا تموج البحر طلعت الأمواج على ظهره، والبحر اللجي، قال فيه الإمام زيد بن علي عليه السلام: «بحر لجّيّ مضاف [أي منسوب] إلى اللجّة، وهي معظم البحر» انتهى.

فهذه الظلمات في البحـر اللجـي مـن قبـل أن يطلـع مـوج فوقـه، فـإذا طلـع تضاعفت الظلمة؛ لأن الماء البعيد القعر في أسفله ظلمة، فإذا علاه مـوج اشـتدت الظلمة وتضاعفت، فإذا علا الموج موج آخر زاد تضاعف الظلمة، فإذا كان فـوق هذه الأمواج سحاب تضاعفت هناك الظلمة، كمـا قـال تعـالى: ﴿ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ﴾ مَن في تلك الظلمة ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ لشدة الظلمـة، فبين الكافر وبين نور الهدى مثل ما بين من في هذه الظلمات وبين ضوء النهـار في النهار وما بينه وبين ضوء النجوم والقمر في الليل.

قال الشرفي في (المصابيح): «﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ أي لم يقارب أن يرى يـده، فضلاً أن يراها لشدة سواد الظلمة» انتهى.

صَٰٓفَّٰتٍۖ كُلٌّ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي

ويحتمل: أنها كقوله تعالى: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة:٧١] أي كادوا أن لا يفعلوا، وفائدة ذلك: الإشارة إلى أنه إنما فقد النور الذي يعطيه الله أولياءه، فأما البصيرة فقد بقي له منها ما تقوم به عليه الحجة والله أعلم، ولا نعلم من المثل أنه يفيد: عدم الضوء بالكلية في النهار ولم يذكر فيه الليل.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ معناه: أن الله تعالى هو واهب النور لأوليائه ﴿وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا﴾ هو الكافر ﴿فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد:٣٣].

قال الشرفي في (المصابيح): «قال الهادي عليه السلام: النور هاهنا فهو زيادة الله للمهتدين هدى في هداهم وما يؤتيهم الله سبحانه من تقواهم فأخبر الله سبحانه أن من لم يقبل الهدى المبتدأ لم يجعل له نوراً بزيادة في الهدى، فالذين لم يجعل لهم نوراً فهم الذين لم يقبلوا هدى الله ودينه وهم المستوجبون للخذلان المتكمهون في الضلال، وهم الذين ذكر الله ـ عزَّ وجل ـ أنه لم يجعل لهم نوراً» انتهى.

وقال الشرفي ـ أيضاً ـ حاكياً عن (البرهان): «فالظلمات: ظلمة الشرك، وظلمة الشك، وظلمة المعاصي» انتهى المراد.

﴿٤١﴾ ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٍۖ كُلٌّ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾ ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ كلمة تعجيب مما يذكر بعدها ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلطَّيۡرُ﴾ ﴿مَن﴾ كلمة تستعمل فيمن يعلم، فأما الملائكة والجن فظاهر.

وأما الطير فنزلت منزلة من يعلم لما عندها من معرفة الله تعالى؛ ولذلك تسبحه ولا مانع من ذلك، لأن (الهدهد) قد أفاده بقوله فيما حكى الله عنه: ﴿أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [النمل:٢٥-٢٦] وخاطبه نبي الله سليمان عليه السلام خطابه للعقلاء: ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [النمل:٢٧] فقال: ﴿مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ وهو جمع عقلاء، فدل ذلك على: أنه ممكن غير بعيد في سائر الطير، فحمله على الحقيقة هو الظاهر.

وقوله تعالى: ﴿صَٰٓفَّٰتٍۖ﴾ حال أي تسبح حال كونها صافات لأجنحتهن فهي آية عظيمة قدرتهن على صف الأجنحة في الهواء أي بسطها لتطير ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمَنُ﴾ [الملك:١٩].

﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ كل من في السموات والأرض والطير قد علم بما وهبه الله من النور ﴿صَلَاتَهُۥ﴾ أي دعاءه أي أنهم يدعونه وهو الذي علمهم الدعاء وعلمهم التسبيح ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾ أعم من الدعاء والتسبيح؛ لأنه ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٩] فخبره عنهم أنهم يسبحونه صدق وحق.

(٤٢) ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ الملك: ولاية الأمر والنهي، والتصرف في عباده كيف يشاء من إعزاز وإذلال ورفع ووضع وتكريم وإهانة وغير ذلك ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن:٢٩] يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد في السموات والأرض إلا أنه كرم أهل السموات لأنهم مطيعون ﴿لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٧].

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ ليحكم بين عباده وفيهم بما يشاء وله الملك يومئذ وحده ولذلك إليه المصير وحده، والعطف في أول الآية على ذكر التسبيح له.

سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ

﴿٤٣﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ من دلائل ملكه ومن تصرفه في مملكته ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا﴾ يدفعه ليجتمع ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ﴾ يضم بعضه إلى بعض ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا﴾ متراكماً بعضه فوق بعض.

﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ الودق: في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «﴿ٱلْوَدْقَ﴾ المطر وخلاله بين السحاب» انتهى ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾ أي ينزل من برد أي قليلاً بالنسبة إلى قدرته على أكثر منه بكثير ينزله ﴿مِن جِبَالٍ فِيهَا﴾ أي في السماء، قيل: الجبال: السحاب على التشبيه.

قال الشرفي في (المصابيح): «وقال محمد بن القاسم عليه السلام: السماء هنا السحاب، والجبال ـ والله أعلم ـ ما كثف من السحاب وعظم، وقد زعم بعض من يقول من العامة أن في السماء جبالاً من برد، والتأويل الأول ـ والله أعلم ـ أشبه بالصواب والقصد، قال الشرفي: ومثل هذا ذكر الحسين بن القاسم عليه السلام» انتهى المراد.

وقال سيد قطب في (تفسيره): «إن يد الله تزجي السحاب وتدفعه من مكان إلى مكان، ثم تؤلف بينه وتجمعه فإذا هو ركام بعضه فوق بعض،

فإذا ثقل خرج منه الماء والوبل الهاطل وهو في هيئة الجبال الضخمة الكثيفة فيها قطع البَرَد الثلجية الصغيرة، ومشهد السحب كالجبال لا يبدو كما يبدو لراكب الطائرة وهي تعلو فوق السحب أو تسير بينها، فإذا المشهد مشهد الجبال حقاً بضخامتها ومساقطها وارتفاعاتها وانخفاضاتها، وإنه لتعبير مصور للحقيقة التي لم يرها الناس إلا بعد ما ركبوا الطائرات» انتهى.

ولو قال: إن قدرة الله تزجي لكان أفضل وأسلم، وفي جمع السحاب بالتأليف بينه آية عظيمة؛ لأن الرياح لا تكفي لو استرسلت من جهة واحدة إلى جهة واحدة بل كانت تجري به مفرقاً أو تلاشيه فضلاً عن أن يجتمع وتسوقه إلى بلد ثم يبقى حتى يمطر ما يغيث أهل البلد.

وما اختاره محمد بن القاسم عليه السلام قبل سيد قطب هو الراجح؛ لأن قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَرَدٍ﴾ راجع إلى قوله: ﴿وَيُنَزِّلُ﴾ ولو كان بياناً لجبال ما بقي ذكر للمنزَّل.

وقوله تعالى: ﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ﴾ أي بالبرد المنزل ﴿مَن يَشَآءُ﴾ لا يمنعه مانع؛ لأن الملك له في عباده وبلاده والله غالب على أمره: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الأنبياء:٤٤] ﴿وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ﴾ رحمة لهم ﴿يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ﴾ أي ضوءه حين يلمع ﴿يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ لقوته وسرعته.

قال الراغب في (المفردات): «السنا: الضوء الساطع» انتهى، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: ضوء برقه» انتهى، كقوله تعالى: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ [البقرة:٢٠] وفي ذلك دليل على قدرته تعالى وعلمه وجعله ذلك من مصدر الماء ومركزه مثل جعله النار من الشجر الأخضر.

وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖۖ فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖۚ يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٤٥﴾ لَّقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖۚ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٤٦﴾

﴿٤٤﴾ ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ وهذا من تصرف الملك في مملكته فهو من دلائل ملكه، فالليل والنهار كل منهما تتقلب أحواله بالطول تارة والقصر تارة، والحر والبرد جاريان مجرى الصفة لهما، وكذلك تختلف بالإقبال ثم الإدبار كل ذلك دلائل على مقلب الأحوال ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ ومن عبرتها أنها تدل على تقليب أحوال الإنسان بين العز والذل، والغنى والفقر، والصحة والسقم وغير ذلك، وقوله تعالى: ﴿لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ أي البصائر تشبيه بالأبصار التي ترى بها المرئيات.

﴿٤٥﴾ ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖۖ فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖۚ يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ وهذا من تصرف الملك في مملكته ﴿خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖ﴾ الراجح: أنه المني وهو ماء متشابه فيخلق منه دواب مختلفة، منها ما ﴿يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ﴾ كالحنش يمشي على بطنه بسرعة عجيبة.

﴿وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ﴾ كالطير والإنسان ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖ﴾ كالأنعام، وهذا كالمثل للأنواع المختلفة لا حصر لأقسام المختلفات، فمن الحيوان ما يمشي على أكثر من أربع ﴿يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ ولعل هذا إشارة إلى ما لم يذكر من أنواع الدواب.

﴿٤٦﴾ ﴿لَّقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖۚ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ ﴿ءَايَٰتٖ﴾ من القرآن ﴿مبيِّنات﴾ ولذلك يفهمها العرب ومن تعلم العربية.

وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ

ففي هذه الآيات الدلالة على الآيات الكونية الدالة على الله تعالى كما مر ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ من عباده، وقد فسرهم سبحانه بقوله: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [الزمر:١٨] فهو تعالى يهديهم بهذا القرآن ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

﴿٤٧﴾ ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَيَقُولُونَ﴾ عطف على ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا﴾ أي ومع هذه الآيات المبينات يقولون أي بعض من حول الرسول الذي يتلوها عليهم يقولون: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ﴾ وما جاء به من الله ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ﴾ عن الرسول وعما أمر به يتولى ﴿فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ أي من هؤلاء الذين يقولون: ﴿ءَامَنَّا﴾ ﴿مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ من بعد أن قالوا: ﴿ءَامَنَّا﴾ وأطعنا فأخلفوا ما وعدوا وانكشف للمؤمنين كذبهم في دعوى الإيمان ﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الكاذبون المخلفون لما وعدوا ما هم ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ نفي مؤكَّد يبين كذبهم في دعوى الإيمان، فقابلوا الآيات البينات بخلاف ما هو الواجب.

﴿٤٨﴾ ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾ إن الإيمان يدعو المؤمن إلى طلب حكم الله في المتنازع فيه؛ لأن حكم الله ورسوله هو الحق لكن هؤلاء المدعون للإيمان إذا ﴿دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾ لا يريدون حكم الله ورسوله فأين دعواهم الإيمان.

﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾

﴿٤٩﴾ ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ ﴿يَأْتُوٓا۟﴾ إلى رسول الله ﴿مُذْعِنِينَ﴾ منقادين لحكم الله ورسوله لا لأنهم مؤمنون بل لأنهم قد عرفوا أن الحكم لهم، فالمحاكمة إلى الرسول يحصل بها غرضهم الدنيوي، يدل على ذلك إعراضهم حين لا يكون الحق لهم.

﴿٥٠﴾ ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ تَغَيُّر عما تقتضيه فطرتها ﴿أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟﴾ شكوا فيما قد ادعوا أنهم آمنوا به ﴿أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ أي يجور في الحكم ﴿بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ لأنهم لم يؤمنوا وزعموا كذباً أنهم آمنوا ووعدوا بالطاعة وأخلفوا الوعد وأعرضوا عن حكم الله ورسوله وهو الحق وهربوا من الحق فهم الظالمون لا المؤمنون، ومثل هؤلاء أكثر أهل زماننا، ولعلها ضربت عليهم الذلة والمسكنة من أجل ذلك، فلن تعود لهم العزة إلا برجوعهم إلى الله.

﴿٥١﴾ ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ ﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الظافرون بالجنة الناجون من النار؛ لأنهم أهل الإيمان الصحيح الصادق؛ ولذلك يريدون الحق من الله ورسوله سواء كان لهم أم عليهم في الدنيا، فهم المفلحون لا المدعون للإيمان كذباً.

﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ﴾ يشير إلى أن ذلك قول المؤمنين فيما مضى وفي الحال وعلى الاستمرار المتجدد كلما ﴿دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.

﴿٥٢﴾ ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ﴾ فيما أمر وما نهى عنه ويطع رسوله فيما أمر به وما نهى عنه ﴿وَيَخْشَ ٱللَّهَ﴾ يخفه مع تعظيم كما مر عن الراغب ﴿وَيَتَّقْهِ﴾ وقد مر تفسير المتقين في (سورة آل عمران) في قول الله تعالى: ﴿..أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ..﴾ إلى قوله: ﴿..وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آية:١٣٣-١٣٥].

﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «الفائز: هو المبعد من عذاب الله والصائر إلى رحمته» انتهى المراد، وفي (الصحاح): «الفوز: النجاة والظفر بالخير» انتهى.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * فَضْلاً مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الدخان:٥١-٥٧] وقال تعالى: ﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران:١٨٥] فدل ذلك على استعمال الفوز في الظفر بمجموع الأمرين كما ذكره الشرفي.

﴿٥٣﴾ ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿وَأَقْسَمُوا۟﴾ عطف على الكلام في المعرضين عن حكم الله تعالى.

فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ

ومعنى ﴿أَقْسَمُواْ﴾ حلفوا ﴿جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ قال الراغب: «أي حلفوا واجتهدوا في الحلف أن يأتوا به على أبلغ ما في وسعهم» انتهى.

وقال الشرفي في (المصابيح): «أي حلفوا أشد قسمهم وأكبره» انتهى المراد، وقد حقق في (الكشاف) معناه بالنسبة للعربية، ولكن حاصله ما ذكره الشرفي.

قوله: ﴿لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾ هذا جواب القسم، وهو كقولهم: ﴿أَطَعْنَا﴾ إلا أن هذا تأكيد ﴿قُل لَّا تُقْسِمُواْ﴾ لأنه لا معنى للقسم ولأنه كذب وفجور. ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ الراجح: أن معناه: قسمكم طاعة معروفة أي معروفة حقيقتها، وأنها قول بلا عمل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ بكل ما تعملون ومنه هذا القسم وما يؤول إليه من إخلاف.

﴿٥٤﴾ ﴿قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله عن الله ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ فإن توليتم عن طاعة الله ورسوله ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ﴾ أي على الرسول ﴿مَا حُمِّلَ﴾ أي ما كلف من التبليغ ونحوه ومن التكاليف الخاصة به ﴿وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ ليس مسؤولاً عما حملتم وأنتم المسؤولون المجزيون بعقوبة التولي عن طاعته ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ﴾ للصراط المستقيم ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ ليس عليه أن يطاع بل يكفي منه من حيث هو رسول تبليغ الرسالة تبليغاً مبيناً موضحاً لما أرسل به.

وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ

﴿٥٥﴾ ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ﴾ أيها المنتمون إلى الإسلام فالوعد خاص بالذين آمنوا منكم، وقد مرت صفات المؤمنين الصادقين في إيمانهم ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وهي طاعة الله وعبادته المشروعة المتقبلة كما مر ﴿لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ﴾ تفسير للموعود به ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ بتمكين دولتهم.

﴿كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ بني إسرائيل أو كل من آمنوا برسولهم فأنجاهم الله مع الرسل، وهذا أظهر لعموم ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ أي المؤمنين العاملين الصالحات من قبلهم، فالأمم المكذبون يهلكون وينجي الله رسله والذين آمنوا ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ﴾ بجعل الحكم حكم الله ورسوله والحرية لمن تمسك بالدين الذي ارتضى لهم الله ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗا﴾ من بعد خوفهم من بعد أن قد خافوا من الكفار، فحين تكون الدولة دولة الإسلام يذهب ذلك الخوف ويبدلون به أمناً.

﴿يَعۡبُدُونَنِي﴾ في ذلك الأمن ﴿لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗا﴾ أي يخلصون لي العبادة ﴿لَا يُشۡرِكُونَ﴾ لا شرك الحكم لغير الله ولا غيره من أنواع الشرك، وهم في ذلك آمنون يعبدون الله عبادة ظاهرة لا يتقون الكفار بترك شيء منها.

ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

﴿وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ﴾ التمكين وسائر الموعود به في الآية ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ الخبثة الفجار؛ لأنهم كفروا نعمة الاستخلاف والتمكين المذكور واختاروا الكفر بدون ملجئ إليه بل لمجرد الخبث واتباع الهوى المردي في حال أن الإيمان والعمل الصالح أسهل من الكفر بالنسبة إلى المجتمع؛ ولعل هذا الإستخلاف والتمكين أوله في السنة التاسعة التي هي عام الوفود؛ ولذلك حج رسول الله ﷺ ومعه الألوف الكثيرة من المسلمين ـ والله أعلم ـ وفي (المصابيح) يرجح: أنها في (المهدي المنتظر) ويمكن الجمع بينهما.

﴿٥٦﴾ ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ ﴿وَأَقِيمُواْ﴾ إما عطف على معنى ﴿وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ لأنه في معنى النهي عن الكفر فكأنه قال: لا تكفروا بعد ذلك ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ [الحج:٤١].

﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ في كل شيء حتى في الأمور السياسية فلا مخصص ﴿لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ فيبقى لكم التمكين في الأرض وترحمون في الآخرة، وإما عطف على الكلام في الذين يعرضون عن حكم الله تعالى، كما عطف قوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ..﴾ من قوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ فيكون من مقول القول، أي من المأمور به في قوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ وهذه الآيات من قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ﴾ تؤكد وجوب طاعة الرسول في كل شيء.

لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَـٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُواْ كَمَا

﴿٥٧﴾ ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ هذا مما يؤكد أن وعد الله بالنصر والتمكين وقع مصداقه لنبيه محمد ﷺ فقوله: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بمعنى اعلم أنهم سيغلبون، كما في (سورة آل عمران) ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا..﴾ الآية [١٢-١٣] فأفاد أنه سينصر نبيه ﷺ كما نصره يوم بدر.

﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ فليس غلبهم الذي هو عذاب عاجل ليس دافعاً عنهم العذاب في النار ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ جهنم فهم صائرون فيها بكفرهم وجرائمهم كلها.

﴿٥٨﴾ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

هذه الآية الكريمة فيها تأديب للذين آمنوا وصيانة لهم من مفاجأة المماليك لهم والغلمان وهم في حال يستحي المؤمن من أن يرى عليها، فقال تعالى:

﴿لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾ أي من العبيد والجواري علموهم ومروهم أن يستأذنوكم إذا أرادوا الدخول إليكم في أحد الثلاثة الأوقات، وكذلك ﴿ٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ﴾ أي من الأحرار مروهم أن يستأذنوا فلا يدخلوا حتى يؤذن لهم دفعاً لهم عن المفاجأة لكم في حالكم الخاص بين الزوجين، والاستئذان هذا يكون ثلاث مرات:

المرة الأولى ﴿مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ﴾ أي في بقية من الليل يمكن أن يكونا فيها مختلطين ليغتسلا عند التأهب لصلاة الفجر، بل وفي أول جزء من النهار في حق من لم يقم إلى صلاة الفجر قبل الفجر، المرة الثانية: ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم﴾ هذا الحين ﴿مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾ يضعون ثيابهم بسبب الحر؛ ولأنهم وحدهم أي الزوجان والوقت هذا قبل صلاة الظهر يمكن فيه أن يختلطا ليغتسلا عند القيام لصلاة الظهر.

قال الراغب: «والظهيرة: وقت الظهر» وفي (الصحاح): «الظُّهر بالضم بعد الزوال، ومنه صلاة الظهر، والظهيرة: الهاجرة، يقال: أتيته حدَّ الظهيرة وحين قام قائم الظهيرة» انتهى.

وعلى هذا: فالظهيرة من قبل الظهر في وقت الحر، قيل: وليس في الشتاء ظهيرة.

والمرة الثالثة: ﴿وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ﴾ فهذه الثلاثة الأوقات فيها ﴿ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ﴾ للذين آمنوا لأن الزوجين فيها يكونان خاليين غير متحفظين من اطلاع غيرهما إذا لم يلزما المماليك والأطفال الاستئذان واعتبرت حالتهما في هذه الأوقات عورة لأنها مظنة كشف العورة ومظنة اختلاط الزوجين.

ٱسۡتَـٔۡذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٥٩﴾ وَٱلۡقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا يَرۡجُونَ نِكَاحٗا فَلَيۡسَ عَلَيۡهِنَّ

قال في (الصحاح): «العورة: سوأة الإنسان، وكل ما يُستحيَى منه، ثم قال: والعورة كل خلل يتخوف منه في ثغر أو حرب» انتهى المراد، ولعل هذا الثاني استعمل في الآية مجازاً أو هي من الأول، فكل ذلك صحيح في المعنى ـ والله أعلم.

﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّ﴾ أي بعد الثلاثة الأوقات، وهذا يفيد أن قوله تعالى: ﴿لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ﴾ أمر للأحرار وعبيدهم وإمائهم، فأما الأطفال فالجناح عليهم من الأولياء، وليس معناه الإثم ﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم﴾ تعليل للترخيص فيما بعد الثلاثة الأوقات يطوفون عليكم لحاجتكم وحاجاتهم ﴿بَعۡضُكُمۡ﴾ طواف ﴿عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ لأنهم يخدمونكم وتنفقون عليهم وتقومون بحاجاتهم التي تلزم السادة لعبيدهم وإمائهم وتلزم الوالدين لأولادهم ونحوهم.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ أي كذلك البيان في هذه الآية يبين الله لكم الآيات إما آيات القرآن، وإما آياته، والآيات الكونية التي يحتاجها العبد لمعرفة الله سبحانه، فكل ذلك سنة الله تعالى أن يبينه ليهتدي به من يهتدي ويكون حجة على من أبى، وكما قال تعالى: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال:٤٢] وفي هذا رد على الباطنية، وكل من زعم أن القرآن رموز يختص بمعرفتها الإمام ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ فلعلمه وحكمته يبين الآيات للذين آمنوا فالخطاب لهم.

﴿٥٩﴾ ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ كَمَا ٱسۡتَـٔۡذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ ﴿مِنكُمُ﴾ أي الأحرار، بلوغ ﴿ٱلۡحُلُمَ﴾ بلوغ الاحتلام والإمناء

جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ

﴿فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ وذلك في الثلاثة الأوقات وسائر الأوقات؛ لأنهم أمِروا بالاستئذان أمراً مطلقاً.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أضاف آياته إليه لينبه على أنه هو الذي جعلها آيات كما أنه بيَّنها وذلك رحمة للمؤمنين ونعمة ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بكل شيء ومنه سرائرهم وغرايزهم وما يصلحهم من التكليف ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما شرع وحكم به وفي كل أفعاله وفي كل شيء منه.

﴿٦٠﴾ ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ﴾ عطف على آية الاستئذان والترخيص فيها في غير الثلاثة الأوقات، والقواعد: العجائز قعدن عن الحيض والحمل وعن العمل لكبرهن وضعفهن بسبب كبر السن ﴿ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ لعدم رغبة الرجال فيهن لنكسهن في الخلق فهن غير راجيات للنكاح بل قد أيسن منه ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ﴾ حرج في ﴿أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾ اللاتي أمر الله بها المؤمنات في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ..﴾ فرخص الله للقواعد إذا لم يكشفنها عن زينة تستميل الرجل؛ لأن وضعهن للثياب أبعد لهن عن ميل الرجل، ولأن ضعفهن يناسبه الترخيص لهن، وقد يغتر الرجل بالتستر، كما قال الشاعر:

عجوز ترجى أن تكون فتيّة ... وقد سقط الثديان والحدب الظهر

إلى قوله:

وما غرني إلا خضاب بكفها ... وكحل بعينيها وأثوابها الصفر

حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ﴾ قال في (الصحاح): «والتبرج إظهار المرأة زينتها ومحاسنها للرجال» انتهى ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ لعل معنى ﴿يَسْتَعْفِفْنَ﴾ يتركن ما يستميل الرجال طلباً لعفتهم عنهن وذلك ببعض التستر، فالترخيص لهن لضعفهن، وليس المراد به أن يبدين زينتهن، ولا أن يتعرضن للرجال، وليس ترخيصاً في غيره من نظرها إلى الرجال أو الخلوة بالأجنبي أو ملامستها لجسمه أو نحو ذلك، فهي باقية فيه على الأصل من حكم المرأة، لأنها مع كبر سنها تستطيع الجماع وتلتذ به.

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ فهو يسمع كلامها ويعلم ما تسره في نفسها.

﴿٦١﴾ ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا

دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

رخّص الله تعالى للأعمى والأعرج والمريض في ترك الجهاد ولذلك لا ينفرون مع المؤمنين للجهاد بل يتخلف في بلده فإذا أعطي طعاماً من أحد هذه البيوت فلا يتحرج منه لأن صاحب البيت غائب، ليس عليه جناح أن يأكل منه، والحرج: الضيق، والعم هو أخو الأب سواء لأبويه أو لأحدهما، والخال أخو الأم.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ وذلك بيت العبد إذا أعطي سيده منه طعاماً فليأكل وإن كان لا يدري من أين حصل للعبد أو لأهل العبد.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ فإذا أعطي الإنسان طعاماً من بيت صديقه سواء كان أعمى أو أعرج أو مريضاً أو صحيحاً سوياً؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ فالرخصة للكل في الطعام من البيوت المذكورة؛ ولعل السبب أن الظاهر: رضا صاحب البيت في الأرحام والصديق وأن الطعام أصله من مال السيد إذا أعطي من بيت عبده، ولم يذكر الولد، وإذا كان باراً محباً لأبيه فهو مقيس على الصديق بطريق الأولى، وإن كان عاقاً نافراً من أبيه فلا يأكل من طعام أعطيه من بيته.

وكذلك الرخصة في الأكل لا تسري إلى غير الأكل من النقل إلى محل آخر أو ادخار الطعام أو أخذ غير المطعوم أو الأكل من الطعام المخبو الذي لم يعطه، فكل ذلك لم يدخل في الرخصة لأنه لم يدخل فيها إلا الطعام الآتي من البيوت المذكورة.

بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ جَامِعٖ لَّمۡ يَذۡهَبُواْ حَتَّىٰ يَسۡتَـٔۡذِنُوهُۚ

وقوله تعالى: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَأۡكُلُواْ جَمِيعًا أَوۡ أَشۡتَاتٗا﴾ ﴿جَمِيعًا﴾ مجتمعين على الطعام ﴿أَوۡ أَشۡتَاتٗا﴾ متفرقين يأكل هذا الأعمى وحده وهذا الصديق وحده ونحو ذلك، وهذا الاجتماع فيمن يجمعهم سبب للرخصة، كأن يكون أحدهم ابنه، والثاني أخوه، والثالث عمه، وإلا تفرقوا بتفرق الأسباب إلا أن يعرفوا الأذن لهم في جمع طعام والاجتماع على أكله فلا بأس، وهذا كله في الطعام الصادر من البيت إلى غيره، فأما الدخول للأكل في البيت فلا ينبغي للأجنبي أن يدخل على نساء صديقه أو أخيه أو نحوه إذا لم يكن له قريبات محارم، فقوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلۡتُم بُيُوتٗا﴾ ليس ترخيصاً في الدخول على الإطلاق إنما هو حيث لا يستلزم خلوة بأجنبية ولا لحوق تهمة وصاحب البيت آذن فلا مانع من الدخول.

﴿فَإِذَا دَخَلۡتُم بُيُوتٗا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ أي قولوا لهم: «السلام عليكم» وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ اعتباراً لهم شيئاً واحداً كقوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَاقَكُمۡ لَا تَسۡفِكُونَ دِمَآءَكُمۡ وَلَا تُخۡرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ..﴾ [البقرة:٨٤] ﴿تَحِيَّةٗ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ الله هو شرعها لكم فهي تحية ﴿مُبَٰرَكَةٗ طَيِّبَةٗ﴾ تدعو إلى حسن استقبالكم وصلاح ذات بينكم، ولعل فيها من البركة والطيب أكثر من ذلك لأنها من حسن الخلق؛ ولأنها من عند الله اختارها للمؤمنين ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ أي مثل هذا التبيين يبين الله للذين آمنوا، يبين لهم الآيات ﴿لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ تفهمون وتعلمون ما تدل عليه الآيات فهي نعمة يجب شكرها وحجة لله على عباده.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ فَإِذَا ٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِبَعۡضِ شَأۡنِهِمۡ فَأۡذَن لِّمَن شِئۡتَ مِنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمُ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم

﴿٦٢﴾ ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ جَامِعٖ لَّمۡ يَذۡهَبُواْ حَتَّىٰ يَسۡتَـٔۡذِنُوهُۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ فَإِذَا ٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِبَعۡضِ شَأۡنِهِمۡ فَأۡذَن لِّمَن شِئۡتَ مِنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمُ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾

﴿ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ محمد أنه رسول الله إلى الناس جميعاً، فأما إذا لم يؤمنوا به فليسوا بمؤمنين، وكذلك ليسوا مؤمنين إلا إذا كانوا منقادين لأمره ودعوته لا يخالفونه، فإذا ﴿كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ جَامِعٖ﴾ على مشاورة في مهمة مثلاً أو أمر جمعهم له الرسول ﷺ ﴿لَّمۡ يَذۡهَبُواْ﴾ من عند الرسول ﷺ بل يبقون حتى تنتهي المهمة إلا أن تعرض لهم مهمة تستدعي الذهاب فلا يذهبون من عنده ﷺ ﴿حَتَّىٰ يَسۡتَـٔۡذِنُوهُ﴾ دون أن يتسللوا ليذهبوا بدون إذن ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ﴾ ولا يتسللون.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ لأنها بعثتهم الخشية من الله والخوف من عذابه على طاعة الرسول ﷺ وأن لا يذهبوا حتى يستأذنوه؛ لأنهم مؤمنون أنه رسول الله إيماناً صادقاً أوجب الله تعالى طاعته واتباعه ﴿فَإِذَا ٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِبَعۡضِ شَأۡنِهِمۡ فَأۡذَن لِّمَن شِئۡتَ مِنۡهُمۡ﴾ فقد أذن الله له أن يأذن، فإذا أذن كان الذهاب جائزاً وكان الذاهب على بصيرة من أمره ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمُ ٱللَّهَ﴾ للذين استأذنوا اسأل الله أن يغفر لهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ ولعل استغفاره لهم ليطمئنوا ولا يرتابوا في الاستئذان لخشية الغلط وتجويز أن الباعث على الاستئذان لا يستدعيه في الواقع وأن اعتقاده أنه يستحق الاستئذان اعتقاد غلط فاستغفار الرسول ﷺ يمحو الشكوك ـ والله أعلم.

بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ

﴿٦٣﴾ ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ﴾ إذا دعاكم لأمر من الأمور لا تجعلوه ﴿بَيْنَكُمْ﴾ باتفاقكم وتوافق رأيكم أن تجعلوه ﴿كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ يكون المدعو من بعض منكم مخيراً وإن بعثه الاحترام له على الإجابة فهو إذا شغله أمر من أغراض الدنيا يعتذر عن الإجابة، فلا تجعلوا دعاء الرسول بينكم هكذا، فتعتبروا المدعو إن شاء أجاب وإن شاء اعتذر، بل اعتبروا المخالف عاصياً لله ورسوله، واعتبروه على منكر يجب نهيه عنه.

وقد ظهر أنهم كانوا متهاونين أعني الأكثر ولذلك شاركوا في معصية المخالفين من الرماة يوم أحد، وإنما ذلك بترك النهي وعدم الكراهية لما وقع منهم من بعض والرضى من بعض، وكذلك تنازعهم يوم الخميس بعد ما قال لهم ﷺ: «ائتوني بدواة وبيضاء أكتب لكم كتاباً لا تضلون بعده..» أو كما قال.

ففي الرواية أنهم انقسموا فريقين فريق مع الرسول ﷺ وفريق مع عمر في قوله: «حسبنا كتاب الله» وتنازعوا حتى نهاهم، وقال: «لا ينبغي عندي تنازع» أو كما قال، فكانت حالتهم تستدعي الزجر المذكور هنا، وفي (سورة الأنفال): ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ..﴾ الآية [آية:٢٤].

﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ يتسللون يخرجون من بين المجتمعين بخفية ﴿لِوَاذًا﴾ استتاراً مما يلزم الحاضرين عند الرسول ﷺ وذلك من المتسللين تهاون بدعاء الرسول لهم للاجتماع مثلاً ليبلغهم شيئاً مما أرسل به أو يأمرهم بجهاد أو يشاورهم في أمر فيتسللون لئلا يسمعوا ما يأمرهم به حتى يتهيأ لهم الاعتذار بأنهم لم يعلموا ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ﴾ قد تكررت منهم المخالفة ﴿عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ عن أمر الرسول ﷺ وهي تعم مخالفة ما أمر به ومخالفة ما دعا إليه ومخالفة ما يريده ويرتضيه، هذا إذا كان أمره بمعنى الأمر الذي يدعو إليه أو يرتضيه فإن كان أمره ضد نهيه فالمعنى يخالفون عما أمر به أي لا يفعلونه مخالفين للذين يفعلونه.

وقال في (الكشاف): «ومعنى ﴿ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ الذين يصدّون عن أمره دون المؤمنين وهم المنافقون، فحذف المفعول، لأن الغرض ذكر المخالف والمخالف عنه» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ من مضلات الفتن، أي ليحذروا أن تصيبهم عقوبة على مخالفة النبي ﷺ، وهي إما فتنة لأن الفتنة قد تصيب العاصين عقوبة كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف:١٦٣] وعلى هذا: فالذين يخالفون ليسوا هم المنافقين، لأن المنافقين قد أصابتهم الفتنة، كما قال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة:١٠] وإنما هم الذين يخالفون تساهلاً وتهاوناً بخلاف الرسول كأنهم يُدِلُّون بأنهم قد أسلموا وهاجروا مثلاً وأنهم في سبيل الطاعة وإنما الخلاف عارض نادر تساهلاً بموضوع الخلاف كتخلف بعضهم عن حفر الخندق اكتفاء بمن يعمل فيه ـ والله أعلم.

لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قَدۡ يَعۡلَمُ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ وَيَوۡمَ يُرۡجَعُونَ إِلَيۡهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴿٦٤﴾

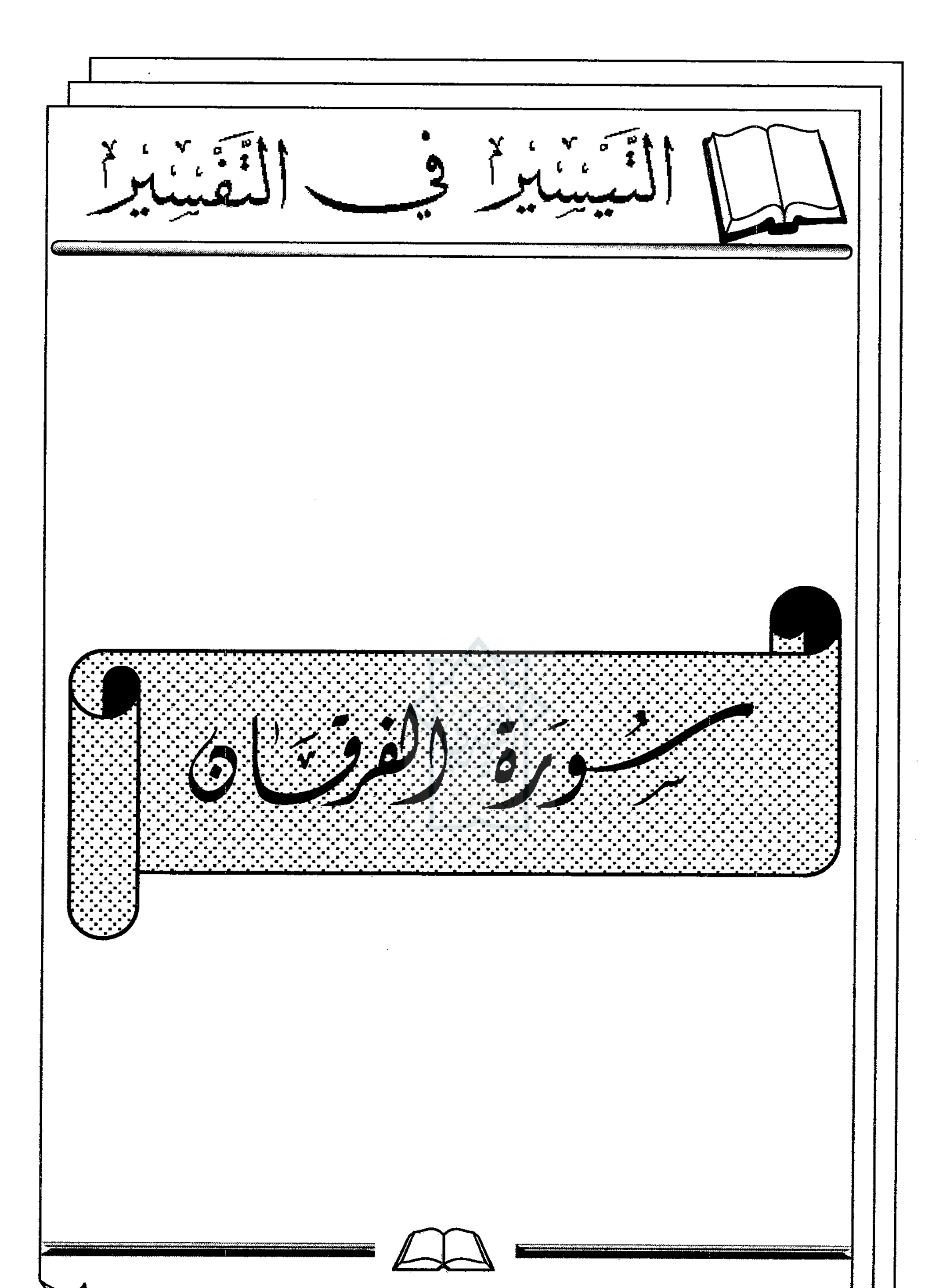
﴿أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ عاجل أو آجل فليحذروا التهاون بدعاء الرسول ﷺ.

﴿٦٤﴾ ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قَدۡ يَعۡلَمُ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ وَيَوۡمَ يُرۡجَعُونَ إِلَيۡهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ﴾ هذه الآية الكريمة خاتمة السورة يظهر أنها تؤكد أحكامها وتحث على العمل بها وبكل أحكام الله تعالى، فقوله تعالى: ﴿أَلَآ﴾ حرف تنبيه يناسب غفلة الناس وقلة جدهم في طاعة الله وكثرة المعرضين عن أحكام الله وكذا التأكيد بقوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ يبين أن أحكامه فيهم هي الحق؛ لأن المالك له أن يحكم في ملكه كيف يشاء من التكليف بما تقتضيه الحكمة وإن شق على العباد كالحدود واللعان.

وقوله تعالى: ﴿قَدۡ يَعۡلَمُ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ﴾ من طاعة المطيع ومعصية العاصي ومن كل أحوال المخاطبين ﴿وَيَوۡمَ يُرۡجَعُونَ إِلَيۡهِ﴾ كما يعلم ما أنتم عليه في الحال يعلم يوم يرجعوا إليه أهل السموات والأرض ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ﴾ فهو يعلم شقيهم وسعيدهم، وينبئهم يومئذ بما عملوا من خير أو شر لا ينسى مثقال ذرة ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ﴾ فعلينا أن نراقبه ونتقيه ونطيعه فيما أمر ونهى؛ لأنه يجزي كل نفس بما تسعى.

والحمد لله رب العالمين،
وصلى الله على محمد وعلى آله وسلم




التيسير في التفسير
سورة الفرقان





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ

ابتداء تفسير (سورة الفرقان)

قال الشرفي في (المصابيح): «مكية إلا ثلاث آيات» انتهى المراد

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ ﴿١﴾ حكى الشرفي رحمه الله في (المصابيح): «عن الهادي عليه السلام أنه قال في تفسيره لـ(سورة الملك): معنى ﴿تَبَارَكَ﴾ هو تعالى وتقدس وجل وعظم من كل ما يقول فيه المشركون وينسب إليه الملحدون» انتهى، وفي (لسان العرب): «وتبارك الله: تقدس وتنزه وتعالى وتعاظم» انتهى المراد.

والمناسبة في هذا المطلع واضحة؛ لأن المشركين يكذبون بآيات الله ويكذبون الرسل كما يأتي في هذه السورة، وهو سبحانه لم يترك عباده هملاً ونسبة ذلك إليه نفي لحكمته ولم يتركهم بلا نذير ينذرهم عذاب الآخرة والعذاب العاجل، وهو يتعالى عن تركهم بلا نذير بل قد أرسل الرسل ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥] ومن ذلك إنزاله لهذا القرآن على عبده محمد ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ فسبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

و﴿الْفُرْقَانَ﴾ هو الحجة القاطعة الفارقة بين الحق والباطل وهي هذا القرآن الذي عجز فصحاء العرب عن الإتيان بسورة من مثله، أنزله ﴿عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ من حيث أنه دليل على صدقه، ومن حيث أن فيه الإنذار الكامل في سوره وآياته، مثل: (سورة القارعة) و(سورة الغاشية) و(سورة الحاقة) و(سورة الواقعة) و(سورة ق~) وآيات الوعيد في القرآن كثيرة.

فِي ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ

﴿٢﴾ ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِي ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فله التصرف فيهما كيف يشاء، وله الأمر والنهي والحكم على أهلهما بما يريد، وإنزال القرآن وإرسال الرسول حق لـه على عباده لملكه عليهم ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ كما زعم المشركون، فكان إعلام عباده بالحق وإخراجهم من الباطل وبيان تنزهه وتعاليه عن اتخاذ الولد وعن الشريك من أسباب إنزال هذا القرآن.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِي ٱلْمُلْكِ﴾ فليس لأحد أن يحكم بخلاف حكمه بـل الحكم لله وحده؛ لأن ﴿ٱلْمُلْكِ﴾ ـ بضم الميم ـ لـه وحده ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ كما يشاء فهو المالك لكل شيء وكل من في السموات ومن في الأرض عباد لـه وحده لا شريك لـه.

وقوله تعالى: ﴿فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ جعل لكل مخلوق مقداراً حسناً محكماً وذلك يدل على قدرته وعلمه ومِلكه ومُلكه؛ لأن في ذلك دلائل القدرة والعلم والدلالة على الملك من حيث خضوعها لتقديره، والملك من حيث دلت على أنه المالك فله الحكم والأمر والنهي.

﴿٣﴾ ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ ﴿وَٱتَّخَذُوا۟﴾ عطف على الآية التي قبل هذه، فالمعنى: أنهم خالفوا مقتضى كونه تعالى ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ..﴾ إلى آخر الآية، وصاروا في ذلك إلى الباطل،

هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا

فاتخاذهم للآلهة باطل من حيث أن الاتخاذ تحكم في ملك الله ومملوكه مع أنهم عباد ليس لهم أن يحكموا بشيء ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ [يوسف:٤٠] وأبطلوا من حيث جعلوا ما ليس إلهاً جعلوه إلهاً، وأبطلوا حيث جعلوا لآلهتهم شركاً في أنفسهم مع أنهم عبيد الله وحده؛ لأنه الذي خلقهم ورزقهم، وما أشركوا به لم يخلقوا شيئاً لا عابديهم ولا غيرهم، بل معبودوهم ﴿يُخۡلَقُونَ﴾ - بضم (الياء) وفتح (اللام) - سواء كان معناه: أنهم عباد لله كسائر خلقه؛ لأن الله هو الذي خلق الحجارة التي يعبدونها مثلاً، أو كان معناه: أنهم أي المشركون هم يصنعون لهم آلهة ينحتونها حتى تكون تماثيل أو يصوغونها من النحاس أو غيره كذلك، وهي بعد أن صنعوها لا تصير آلهة، وإنما هي أسماء سموها بلا حقيقة ولا حجة، فهي كما لو لم يصنعوها لا تزال عاجزة لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تضر.

﴿وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ﴾ فضلاً عن أن يملكوا للعابدين لا يملكون لأنفسهم ﴿ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا﴾ لحي ﴿وَلَا حَيَوٰةٗ﴾ لجماد ﴿وَلَا نُشُورٗا﴾ إحياءً لميت فلا وجه لاتخاذهم آلهة بل هو باطل من جهات عديدة ومخالف لمقتضى أنهم عباد لله الذي خلق السموات والأرض الذي له وحده ملكهما ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شيء فقدره تقديراً، فالواجب عليهم أن يعبدوه وحده ويشكروه على نعمه كلها ولا ينسبوا شيئاً منها لشركائهم.

﴿٤﴾ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا﴾ ﴿وَقَالَ﴾ عطف إما على قوله تعالى:

﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى﴾ ﴿٥﴾

﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ﴾ فمقتضى ملكه أن ينقادوا لأمره ويصدقوا رسله، وإما على ﴿الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ..﴾ الآية، فخالفوا مقتضى هذه الآية لأنهم في أمس الحاجة إلى نذير فلما جاءهم كذبوه، وكذبوا الفرقان الذي نزله الله عليه فقالوا: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ﴾ أي كذب وتغرير ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ محمد بزعمهم ﴿فَقَدْ جَآءُو﴾ بقولهم هذا ﴿ظُلْمًا﴾ للرسول بقولهم: ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ ﴿وَزُورًا﴾ بقولهم: ﴿وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام) : «فالإفك: البهتان، وافتراه: اختلقه» انتهى، قال في (الصحاح): «الزور: الكذب» انتهى، وكيف لا يكون صدقاً وقد عجَّزهم أن يأتوا بسورة من مثله وهم جمع كبير لو كانوا يستطيعون التعاون على ذلك لفعلوا، وهيهات ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء:٨٨].

﴿٥﴾ ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ وهذا منهم ظلم وزور كالذي قبله، ومعنى ﴿ٱكْتَتَبَهَا﴾ اتخذ كاتباً يكتبها له؛ لأنه لا يكتب ﴿فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ ليحفظها ﴿بُكْرَةً﴾ في أول الصبح ﴿وَأَصِيلًا﴾ في آخر النهار، قال في (الصحاح): «والأصيل: الوقت بعد العصر إلى المغرب» انتهى، إن كان صدقاً فلماذا لا يستعملون نفس الطريقة ليأتوا بمثله؟!! وقد عجَّزهم ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾ [ق:٥].

ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأۡكُلُ مِنۡهَاۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسۡحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا

﴿٦﴾ ﴿قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ﴿ٱلسِّرَّ﴾ الخفي المكتوم فهو أعلم حيث يجعل رسالاته ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ولذلك يدعوكم ليغفر لكم وأرسل رسوله رحمة للعالمين.

﴿٧-٨﴾ ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا * أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأۡكُلُ مِنۡهَاۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسۡحُورًا﴾ ﴿يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾ كقولهم: ﴿مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ..﴾ [المؤمنون:٣٣] فقولهم: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ﴾ تهكم به.

وقولهم: ﴿وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾ إشارة إلى أنه يحتاج ما يحتاج البشر؛ ولذلك يمشي في الأسواق، فقولهم: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ تنازل من اشتراط أن يكون الرسول ملكاً إلى أن يكون مصحوباً بملك، وقولهم: ﴿أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ﴾ انتقال إلى أنه يصح أن يكون الرسول بشراً وحده إلى أن يكون ذا ثروة بأن يلقى إليه كنز عند إرساله حتى لا يكون رسولاً فقيراً وحتى يستغني عن المشي في الأسواق باتخاذ خدم يمشون في الأسواق ويأتونه بحاجته منها.

وقولهم: ﴿أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأۡكُلُ مِنۡهَا﴾ تنازل من اشتراط الكنز إلى اشتراط جنة يأكل منها، فهي ثروة خاصة بالأكل بخلاف الكنز؛ لأنه هنا من ذهب أو فضة أو منهما معاً، ثم انتقل المكذبون الظالمون، فقال

يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ

﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ لأنهم ظالمون لا يتحرجون من الكذب ولا من التكذيب بآيات الله والتكذيب لرسوله: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ غلب عليه السحر فهو يتوهم أن جبريل يأتيه ويتلو عليه قرآناً، وهذا منهم باطل واضح البطلان يبطله أنه عجَّزهم أن يأتوا بسورة من مثله فإذا عجزوا وهم غير مسحورين فالمسحور أضعف وأعجز عن أن يأتي بمثل هذا القرآن، وهذا واضح، وإنما قالوا إنه مسحور عناداً منهم وظلماً.

﴿٩﴾ ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ ﴿ٱنظُرْ﴾ يا رسول الله ﴿كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ﴾ التي جادلوا بها في الحق، وهي قولهم: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ..﴾ إلى قولهم: ﴿..لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ..﴾ إلى قولهم: ﴿..مَّسْحُورًا﴾ سميت أمثالاً؛ لأنها جعلت لتكون منتشرة انتشار الأمثال ليُظلوا بها الناس ﴿فَضَلُّوا۟﴾ عن الحق وخذلوا عن طلب الحق ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ لأن الهداية إلى السبيل تتوقف على النظر الصحيح في دليل الحق وهم أعرضوا وجادلوا فلم يستطيعوا سبيلاً إلى الحق ولا يستطيعون سبيلاً؛ لأنهم خذلوا عقوبة لهم.

﴿١٠﴾ ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾ ﴿تَبَارَكَ﴾ وتعالى وتقدس فهو لم يرسلك فقيراً إلا ابتلاء لهم ولم يكن ذلك لأنه لا يريد إكرام رسوله ولا لأن رسوله أرسل فقيراً غلطاً كما يزعمون سبحان الله وتعالى، إنما حكمته قضت بإرساله بشراً فقيراً مع أنه أهل للكرامة في الآخرة، فأما هذه الدنيا فتكريمه فيها بأنها زويت عنه، وقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَل لَّكَ﴾ معطوف على ﴿جَعَلَ لَكَ﴾.

وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾

﴿قُصُورًا﴾ أي دوراً عالية البناء، فهو تعالى قادر على ذلك غير غافل عنه ولكنه اختار لرسوله في هذه الحياة الدنيا ما هو خير لـه.

﴿١١-١٤﴾ ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا * إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا * وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا * لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ ليس الأمر كما اقترح المكذبون وكما جادلوا ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ﴾ أي بالقيامة فتجرؤوا على التكذيب والعناد مع وضوح الحق؛ لأنهم لا يخافون الآخرة.

﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ أعددنا وهيأنا ﴿لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ ناراً تلتهب؛ لأن التكذيب بالساعة جريمة عظيمة وتترتب عليه جرائم ويقترن به التكذيب بقدرة الله والجهل بالله ﴿إِذَا رَأَتْهُم﴾ النار ﴿مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ عنهم ﴿سَمِعُوا۟ لَهَا﴾ صوتاً شديداً يدل على تغيظ عليهم ﴿وَزَفِيرًا﴾ صوتاً لقوة التهابها، ووصفُها بالغيظ يدل على حياتها فلا مانع أن ترى أهلها وتنطق فتنادي: إليّ بأهلي.

ويدل على نطقها قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [فصلت:٢١] وكما تنطق الجلود بغير لسان يصح أن تنطق النار بغير لسان وترى بغير عينين، ولا مانع إلا قياسها على نار الدنيا وهو قياس ضعيف؛ لأن نار الدنيا لم تعدم الحياة لمجرد أنها نار، بل لو شاء الله لأحياها؛

لأنه على كل شيء قدير هو يحيي ويميت، وقد وصف الله النار بأنها: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ [الملك:٨] وخبره صدق، وأمور الآخرة تخالف أمور الدنيا بدليل أن الجوارح تشهد على العصاة، وليست في الدنيا تنطق، قال تعالى: ﴿وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس:٦٥] ولا موجب للتأويل، فكذلك النار ترى العصاة وتتغيظ عليهم فيسمعون لها دليل التغيظ هذا.

وقوله تعالى: ﴿وَزَفِيرًا﴾ أي وسمعوا لها زفيراً، قال في (لسان العرب): «وقال الزجاج: الزفر من شدة الأنين وقبيحه» انتهى، وقال في (لسان العرب): «الزفر والزفير: أن يملأ الرجل صدره غماً ثم هو يزفر به» انتهى، وقوله: ثم هو يزفر به، يعني: يئن أنيناً يعبِّر عنه، ومن كلام الإمام علي عليه السلام: «في نار لها كَلَب ولَجَب ولهب ساطع وقصيف هائل» انتهى المراد.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا﴾ ألقوا: رميَ بهم في النار وقذفوا فيها، والإلقاء إسقاط الشيء في مكان، وكأن أبواب جهنم نعوذ بالله منها هي في جهة فوق فيلقى أهلها فيها من فوق ـ والله أعلم ـ وقوله: ﴿مِنْهَا﴾ أي من السعير المذكورة وهو بيان لما يلقون فيه بأنه منها ﴿مَكَانًا ضَيِّقًا﴾ ولعل ضيقه بوقوعه في زحمة أهلها، أو بوقوعه بين صخور منها.

وقوله تعالى: ﴿مُقَرَّنِينَ﴾ إما أن يقرن بشيطانه مثلاً فيكونا في قيد واحد، وإما أن يقرن رأسه إلى قدميه في قيد واحد، والأول عذاب نفسي وجسدي، والثاني تضييق شديد ـ والله أعلم.

وقال الشرفي في (المصابيح): «تقرن أيديهم إلى أعناقهم: أي تربط» انتهى، والأظهر بالنسبة إلى اللغة العربية: أن المقرنين قرن بعضهم إلى بعض؛ لأن قرن الأيدي والأعناق ينسب إليهم على الحقيقة أعني إلى الأعضاء، وكذا قرن الرأس إلى القدمين.

قُلۡ أَذَٰلِكَ خَيۡرٌ أَمۡ جَنَّةُ ٱلۡخُلۡدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۚ كَانَتۡ لَهُمۡ جَزَآءٗ وَمَصِيرٗا ﴿١٥﴾ لَّهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعۡدٗا مَّسۡـُٔولٗا ﴿١٦﴾ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمۡ

والحاصل: أن قرن الأعضاء ينسب إليها في الحقيقة، وإن نسب إلى الجملة مجازاً كما يقال قطع السارق، أي قطع يده، فالظاهر الحقيقة وأن قرن المكذبين بالساعة أن يقرن بعضهم إلى بعض.

وقوله تعالى: ﴿دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورٗا﴾ قالوا: يا ثبوراه، كما يقال: يا ويلاه، والثبور: الهلاك؛ لأنهم شاهدوا هنالك العذاب الشديد وقعوا فيه، وقوله تعالى: ﴿لَّا تَدۡعُواْ ٱلۡيَوۡمَ ثُبُورٗا وَٰحِدٗا﴾ لأن أسباب هذا الدعاء كثيرة، فالويل والثبور يقع عليهم من جهات عديدة بتعدد أنواع العذاب وتكرره على الدوام ﴿وَٱدۡعُواْ ثُبُورٗا كَثِيرٗا﴾ فأنتم واقعون فيه، وأنتم في أوان الدعاء للثبور الكثير الذي لا نهاية له، وهذا بيان لوقوعهم في أنواع العذاب الشديد، ولا يفيدهم الدعاء شيئاً.

﴿١٥-١٦﴾ ﴿قُلۡ أَذَٰلِكَ خَيۡرٌ أَمۡ جَنَّةُ ٱلۡخُلۡدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۚ كَانَتۡ لَهُمۡ جَزَآءٗ وَمَصِيرٗا * لَّهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعۡدٗا مَّسۡـُٔولٗا﴾ ﴿قُلۡ﴾ يا رسول الله للمكذبين الذين استحقوا ذلك العذاب بسوء اختيارهم ﴿أَذَٰلِكَ﴾ العذاب ﴿خَيۡرٌ أَمۡ جَنَّةُ ٱلۡخُلۡدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ وهذا توبيخ لأعداء الله وبيان لعظم خسرانهم؛ لأنهم خسروا الجنة وفاتهم كل خير مع ذلك العذاب الشديد، ولو اتقوا ربهم وتابوا فازوا بما يفوز به المتقون، وجنة الخلد جنة البقاء التي لا ينالهم فيها مكروه ولا موت، جمعت لهم الخلد بمعنى السلامة من الآفات والخلد بمعنى السلامة من الموت.

أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ

وقوله تعالى: ﴿الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ التي وعدوها لأجل التقوى فمن اتقى الله فقد وعدها وهي جنة النعيم التي عرضها السموات والأرض ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً﴾ على التقوى والطاعة والأعمال الصالحات، ﴿و﴾ كانت لهم ﴿مَصِيرًا﴾ في الآخرة يصيرون فيها.

﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ وهذا عام لكل ما تشتهيه الأنفس وما تلذ الأعين ولكل غرض مراد ﴿خَالِدِينَ﴾ حال كونهم خالدين، فالنعيم خالص لا يعارضه منغص والسعادة دائمة أبداً ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا﴾ تأكيد للوعد وجعل للموعود به بمنزلة الواجب الذي تستحق المطالبة به، وهو تأكيد للوعد ليرغب من يؤمن بوعد الله.

﴿١٧-١٩﴾ ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا * فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ عطف على قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ فهو وعيد عليهم بما يلاقون يوم الحشر من الاحتجاج والتوبيخ

وَيَمْشُونَ فِي ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ

﴿وَمَا يَعْبُدُونَ﴾ يحشر معهم ﴿فَيَقُولُ﴾ الله لمعبوديهم: ﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى﴾ فصرفتموهم عن سواء السبيل الذي هو عبادة ربهم ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ المشركين المحضرين مع شركائهم ﴿أَمْ هُمْ ضَلُّوا ٱلسَّبِيلَ﴾ من دون أن تضلوهم أنتم؟

﴿قَالُوا سُبْحَٰنَكَ﴾ تنزيه لله وتعجب من قول المشركين ﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ﴾ لا يليق بحالنا ولا نستطيع لفرط بغضنا للشرك ﴿أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ يتولون رعايتنا ونكل إليهم أمرنا فضلاً عن أن ندعو المشركين إلى عبادتنا، فما نحن أضللناهم ﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ﴾ بالنعم ﴿وَءَابَآءَهُمْ﴾ الذين أشركوا من قبلهم ﴿حَتَّىٰ نَسُوا ٱلذِّكْرَ﴾ الذي أنزلته على الرسل ذكراً لعبادك ليعبدوك ولا يشركوا بك فأقبلوا على ما متعتهم به وتركوا الذكر حتى كأنهم نسوه لفرط إعراضهم عنه واشتغالهم بالنعم من المال والبنين ونحوهما ﴿حَتَّىٰ نَسُوا ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًۢا بُورًا﴾ هالكين بالشرك وغيره من جرائمهم.

﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم﴾ أيها المشركون كذبكم من كنتم تعبدون واعترف أنه عبد لله ما ينبغي له أن يتخذ من دونه ولياً ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ﴾ ما يستطيع المعبودون ﴿صَرْفًا﴾ للعذاب عنكم ﴿وَلَا نَصْرًا﴾ لكم ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ والراجح عندي أنه التفات عام للمخاطبين بالقرآن لأن الوعيد قبله خاص فيمن كذب بالساعة، فقال تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ فجاء الالتفات إلى المخاطبين إنذاراً بالعذاب لكل من يظلم أيَّ ظلم كان ـ والله أعلم.

وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا

﴿٢٠﴾ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ﴾ يا محمد ﴿مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أحداً ﴿إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ فبطل قول المكذبين: ﴿مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ﴾ فالرسل كلهم كذلك.

﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ اختباراً ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «وفي تفسير هذه الآية الكريمة يقول محمد بن القاسم عليه السلام: يعني سبحانه أنه جعل المرسلين والمرسل إليهم أجمعين فتنة بعضهم لبعض، والفتنة هاهنا: اختبار ومحنة، فامتحن صبر المؤمنين وطاعتهم بأداء الرسالة وتبليغها، وامتحن الذين أرسل إليهم بالإيمان والتصديق برسالته وما جاؤوا به من الحجج البينة الدالة على النبوة وبما امتحنهم مع رسله وعلى أيديهم من فرائض دينه وطاعته والانتهاء عما نهى عنه من معصيته» انتهى المراد.

فالحاصل: أن الله تعالى ابتلى بعض عباده ببعض من ذلك ابتلاء الرسل بأممهم وابتلاء الأمم برسلهم، فالرسول يحتاج إلى الصبر على أمته ليبلغهم الرسالة ويقيم عليهم الحجة وإن كذبوه وآذوه، والأمم تحتاج إلى الصبر على طاعة رسلهم، ومن ذلك ابتلاء الرسل بالجهاد حيث أمروا به، قال تعالى: ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ [محمد:٤] ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ في اختبار عباده وجزاء كل عامل بما هو أهله وفي كل شيء.

(٢١) يَوۡمَ يَرَوۡنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشۡرَىٰ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُجۡرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا (٢٢) وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا (٢٣)

---

(٢١) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا﴾ ﴿وَقَالَ﴾ عطف إما على قولهم السابق، وإما على ذكر ما أعد الله لهم من العذاب ونحوه ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾ الكفرة الفجرة المعرضون الذين لا يؤمنون ولا يتقون فليس في قلوبهم رجاء في لقاء الله كما يلقاه أولياؤه؛ لأنهم لم يؤمنوا ولم يتقوا فلم يكن منهم سبب يرجون من أجله ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ [النمل:٦٦] قالوا: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ رسلاً من الله إلينا إن كان الله يريد أن يرسل إلينا، ومعنى ذلك نفي رسالة البشر ﴿أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ فيأمرنا بما يريد من دون رسول فلا حاجة إلى إرسال محمد بزعمهم.

﴿لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ أضمروا في أنفسهم كبراً ما هم ببالغيه ﴿وَعَتَوۡ﴾ عن الحق وتمردوا ﴿عُتُوّٗا كَبِيرٗا﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «قال في (البرهان): والعتو: السرف في الظلم والتجبر والعصيان والنفور عن الهدى» انتهى المراد.

(٢٢) ﴿يَوۡمَ يَرَوۡنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشۡرَىٰ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُجۡرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا﴾ ﴿يَوۡمَ يَرَوۡنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ﴾ وهو يوم القيامة ﴿لَا بُشۡرَىٰ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُجۡرِمِينَ﴾ أي لا بشرى لهم؛ لأنهم مجرمون تسوقهم الملائكة إلى موقف الحساب، ثم تسوقهم إلى أشد العذاب، فليس لهم خير في إنزال الملائكة عليهم.

وقد فاتتهم البشرى التي تتنزّل بها الملائكة على أولياء الله، كما قال تعالى: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت:٣٠] فالمكذبون تفوتهم البشارة عند نزول الملائكة ﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ أي حراماً محرماً، وهي كلمة إما يقولها المجرمون تعوذاً على ما عهدوا في الدنيا أن يتعوذوا بها إذا خافوا عدواً يقول قائلهم: حجراً محجوراً أي حجرت عني حجراً وحرمت عليك حراماً، وإما يقولها الملائكة بدلاً من البشرى أي حراماً محرماً عليكم ما يبشر به المتقون.

قال في (الصحاح): «والحجر: الحرام ـ ثم قال ـ : ويقول المشركون يوم القيامة إذا رأوا ملائكة العذاب: ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ أي حراماً محرماً يظنون أن ذلك ينفعهم كما كانوا يقولونه في الدار الدنيا لمن يخافونه في الشهر الحرام» انتهى، ومثله في (مفردات الراغب) فعلى هذا يتعوذون من ملائكة العذاب بعد أن قالوا في الدنيا: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ﴾ والله أعلم.

(٢٣) ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ أي أحبطنا يوم القيامة ﴿مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ﴾ ظنوه نافعاً كإغاثة لهفان أو عمارة المسجد الحرام، فلا ينفعهم؛ لأن العمل إنما يتقبله الله من المتقين، وإحباطه يوم القيامة الحكم ببطلانه وعدم نفعه، وهذه الآية الكريمة تصور إبطاله بصورة إتلاف جسم مزق وتبددت أجزاؤه حتى صار ﴿هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ في الهواء كما مثل في (سورة النور) بالسراب.

قال الراغب: «والهباء: دقاق التراب وما نبت في الهواء، فلا يبدو إلا أثناء ضوء الشمس في الكوة» انتهى، وقوله: ما نبت، الراجح أنه غلط، وأن الأصل: ما انبثّ، وقال الراغب: «نثر الشيء: نشره وتفريقه» انتهى.

أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ

﴿٢٤﴾ ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم يرون الملائكة وكان على أعداء الله ما ذكره، يقابله يومئذ أن أصحاب الجنة ﴿خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾ لأن الجنة خير من النار ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ ولعل مقيلهم عقيب وصولهم الجنة فهم في ظلال على الأرائك متكئون فهو مقيلهم إذا كان مقيلاً اسمَ المكان الذي يقيلون فيه، فإن كان المصدر أي القيلولة فقيلولتهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ * هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾ [يس:٥٥-٥٦] والله أعلم، أما مقيل المجرمين ففي جهنم نعوذ بالله منها، أو في موقف الحساب، وليس ذلك لهم مقيلاً حقيقياً، ولكن على المشاكلة التقديرية.

﴿٢٥-٢٦﴾ ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا * ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ ﴿وَيَوْمَ﴾ عطف على ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ﴾ وإما على الكلام في أهل النار وأهل الجنة جملة، فعلى الأول ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ﴾ ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ﴾ لا بشرى يومئذ للمجرمين، وعلى الثاني فيه وجهان: الأول: واذكر يوم تشقق، الثاني: الملك يوم تشقق السماء، فالظرف متعلق بالملك وأعيد يومئذ تأكيداً، وتشقُّق السماء تمزقها عند فنائها.

وقوله: ﴿بِٱلْغَمَٰمِ﴾ كأنها تنحل مع تمزقها إلى غمام ﴿وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ من السماء إلى موقف العرض والحساب ﴿تَنزِيلًا﴾ تحقيق لتنزيلهم ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾ الملك الحق لله لأنه المالك ولأنه يومئذ يحكم بين عباده بالحق،

يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ﴿٢٨﴾ لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ

ويحكم فيهم بالحق، ويثيب ويعاقب بالحق، وقوله: ﴿لِلرَّحۡمَٰنِ﴾ يبين: أن أصل قضائه الرحمة، وإنما يؤتى المجرمون من جهة أنفسهم ﴿وَكَانَ يَوۡمًا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ عَسِيرٗا﴾ العسر: ضد اليسر وعسره عليهم شدته من أوله عليهم حتى يدخلوا جهنم ويستقروا فيها، فالسوق إلى المحشر عسير والحساب عسير وسوقهم إلى جهنم عسير وإلقاؤهم فيها عسير.

﴿٢٧-٢٩﴾ ﴿وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا * يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا * لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا﴾ ﴿وَيَوۡمَ يَعَضُّ﴾ إما عطف على ﴿يَوۡمَ يَرَوۡنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ﴾ يبين ما يكون في ذلك اليوم، وإما عطف على ﴿يَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ﴾ وإما عطف على كل الكلام في الآخرة ﴿يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ﴾ بأضراسه ﴿عَلَىٰ يَدَيۡهِ﴾ من الندم.

فقوله تعالى: ﴿يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ﴾ كناية أريد فيها المعنيان، أي عبر به عن المعنى الحقيقي للعض وعن الندم ﴿يَقُولُ﴾ من الندم: ﴿يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ﴾ إلى ربي ﴿مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا﴾ لأنجو من العذاب ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰ﴾ كدعاء الثبور ﴿لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا﴾ أي أني لو لم أتخذه خليلاً لآمنت واتقيت فلم أعذب.

﴿لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ﴾ عن القرآن الذي هو الآية النافعة المنقذة من النار لمن اهتدى به ﴿أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ﴾ حين جاء به الرسول

مَهۡجُورٗا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيٗا وَنَصِيرٗا ﴿٣١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا

ومن يتلوه من بعده ﴿وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا﴾ فقد خذله شيطانه الذي اتخذه في الدنيا خليلاً؛ لأنه في الآخرة انقلب عدواً له وهي عادة كل شيطان من شياطين الإنس والجن أن يخذلوا من أضلوه حين يحيط به سوء عمله.

﴿٣٠﴾ ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾ أي يوم القيامة يشهد عليهم الرسول ﷺ فيقول: ﴿إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾ أي جعلوه أمراً يجب هجرانه والابتعاد عنه كما فعل الملحدون الذين قالوا: إن القرآن حجر عثرة في طريق التقدم، فقد سبقهم المشركون، فاتخاذهم له ﴿مَهۡجُورٗا﴾ ليس مجرّد أنهم هجروه، بل هو أنهم اجتنبوه وحذّروا منه واستمروا على ذلك، وهنالك يحكم الله عليهم ويجزيهم بما قدموه.

﴿٣١﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيٗا وَنَصِيرٗا﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ كما أن هؤلاء الكفار الذين قالوا: ﴿لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلاَئِكَةُ﴾ أعداءٌ لرسول الله ﷺ خلاهم الله ومكنهم وأرسل عليهم الشياطين فأضلتهم وحرضتهم على معاداة الرسول ﷺ كذلك كل نبي من أنبياء الله جعل له عدواً من المجرمين بالتمكين والتخلية والترف وسعة الحال حتى عادوا نبيهم ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ﴾ يا رسول اللّه ﴿هَادِيٗا﴾ فلا يضلك الأعداء ﴿وَنَصِيرٗا﴾ فلا يقهرك الأعداء فلا تُبالِ بعداوتهم.

جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴿٣٤﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ

﴿٣٢-٣٣﴾ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا * وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا﴾ ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ﴾ أي محمد ﴿ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ وهذا استهزاء منهم؛ لأنهم لم يؤمنوا بنزوله عليه مفرقاً، وأرادوا أنه إن كان من الله فهلا نزل ﴿جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ غير مفرق أجاب الله تعالى عليهم بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي على الوجه الذي ينزل عليك أي مفرقاً مع تفرق الأسباب ننزله عليك ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ وثبات القلب ثباته على الحق واطمئنانه به، فهو يثبت بتجدد الوحي عند كل سبب ويرسخ فيه ما نزل لفظاً ومعنى لوجوده عند الحاجة إليه فيطمئن به القلب أكثر.

﴿وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «وأصل الترتيل في الأسنان وهو تباعدها، فمعنى الترتيل في الكلام: أن يأتي بعضه على إثر بعض على تؤدة وتمهل» انتهى، فنبه الله على ما هو الأهم من تنزيله جملة وهو نزوله على ما تدعو إليه الأسباب، ومفرقاً يتجدد بنزوله تعهُّد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بالوحي متعدداً مكرراً. ثانياً أنه مرتل مفصل يسهل فهمه على السامعين ترتيلاً كاملاً وذلك بنزوله مرتلاً وأمر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بترتيله فكملت به الحجة البالغة.

﴿وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا﴾ ﴿بِمَثَلٍ﴾ كلام يحتجون به، كقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ﴾ [يس:٧٨] وهذا تأنيس للرسول صلى الله عليه وآله وسلم لئلا يهمه جدالهم بالباطل،

وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ

فالله تعالى يكفيه مؤونة الرد عليهم، كما رد على قولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ وعلى قولهم: ﴿مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس:٧٨] رد عليهم وجاء رسوله ﷺ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ في معناه، ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ في التعبير وحل شبهتهم. قال في (أساس البلاغة): «كل ما ترجم عن حال شيء فهو تفسرته» انتهى.

﴿٣٤﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «ومعنى ﴿شَرٌّ مَّكَانًا﴾ من مكان محمد عندكم، وذلك أنهم كانوا يضللون سبيله ويحتقرون مكانه، فقيل: لو علمتم أنكم تسحبون على وجوهكم لعلمتم أنكم شر مكاناً وسبيلكم أضل» انتهى.

فهم ﴿شَرٌّ مَّكَانًا﴾ لأنهم أسوأ حالاً؛ لأن مكانهم جهنم ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ لأن سبيلهم أداهم إلى جهنم أي طريقتهم التي كانوا عليها في الدنيا أدّتهم إلى عذاب جهنم، وفي حشرهم على الوجوه إهانة لهم قبل إهانتهم بالعذاب في جهنم، ويترجح أن هذه الآية من الجواب على قولهم: ﴿أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ لما تشير إلى دعواهم أنه فقير - والله أعلم.

﴿٣٥-٣٦﴾ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا * فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا﴾

﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ التوراة كما آتيناك القرآن فلست بدعاً من الرسل ﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ﴾ رسولاً ﴿أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا﴾ معيناً ﴿فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ﴾ أمر لموسى وهارون أن يذهبا ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ [يونس:٧٥] ﴿إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ

أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا

﴿كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ حين جاءهم بها موسى ﴿فَدَمَّرْنَـٰهُمْ تَدْمِيرًا﴾ أهلكناهم إهلاكاً بسبب تكذيبهم بآياتنا.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَـٰرُونَ﴾ أي أرسلناه معه ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِۦ﴾ [يونس:٧٥] ﴿فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ﴾ فقوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا﴾ تفريع على قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَـٰرُونَ﴾ لا على إيتاء موسى الكتاب، فالسياق لبيان سنة الله تعالى في إنزال الكتب وإرسال الرسل وسنة الله تعالى في تعذيب المكذبين، فقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ﴾ في الموضوع الأول وما بعده في الموضوع الثاني.

﴿٣٧﴾ ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَـٰهُمْ وَجَعَلْنَـٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ هذه الآية جمعت الكلام في الموضوعين: الإرسال للرسل، والتعذيب للمكذبين باختصار، وقوله تعالى: ﴿لَّمَّا كَذَّبُوا ٱلرُّسُلَ﴾ إما أنهم كذبوا بالرسالة للبشر فكان معناه أنهم كذبوا الرسل كلهم لأنهم بشر، وإما أنهم قالوا: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون:٢٤] وكانت قد خلت من قبلهم رسل إن كان كذلك الأمر والله أعلم، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَـٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً﴾ كانْ إهلاكهم بالإغراق آية للناس تدل على أن الله تعالى لم يهمل عباده بل إنه يجازي كلاً بعمله كما أنها كانت من دلائل قدرة الله تعالى وعلمه.

وقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ﴾ إما أقيم الظاهر مقام المضمر أي أعتدنا لهم، وفائدته التعليقُ على الظلم كله لا مجرد التكذيب، وإما أعتدنا للظالمين كلهم قوم نوح وغيرهم فهم داخلون في العموم دخولاً أولياً والكل معذبون على التكذيب وسائر ظلمهم.

لَهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَۖ وَكُلّٗا تَبَّرۡنَا تَتۡبِيرٗا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدۡ أَتَوۡاْ عَلَى ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِيٓ أُمۡطِرَتۡ مَطَرَ ٱلسَّوۡءِۚ أَفَلَمۡ يَكُونُواْ يَرَوۡنَهَاۚ بَلۡ كَانُواْ لَا يَرۡجُونَ نُشُورٗا ﴿٤٠﴾

﴿٣٨-٣٩﴾ ﴿وَعَادٗا وَثَمُودَاْ وَأَصۡحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونَۢا بَيۡنَ ذَٰلِكَ كَثِيرٗا * وَكُلّٗا ضَرَبۡنَا لَهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَۖ وَكُلّٗا تَبَّرۡنَا تَتۡبِيرٗا﴾ قوله تعالى: ﴿وَأَصۡحَٰبَ ٱلرَّسِّ﴾ قال فيه الشرفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: معناه: أصحاب البئر الذين قتلوا نبيهم ـ صلوات الله عليه ـ في الرس وهي البئر القليلة الماء إذا حفرت ولم تطوَ فهي الرس، قال زهير:

بكرن بكوراً واستحرن بسُحْرةٍ فهن ووادِ الرس كاليد في الفم

انتهى، والبيت في (المعلقات السبع) بلفظ: «كاليد للفم» وفي (أساس البلاغة): «ووقع في الرس في البئر التي لم تطو» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَقُرُونَۢا بَيۡنَ ذَٰلِكَ كَثِيرٗا﴾ قال الراغب: «القرن: القوم المقترنون في زمن واحد، وجمعه: قرون» انتهى، فهم أمم سبيلها سبيل عاد وثمود، وقوله: ﴿بَيۡنَ ذَٰلِكَ﴾ أي بين المذكورين ﴿كَثِيرٗا﴾ ولعلهم من بعد ثمود، وقبل فرعون وقومه ﴿وَكُلّٗا ضَرَبۡنَا لَهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ﴾ هديناهم للحق بالكتب والرسل التي بينا بها الحق ﴿وَكُلّٗا تَبَّرۡنَا﴾ أهلكنا ﴿تَتۡبِيرٗا﴾ إهلاكاً، قال في (لسان العرب): «والتبار: الهلاك وتبّره تتبيراً أي كسّره وأهلكه» انتهى.

﴿٤٠﴾ ﴿وَلَقَدۡ أَتَوۡاْ عَلَى ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِيٓ أُمۡطِرَتۡ مَطَرَ ٱلسَّوۡءِۚ أَفَلَمۡ يَكُونُواْ يَرَوۡنَهَاۚ بَلۡ كَانُواْ لَا يَرۡجُونَ نُشُورٗا﴾ ﴿ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِيٓ أُمۡطِرَتۡ﴾ هي قرية قوم لوط، قال الشرفي في (المصابيح): «هي سدوم» انتهى ﴿مَطَرَ ٱلسَّوۡءِ﴾ مطر الأحجار الذي عذبوا به، فقريش قد أتوا على هذه القرية في سفرهم كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمۡ لَتَمُرُّونَ عَلَيۡهِم مُّصۡبِحِينَ * وَبِٱلَّيۡلِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [الصافات:١٣٧-١٣٨].

وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولاً ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴿٤٢﴾ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَكُونُواْ يَرَوْنَهَا﴾ بل قد كانوا يرونها وفيها عبرة لهم ولكنهم غافلون ﴿بَلْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ لا يرجون حياة بعد الموت فلا يخافون النار ولا يرغبون في الجنة؛ ولذلك فهم منهمكون في طلب حاجات دنياهم، قال الشرفي في (المصابيح) في تفسير ﴿بَلْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾: «أي لا يأملون ولا يظنون النشور» انتهى المراد.

والحاصل: أنهم لا يخافون الآخرة، ويمكن إبقاء الرجاء على حقيقته لأن الذي يخاف الآخرة هو الذي يرجو رحمة ربه، وهو صاحب الضمير الحي والفطرة السليمة، فيكون قوله تعالى: ﴿بَلْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ﴾ كناية عن فسادهم بنفي صلاحهم.

﴿٤١-٤٢﴾ ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولاً * إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ﴾ أي الذين مر ذكرهم من أول السورة واتخذوا من دونه آلهة، وإذا رأوك يا رسول الله ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ﴾ ما يتخذونك ﴿إِلَّا هُزُوًا﴾ كفراً منهم ومعاندة للحق، فيقولون: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولاً﴾ تحقيراً له وادعاء أنه ليس أهلاً لذلك ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾ وهم يتظاهرون بالإنصاف وعدم التعصب والعناد ﴿لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا﴾ أي حبسنا أنفسنا على آلهتنا لنبقى على عبادتها، وهم في هذا يوهمون أنه قد اتضح لهم أنه ليس رسولاً فيقال لهم: لماذا؟ ماالذي أوجب هذا الكلام؟

أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴿٤٤﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ

هل تخلف عن صفة الرسالة؟ أم نزل عليكم وحي؟ أم ماذا؟ بل هو العناد والتضليل والكذب لا غير، ولذلك فمصيرهم العذاب ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ وهم هم أضل سبيلاً؛ لأنهم عدلوا عن سبيل الله ولو آمنوا بالرسول واتبعوه لنجوا من العذاب.

﴿٤٣-٤٤﴾ ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً * أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَـٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ ﴿ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ عبد هوى نفسه؛ لأنه اتخذ إلهه ما يهواه لأنه يهواه لا لحجة ولا شبهة بل لمجرد هواه ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾ لترده عن باطله وتهديه إلى الصواب، مع أنه لا يتقيد بحجة ولا يلتفت إلى طريق حق؛ لأنه لا يلتزم بشيء إلا هواه، فلا سبيل لهدايته فلا تكون عليه وكيلاً لتهديه.

﴿أَمْ﴾ بل أتحسب ﴿أَنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ أكثر هؤلاء الكفار ﴿يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ أي أكثرهم لا يسمعون؛ لأنهم يكرهون سماع الحق فهم معرضون عن استماعه ولذلك لا يسمعون ولا يعقلون؛ لأنهم لا ينظرون ليعرفوا الحق بل هم معرضون عن النظر مهملون لعقولهم ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَـٰمِ﴾ لإهمالهم أسماعَهم وعقولهم، فكأنهم لا يسمعون ولا يعقلون كالأنعام ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ أضل من الأنعام سبيلاً؛ لأن الأنعام لا إثم عليها ولا يقبح منها عدم السمع للحق ولا عدم العلم به؛ لأنه لا عقول لها، أما هؤلاء الكفار فإن لهم عقولاً ولكنهم أهملوها فقبح منهم الإعراض فكانوا أضل من الأنعام عن سواء السبيل.

كَيۡفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوۡ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنٗا ثُمَّ جَعَلۡنَا ٱلشَّمۡسَ عَلَيۡهِ دَلِيلٗا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضۡنَٰهُ إِلَيۡنَا قَبۡضٗا يَسِيرٗا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا

﴿٤٥-٤٦﴾ ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيۡفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوۡ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنٗا ثُمَّ جَعَلۡنَا ٱلشَّمۡسَ عَلَيۡهِ دَلِيلٗا * ثُمَّ قَبَضۡنَٰهُ إِلَيۡنَا قَبۡضٗا يَسِيرٗا﴾ ﴿ٱلظِّلَّ﴾ يحصل مع وقوع شعاع الشمس على الأرض، فكل منتصب يكون لـه ظل، وهذا الظل يكون في أول النهار ممدوداً ومتحركاً ينحرف قليلاً وينقص قليلاً قليلاً ﴿وَلَوۡ شَآءَ﴾ الله الذي أطلع الشمس ﴿لَجَعَلَهُۥ سَاكِنٗا﴾ بإسكان حركة الشمس وحركة الأرض، فهذا دليل على قدرة الله؛ لأنه تصرف في الأرض والشمس مع ما بينهما من البعد، وعلى علمه تعالى؛ لأن الظل يتحرك بنظام محدود تحديداً محكماً حتى يكون وسط النهار منقبضاً.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَا ٱلشَّمۡسَ عَلَيۡهِ دَلِيلٗا﴾ بعد كون الظل ممدوداً بمهلة يكون حر الشمس على ما يقع عليه شعاعها، وهذا الحر يبعث الإنسان وغيره على الاستظلال فتكون فائدة شعاع الشمس للأرض والشجر ومع ذلك يكون الظلال نعمة للإنسان وغيره، فكأن الشمس هي التي تقول للإنسان اذهب إلى الظل فكانت دليلاً للإنسان على الظلال أي باعثة عليه ﴿ثُمَّ قَبَضۡنَٰهُ﴾ أي الظل ﴿إِلَيۡنَا﴾ بقدرتنا حين يقوم كل منتصب في ظله ﴿قَبۡضٗا يَسِيرٗا﴾ سهلاً محدوداً لا تطول مدته، بل يبقى مقبوضاً قليلاً ثم يفيء الفيء فيزداد إلى آخر النهار، فالظل خاضع لتصرف الله فيه بالمد والقبض وتحديدهما وهو نعمة، فقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ تعجيب من صنع الله تعالى في الظل ونعمته وهو يذكّر بتدبيره تعالى في الأرض والشمس وفي تسهيل القبض بتقليل مدته حكمة ليستريح الإنسان من الكد إلى القيلولة ـ والله أعلم.

وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتٗا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورٗا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا ﴿٤٨﴾ لِّنُحۡـِۧيَ بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمٗا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرٗا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ بَيۡنَهُمۡ لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ﴿٥٠﴾ وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِي

﴿٤٧﴾ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتٗا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورٗا﴾ ﴿لِبَاسٗا﴾ يستر الأبدان من شعاع الشمس ويحفظ لها رطوبتها ﴿وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتٗا﴾ قطعاً للأعمال فتكون به راحة جسدية وفكرية يستعيد بها الإنسان ما نقص من قوته بالكد في النهار والأعمال الفكرية ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورٗا﴾ ينتشر الناس فيه لطلب المعاش، فهو الذي جعل هذه الثلاث نعمة للإنسان ورحمة.

﴿٤٨-٥٠﴾ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا * لِّنُحۡـِۧيَ بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمٗا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرٗا * وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ بَيۡنَهُمۡ لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا﴾ ﴿نشُرًا﴾ النشر ضد الطي، قال تعالى: ﴿وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ * فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ﴾ [الطور:٢-٣] والرياح تثير في الجو سحاباً، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [الروم:٤٨] فإما أن يكون معنى ﴿نشُرًا﴾ أنها تنشر السحاب في الجو، وهذا أقرب إلى الحقيقة، وإما أن يكون معنى ﴿نشُرًا﴾ أنها تسبب للمطر وبذلك تنشر الرحمة، والأول أرجح عندي، وقوله تعالى: ﴿بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦ﴾ أي بين يدي المطر الذي هو رحمة أي قبل المطر فهي تبشر به، هذا على قراءة ﴿نشُرًا﴾ بـ(النون) فأما على قراءة ﴿بُشۡرَۢا﴾ بالموحدة من أسفل فمعناه سبب بِشرٍ؛ لأنها تبشر، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾ [الروم:٤٦] أي بالمطر.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ فمعناه: أن الله جل جلاله تولى إنزاله؛ لأنه ينزل بقدر محدود لا يختلط في الجو فيضر ما وقع عليه بل ينزل كأنه من غربال، ولا ينزل قبل بلوغه سماء الأرض التي يريد تعالى سقيها، وقوله تعالى: ﴿طَهُورًا﴾ أي بليغ في نظافته وسلامته من الغبار إلى حد بعيد مع أن أصل السحاب من الغبار، وكل ذلك إرسال الرياح بقدر وإنزال المطر بقدر دليل على قدرة الله تعالى وعلمه وفضله على عباده.

وقوله تعالى: ﴿لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ والبلدة اسم لما يسكنه الناس ويكون في العادة لهم فيها حرث وأنعام تحتاج إلى المرعى فيحييها ربها بالمطر فينبت الزرع وتخضرُّ الشجر وينبت المرعى، وقد كانت قبل ذلك كالميتة لا تنبت شيئاً من النبات، وهذا يشير إلى قدرته تعالى على البعث للموتى، ففي هذه الآيات إبطال لجحد الكفار للبعث وبيان لقدرة الله تعالى عليه، وتفيد: أن الله هو المنعم على عباده فهو المستحق للعبادة لا أصنام المشركين، فهي لا تفيدهم شيئاً.

وقوله تعالى: ﴿وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ فيفيد الدلالة على قدرته ونعمته على الأنعام التي تشرب منه وعلى أهلها وعلى كثير من الناس لا يجدون ما يشربون إلا من ماء المطر، فأنزل المطر عليهم ليسقيهم نعمةً منه ورحمةً، ولم يكونوا يقدرون على إنزاله من السحاب لا هم ولا أصنامهم التي هي أعجز منهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ﴾ الراجح أن الضمير للماء الطهور وأن يبين لعباده أنه هو أنزله لا الطبيعة ولا النجوم؛ لأن تصريفه بإنزاله مرة على هؤلاء من الناس دون غيرهم ثم على آخرين كذلك ثم على آخرين كذلك،

كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَـٰذَا مِلْحٌ

وفي بعض الحالات يعم بالأمطار بلداناً كثيرة، فاختلاف أحواله في نزوله دليل على أنه تابع لإرادة الله جلَّ جلاله.

ولقد يكون السحاب على بلد محتاج إلى المطر فيتوقعون نزوله عليهم ثم لا يلبث أن ينصرف عنهم دون أن ينزل عليهم، وذلك يدل على أنه لا الطبيعة ولا النجوم ولا السحاب، بل الله ينزله بإرادته سقيهم متى شاء، وتصريفه يذكرهم بالله ليشكروا نعمته، ويقولوا: مطرنا بفضل الله ورحمته، وليسألوه المطر متى رأوه ينزل على غيرهم ولا ينزل عليهم، وليتوبوا ويستغفروا إذا ذكروا أن سبب تأخيره عنهم ذنوبهم، فهذا كله من معنى قوله تعالى: ﴿لِيَذَّكَّرُواْ﴾.

أما قوله تعالى: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ فإذا نزل المطر نسبوا نزوله إلى النجوم أو الطبيعة غير شاكرين لله، وإذا منع المطر عنهم اشتغلوا بطلب الرزق من غير بلدهم وتفرغوا للكد في طلبه دون أن يذكروا الله تعالى ويرجعوا إليه، وبعضهم لأجل قنوطهم من رحمة الله يسخرون من الناس الخارجين في الإستسقاء، ولكثرة الكفر وانتشاره في الناس احتاجوا إلى إرسال الرسل مبشرين ومنذرين فأرسل الله رسله بالآيات الدالة على صدقهم وعلى صدق إنذارهم، فعجب الكفار من إرسال محمد ﷺ وليس ذلك عجيباً في قدرة الله تعالى.

﴿٥١-٥٢﴾ ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ۞ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا﴾ فضلاً

أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ

عن إرسال نذير واحد إلى القرى كلها، فليس ذلك عجيباً في قدرة الله تعالى ولا بعيداً في قدرته وحكمته وفضله على عباده ورحمته ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ بترك إنذارهم على شركهم وأعمال جاهليتهم وتكذيبهم ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ﴾ أي بالقرآن الذي فيه الإنذار والاحتجاج عليهم ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾ يفيده الصبر والجد واليقين بأنك على الحق، فلا يصدنك بتكذيبهم وأذاهم وتخويفهم، وفي الآية دلالة على الجهاد بالحجة إذا كان بمثابرة ومصابرة فهو جهاد كالجهاد بالسلاح وله فضل الجهاد إلا أن فضل الجهاد متفاوت.

﴿٥٣﴾ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ حكى الشرفي في (المصابيح) في تفسير (سورة الرحمن): «عن الهادي عليه السلام أنه قال: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ [الرحمن:١٩] معناه: خلقهما وجعلهما وبعثهما وأجراهما وأساحهما على وجه الأرض..» إلى قوله: «والبحران فهما البحر المالح والبحر العذب، وهو الذي يسمى دجلة والبحر المالح الذي بمصر إلى فارس، وهما يلتقيان بموضع يقال له رأس نهر السد عند مقصاه من البصرة، ومعنى ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾ فهو جعلهما يلتقيان ويصطدمان فقدّرهما سبحانه على ذلك من الشان فيلتقي البحران حتى ينظر إليهما الناظر بالعينين، وتقف السفن على ملتقاهما، فينظر شق السفينة هذا أخضر وشقها هذا أبيض، تشرب من يمينها مالحاً ومن يسارها عذباً، ليس بينهما سبب يحجزهما» انتهى المراد.

وكنت أظن أن (مجمع البحرين) عند البلدة المسماة (البحرين) فوصل إليَّ رجل من أهلها فسألته عن (مجمع البحرين)؟ فأفادني أنه مقابلها بإزائها، وأنهما ملتقيان لا فاصل بينهما، كما حققه الإمام الهادي عليه السلام.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا﴾ فيما حكاه الشرفي عن الإمام الهادي عليه السلام في تفسير (سورة الرحمن) أنه قال: «والبرزخ، فهو فعل الله تبارك وتعالى فيهما وتقديره لالتقائهما واصطدامهما وما حجرهما به من قدرته سبحانه عن اختلاطهما» انتهى المراد، فالبحر حائل معنوي، والحجر المحجور، الحجر بفتح أوله وسكون ثانيه: هو المنع، أي أن الله ـ جلَّ جلاله ـ جعل بينهما مانعاً من اختلاط العذب بالملح الأجاج بقدرته، وقوله تعالى: ﴿مَّحْجُورًا﴾ تأكيد ودلالة على بقاء المنع واستمراره، كأنه ممنوع من الذهاب ـ والله أعلم.

قال الراغب: «﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ أي منعاً لا سبيل إلى رفعه ودفعه» انتهى.

وقال (صاحب الكشاف): «فإن قلت: ﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ ما معناه؟ قلت: هي الكلمة التي يقولها المتعوذ [وقد فسرناها عند قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾] وهي هاهنا واقعة على سبيل المجاز، كأن كل واحد من البحرين يتعوذ من صاحبه ويقول له: حجراً محجوراً، كما قال: ﴿لَا يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمن:٢٠] أي لا يبغي أحدهما على صاحبه بالممازجة فانتفاء البغي ثمة كالتعوذ هاهنا، جعل كل واحد منهما في صورة الباغي على صاحبه فهو يتعوذ منه، وهي من أحسن الاستعارات وأشهدها على البلاغة» انتهى، وقوله: «جعل كل واحد في صورة الباغي» لعله يعني: إن خالطه فقد بغى عليه.

(٥٤) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ الماء هنا المني، وخلق البشر منه آية عظيمة تدل على قدرة الله تعالى وعلمه ويبطل بذلك جعل المشركين له شركاء لم يخلقوا فلا نصيب لهم في المخلوق ولا ينبغي لعاقل أن يجعلهم أنداداً لله جل جلاله، وبطل به استبعاد الكافرين لبعث الموتى؛ لأن من قدر على الإبداء قدر على الإعادة.

وقوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ بيان لنعمة عظيمة للإنسان، فلو خلقه من الأرض كما يخلق الزرع ما كان له أب ولا أخ ولا غيرهما من القرابة، والأنساب تنفع الناس بالمعاونة ولا سيما تربية الأبوين، وكذلك الصهارة علاقة نافعة للإنسان، والأصهار: أهل الزوجة أصهار لزوجها، وقد يسمى الزوج صهراً لأهل زوجته، قال شاعر بني العباس:

فالصهر ليس بوارث والبنت لا ترث الإمامة

يعني بـ(الصهر): علياً ـ صلوات الله عليه.

وفي (لسان العرب): «والأصهار: أهل بيت المرأة، ولا يقال لأهل بيت الرجل إلا أختان، ومن العرب من يجعل الصهر من الأحماء والأختان جميعاً يقال: صاهرت القوم إذا تزوجت فيهم» انتهى المراد، وقد قيل: الصهر في أعم من ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ﴾ أي ربك يا رسول الله ﴿قَدِيرًا﴾ وهذا يشير إلى أنه الصادق في إنذاره بالبعث؛ لأن الله تعالى أرسله مبشراً ونذيراً ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ أي قادراً على كل شيء ومنه البعث بعد الموت، وفيه تعريض بمن اتخذهم بعض المشركين أرباباً فرب محمد قدير، ومن اتخذوهم أرباباً عاجزون؛ وهذا لأن السياق من أول السورة في الرد على المشركين في شركهم وإنكارهم البعث وتكذيبهم بدليل الرسالة وبالرسالة.

مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ

﴿٥٥﴾ ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ ﴿وَيَعْبُدُونَ﴾ عطف على دلائل قدرة الله تعالى وعلمه وإنعامه على عباده، فذلك يقتضي أن يعبدوا الله وحده ولكنهم مع ذلك على خلافه يعبدون ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ﴾ فيشكروه ويزدادوا بعبادته نفعاً منه لهم ﴿وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ فيعبدوه اتقاء ضره بل لا يحتاجون إلى عبادتهم مع كونها باطلاً من حيث أن ربهم الله وحده، ومن يعبدونهم عباد أمثالهم لا يملكون منهم شيئاً.

﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ معيناً لأعدائه من شياطين الجن والإنس؛ لأن الكافر يجحد الحق ويدّعي الباطل، وهو ما يدعو إليه أعداء الله؛ ولأن الكافر يكفر نعمة الله وهو ما يريده إبليس، حيث قال: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف:١٧].

﴿٥٦﴾ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ يا محمد ﴿إِلَّا مُبَشِّرًا﴾ للأبرار بالجنة ﴿وَنَذِيرًا﴾ للفجار بالجحيم ليس عليك أن يهتدي المشركون.

﴿٥٧﴾ ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله لهؤلاء المكذبين ﴿مَآ أَسْـَٔلُكُمْ﴾ على ما جئتكم به من عند الله ﴿مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ قليل أو كثير لكن ﴿إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ أسأله أن ينفع نفسه باتخاذه السبيل إلى ربه ليتقرب إليه بعبادته، وهذه الآية تفيد معنى قوله تعالى: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ [الطور:٤٠] فليس لكم ما تعلّلون به في دفعكم لما جئت به.

بِحَمْدِهِۦۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ يبين أن سؤاله منهم المودة في القربى ليس إلا لينفعوا أنفسهم؛ لأن ذلك يعينهم على التمسك بكتاب الله وعترة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

﴿٥٨﴾ ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ ﴿وَتَوَكَّلْ﴾ يا رسول الله ﴿عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ فهو نعم الوكيل، فبلغ الرسالة توكلاً على الحي الذي لا يموت ولا تضعف عنها أو تقصر لأجل كثرة المكذبين وعداوتهم لك وغضبهم من دعوتك كما تفيده هذه السورة؛ لأنك تتوكل على ربك الحي الذي لا يموت لا كالمشركين الذين يرجون النصر من أصنامهم التي هي جماد لا تسمع ولا تبصر.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ ذكراً له وشكراً وتنزيهاً له عما يقول المشركون ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ عليماً بظاهرها وباطنها وبمقاديرها في قبحها؛ لأنه بكل شيء عليم لا يخفى عليه شيء فهو يعلم ما يقول المشركون وما يكسبون من الذنوب من الشرك والتكذيب والظلم.

﴿٦٠﴾ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا * وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾

﴿ٱلَّذِى﴾ مبتدأ خبره الرحمن ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ هو الدليل الذي يعرف به الرحمن؛ لأنه إنما يعرف

بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ

بآياته فخلقه للسموات والأرض وتصرفه المحكم فيهما وتدبيره لشأنهما وشأن ما فيهما وما بينهما من الشمس والقمر والنجوم والليل والنهار هو الدليل على أن خالق السموات والأرض ومدبر الأمور هو ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ الذي له الخلق والأمر؛ لأنه دليل على قدرته وعلمه وحكمته وغناه ورحمته التي تجلت في إنعامه على عباده بما خلق ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ اسأل عنه واطلب معرفته من خبير عالم به وبما هو خفي من مدلولات أسمائه ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ بالرحمن خبيراً بما تحتاج إلى معرفته، فالله هو العليم الخبير يعرف بما بيّن في كتابه ثم بتعليمه للرسول وأعلام الهدى من آله ليدلك الخبير الذي تسأله على الرحمن بآياته ويبين لك طرق المعرفة ووجوه الاستدلال الذي به تستفاد المعرفة الكافية.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ للمشركين المكذبين للرسول ﷺ إذا قيل لهم: ﴿ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ واعدلوا عن عبادة الأوثان ﴿قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾؟ كما قال فرعون: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء:٢٣]؟ تجاهلاً منهم وهم جاهلون بالله محتاجون لمعرفته ليؤمنوا برسوله ويتركوا الشرك ﴿قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ زادهم الأمر بالسجود للرحمن نفوراً إلى نفورهم من الآمر الذي ينهاهم عن الشرك، ويقول: لا إله إلا الله.

والدليل على أنهم لا يعرفون الله جحدهم للبعث بعد الموت ﴿قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس:٧٨] فمن لم يعلم أن الله على كل شيء قدير فلم يعرفه، وكذلك من لم يعلم أن الله تعالى لم يخلق السموات والأرض باطلاً ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك.

خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾

﴿٦١-٦٢﴾ ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا * وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ ﴿تَبَارَكَ﴾ جل جلاله وعظم عما يتوهم فيه الجاهلون الذين لم يعرفوه بآياته ولم يشكروه على ما ابتدأهم به من النعم برحمته.

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ منازل محدودة للشمس وللقمر، فهي من أدل آياته عليه؛ لأن الشمس تنزل في كل ثلاثة عشر يوماً في منزلة منها حتى تتم المنازل في سنة شمسية، والقمر ينزل في المنازل كلها في شهر ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس:٣٨-٤٠] ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا﴾ هو الشمس ينعم بضوئها الناسُ وينتشرون لمعاشهم ﴿وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ ينتفع بنوره في الليل، فهذه نعم من الرحمن.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ كل واحد منهما يخلف الآخر يتناوبان على الناس ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ﴾ بأن يفكر في صنع الله ويعرف ربه ﴿أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ للرحمن على نعمة الليل بعد النهار ونعمة النهار بعد الليل، فآيات الرحمن ونعمه على عباده تدل من أراد معرفته عليه.

﴿٦٣﴾ ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ العابدون للرحمن المؤمنون بالرحمن أولياؤه الفائقون في عبادته صفاتهم ما ذكره سبحانه منها قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ قال (صاحب الصحاح): «الهون السكينة والوقار» انتهى، فهم منزهون عن التكبر والخيلاء.

وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «قال المرتضى عليه السلام: هذا ذكرٌ من الله تعالى لأوليائه الذين خاطبهم الجاهلون بقبيح القول وسمج اللفظ والإفحاش في الكلام قالوا سلاماً فهو القول الحسن السالم من القبيح والعيب المسلم من غضب الله، فذكر سبحانه أنهم لا يقولون إلا سلاماً وحسناً جميلاً» انتهى.

وقد يرجَّح حمل ﴿سَلَٰمًا﴾ على التسليم أي قالوا نسلم عليكم سلاماً ولكنه يرجح قول المرتضى عليه السلام أن لفظ هذه الآية يخالف قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص:٥٥] فهنا لم يقل عليكم ونصب ﴿سَلَٰمًا﴾ فجعْلُهُ وصفاً للقول أقرب من تقدير جملة وحذف المسلم عليهم مع أن المعنى مستقيم؛ لأنه يفيد أنهم لم يردوا على الجاهلين بمثل خطابهم، والجاهلون القائلون بالجهالة والسفاهة، كقول عمرو بن كلثوم في الجهالة:

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

﴿٦٤﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾ هذه من صفات عباد الرحمن، قال الشرفي في (المصابيح): «ومعنى ﴿يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ﴾ أي يكونو[ن] في لياليهم مصلين، قال: والظاهر: أنه وصف لهم بإحياء الليل أو أكثره ـ ثم قال ـ: قال الحسن: يبيتون لله على أقدامهم، ويفرشون له جباههم، وتجري دموعهم على خدودهم خوفاً من ربهم». قال الشرفي: «وهو كقوله: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ [السجدة:١٦]» انتهى، قلت: وهذا هو الراجح.

مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا

وقوله تعالى: ﴿سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ كناية عن الصلاة لأن القيام المشروع في الليل على الإطلاق ليس إلا في الصلاة، وكلام سيد قطب في تفسير الآية مثل هذا، وفي (لسان العرب): «الفراء: بات الرجل إذا سهر الليل كله في طاعة الله أو معصيته» انتهى، ولعله يستشهد له بقول امرئ القيس:

وبات وباتت له ليلة ... كليلة ذي العائر الأرمد

وقول آخر:

فبتّ كأني ساورتني ضئيلة ... من الرقش في أنيابها السم ناقع

والأولى أن هذا أحد معاني (بات)؛ لأنه يقال: باتوا بمزدلفة سواء ناموا أم لم يناموا إلا أنهم يكونون فيها أكثر الليل.

وفي (مجموع الإمام زيد بن علي): عن أبيه عن جده عن علي عليه السلام، قال: «(لا يصلي الإمام المغرب والعشاء إلا بجمع، حيث يخطب الناس يصليهما بأذان واحد وإقامة واحدة ثم يبيتون بها..)» الحديث.

﴿٦٥﴾ ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ لخوفهم من النار الناتج عن إيمانهم بالجنة والنار يدعون ربهم أن يصرف عنهم عذاب جهنم، كأنه طالب أو بناء على أنها يوم القيامة ستطلب أهلها. ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ خسراناً لازماً لهم ملحاً، قال في (الصحاح): «الغرام: الشر الدائم والعذاب، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ قال أبو عبيدة: أي هلاكاً ولزاماً لهم» انتهى.

﴿٦٦﴾ ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ هذا من دعاء (عباد الرحمن) حكاه الله عنهم، لأنه تعليل للدعاء بصرفها، ولعلها جعلت مستقراً باعتبار بقائهم فيها وإن كانوا لا يستقرون؛ لأنهم صاروا فيها وفاتتهم الجنة التي هي المستقر ﴿وَمُقَامًا﴾ محل إقامة وبقاء.

يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا

﴿٦٧﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾

﴿لَمْ يُسْرِفُوا۟﴾ في الإنفاق إما بإضاعة المال في غير فائدة ومنه الإنفاق الكثير الذي يزيد ويتلف الزائد في غير فائدة، وإما بإنفاقه في المعاصي لأنه إضاعة له في غير فائدة وإن كانت عند العاصي فائدة ﴿وَلَمْ يَقْتُرُوا۟﴾ لم ينفقوا أقل من المحتاج إليه.

قال الراغب الأصبهاني: «القتر: تقليل النفقة» انتهى، وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ أي كان إنفاقهم بين الإسراف والتقتير ﴿قَوَامًا﴾ ما تقوم به الحاله، وقال في (الصحاح): «القوام: العدل» انتهى.

﴿٦٨-٦٩﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا﴾

﴿لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ هذه من صفات عباد الرحمن فهم لا يعبدون إلا الرحمن أو لا يسمون مع الله إلهاً والأول أرجح ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ والحق قتلها بحكم الله كالقصاص ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾ والزنا: إتيان النساء غير الأزواج والذكر والأنثى فيه زانيان، ويستثنى مع الأزواج المملوكات للمجامع وحده فليس جماعها زنا؛ لأنها حلال شرعاً.

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ دعاء إله مع الله، وقتل النفس المحرمة بغير الحق، والزنا ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾ قال الشرفي: «والأثام: العقوبة» انتهى، وقد فسره قوله تعالى: ﴿يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ..﴾ الآية، وقال في (الصحاح): «والأثام جزاء الإثم» انتهى، ومثله في (لسان العرب).

مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَـٰلِحًا فَأُوْلَـٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَإِنَّهُۥ

وقوله تعالى: ﴿وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا﴾ أي في العذاب وتضعيفه؛ لأنه اجتمع عذاب الشرك وعذاب القتل وعذاب الزنا فتضاعف عذابه، فأما عذاب السيئة الواحدة فلا يضاعف ما لم تكن في معنى سيئتين أو سيئات كمن ضرب أمه فاحتمل: إثم الظلم، وإثم العقوق، والمهان: الذي يجعل هيناً حقيراً ذليلاً؛ لأنه في عذاب الخزي.

﴿٧٠﴾ ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَـٰلِحًا فَأُوْلَـٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ الراجح في ﴿سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾: أنها عذابهم، كما قال تعالى في آل فرعون ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ * فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾ [الأعراف:١٣٠-١٣١] وقال تعالى: ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾ [النساء:٧٨] فالعذاب يسمى سيئة يسوء المعذَّب وهو سيء طبعاً، فتبديل سيئاتهم تبديل عذابهم المضاعف حسنات في الجنة أكلها وشربها ولباسها وأزواجها وغير ذلك لأنها حسنات طبعاً وعقلاً.

ولا يصح تفسير تبديل السيئات بتحويلها حسنات؛ لأنه لو فرض إمكانه، غير متعين، لأن التبديل يستعمل في جعل شيء بدل شيء آخر، قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا﴾ [الأعراف:٩٥] وقال تعالى: ﴿وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ..﴾ الآية [سبأ:١٦] وقال تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ..﴾ وقال تعالى: ﴿بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾ [الكهف:٥٠] أي ولاية إبليس وذريته بدل ولاية الله تعالى، ويرجح هذا أن التبديل فيه من الله حقيقة.

يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام): «معناه: يجعل ذلك في الدنيا بالشرك إيماناً وإخلاصاً، وبالسيء من العمل الصالح منه وبالفجور عفافاً وإحصاناً» انتهى. وقال الشرفي في (المصابيح): «وقال الحسين بن القاسم عليه السلام: هذا من الاختصار؛ لأن السيئة لا ترجع حسنةً أبداً، وإنما المعنى: يبدل الله مكان سيئاتهم حسنات فعلوها بعد توبتهم» انتهى.

وقال الشرفي: قال الإمام الناصر عليه السلام في كتاب (البساط) في معنى (التبديل) : «أعلمنا الله سبحانه أن العبد إذا تاب رد عليه ما بطل من عمله وجعل بدل سيئاته حسنات، قال الشرفي: ومثل هذا ذكر الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة عليه السلام، فإنه قال: إن سقوط ما يستحقه من الثواب كان [يـ]ـسوءه فسمي سيئة، فلما تاب رجع له فسمي حسنة، فهذا معنى التبديل ـ والله أعلم» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ومن مغفرته ورحمته تبديل السيئات حسنات لمن تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً.

﴿٧١﴾ ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾ أي متاباً كريماً، والتوبة تنجي من العذاب فإذا أضيف إليها العمل الصالح أدى إلى أن يرجع إلى الله مرجعاً عظيماً مرجعاً مخصوصاً ليس كمرجع أكثر الأمم، والتنكير هنا مثله في قوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ [الأعراف:٨٤] فهو مطر غير المطر المعهود كذلك المرجع إلى الله مرجعاً مخصوصاً يخالف مرجع الأمم الكثيرة، ولكثرتها كان مرجعها كأنه الأصل في مرجع الإنس والجن، وفسرته بالكريم، لقوله تعالى: ﴿وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء:٣١] وغيرها من الوعد لأوليائه كما فسر مطر قوم لوط آيات من القرآن.

صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا

فإن قيل: ما فائدة هذه الآية ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ ..﴾ بعد قوله تعالى: ﴿يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾؟

فالجواب: أن هذه الآية تشير إلى ثواب عظيم، بخلاف قوله تعالى: ﴿يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ لأن الحسنات تصدق على القليل والكثير، وما كل تنكير يفيد التعظيم، ففي هذه زيادة ترغيب عظيم، كما أن في قول الشاعر:

فلا وأبي الطير المربة بالضحى ... على خالد لقد وقعتِ على لحم

مدحاً كبيراً.

﴿٧٢﴾ ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ ﴿لَا يَشْهَدُونَ﴾ لا يحضرون ﴿الزُّورَ﴾ بحيث يسمعونه، والزور مثل قولهم: ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ..﴾ الآية [النساء:١٤٠] وهذا أوفق لسياق هذه السورة من تفسيرها بأنهم لا يشهدون الشهادة الزور.

﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ﴾ اللغو هنا سب المؤمنين يقوله الكفار لهم ﴿مَرُّوا كِرَامًا﴾ لا يسافهون السفهاء، بل أعرضوا عن كلامهم كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ..﴾ الآية [القصص:٥٥] وهذه من صفات عباد الرحمن.

﴿٧٣﴾ ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ ربهم الذي يؤمنون به ويخشونه ﴿إِذَا ذُكِّرُوا﴾ نبهوا من غفلة أو ذُكِر لهم ما يتذكرون به من وعظ أو دليل حكم إذا ذكروا به تذكروا؛ لأنهم يفتحون أسماعهم وبصائرهم لمن يذكرهم ﴿بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَمْ يَخِرُّوا﴾ أي لم يسقطوا كما يسقط المنافقون ﴿صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ ولعله ذكر الخرور؛ لأن عباد الرحمن ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم:٥٨] فهم لم يخروا عليها ﴿صُمًّا﴾ عن استماعها ﴿وَعُمْيَانًا﴾ عن النظر ببصائرهم، ولا يجب أن يكون المنافقون يخرون صماً وعمياناً، بل يكونون عند سماع الآيات صماً وعمياناً.

فأما الإكباب على الوجوه فلم يفسر به (الخرور) (صاحبُ الصحاح)، ولا الراغب، ولا في (لسان العرب) ومثّل فيه للآية هذه بقول الشاعر:

بأيدي رجال لم يشيموا سيوفهم ولم تكثر القتلى بها حين سُلَّتِ

أي تشبيه النفي في الآية بالنفي في البيت، والأولى: أن الذي في هذه الآية تعريض بالمنافقين ومرضى القلوب.

وأما قول الشرفي رحمه الله: «والخرور: هو السقوط على الوجه للسجود» فلعله خرّجه من كلام (الكشاف) حيث فسره بالإكباب، وهذا عندي غير صحيح، وإنما يفسَّر الخرور للسجود بأنه الهبوط للسجود ليس سقوطاً حقيقياً، فأما المعنى الحقيقي: فهو السقوط من غير قيد، إلا أن الراغب قيده بالسقوط مع صوت الساقط، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ﴾ [الحج:٣١] وقال تعالى: ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ [النحل:٢٦] ولعل (صاحب الكشاف) لم يقصد تفسير الخرور من حيث اللغة، إنما أراد أن هذا الخرور لا يكون سقوطاً حقيقياً، وإنما هو هبوط لغرض الإكباب على الوجوه.

(٧٤) ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ الأقرب: أنهم أرادوا اجعل لنا ﴿مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا﴾ من يكون لنا في الآخرة ﴿قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾؛ لأن قولهم: ﴿وَذُرِّيَّاتِنَا﴾

صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا ﴿٧٧﴾

يفيد الحاضر إن كان حاضراً، والمستقبل الذي يوجد بعد موت الداعي، فقد علموا أن المؤمنين يدخلون الجنة ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم.

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ [الطور:٢١] فأرادوا الدعاء بالصلاح، وأن يدخلوا هم ومن صلح من أزواجهم وذرياتهم الجنة تقر أعينهم بمن دخل معهم من أزواجهم وذرياتهم، ولا مانع من أن يراد قرة أعين في الدنيا بالنسبة للموجودين معهم وفي الآخرة، وهذا لأن المؤمن تقر عينه بصلاح زوجه وأولاده، وقرار العين كناية عن السرور.

وقولهم: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ أي اجعلنا قدوة لهم بأن نكون من الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويدعون إلى الخير حتى نكون متبوعين في التقوى قادة إلى الخير لننال أجر ذلك، وبأن نكون في التقوى فائقين بالزهد والورع والصبر والشكر ونحوه، حتى يرغب المتقون في الإقتداء بنا، كما قال:

أئمة خير يقتدَى بفعالهم وتؤمن منهم زلة العثرات

والحاصل: ربنا أصلحنا حتى نكون قادة للمتقين أو قدوة لهم، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: أئمة في الخير يقتدى بنا، وقال مثال» انتهى.

﴿٧٥﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى (عباد الرحمن) أهل الصفات المذكورة

من قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..إِمَامًا﴾ وقوله تعالى: ﴿يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ﴾ هي من غرف الجنة، قال تعالى: ﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لاَ يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾ [الزمر:٢٠].

قال الشرفي رحمه الله: «والغرفات: هي العلالي المرتفعة في الجنة، والغرف هي الخلوات في لغة أهل اليمن، وهي العلالي في لغة أهل الحجاز» انتهى المراد، وقال الراغب: «والغرفة: عُلِّيَّة من البناء» انتهى المراد.

وقوله تعالى: ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ يصدق على صبرهم في الجهاد وفي طاعة الله كلها، وعلى صبرهم على البلاء من المرض وغيره كالفقر، وقوله تعالى: ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا﴾ أي في الغرفة ﴿تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾ وأطلق هنا، فيشمل تحية الملائكة لهم والسلام المذكورين في قول الله تعالى: ﴿وَالْمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ..﴾ [الرعد:٢٣-٢٤] لأنها تفيد التحية بالسلام، ويحتمل: أن التحية تحية الـمُلك ـ بضم الميم ـ قال في (الصحاح):: «والتحية: الملك، قال زهير بن جناب الكلبي:

ولكلّ ما نال الفتى ... قد نِلته إلا التحية

قال في (الصحاح ـ أيضاً ـ : «وقال عمرو بن معديكرب:

أسير به إلى النعمان حتى ... أنيخ على تحيته بجند

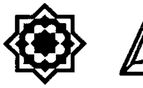
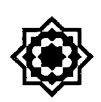
أي على ملكه» انتهى، وهو هنا غير بعيد؛ لأن السياق لذكر كرامتهم وشرفهم.

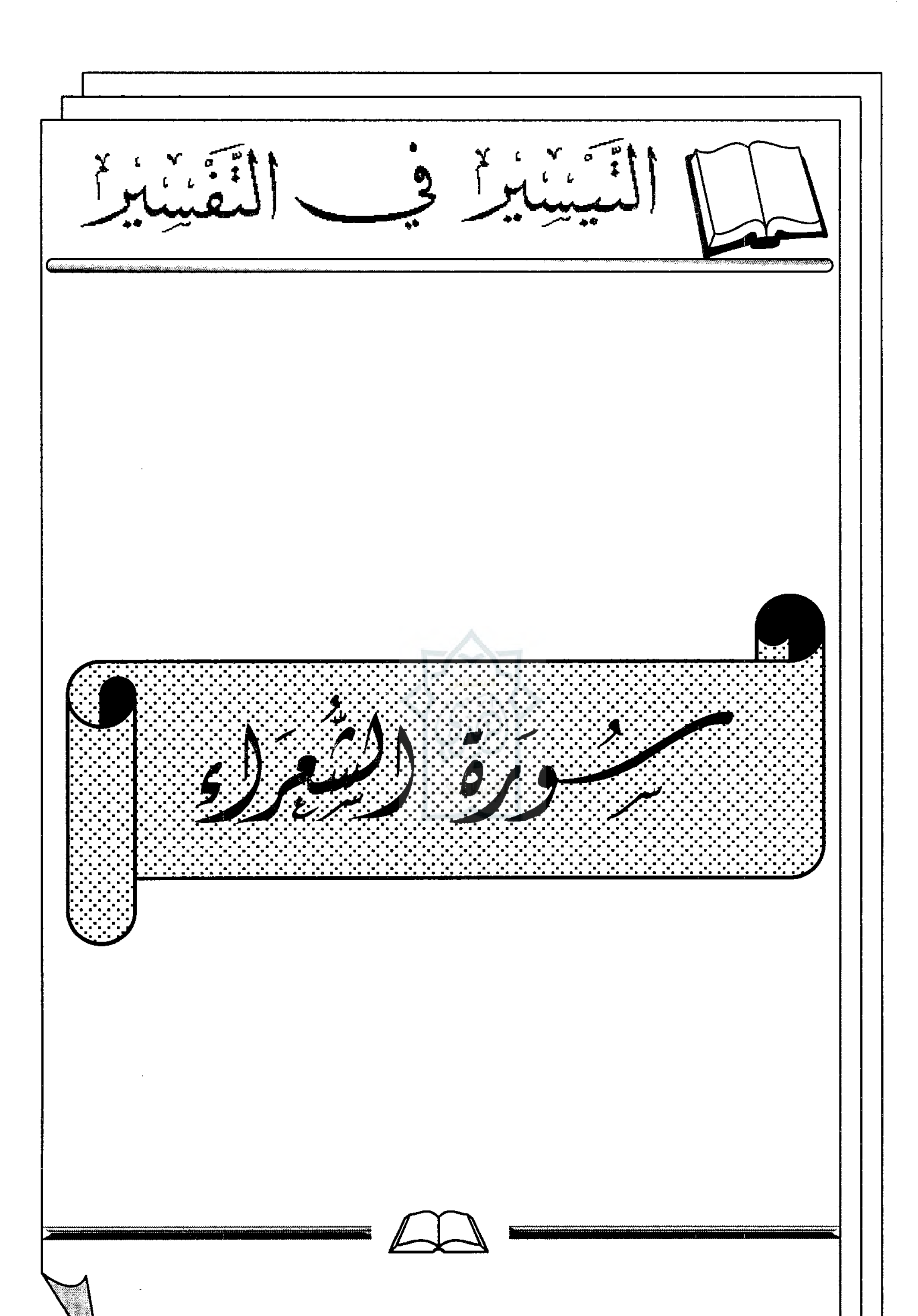
(٧٦) ﴿خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ خالدين في الجنة، والمستقر باعتبار الأمن والرغبة في البقاء، والمقام باعتبار طول المدة والبقاء.

(٧٧) ﴿قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡۖ فَقَدۡ كَذَّبۡتُمۡ فَسَوۡفَ يَكُونُ لِزَامَۢا﴾ ﴿قُلۡ﴾ يا رسول الله للكفار ﴿مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي﴾ ما يبالي بكم في إرساله إليكم الرسول وإنزاله القرآن بما فيه من الآيات البينات والمواعظ وذكر الجنة ونعيمها وغير ذلك ﴿لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡ﴾ لولا دعاؤه لكم إلى ما هو خير لكم الذي تقوم به الحجة عليكم إن كفرتم وتسعدون به إن آمنتم ﴿فَقَدۡ كَذَّبۡتُمۡ﴾ الداعي والدعاءَ ﴿فَسَوۡفَ يَكُونُ﴾ تكذيبكم ﴿لِزَامَۢا﴾ لكم لا ينفك عنكم أبداً، كقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦ﴾ [الإسراء:١٣].

قال الشرفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: يريد لا يعبأ بهم لولا دعاؤه لهم إلى ما هو خير لهم ـ ثم قال فيما حكاه عن الحسين بن القاسم عليه السلام ـ: والعرب تقول: فلان أحمق لا يعبأ به ولا يلتفت إليه ولا يحفل به، ثم قال تعالى: ﴿فَقَدۡ كَذَّبۡتُمۡ﴾ هذا الدعاءَ الذي أتاكم من الله ﴿فَسَوۡفَ يَكُونُ لِزَامَۢا﴾ أي لزاماً لكم وعقوبة ونقمة تحل بكم» انتهى، ونحوه حكاه عن المرتضى عليه السلام، وفسّر اللزام بلزوم التنكيل لهم برفضهم لدعوة الله تعالى.

تم تفسير (سورة الفرقان) والحمد لله رب العالمين


التيسير في التفسير
سورة الشعراء



سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

مكية — آياتها ٢٢٧ — ترتيبها ٢٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا

ابتداء تفسير (سورة الشعراء)

وهي (مكية) كما يظهر من مواضيعها

(١) ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ طسٓمٓ﴾ هذا ثلاثة أحرف من حروف المعجم، و الحكمة في جعلها أول السورة ـ والله أعلم ـ أن يشار إليها وإلى سائر حروف المعجم بقوله تعالى:

(٢) ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ أي أن الكتاب الذي هو القرآن الحكيم كلام أصله هذه الأحرُف التي يتكلم بها العرب، ولعل هذا إشارة إلى أنهم عجزوا عن الإتيان بسورة من مثله مع أنهم ينطقون بهذه الأحرف في كلامهم، أو إشارة إلى أن الله تعالى أوحاه إلى عبده ورسوله ﷺ كلاماً مؤلفاً من الأحرف ليس الوحي مجرد المعنى دون ما نسميه اللفظ تحقيقاً لكونه أوحاه بلفظه وحروفه، وأنه كلامه لا كلام الرسول ﷺ، إلا أنه ينسب إليه مجازاً لأنه هو الذي يبلغه، ويتلوه على قومه، أو إشارة إلى المعنيين، أو إليهما وإلى غيرهما فحكمة الله لا تحصى و ﴿ٱلْمُبِينِ﴾ البين الواضح لأنه نزل كما يأتي في السورة هذه ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾.

(٣) ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): ((معناه: قاتل نفسك ومهلكها)) انتهى. وفي (الصحاح): ((بخع نفسه بخعاً أي قتلها غمًّا، قال ذو الرمة:

خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ

ألا أيُّهذا الباخع الوَجد نفسَه   بشيء نَحتْه عن يديه المقادر))

انتهى المراد.

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ﴾ لعل للتوقع من المخاطَب كقوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ﴾ [طه:٤٤] أو بمعنى أنك في أسفك عليهم بحيث يُظن بك أنك باخع نفسك عليهم أن لا يكونوا مؤمنين لأن الإيمان سبب نجاتهم من عذاب الله في الدنيا والآخرة، فهو لخوفه عليهم آسف عليهم ﴿أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ قال الشرفي: ((أي لامتناع إيمانهم أو خيفة أن لا يؤمنوا)) انتهى. وهذه عادة الأنبياء أن يخافوا على قومهم عذاب يوم عظيم في أول التبليغ وقبل هلاكهم.

﴿٤﴾ ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ أي إنا تركناهم وشأنهم ليختاروا لأنفسهم الإيمان أو الكفر لنجزيهم بما يستحقون فلا تحزن لكفرهم لأنا تركناهم عليه لحكمة، ولو شئنا لقهرناهم بآية غالبة تلجئهم إلى الخضوع، وترك العناد، وإن نشأ ذلك نفعل فننزل من السماء مثل أن تنزل عليهم الملائكة ويرونهم، أو تتهاوى النجوم أو غير ذلك مما يؤدي إلى أن يضلوا له ﴿خَٰضِعِينَ﴾ يتجلى خضوعهم في أعناقهم منكسين رؤوسهم قد مدوا أعناقهم، ونسبة الخضوع إلى الأعناق لظهوره فيها، كما نسب الخشوع إلى الأبصار في قوله تعالى: ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ﴾ [القلم:٤٣] وكما نسب إلى الوجوه وأهلها في (سورة الغاشية).

يَرَوْاْ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ

﴿٥﴾ ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ ذكر من الرحمن يدعوهم به الرحمن إلى رحمته فكلما جاءهم ذكر كانوا عنه معرضين مستمرين في الإعراض، فالآيات القرآنية تتلى عليهم يتلوها الرسول ﷺ، وكلما نزلت آية وتليت عليهم أعرضوا عنها غافلين عن قدرة الله عليهم وعما أعد لهم من العذاب الذي أنذرهم الرسول والقرآن، وتكرّر نزوله عليهم.

﴿٦﴾ ﴿فَقَدْ كَذَّبُواْ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ كذبوا الرسول ﷺ، وكذبوا بالذكر، وبما جاءهم من الآيات فسيأتيهم الوعد الذي وعدوه في الذكر الذي كانوا به يستهزئون، أي يأتيهم مدلول النبأ لأنها قد وقعت منهم الجريمة الكبرى، جرّهم الإعراض عن الذكر إلى التكذيب فوقعوا في التكذيب المؤدي إلى العذاب، كما أداهم إلى الاستهزاء بالذكر الاستهزاء المؤدي إلى العذاب.

﴿٧﴾ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾ من كل نوع لأن الأغذية من الحبوب والفواكه يكون الجنس منها صنفين أو أكثر، كما نشاهده في أصناف الحبوب وأصناف الأعناب وغيرها، فكل صنف زوج، والكَرَم الزيادة المحمودة في صفة الشيء، قال الراغب: ((وكل شيء شَرُف في بابه فهو يوصف بالكرم)) انتهى.

فالكرم فضل شيء على شيء، وهكذا أنواع النبات وأنواع الثمرات متفاضلة، وهذه الأزواج في الأرض نعم من الله على عباده توجب شكره، واتباع رسله، والحذر من الإعراض عن آيات الله، والتكذيب بها.

وكذلك تدل على رحمة الله بعباده، فهي تدل على أنه لا يبعد منه إرسال الرسول رحمة للعالمين فتدعو المنصفين إلى النظر في الذكر الآتي من الرحمن، ثم العلم بصدق الرسول ﷺ، وكذلك تدل على إبطال ما يتعللون به لتكذيب الرسول ﷺ من قولهم: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ [المؤمنون:٣٥] لأن النبات وما فيه من الصفات تدل على قدرة خالقه على كل شيء، وعلمه بكل شيء، وكذلك تدل على تنزيه الله سبحانه عن أن تكون شركاؤهم أنداداً له سبحانه.

(٨) ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ كل زوج كريم على كثرته وكثرة أنواعه أنواع الشجر وما لها من صفات باعتبار السوق والفروع والورق والثمر، كل ذلك مختلف يدل على الفاعل المختار، وكثير جداً في الأرض يدل على سعة قدرته وعلمه ونعمته على عباده ورحمته، ففيه آية تدل على ما ذكرت مفصلاً ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم﴾ أي أكثر المذكورين في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ وهم في وقت نزول السورة على أنها مكية أهل مكة والطائف ومن حولهم من العرب، وما كان أكثرهم مؤمنين لإعراضهم عن النظر في الآيات، واشتغالهم بما تهوى أنفسهم، وإذا لم يفكروا في الآيات التي يرونها فيؤمنوا بما تدل عليه فهم أهل لئلا يؤمنون بالرسول الصادق الأمين، ولا بذكر الرحمن.

(٩) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ فما كان الله تعالى ليهمل عباده بلا جزاء يفرق بين المحسن والمسيء كما هو شأن عزته، وما كان ليتركهم بلا نذير وبشير كما هو من رحمته، وما كان إمهاله لإهمال منه لهم وإنما هو رحمة لينظروا فيما جاء به الرسول ويؤمنوا فلا يعجل لهم العذاب بحيث لا تبقى مدة للنظر ومراجعتهم للتوبة، وذلك كله لأنه ﴿الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٞ فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّاۖ فَٱذۡهَبَا

﴿١٠-١١﴾ ﴿وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ * قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَۚ أَلَا يَتَّقُونَ﴾ وإذ نادى بصوت ظاهر لا بمجرد وحي خفي ﴿أَنِ ٱئۡتِ﴾ تفسير للنداء من قوله: ﴿أَنِ ٱئۡتِ..﴾ إلى آخر الآيتين، وقوله تعالى: ﴿أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي لتنهاهم عن الظلم.

وقوله تعالى: ﴿قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَ﴾ يبين أن رسالته إليهم وإلى زعيمهم فرعون، وقد بين رسالته إلى فرعون في غير هذه الآية، وقوم فرعون هم القبط لأنهم أعوانه على الظلم، فكانت الرسالة إليهم كما هي رسالة إلى فرعون وقوله تعالى: ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ يعيب عليهم ترك التقوى من عذاب شديد هم متعرضون له، وفيه حث لموسى على الإتيان إليهم لعله ينقذهم من العذاب الذي هم على شفا حفرة منه.

وقال (صاحب الكشاف) وغيره: «هو تعجيب من حالهم التي شنعت في الظلم والعسف، ومن أمنهم العواقب، وقلة خوفهم وحذرهم من أيام الله» انتهى. وقال الشرفي في (المصابيح): «أجرى ذلك في تكليم المرسل إليهم بمعنى إجرائه بحضرتهم وإجراءه في مسامعهم لأنه مبلغهم ومنهيه إليهم وله فيه لطف وحث على تأدية التقوى» انتهى المراد، وهذه أقوال في حكمة توجيه قوله: ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ إلى موسى ويمكن جمعها إذا كانت كلها صحيحة فحكمة الله لا تحصى لأنه يعلم ما لا نعلم.

﴿١٢-١٤﴾ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ * وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ * وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٞ فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ﴾ ليس هذا اعتذارا ولكنه

بِـَٔايَـٰتِنَآ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا

شكاية إلى من هو القادر على حَلّ المشكلات، وهو الغالب على أمره ﴿رَبِّ﴾ يا رب ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ فهم مظنة أن يكذبوني لجرأتهم على الباطل، وممارستهم للظلم العظيم والكثير - بالثاء - وإذا كذبوني لم يحصل رجوعهم عن الظلم الذي هم فيه فكأنه لم يحصل المقصود بالإرسال، بل لا يكون حاصلاً لو كان المقصود إنقاذهم لا غير، فهو عليه السلام نظر إلى قصد إنقاذهم فذكر أنه يخاف أن لا يتم ذلك، لأنه يستبعد قبولهم منه مع ما هم فيه من الطغيان، والتكبر، فهذه *الأولى* من الشكاوي.

والثانية: قوله عليه السلام: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى﴾ يضيق صدري من تكذيبهم، ولا ينطلق لساني من أجل ما فيه من الخلل المانع من قدرة اللسان على الانطلاق بالكلام، وهذه حالة شديدة إذا ضاق الصدر من الباطل، وتعسّر التعبير بما يبطله، ورتب على هذه الشكوى طلب إرسال أخيه هارون معه ليعينه.

والشكوى الثالثة: قوله عليه السلام: ﴿وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ﴾وهو قتل القبطي المذكور في (سورة القصص) أنه وكزه فقضى عليه، وقوله: ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ هو حاصل هذه الشكوى الأخيرة.

﴿١٥﴾ ﴿قَالَ كَلَّا فَٱذْهَبَا بِـَٔايَـٰتِنَآ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ قال الله: ﴿كَلَّا﴾ زجر وردع عن خوفه أن يقتلوه ﴿فَٱذْهَبَا﴾ أنت وأخوك اذهبا ﴿بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ الدالة على أنكما رسولا ربكما ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ فنسمع كل ما قلتما لهم، وما قالوا لكما، فلا تخافا لأنا معكما وكفاكما قوة على التبليغ.

وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا

وهو سبحانه لا يحتاج إلى استماع ليسمع ولكن جرى الكلام على التمثيل كقوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ﴾ [الرحمن:٣١] وهو سبحانه لا يشغله شأن عن شأن، فكما أن هذا تخويف، فقوله تعالى: ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ سبب لاطمئنانهما.

﴿١٦﴾ ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ الراجح في إفراد رسول أنه جرى مجرى التشبيه بالرسول الذي يرسله ملك إلى بعض رعيته لكن المرسل هنا ﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ المالك لفرعون وقومه ولموسى وهارون.

﴿١٧﴾ ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ تفسير لما أرسلا ليبلغاه إلى فرعون ﴿أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ ليتحرروا من قهرك ويتخلصوا من ظلمك لهم.

﴿١٨-١٩﴾ ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ كيف صرت رسولاً وأنت ذلك الرجل الضعيف الذي عاش بدون أسرة تؤويه وتربيه، إنما ربيناك نحن، وتفضلنا عليك في صغرك وليداً ﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ تحت دولتنا وقهرنا، وفعلت فعلتك التي هي قتل القبطي، وهنا يتجلى لموسى عليه السلام أن الله تعالى قد جعل له سلطاناً وهيبة تمنع فرعون الجبار العنيد عن قتله، ولذلك قال: ﴿وَفَعَلْتَ﴾ ولم يقل: (قتلت) ولم يصدِّر في جوابه ذكر القتل بل بدا بغيره.

وقوله: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ أي فعلت ذلك في حال أنك من الكافرين لنعمتي لأنك لو شكرتها لم تقتله وهو قبطي نصرة للإسرائيلي عليه، وإنما هو من الطائفة الذين يستضعفهم فرعون. وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام): ((كان خبازاً لفرعون)) انتهى. فإذا كان خبازاً لفرعون فذلك أبلغ عند اللعين في كفر نعمته.

خِفۡتُكُمۡ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكۡمًا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلۡكَ نِعۡمَةٞ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنۡ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرۡعَوۡنُ وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ

﴿٢٠﴾ ﴿قَالَ فَعَلۡتُهَآ إِذٗا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ قال موسى عليه السلام: ﴿فَعَلۡتُهَآ﴾ أي فعلتي التي هي القتل وأنا في تلك الحال كنت ﴿مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ الذين يقع منهم مثل ذلك لجهلهم بالشرائع، وفي هذا تحذير من الجهل، ودعوة إلى الخروج منه إلى نور العلم، كما أن فيه تحقيق معجزة حفظ موسى من ذلك الجبار العنيد حيث يصرح بالإقرار بها بلا مبالاة وإنما يبين أنها كانت قبل الرسالة فلا يعترض بها على الرسالة ثم لا يقتله عقيب هذا الإقرار.

﴿٢١﴾ ﴿فَفَرَرۡتُ مِنكُمۡ لَمَّا خِفۡتُكُمۡ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكۡمٗا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ ﴿فَفَرَرۡتُ﴾ فما كانت نجاتي منكم إلا بالفرار منكم لما خفتكم، وهذا يحقق المعجزة لأنه فرّ من الخوف، وهو هذا يذكر فراره منهم فما عودته إليهم إلا لأنه واثق بأنه رسول من الله، وأنه يحفظه.

وقوله: ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكۡمٗا﴾ معرفة العدل وكيفية الحكم بين الناس ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ فعليكم أن تؤمنوا بي وترسلوا معي بني إسرائيل، فهو عليه السلام ثابت في ذلك المقام الذي حاول فيه فرعون شغله عنه بقضية قتله للقبطي، فقد أجاب فيها ولم يسكت على ذلك بل وصله بقوله: ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكۡمٗا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ جعله الله رسولاً من رسله الذين يرسلهم إلى الأمم مبشرين ومنذرين، وهداة إلى دينه لا أنه مجرد رسول يبلغ الأمر بإرسال بني إسرائيل فقط.

﴿٢٢﴾ ﴿وَتِلۡكَ نِعۡمَةٞ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنۡ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ وتلك التربية لي وليداً مولوداً صغيراً تمنها عليّ لأن ﴿عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ جعلتهم عبيداً لك، فأرسلهم معنا فقد طالت مدة ظلمك لهم، ولولا ذلك لم تلجأ أمي إلى أن تجعلني في التابوت وتقذفني في البحر.

﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ

فالحاصل: أن سببها الظلم الكبير منك لبني إسرائيل، فهي مغمورة بالظلم والعدوان الذي هو سببها، فلا يصلح لك أن تمنها علي بل منّها باطل.

وقال الشرفي في (المصابيح): ((قال في (البرهان): ولم يكن بالحقيقة لفرعون على موسى نعمة لأن الذي رباه بنو إسرائيل بأمر فرعون لاستعباده لهم، فأبطل موسى نعمته لبطلان استرقاقه، والتعبد الاسترقاق سمي بذلك لما فيه من الإذلال من قولهم: طريق معبّد)) انتهى المراد. ولعل أصله والتعبيد: الاسترقاق..الخ.

وكلام (صاحب البرهان) قريب لأن الله تعالى يقول: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ..﴾ الآية [القصص:١٢] فلم تقع له تربية إلا عند أمه، فالنعمة منها لا من فرعون، وإنما منّها لأنها بأمره لاستعباده لبني إسرائيل، فهو يمن عليه ما هو ظلم، والحاصل على كلام (صاحب البرهان): وتلك التربية نعمة ليست منك إنما تمنها لأنك أمرت بها أمي في إطار تعبيدك لبني إسرائيل، وهذا المعنى أرجح وبعد أن قالا لفرعون: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ تجاهل عدو الله فقال ما حكاه الله تعالى:

﴿٢٣﴾ ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ سؤال عن جنسه والله تعالى هو الذي خلق الأجناس لا يجانس شيئاً فأجابه بذكر الدليل على ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

﴿٢٤﴾ ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ فالله يُعرف بآياته الدالة عليه، ولا يعرف بذكر جنس أو عين تشاهد هي أو نظيرها سبحانه وتعالى.

إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٞ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي لَأَجۡعَلَنَّكَ

وقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ معناه: الدليل هذا يفيد: اليقين بالله لمن شأنه أن يوقن سواء أيقنتم أم لم توقنوا لإعراضكم وإهمالكم عقولكم.

﴿٢٥﴾ ﴿قَالَ لِمَنۡ حَوۡلَهُۥٓ أَلَا تَسۡتَمِعُونَ﴾ تعجب من كلام موسى؛ لأنه كلام غريب على مسامعهم، وعلى قلوبهم فاستغلّ ذلك ليعرض عنه هو وقومه من حيث دلالته على الله ويتشاغلوا بالتعجب منه.

﴿٢٦﴾ ﴿قَالَ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ زاد موسى دليلاً على الله هو نفس خلق فرعون وقومه وآبائهم الأولين وعبر عنه بالربوبية التي هي لازمه ليذكرهم بوجوب طاعتهم لله لأنه المالك لهم ولآبائهم الأولين، لأنه الذي خلقهم.

﴿٢٧﴾ ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٞ﴾ قال فرعون ذلك عناداً وتمرداً وكذباً متعمداً لعجزه عن رد الحجة، وقوله: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ﴾ استهزاء به، وكذلك قوله: ﴿ٱلَّذِيٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ﴾ يعني أن المجنون لا يكون رسولا.

﴿٢٨﴾ ﴿قَالَ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ تابع موسى لفرعون ذكر الدلائل على الله إجابة على قوله: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ولكن عدو الله أعرض عن ذلك كله ودلالة المشرق والمغرب على الله من أوضح الدلالات؛ لأن للصيف مشرقاً وللشتاء مشرقاً،وهي مواضع شروق الشمس، وهي مرتبة على طريقة محكمة لأن الشمس تكون في المنزلة ثلاثة عشر يوماً إلا منزلة واحدة في السنة تكون أربعة عشر يوماً نظام مستمر لا يتخلف ترتيبه، وذلك دليل على العليم القدير، الذي قدر المشارق على ذلك النظام المرتب.

مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾

وكذلك مغارب الشمس: للصيف مغرب ينقسم إلى مغارب، وللشتاء مغرب ينقسم إلى مغارب، وتنقّل الشمس في مشارقها يشاهد في الصيف والشتاء، ففي الصيف تكون مشارقها في شمال المشرق، وفي الشتاء تكون في جنوب المشرق، وفي الصيف تكون مغاربها في شمال المغرب، وفي الشتاء تكون مغاربها في جنوب المغرب، والمشارق متواصلة فلذلك يصح اعتبارها مشرقاً واحداً بهذا الاعتبار، ومشرقين باعتبار الصيف والشتاء،ومشارق باعتبار تعدد منازل الشمس وتعدد مشارقها تبعاً لذلك، وكذلك المغارب، وقوله: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ أي ما بين المشرق والمغرب مالكه هو الله الذي خلقه، وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي إن ذلك دليل على الله رب العالمين لا يخفى على من نظر بعقله، فالمخاطبون إن نظروا عرفوا الله رب العالمين، وإن أعرضوا فاللوم عليهم، والحجة قائمة عليهم.

﴿٢٩﴾ ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ انقطع عدو الله ولجأ إلى الوعيد والتهديد لأنه لم يجد جواباً عن الدلائل، ولكنه في تهديده تجاوز الحد في طغيانه فقد كان يكفيه للرد والمكابرة إنكار الرسالة لا أمره برفض رب العالمين، واستبداله بفرعون اللعين، ولكن موسى عليه السلام لم يتركه بل أوقعه في مضيق لم يجد منه ملجأ.

﴿٣٠﴾ ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾ فهو في هذه الحالة إن قال: ولو جئتني بشيء مبين اعترف بالعناد والمكابرة، فلم يجد بداً من طلب هذا الشيء المبين الموضح لصدق موسى في دعوى الرسالة.

وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلۡمَلَإِ حَوۡلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِۦ فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾

﴿٣١﴾ ﴿قَالَ فَأۡتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ ﴿فَأۡتِ﴾ بهذا الذي تقول إنه: ﴿مُبِين﴾.

﴿٣٢-٣٣﴾ ﴿فَأَلۡقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ * وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام): ((فالثعبان الذكر من الحيات)) انتهى. وفي (الصحاح): ((والثعبان ـ أيضاً ـ ضرب من الحيات طوال)) انتهى. وقوله تعالى: ﴿مُّبِينٞ﴾ أي بين واضح أنه ثعبان.

وقوله تعالى: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾ أي من جيبه من عند ضلعه ﴿فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ جميلة المنظر، يرغب الناس في النظر إليها لبياضها الخلقي الذي أوجده خالق اليد.

﴿٣٤-٣٥﴾ ﴿قَالَ لِلۡمَلَإِ حَوۡلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ * يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِۦ فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ﴾ قال فرعون لكبراء قومه، ولعلهم الوزراء: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ يعني موسى ﴿لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ﴾ أي بالسحر ماهر فيه فهلا قتله إن كان ساحراً، وهلا قطّع الثعبان قطعاً إن كان سحراً حتى يتبين أنه عصى وليس ثعباناً، فكيف يؤكد دعواه بـ(إن) واللام والجملة الاسمية، ويزيد وصفه بأنه عليم، وهو لو كان يعلم ذلك لقتله فوراً ليستريح منه.

وقوله: ﴿يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم﴾ أي لو سلمنا له بني إسرائيل لتوحدوا معه وأخرجونا من أرضنا فهو يطالب بإرسالهم معه لهذا الغرض، فما بال فرعون إن كان يعلم ما يدعيه فما باله لم يقتله، ويقول:قتلته لئلا يخرجنا من أرضنا بسحره.

يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ

وقوله: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ أي فماذا تأمرون به بناء على أنه ساحر، فهل يأمرون بقتل من يزعمون أنه ساحر، فالقتل عندهم لم يكن بعيداً لولا أن الله تعالى صرفهم.

﴿٣٦-٣٧﴾ ﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ ﴿أَرْجِهْ﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام): ((معناه: أخره)) انتهى. وقال (صاحب الصحاح): ((أرجيت الأمر: أخرته يهمز ولا يهمز)) انتهى.

أي أخره وأخاه لا تقتلهما وابعث ﴿حَٰشِرِينَ﴾ يحشرون إليك السحرة، قال الراغب: ((الحشر إخراج الجماعة عن مقرهم وإزعاجهم عنه إلى الحرب ونحوها)) انتهى، وهذا طمع في أن يظهروا سحرهم ثم يدعي فرعون أنهم غلبوا موسى وأن سحرهم أعظم من سحره بزعم فرعون.

﴿٣٨﴾ ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): ((والميقات: ما وقّت به أي حدد من زمان أو مكان ومنه مواقيت الإحرام)) انتهى. فالمعنى: جمع السحرة لوقت الموعد المحدد وهو ضحى يوم الزينة.

﴿٣٩-٤٠﴾ ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ * لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ ﴿مُّجْتَمِعُونَ﴾ أي في محل الموعد المذكور لعلنا نتبع السحرة أطمعوهم في أن تكون السحرة هم الغالبين ليجتمعوا.

ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ

ولعل طلب اجتماعهم ألجأه إليه الكِبْر لأن موسى عليه السلام طلب أن يحشر الناس ضحى، أو أراد فرعون أن يُجمِعوا على أن سحر السحرة أعظم خوفاً من فرعون فيقوى جانبه بإجماع أتباعه معه، وتصير غلبة موسى محل نزاع، وفي قوله: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ﴾ بيان لقومه أن لا يحدثوا أنفسهم باتباع موسى إن كان هو الغالب، لأن فرعون إنما جمعهم ليتبعوا السحرة ﴿إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ فقط.

﴿٤١-٤٢﴾ ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ فلما جاء السحرة محل الاجتماع طلبوا الوعد من فرعون بأن يعطيهم أجراً إن كانوا هم الغالبين، وكان في قلق عظيم، فوعدهم الأجر وزادهم الوعد بأنهم إذا غلبوا من المقربين إليه.

﴿٤٣﴾ ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ لأنهم ﴿قَالُوا يَٰمُوسَىٰ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾ [الأعراف:١١٥] فأجابهم والحق معه ﴿أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ لأنهم لا بد أن يلقوا حبالهم وعصيهم سواء اختار أن يسبقهم أو أن يسبقوه أولم يختر أحد الأمرين فالأمر في الحقيقة إنما هو بأن يتقدم إلقاؤهم قبل إلقائه أي بالترتيب على هذا الشكل ألا ترى أنه قال: ﴿مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ وهو رسول من الله يأمر بإذن الله لأن في تقدمهم إبطالاً لسحرهم بصورة مفاجئة.

﴿٤٤﴾ ﴿فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ ظنوا أنهم الغالبون؛ لأنهم سحروا أعين الناس وجاءوا بسحر عظيم، لأنهم يخيل إليهم أنها تسعى سعياً لا مجرد حركة.

﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ فإذا للمفاجأة قال في (الصحاح): ((لقفت الشيء بالكسر ألقفه لقْفًا وتلقفته أيضاً أي تناولته بسرعة عن يعقوب)) انتهى. وقال الراغب: ((لقِفت الشيء، ألقَفه، وتلقفته: تناولته بالحذق سواء في ذلك تناوله بالفم أو اليد)) انتهى.

وفي (لسان العرب): ((اللقف: تناول الشيء يرمى إليك ثم قال ابن سيده: التلقف سرعة الأخذ لما يرمى إليك باليد أو باللسان ـ إلى قوله ـ: وتلقفه: تناوله بسرعة ـ إلى قوله ـ: وفي (حديث الحج): (تلقفت التلبية من في رسول الله ﷺ) أي تلقيتها وحفظتها بسرعة)) انتهى.

وقوله ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ قال في (الصحاح): ((الإفك الكذب، إلى قوله: ورجل أفاك: أي كذاب ـ ثم قال ـ: والأفك ـ بالفتح ـ مصدر قولك: أفكه يأفكه أفكا، أي قلبه وصرفه عن الشيء ومنه قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا﴾ [الأحقاف:٢٢])) انتهى المراد.

وجعل الراغب (الإفك) أعم من (الكذب) فقال في قوله تعالى: ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون:٤]: ((أي يصرفون عن الحق في الاعتقاد إلى الباطل، ومن الصدق في القول إلى الكذب ومن الجميل في الفعل إلى القبيح.. ثم قال: وقوله: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا﴾ [الأحقاف:٢٢] فاستعملوا الإفك في ذلك لما اعتقدوا أن ذلك صرف من الحق إلى الباطل فاستعمل ذلك في الكذب لما قلنا)) انتهى.

فقوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ إن كانت (ما) مصدرية وهو الراجح، فيحتمل: تلقف السحر نفسه بحيث تظهر الحبال ساكنة، والعصي حال إلقائها.

ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَ فَلَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُواْ لَا ضَيۡرَۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ

ويحتمل: اعتبار الحبال والعصي في تخيلها تسعى هي الإفك لتعلقه بها، وهذا هو الموافق للرواية فأما جعل الحبال والعصي مأفوكة فهو بعيد لأن المأفوك أعين الناس، كما قال تعالى: ﴿**إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ**﴾ [الذريات٩-٨] وقال تعالى: ﴿**سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ**﴾ [الأعراف:١١٦] فالمأفوك: هو المسحور لا ما يتخيل مقلوباً عن حقيقته لأنه غير مقلوب في الواقع، فلا يصح تقدير ما موصولة والعائد عليها ضمير مقدر، كأنه قيل: ما يأفكونه مع أن الأصل عدم التقدير، فكان جعلها مصدرية هو الصحيح.

﴿٤٦-٤٨﴾ ﴿فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ * قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ * رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ ألقتهم الآية العظمى التي لأجلها عرفوا الحق فخضعوا له، وخروا لله سجداً في وقت واحد كأنهم ألقوا أي رمي بهم في الأرض، وطُرحوا طرحاً لسرعتهم في خرورهم ساجدين ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ لأنه الذي جاء بالآية على يدي موسى، وجعل عصاه تلقف ما يأفكون، وقالوا: ﴿رَب مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ زيادة بيان في وقت يدعي فيه اللعين الربوبية، وفي قولهم: ﴿رَب مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ إشارة إلى الإيمان بهما رسولين من رب العالمين.

﴿٤٩﴾ ﴿قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَ فَلَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ كأن فرعون جعل الرجوع إلى السحرة وسيلة لتطويل النزاع وفتح باب الجدل،

لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ

وقد علم أن ما جاء به موسى آية سماوية، ولكنه أصر على دعواه أنه سحر، وحين علم أن السحرة سيُغلبون، أو أنه يمكن أن يغلبوا أعد لنفسه هذا الجدل، ودعوى أن السحرة اتفقوا مع موسى على أن يجعلوا سحرهم ضعيفاً ليغلبه موسى لكنهم لو اتفقوا لبلغ فرعون خبرهم، وطردهم ولم يقبلهم، ويعدهم أجراً وتقريباً لديه، لأنهم كثير من بلدان مختلفة، ومثل ذلك لا يخفى على فرعون، ولأن الحاشرين لهم لا بد أن يكونوا معهم حتى يوصلوهم محل الاجتماع يوم الزينة، فكيف لا يبلغون فرعون لو وقع ما زعم.

ويدل على جرأته على الكذب في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ إن موسى كان غائباً عن بلد فرعون هارباً من بعد قتله للقبطي، وكان غيابه نحو (ثمان سنين) على أقل تقدير، ولم تظهر على يده آية العصى إلا بعد رجوعه من غيابه، فمتى علم السحرة.

وقوله: ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي ما ينالكم من أجل ما صنعتم، وفسره بقوله: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم..﴾ إلى آخره. قال الشرفي في (المصابيح): ((الصلب: أن يمدّ الرجل على خشبة حتى تتناثر عظامه)) انتهى.

﴿٥٠-٥١﴾ ﴿قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ۞ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ في (مصابيح الشرفي) أظنه عن الحسين بن القاسم عليه السلام، معناه: ((لا ضير في ذلك عندنا ولا مساءة في ظلمك لنا إن أطعنا خالقنا وسيّدنا، قال الشاعر:

أبرق وأرعد يا يزيد ... فما وعيدك لي بضائر))

انتهى.

هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخۡرَجۡنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ

﴿لَا ضَيۡرَ﴾ نفي الضير أي نفي الضر هنا، ليدل على أن وعيد فرعون لا يردهم عن الإيمان لأنهم منقلبون أي راجعون إلى ربهم وحده ليدخلهم الجنة وينقذهم من النار، فالقتل المؤدي إلى ذلك لا بأس به، والتعذيب المؤدي إلى النجاة من عذاب الله لا بأس به لأنه ينتهي، ويؤدي إلى السعادة الدائمة بسبب الصبر عليه والثبات على الإيمان، ﴿إِنَّا نَطۡمَعُ﴾ نحب ﴿أَن يَغۡفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ﴾ الماضية؛ لأن ﴿كُنَّآ أَوَّلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ فلذلك لا ضير علينا فيما أصابنا منك، هذا وأنا أرى أن الله أنجاهم مع بني إسرائيل، أو أنهم كانوا من بني إسرائيل، وما ذكره الله عن أجوبة فرعون ورجوعه إلى الوعيد يدل على عجزه وأنه لا يزال يجادل، ولا حد لجداله إلا نزول العذاب به وبمن معه.

﴿٥٢﴾ ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ ﴿أَسۡرِ بِعِبَادِيٓ﴾ أي بالمؤمنين معك، كما قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ﴾ [الفرقان:٦٣] وهذا يعم السحرة، فلا يصح ما يروى أن فرعون فعل بهم ما أوعدهم به ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ سيتبعكم فرعون وقومه ليقتلوكم أو يأسروكم ويعذبوكم، فانج بمن معك من المؤمنين.

﴿٥٣-٥٦﴾ ﴿فَأَرۡسَلَ فِرۡعَوۡنُ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ * إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ * وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾ ﴿حَٰشِرِينَ﴾ يحشرون قومه إليه ليهجم بهم على موسى ومن معه ﴿وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ﴾ قد غاظونا بما طلبوا منا، وبهزيمتهم لنا بالحجة ﴿وَإِنَّا﴾ أي فرعون وقومه ﴿لَجَمِيعٌ﴾ مجتمعون ﴿حَٰذِرُونَ﴾ من عواقب ترك موسى ومن معه أن يقوى أمرهم ويتبعهم الناس، ويغلبونا بالقوة في الأخير.

وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾

قال الراغب: ((الشرذمة جماعة منقطعة، قال: شرذمة قليلون، وهو من قولهم: ثوب شراذِم أي مقطع)) انتهى. وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): ((معناه: طوائف وجماعات والشرذمة كل بَقيّة قليلة)) انتهى.

وعلى هذا: فقد أمر الحاشرين أن يقللوا موسى ومن معه بقولهم: (شرذمة) وبقولهم: ﴿قَلِيلُونَ﴾ فهو تقليل للقليل ليشجعوهم على قتالهم كما يشجعونهم بمدح فرعون وقومه بأنهم مجتمعون متحدون فهم أقوياء بذلك، وبأنهم حذرون فالدافع لهم على القتال قوي فهم لا بد بزعمهم أن يغلبوا موسى ومن معه.

﴿٥٧-٥٩﴾ ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ فأخرجنا فكان همهم بموسى ومن معه ليقتلوهم أو يأسروهم كان ذلك هو وجدالهم في آيات الله سبباً لإخراج فرعون وقومه من دنياهم إلى الغرق، كما قال تعالى: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَٰدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر:٥].

وقوله تعالى: ﴿مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ أي عيون ماء فجناتهم خضراء وقوله تعالى: ﴿وَكُنُوزٍ﴾ أي من الذهب أو الفضة أو منهما أو منهما ومن غيرهما أي أموال مجموعة محفوظة معدّة لوقت حاجتها.

وقوله تعالى: ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ ومقام محل قيامهم بشؤون عيشهم كريم بما فيه من القصور المشيدة، ولعلهم كانوا يملكون الخيل ونحوها مما هو تكريم للإنسان يبتليه الله به.

﴿كَذَٰلِكَ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ كذلك الأمر كذلك فقد كانوا في نعمة فاكهين، فخرجوا منها إلى الهلاك، أو كذلك نفعل بالمجرمين، وأورثناها بني إسرائيل بعد تمكنهم حين أورثهم الله مشارق الأرض ومغاربها، كما قال تعالى في (سورة الأعراف): ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ [الأعراف:١٣٧] الآية.

ويشير إلى هذا التمكين قوله تعالى: ﴿ونريدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..ونُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ﴾ [القصص٥-٦] وقوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرائيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً﴾ [الإسراء:٤] ولا يجب في تفسير الآية أن يجعل معناها أن موسى وقومه في عهده أورثوا مصر.

﴿٦٠﴾ ﴿فَأَتۡبَعُوهُم مُّشۡرِقِينَ﴾ راجع إلى قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ..﴾ إلى آخر الآيات، وإنما تخلل ذكر إخراجهم؛ لأنه كان الذي دعاهم إليه فرعون هو إخراجهم للهلاك، فأتبعوا موسى ومن معه ﴿مُّشۡرِقِينَ﴾ صائرين في وقت شروق الشمس؛ لإسراعهم إلى الهجوم على موسى ومن معه.

﴿٦١﴾ ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ﴾ ﴿تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ﴾ جمع فرعون وجمع موسى كل رأى عدوه فظن أصحاب موسى أن فرعون وقومه سيدركونهم لقربهم، فقالوا مؤكِّدين: ﴿إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ﴾ لأنهم لا يرون مفراً لأن البحر أمامهم وفرعون خلفهم.

﴿٦٢﴾ ﴿قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾ ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿كَلَّآ﴾ لا تقولوا: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ لستم مدركين ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾ فهو ينصرني على عدوي ﴿سَيَهۡدِينِ﴾ لوسيلة النجاة من عدوي.

فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم

﴿٦٣﴾ ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ ﴿فَٱنفَلَقَ﴾ أي فضرب البحر ﴿فَٱنفَلَقَ﴾ صار فلقتين أي انفرق صار فرقين ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ﴾ من الفرقين ﴿كَٱلطَّوْدِ﴾ كالجبل، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): ((فالطود: الجبل)) انتهى.

وفي (مفردات الراغب): ((الطود: هو الجبل العظيم، ووصفه بالعظيم لكونه فيما بين الأطواد عظيماً لا لكونه عظيماً فيما بين سائر الجبال)) انتهى. وفي (الصحاح): ((الطود: الجبل العظيم)) انتهى.

ومثله في (لسان العرب) العظيم: أي أن الفرق من البحر الذي هو بعض منه انفصل عن البعض الآخر، فكان كل واحد من الفرقين كالجبل العظيم أو الجبل الذي هو أعظم من الجبل العظيم، لأن الله حفظه مكانه فكان ما بين الفرقين طريقاً لبني إسرائيل ليفروا فيه من عدوهم، وما روي: أنه صار اثني عشر طريقاً خلاف ظاهر القرآن؛ لأن الله تعالى قال: ﴿فَٱنفَلَقَ﴾ ولم يقل: تفلق، وكذلك قال تعالى: ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا﴾ [طه:٧٧] ولم يقل: (طرقاً).

﴿٦٤﴾ ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ﴾ ﴿أَزْلَفْنَا﴾ قربنا ﴿ثَمَّ﴾ هناك حول البحر ﴿ٱلْءَاخَرِينَ﴾ فرعون وقومه.

﴿٦٥﴾ ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ﴾ بمرورهم في الطريق الجديد بقي البحر مفروقاً حتى خرجوا منه.

﴿٦٦﴾ ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ﴾ بإرجاع البحر عليهم.

مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ

﴿٦٧-٦٨﴾ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ في فلق البحر لموسى ومن معه، وإغراق فرعون ومن معه (آية) لرحمة الله لأوليائه ورسوله ونصره لهم على أعدائهم، ولقدرة الله على كل شيء، وعلمه بكل شيء، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ هو الذي لا يُنال فهو غالب لا يُغْلب، ولا ينال بسوء سبحانه وتعالى وقد مر تفسير الأولى.

﴿٦٩﴾ ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ واقرأ عليهم نبأ إبراهيم الذي أنزل إليك عليهم، أي على المشركين من قومك الذين لم يؤمنوا، والنبأ الخبر بالأمر المهم، أو الخبر مطلقا.

﴿٧٠﴾ ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ﴾ سؤال عن حقيقتها فكان الجواب المطابق أن يقولوا: نعبد تماثيل من نحاس مثلاً وفي ذلك كفاية لبطلان عبادتهم لها، لكنهم عدلوا عن الجواب المطابق للسؤال.

﴿٧١﴾ ﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾ فنظل لها عابدين، والظلول في النهار، وقوله: ﴿لَهَا عَٰكِفِينَ﴾ تفسير العبادة لها أنها بالعكوف لها أي حبس أنفسهم عندها مدة طويلة في النهار خضوعا لها بمعنى الإقرار منهم بالعبودية لها.

﴿٧٢﴾ ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ﴾ إذ تدعونها حال العكوف وهو عبادة أخرى وهذا احتجاج عليهم واضح؛ لأنهم إن ادعوا أنها تسمع كان عليهم بيان دليل على صدق دعواهم، ومجرد الدعوى لو ادعوها كذب واضح لأنها مجرد تماثيل مصنوعة لا تسمع ولا تبصر، وإن أقروا أنها لا تسمع لزمهم بطلان الدعاء لها.

﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ

﴿٧٣﴾ ﴿أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ وهذه حجة عليهم لا يستطيعون ردها لأنهم إن ادعوا النفع أو الضر كان عليهم إيراد دليل تصح به دعواهم، وإلا فهي كذب واضح لأن التماثيل المصنوعة من النحاس مثلاً لا تستطيع أن تفعل شيئاً بل هي جماد كسائر الجمادات، وإن اعترفوا أنها لا تنفع ولا تضر بطلت عبادتها لكنهم عدلوا عن الجواب المطابق للسؤال لعجزهم عن أي جواب مخلص.

﴿٧٤﴾ ﴿قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ فلم يكن لهم حجة، واعترفوا بتقليدهم لآبائهم بأنهم وجدوهم يعكفون لها ويدعونها.

﴿٧٥-٧٧﴾ ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ توجيه لأذهانهم وتنبيه ليسمعوا ما يقول في أصنامهم التي قد استمروا على عبادتها وعبدها آباؤهم الأقدمون ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ﴾ هم ضد حياتي لا أستطيع أن أعيش على تركهم يعبدون، كقول الإمام الهادي عليه السلام: ((لكل شيء ضد وضد حياتي المعاصي)) لأن إبراهيم عليه السلام يعبر بهذا للدلالة على أنه سيعمل على إزالتهم أو يهلك دون ذلك، وهذه غاية العداوة بينه وبينهم.

وفي هذا تنبيه لهم على أنه لا يخاف ضرهم، كقوله: ﴿وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ﴾ [الأنعام:٨٠] وكقول (هود) جواباً على قومه إذ قالوا: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ..﴾ إلى قوله: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ﴾ [هود:٥٤-٥٥] فحينئذ لا بد لقوم

﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا

إبراهيم وقد أعلن عداوة أصنامهم واثقاً أنها عاجزة عن ضره من أن يرجعوا إلى الحق لعلمهم بعجزهم عن إبطال حجة إبراهيم، أو يرجعوا إلى دفعه بالقوة التي تدل على عجزهم عن الدفع بالحجة، ولا يثبت بها ما يزعمون ﴿إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يحتمل: أن الاستثناء مما يعبدون متصل وأنهم كانوا لا يجحدون الخالق ولا يستغنون عن دعائه في بعض الحالات، ويحتمل أن الاستثناء منقطع بمعنى لكن رب العالمين المالك لهم المستحق لئن يعبدوه ليس عدواً لي بل أنا محتاج إليه في كل حال.

﴿٧٨-٨٢﴾ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ * وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ * وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ لمنافعي، ويرشدني إلى الدين الحق، ويريني الباطل باطلاً لأجتنبه، فأنا محتاج إليه لذلك، وهو ﴿ٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ﴾ فأنا محتاج إليه لأعيش، ولولا إطعامه لي وسقيه لي لما عشت، فنعمة الخلق والهدى والإطعام والسقي يجب علي شكرها، وعبادته لأجلها ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ وهذه حاجة شديدة يحتاجها المريض، فإذا شفي وجد لذة العافية، وعرف نعمتها في مرضه وشفائه فهي من أسباب عبادة الله لا عبادة الأصنام التي لا تشفي مريضاً، ولم يقل: والذي يمرضني لأنهم لا يعتبرون المرض نعمة، ولا يعتبرونه إلا مصيبة، فلم يخاطبهم بما لا يفهمون، وإنما تظهر نعمة المرض عند نيل الثواب على الصبر، والعوض على المرض، ومعرفة تكفيره للخطيئات.

وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾

وإذا عرفنا أن الشفاء من الله تعالى فينبغي استعمال أسباب الشفاء التي وردت في الأحاديث النبوية كالاستغفار والصدقة والدعاء وقراءة فاتحة الكتاب واجتناب ما عُرف ضره، ومن الخطأ الاتكال على العلاجات دون الرجوع إلى الله، والتماس الشفاء منه ﴿وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ وهذا يدل على حاجتي إلى عبادته ليوم يحييني أقدمها وهو دليل على قدرته على كل شيء، فهو القادر على الثواب على عبادته، والعقاب على الشرك به، بخلاف أصنامكم ﴿وَٱلَّذِيٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ أي يوم الجزاء على الأعمال الحسن منها والقبيح، وهذا يدل على شدة الحاجة إلى عبادته وحده.

﴿٨٣﴾ ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ وهذا من العبادة لله يصارحهم بها، ويذكرهم بأن ربه هو القادر على أن يهب له حكماً ويلحقه بالصالحين قال (صاحب الكشاف): ((الحكم الحكمة، أو الحكم بين الناس بالحق)) انتهى.

وقد قال تعالى في موسى عليه السلام: ﴿**ولَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً**﴾ [القصص:١٤] وقال في يوسف عليه السلام: ﴿**وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً**﴾ [يوسف:٢٢] وليس معناه الحكم بين الناس، وإنما معناه الحكمة بمعنى رجاحة العقل، ووضع الأشياء مواضعها، وحسن الرأي، والعدالة والإحسان والمروءة، فأما العلم فهو معين عليها، ومتمم لها، وقد عطف عليها في الآيتين كما ترى، فلا يصح تفسيرها بالعلم وحده.

وقوله تعالى حاكياً عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ يعني في الآخرة، أو في الدنيا والآخرة، فإلحاقه في الآخرة أن يكون معهم في موقف الحساب، وفي الجنة، ونحو ذلك ينال ما نالوا، وإلحاقه بهم في الدنيا الحكم له بأنه من الصالحين، وقد أجيبت دعوته قال تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [النحل:١٢٢].

﴿٨٤﴾ ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ﴾ لسان صدق ذكراً بالخير صادقاً سمي لساناً كما سميت اللغة لساناً، قال تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ﴾ ولعله رغب فيه تبعاً لرغبته في بقاء دينه في الآخرين، ولأنه نصر له على المشركين والله أعلم.

﴿٨٥﴾ ﴿وَٱجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ﴾ جعلت الجنة ميراثاً لأهلها ولعله مجاز لمشابهتها الميراث لوقوعها بعد الموت، وسببها قبل الموت ـ والله أعلم.

فأما ما قيل: إن أهل الجنة يأخذون ما كان يأخذه أهل النار لو آمنوا واتقوا، ففيه إشكال أن أهل الجنة أخذوا ما هو مُعَدّ لهم، وإذا صح أن لأهل النار نصيباً فيها فاتهم وأخذه أهل الجنة، فذلك لا يستدعى أن يجعلوا وارثين للجنة كلها لأن الموروث على هذا المعنى إنما هو بعضها، وأيضاً ذلك مجاز ليس ميراثاً حقيقة، ولا يجري مجرى إيراث الدنيا أهلها بعد الماضين، كقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ لأن آل فرعون كانوا فيها فتركوها ثم ورثها بنو إسرائيل أما أهل النار فلم يكونوا في الجنة.

﴿٨٦﴾ ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ هذا الاستغفار وفاء بوعده ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة:١١٤].

وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾

﴿٨٧-٨٩﴾ ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ * يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ الإخزاء: إهانة وفضيحة، وهو ـ صلى الله عليه ـ في هذا يدعو الله وقد استجاب له، وكلامه توحيد وإيمان بالبعث، ودعاء لله وحده فأمر الله نبيه محمداً ﷺ أن يقرأه على قومه وقد كان أكثرهم مشركين لا يؤمنون بالبعث، وهم يزعمون أنهم على دينه عليه السلام.

وقوله: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ يبطل زعم الجاهلين القائلين: ﴿لَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى﴾ [فصلت:٥٠] ونحوه.

وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ﴾ أي عند الحساب ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ أي من الشرك، ومن كل اعتقاد محظور، ومن كل إصرار على كبيرة، فشمل هذا سلامة القلب التي ليست إلا للمؤمن التقي.

﴿٩٠﴾ ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي قربت الجنة للمتقين، وتفسير المتقين في (سورة آل عمران) حيث جعلهم أهل درجتين من التقوى، فقال تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ..﴾ إلى قوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً..﴾ إلى آخر الآيات الثلاث [آل عمران:١٣٣-١٣٥] وهذا هو الظاهر؛ لأن المتقين لم تخص اتقاء مخوف من العذاب دون مخوف، ولا درجة منه دون درجة، والاتقاء في اللغة استعمال ما يقي المستعمل كالجن في الحرب، فيقال: اتقى السيف بالمجن، وفي معلقة عنترة:

إذ يتقون بي الأسنّة لم أخِم ... عنها ولكني تضايق مقدمي

وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾

وقال آخر:

سقط النصيف ولم ترد اسقاطه ... فتناولته واتقتنا باليد

وإنما خصه بعضهم باتقاء الشرك بناء على عقيدتهم في الفساق من أهل القبلة والفساق غير طيبين، والله تعالى يقول في (سورة النحل): ﴿كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمْ﴾ [النحل٣١-٣٢].

﴿٩١﴾ ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ ﴿وَبُرِّزَتِ﴾ أظهرت لهم بحيث يرونها ويسمعون صوتها، ولعله قال تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ﴾ بصيغة التكرير ليدل على تكرر إبرازها بحيث تقرب منهم بعد بروزها بعيداً، أو يدل على كبرها وتعدد التقريب لأبعاضها بحيث يقرب بعض بعد بعض، والعطف للوعيد على الوعد، بقوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ..﴾ إلى آخرها، والآيتان في وصف يوم يبعثون.

﴿٩٢-٩٣﴾ ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ أي للغاوين العادلين عن طريق رشدهم وهم هنا المشركون ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ لا نراهم معكم يدفعون عنكم جهنم هل ينصرونكم بشفاعة أو بأي وسيلة فيدفعوا عنكم أو ينتصرون هم من دخول النار.

قال الشرفي: ((وهذا سؤال توبيخ)).

قلت: أو في معنى النفي ويترجح أن المراد بمن كانوا يعبدونهم الذين كانوا يطيعونهم في معصية الله، ويزعمون باطلهم حقاً.

(٩٤) ﴿فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ﴾ الكبكبة: متعددة لتعدد المعبودين، والضمير لهم، والغاوون هنا هم الغاوون المشركون كما في الآية السابقة، قال الراغب: «والكبكبة تدهور الشيء في هوّة» انتهى. وقال في (الصحاح): «وكبكبه: أي كبه، ومنه: قوله تعالى: ﴿فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ﴾» انتهى.

وفي (لسان العرب) ذكر القولين، وزاد في قول الله تعالى: ﴿فَكُبْكِبُواْ﴾ قال الليث: «أي دُهوِروا وجمعوا ثم رمي بهم في هُوّة النار، وقال الزجاج: كبكبوا طرح بعضهم على بعض، وقال أهل اللغة: معناه دُهوِروا، وحقيقة ذلك تكرير الانكباب كأنه إذا ألقي ينكبّ مرة بعد مرّة حتى يستقرّ فيها، نستجير بالله منها» انتهى المراد.

وقال الشرفي رحمه الله في (المصابيح): «ومعنى قوله: ﴿فَكُبْكِبُواْ فِيهَا﴾ أي طرحوا في النار على وجوههم بعضهم على بعض منكسين على رؤوسهم، قال الشاعر:

ينــاديهم رســـول الله لمـــا طرحناهم كباكب في القليب

أي طرحنا بعضهم على بعض في البير» انتهى.

وفي (الكشاف): «والكَبكَبة: تكرير الكبّ جعل تكرير اللفظ دليلاً على التكرير في المعنى، كأنه إذا ألقي فيها ينكبّ مرة بعد مرة حتى يستقر في قعرها، اللهم أجرنا منها يا خير مستجار. انتهى. وهذا أوضح الأقوال؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَمَنْ جَآءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ [النمل:٩٠] وقول (صاحب الكشاف): «جُعل تكرير اللفظ» يعني: أنه وإن لم يكن مشتقاً منه فهو موافق له ـ والله أعلم.

(٩٥) ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ أي كبكبوا كلهم أجمعون، كبت وجوههم في النار، ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ﴾ أنصاره من الجن والإنس الدعاة إلى سبيله.

قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾

﴿٩٦-٩٨﴾ ﴿قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ * تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ﴿قَالُواْ﴾ أي التابعون لقادة أهل الشرك من شياطين الجن والإنس ﴿إِن كُنَّا﴾ أي إنا كنا في ﴿ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ حين ﴿نُسَوِّيكُم﴾ في طاعتنا لكم ﴿بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وهذا على أن شركاءهم هم متبوعوهم الذين كانوا يطيعونهم في معصية الله فيعبدونهم بذلك من حيث جعلوا طاعتهم حقاً في الشرك، وفي إثبات البحيرة، والسائبة، والحامي.

وقد جعل الناصر عليه السلام في (البساط) طاعة الشيطان شركاً من غير نظر إلى أنها جعل الحكم لغير الله تعالى، لكنه جعل شرك الطاعة دون شرك العدل بالله، والمشركون في طاعتهم لكبرائهم قد جمعوا بين المعنيين شرك الطاعة لشياطين الإنس والجن، وشرك جعل الحكم لغير الله في البحيرة ونحوها إذ حرموها عليهم، وفيما جعلوه لشركائهم ﴿فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا﴾ [الأنعام:١٣٦] ونحو هذا مما حكاه الله عنهم في (سورة الأنعام).

﴿٩٩﴾ ﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ الذين حملونا على طاعتكم من أخلاء السوء وقرناء الباطل الذين زينوا لهم ذلك، ألا ترى إلى قول إبراهيم الخليل عليه السلام لقومه ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً﴾ [العنكبوت:٢٥] فهذا بين الأخلاء والقرناء فأما المطاعون فهم سادتهم وكبراؤهم: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا﴾ [الأحزاب:٦٧].

﴿١٠٠-١٠٢﴾ ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ * فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ هذا مما حكاه الله عن المشركين قالوا وهم في النار قد أيسوا

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا

من شفاعة الشافعين: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ﴾ (الفاء) للتفريع على إضلال المجرمين لهم ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ لانقطاع العلاقات ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [الزخرف:٦٧] ﴿لاَ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ﴾ [البقرة:٢٥٤] والحميم في (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام): ((معناه: شفيق)). انتهى.

وقال الراغب في قوله تعالى: ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلاَ يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ [المعارج:١٠] فهو القريب المشفق.. الخ. وقال (صاحب الصحاح): ((وحميمك: قريبك الذي تهتم لأمره)) انتهى.

وقولهم: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ أي فليت لنا رجعة إلى الدنيا والتكليف ﴿فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أقروا بالحق حين لم ينفعهم الإقرار.

﴿١٠٣﴾ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ إن في ذلك المذكور من قول إبراهيم عليه السلام وقصته مع قومه؛ لأنه عليه السلام ذكر الدليل عليهم كما مر وذكر قصة أهل النار آية سمعية فيها زجر عظيم.

﴿١٠٤﴾ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ وإن ربك الذي أرسلك وأنزل عليك القرآن ﴿لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ فلا يترك العصاة بدون عقاب ﴿الرَّحِيمُ﴾ فلا يعذبهم قبل إرسال النذير، فمن رحمته أرسلك وأنزل عليك القرآن.

﴿١٠٥﴾ ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ لعل تكذيبهم لنبيهم نوح عليه السلام كان تكذيباً للمرسلين كلهم؛ لأنهم استندوا في تكذيبهم له إلى أنه بشر مثلهم، فكان معنى كلامهم أن لا رسول بشر، أو أنهم كذبوا المرسلين نوحاً ومن قبله، لأنهم قالوا: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون:٢٤] فنفوا تقدم رسول قبل نوح، والأول أرجح أنه المراد - والله أعلم.

تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ۞ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِي

﴿١٠٦-١٠٨﴾ ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ ﴿إِذْ قَالَ﴾ إما اذكر: إذ قال، وإما كذبت قوم نوح إذ قال، وقوله: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ يدعوهم إلى التقوى برفق، ومعنى ذلك أنهم معرّضون لعذاب الله لأنهم مشركون، فهم محتاجون إلى التقوى لأجل ذنوبهم.

ثم بين لهم كيف يتقون، فقال: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ فبين لهم أن التقوى بأن يطيعوه ليمحوا ذنوبهم الماضية، لأنه رسول أمين يبين لهم طريق النجاة ثم أمرهم بالتقوى ثانية تفريعاً على كونه رسولاً يجب عليهم الإيمان به واتباعه وطاعته، فتكذيبه ومعصيته خلاف التقوى من هذه الجهة فتجدد عليهم وجوب التقوى مع وجوبها عليهم من قبل بسبب ما هم عليه.

﴿١٠٩﴾ ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وهذا تنبيه لهم لئلا يتوهموا أن الباعث له على دعوى الرسالة حب المال، وطلب الأجر، فإذا لم يكن له مصلحة منهم وتحمل مشقة إنذارهم مع توقع تكذيبهم، فذلك يدعوهم إن أنصفوا إلى النظر بعقولهم فيما جاء به من دليل رسالته، حتى يعلموا أنه دليل صحيح، وقد قامت عليهم الحجة لينظروا بإنذاره لهم مع عدم طلب أجر منهم على الرسالة؛ لأن ذلك زيادة في لفت النظر، ودعوة المنصف إلى النظر في آيته فلذلك عقب بقوله:

﴿١١٠﴾ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ لأنهم إن كانوا قد نظروا سابقاً وعلموا صدقه فما بقي إلا أن يأمرهم بتقوى الله وطاعته، وإن كانوا لما ينظروا فأمرهم بتقوى الله لينظروا فيطيعوه إيمانا بآيته.

بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ

فإن قيل: فما كانت المعجزة التي أظهرها الله على يديه لتدل على صدقه؟

قلنا: قد أخبرنا الله أن الرسل جاءوا قومهم بالبينات فتبين أن قد جاءهم بآية وإن لم نعلم نحن ما هي فكم نجهل من الواقع، فلا يدل جهلنا بها على عدمها، وهو عليه السلام يفيد: أن قد جاءهم بآية في قوله: ﴿قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ [هود:٢٨].

﴿١١١﴾ ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ تعلل لترك الإيمان منهم واعتذار بالكبر عن مجالسة الفقراء الذين اعتبروهم أراذل لفقرهم، أرادوا أنهم فسال، قال الراغب: «الرذل، والرذال: المرغوب عنه لرداءته» انتهى. وقد أجاب عنهم نبي الله وردهم إلى الصواب.

﴿١١٢-١١٣﴾ ﴿قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ * إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ فبين لهم أن الرذل من أرذله عمله لا من يصغر عندهم لفقره، وما علمي سؤال بمعنى النفي، بمعنى: أني لا أعلم ما يعتادون من الأعمال أي غير الإيمان وتوابعه، والمراد الأعمال القبيحة، فمعناه: أنه لا يعلم لهم عادة قبيحة.

وقوله: ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي﴾ يفيدهم أنه لا يعاملهم إلا على الظاهر، فأما باطنهم فأمره إلى الله وحده وهو الذي يحاسبهم يوم القيامة، وقال: ﴿لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ لأنهم جاهلون بأن الله هو الذي كتب على نفسه أن يحاسبهم ومعنى ﴿لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ لو تعلمون.

يَـٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِى

﴿١١٤-١١٥﴾ ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ * إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ المؤمنون أي الذين اتبعوا نوحاً وليس له أن يطردهم، وكيف يطرد من آمن به ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ما أنا إلا نذير مبين ليس لي أن أتسلط على عباد الله بغير حق، ومعنى ﴿مُّبِينٌ﴾ أنه بين واضح أنه نذير؛ لأنه قد جاءهم بآية بينة.

﴿١١٦﴾ ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ لما غلبهم بالحجة وأبطل تعللهم رجعوا إلى التهديد لئن لم تنته عن الدعوة إلى الله ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ أي لَتُرجَمَنّ بالحجارة لنتخلص منك، انقطع الخوض بينه وبينهم في دعوته؛ لأنه قد بلغهم وأقام الحجة عليهم وقطع جدالهم حتى لم يجدوا إلا التهديد.

﴿١١٧-١١٨﴾ ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ * فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾ أي فاحكم بيني وبينهم بما كذبوني حكما أي حكم ترضاه ﴿وَنَجِّنِى﴾ مما تحكم به عليهم في تكذيبي ونجّ ﴿مَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿١١٩-١٢٠﴾ ﴿فَأَنجَيْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ﴾ ﴿فَأَنجَيْنَـٰهُ﴾ تفريع بالـ(فاء) على تكذيبهم ودعاء نوح عليه السلام، و﴿ٱلْفُلْكِ﴾ السفينة، و﴿ٱلْمَشْحُونِ﴾ المملوء أو هو خاص بالسفينة ونحوها.

قال في (القاموس): ((شحن السفينة، ثم قال: والمدينة ملأها)) انتهى.

ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا

وفي (الصحاح): ((شحنت السفينة ملأتها، قال الله تعالى: ﴿فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ وشحنت البلد بالخيل ـ ثم قال ـ: ويقال: مرّ يشحنهم أي يطردهم أفاده في (لسان العرب) شحْنا أي يطردهم ويَشُلّهم ويَكْسَؤُهم)) انتهى.

فلكل استعمال موضع خاص وسفينة نوح عليه السلام امتلأت لكثرة ما حمل من الحيوان، لقول الله تعالى: ﴿احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ..﴾ [هود:٤٠]﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ﴾ أي بعد إنجاء نوح ومن معه أغرقنا ﴿الْبَاقِينَ﴾ أي الذين لم يركبوا مع نوح، فالمراد بـ﴿الْبَاقِينَ﴾ من عدا نوحاً ومن آمن معه، قال في (الصحاح): ((وبقي من الشيء بقيّة)) انتهى.

فظهر: أن ﴿الْبَاقِينَ﴾ بمعنى البقية الذين لم يدخلوا السفينة، لم ينجهم الله.

﴿١٢١-١٢٢﴾ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿إِنَّ فِي﴾ إهلاك المكذبين برسولهم وإنجاء المؤمنين ﴿لَآيَةً﴾ تدعو إلى الإيمان بالرسل، واجتناب تكذيبهم، ومن عزة الله تعالى أنه عذب المكذبين، ومن رحمته أنه أنذرهم، وأنه أنجى المؤمنين.

﴿١٢٣﴾ ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ﴾ هذه الآية نظيرها في قوم نوح، ولكن عاد بعد قوم نوح كذبوا رسولهم هوداً عليه السلام، وكذبوا نوحاً، ومن قبله من المرسلين، فأما من بعدهم، فلعله لزمهم من إنكارهم رسالة البشر على الإطلاق.

تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا

﴿١٢٤-١٢٦﴾ ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ تفسير هذه الآيات مثل تفسير نظيرها في (قوم نوح).

﴿١٢٧﴾ ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ نظير الآية في (قوم نوح) والمراد: أنه لا يسألهم مالاً، كما قال تعالى: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾ [الطور:٤٠] وكما صرح به نوح فيما حكاه الله تعالى في (سورة هود) فهو لا يسألهم مالاً ولا أجراً حقيقياً كعمل يعملونه له أجراً على الرسالة، والأجر الحقيقي لا يكون إلا أحدهما أي مالاً أو عملاً جارياً مجرى المال كالبناء والحرث، وحفر الآبار.

﴿١٢٨-١٣٠﴾ ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ أنكر عليهم الرسول هذه الخلال الثلاث، الأولى: قال: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ﴾ أي بكل مرتفع آية أي علامة تعبثون أي لا فائدة لها، وإنما هي عَبَث معيب، قال في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): ((﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾ معناه: بكل مرتفع من الأرض)) انتهى المراد. وفي (مفردات الراغب): ((الريع: المكان المرتفع الذي يبدو من بعيد)) انتهى.

وفي (الصحاح): ((والريع: المكان المرتفع من الأرض، وقال عمارة: هو الجبل الصغير - إلى قوله -: ومنه قوله تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾ والريع - أيضاً - الطريق)) انتهى.

وقوله تعالى حاكياً: ﴿ءَايَةً تَعۡبَثُونَ﴾ لعلهم كانوا يبنونها لمجرد إظهار قوتهم وغناهم يفخرون بذلك، فكان عبثاً لأنه لا يستحق أن يكون سبباً للبناء لما في البناء من التكلف والعناء، وغرامة المال، فإذا فعل لمجرد ذلك الغرض الحقير الذميم كان عبثاً.

والثانية ـ مما عاب عليهم ـ أفادها قوله تعالى: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمۡ تَخۡلُدُونَ﴾ قال في (الصحاح): «والمصانع: الحصون» انتهى، وبه فسره الشرفي في (المصابيح).

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: بروج الحمام وكل بناء فهو مصنعة» انتهى. وقال الراغب: «وعبر عن الأمكنة الشريفة بالمصانع، قال: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾»انتهى. وقال الراغب: «الصنع إجادة الفعل» انتهى المراد.

والذي يناسب قول الله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَخۡلُدُونَ﴾ أنها الحصون أما قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَخۡلُدُونَ﴾ أي لعل اتخاذ المصانع سبب في خلدكم ظناً أنها تقيكم الآفات، ولعلهم أرادوا أن تحميهم من الأعداء إن كان لهم أعداء، وإلا فمن السباع والهوام والحرّ والوباء، وهذا من استعمال الخلد في السلامة من المصائب، كقول امرئ القيس:

ألا عم صباحاً أيها الطلل البالي	وهل يعمن من كان في العُصُر الخالي
وهل يعمن إلا سعيد مخلد	قليل هموم ما يبيت بأوجال

قال الراغب: «الخلود: هو تبرئ الشيء من اعتراض الفساد وبقاؤه على الحالة التي هو عليها»انتهى. فهما معنيان للخلود: الأول: التبري من اعتراض الفساد.

والثاني: بقاؤه ومن الأول قوله تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ﴾ [الإنسان:١٩] وقوله تعالى: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ [ق:٣٤] ومن الثاني قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ [الأنبياء:٣٤] ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ والأول خاص بأهل الجنة، والثاني لهم ولأهل النار.

قال تعالى: ﴿فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾ [الجن:٢٣] وقال الشرفي في تفسير قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾: ((كأنكم تخلدون في هذه الحياة لا تموتون)) هذا معنى كلامه.

والثالثة ـ مما عاب نبي الله هود على قومه ـ أفادها قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ قال (صاحب الصحاح): ((البطشة السطوة والأخذ بعنف)) انتهى. وقال الشرفي: ((والبطش ـ أي هنا ـ الضرب والقتل بغير حق)) انتهى المراد.

والبطش هنا يفسره قوله الله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا﴾ [القصص:١٩] فالسياق يفيد: أنه أراد أن يدفع عدوهما بالضرب أو نحوه، فالبطش الضرب الموجع ونحوه وقد يكون قتلاً، وقد يكون أشد من ذلك، قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ﴾ [الدخان:١٦].

وقوله: ﴿جَبَّارِينَ﴾ قال في (الصحاح) في معنى (الجبار): ((والجبار: الذي يقتل على الغضب)) انتهى. والمعنى: أنه لا يتقيد إذا غضب بحد يليق بالعاقل بل يكون بطشه على قدر غضبه، ولا يبالي بالظلم ولا يرحم المظلوم.

(١٣١) ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ فأنتم معرّضون لعذاب الله إن لم تطيعوني فأطيعوني اتقاء لله.

تَعۡلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنۡعَٰمٖ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٣٥﴾ قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾

﴿١٣٢-١٣٤﴾ ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ * أَمَدَّكُم بِأَنۡعَٰمٖ وَبَنِينَ * وَجَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ﴾ قال في (الصحاح): ((المادّة: الزيادة المتصلة)) انتهى. يذكرهم رسولهم بنعم الله عليهم النعم المتلاحقة المتواصلة فالأنعام تنتج ويتكرر درّها ونفعها والبنون يتكرر السرور بهم ونفعهم، والجنات تثمر ويتكرر ثمرها، والعيون يستمر الانتفاع بها للشرب وسقي الأنعام والجنات.

قال في (الكشاف): ((فإن قلت: كيف قرن البنين بالأنعام؟ قلت: هم الذين يعينونهم على حفظها والقيام عليها)) انتهى. فرسولهم يذكرهم بنعم الله عليهم ليشكروه ولا يكفروا نعمه لأنهم إذا كفروها وهم كافرون لها تعرضوا لعذاب الله فلذلك قال:

﴿١٣٥﴾ ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ يوم عظيم يحتمل أنه عنى عذاب يوم القيامة وهو الراجح، ومحتمل: أنه أراد يوم الهلاك العاجل الذي يعظم عليهم هوله، ويعمهم عذابه وينقلهم إلى نار جهنم، كما قال تعالى في (أصحاب الأيكة): ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء:١٨٩].

﴿١٣٦-١٣٨﴾ ﴿قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ * إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ * وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ﴾ لا نبالي بما تقول، ولا نتأثر به بل هو وعدمه سواء علينا، وهذه مبالغة في رده وأسلوب لجعل اليأس في نفسه ليسكت عنهم.

فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ

﴿إِنْ هَٰذَآ﴾ الذي نحن عليه وتنكره علينا وتخاف علينا لأجله عذاب يوم عظيم ليس أمراً منكراً إنما هو شيء مألوف، ورثناه من الأولين، وكان من خلقهم وعاداتهم التي استمروا عليها، والخلق يستعمل في الطبيعة التي هي ميل النفس إلى عادة من العادات، ويستعمل في نفس العادة التي أدت إليها الطبيعة كما قال الشاعر:

يا أيها المتحلّي غير شيمته	ومن خلائقه الإقصاد والمَلَق
ارجع إلى خيمك المعروف ديدَنُهُ	إن التخلق يأتي دونه الخُلُقُ

وقال الإمام القاسم عليه السلام في عدّ الركعات بالأصابع والحصى: ((خُلُق حَسَن)) أي عادة حسنة، وقال الشرفي في تفسير هذه الآية: إن هذا إلا خلق الأولين أي طبع الماضين وسِيرتهم..الخ. وقد ورد الترغيب في حسن الخلق ومكارم الأخلاق بمعنى العادات الحسنة كإكرام الضيف، وإغاثة الملهوف، وبذل المعروف، وقولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ ردّ على رسولهم في قوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

﴿١٣٩-١٤٠﴾ ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي كذبت عاد رسولهم هودا ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ وذلك مفصل في سور، منها: (الحاقة) و (الأحقاف) إن في إهلاكهم بسبب تكذيبهم لآية ودليلاً يُعرف به الله الذي أرسل الريح العقيم حتى دمرتهم فلم تنصرهم آلهتهم ولا غيرها، ودل ذلك: على أن الله قادر عالم، وعلى أنه العزيز.

أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَا ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ فلعزته أرسل إليهم رسولاً ولم يهملهم ولعزته عاقبهم، وقوله: ﴿الرَّحِيمُ﴾ ومن رحمته أرسل إليهم رسولاً يدعوهم إلى ما ينجيهم من عذابه، وجعل معه الآية الدالة على صدقه حتى كذبوه عناداً.

﴿١٤١﴾ ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾ قد مر وجه كونهم كذبوا المرسلين جملة في قوم نوح.

﴿١٤٢-١٤٥﴾ ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَٰلَمِينَ﴾ قد مر تفسيرها في نظائرها الماضية.

وقوله: ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَٰلَمِينَ﴾ فيه تنبيه لهم أنهم عباد مملوكون لله ﴿رَبِّ الْعَٰلَمِينَ﴾ فعليهم أن لا يشركوا به غيره، بل يخلصوا له العبادة لأنها تعبير عن العبودية للمعبود.

﴿١٤٦-١٤٩﴾ ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَا ءَامِنِينَ * فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ * وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ﴾ يذكر رسولهم قومه بنعمة الله عليهم ويحذرهم من زوالها بقوله: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَا﴾ أي فيما أنتم فيه من النعمة التي فصلها بقوله: ﴿فِي جَنَّٰتٍ﴾ إلى آخر الآيات.

والسؤال في قوله: ﴿أَتُتْرَكُون﴾ في معنى النفي، أي الإنكار الإبطالي فالمعنى إن هذه النعم العظيمة لا تتركون فيها إلا إذا آمنتم والاستثناء مأخوذ من السياق لأنه يدعوهم إلى الإيمان لينجوا، فكأنه قال: ﴿أَتُتْرَكُون﴾ وأنتم على ما أنتم عليه من الشرك، وسائر كفران النعم التي أنتم عليها، وقوله: ﴿وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ طلعها ثمرها الصّغار البيض هضيم حباته متزاحمة في أخبيتها متراصة، ولذلك تأتي الحبة الواحدة ضامرة فهو عبارة عن كثرته لصلاح النخل وريّه، قال في (الصحاح): ((ويقال للطلع: هضيم ما لم يخرج من كُفُرّاهُ لدخول بعضه في بعض)) انتهى.

فظهر من هذا: أن الطلع هنا هو الثمر الذي في خبائه، لا الخِباء بما فيه، وهذا هو الذي فسر به في مصابيح الشرفي في سورة (ق) وقال الراغب: ((قال: ﴿وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ أي داخل بعضه في بعض كأنما شُدخ)) انتهى. وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): ((﴿طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ معناه: قد ضُمّ بعضها إلى بعض)) انتهى المراد.

وفي (لسان العرب) قال: ((وطلعه ـ أي النخل ـ كُفُرَّاه قبل أن ينشق عن الغريض، والغريض يسمى طلعاً أيضاً وحكى ابن الأعرابي عن المفضل الضبي، أنه قال: ثلاثة تؤكل فلا تسمِن، وذلك: الجُمّار، والطلع، والكمأة، أراد بالطلع الغريض الذي ينشق عنه الكافور، وهو أول ما يُرى من عذق النخلة)) انتهى.

فحقق بهذا أن الثمر طلع والخباء بما فيه طلع، ولعل هذا مراد (صاحب القاموس) حيث قال في الطلع: ((ومن النخل شيء يخرج كأنه نعلان مطبقان، والحمل بينهما منضود والطَّرَف محدّد أو ما يبدو من ثمرته في أول ظهورها، وقِشره يسمى الكُفُرَّى، وما في داخله الإغْرِيض لبياضه)) انتهى.

في (أساس البلاغة) ما معناه: تشبيه الأسنان بالإغريض لبياضه، وصِغَر حبّاته، ولفظه: ((وتقول: كأن ثغرها إغريض ـ ثم قال ـ: الإغريض ما ينشق عنه الطلع من الحبيبات البيض)) انتهى.

وقوله: ﴿وَتَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا﴾ الراجح: أن نحتهم هذا هو لاتخاذ بيوت في الجبال، ولعل الباعث عليها خوف الريح التي جاءت على عاد، فنحتوا الجبال حتى صار لهم فيها بيوت، والبيوت جمع بيت وهو الغرفة الواحدة التي يبيت فيها الإنسان، يوضح هذا قوله تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ [الأعراف:٧٤] ولعلهم مع هذا بنوا بيوتاً بالأحجار التي تؤخذ من الجبال، وذلك غير المعنى هنا.

وقوله تعالى: ﴿فَـٰرِهِينَ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): ((أي أشرين بطرين غير حامدين ولا شاكرين، هذا روي عن المرتضى عليه السلام ـ ثم قال الشرفي ـ: وقال محمد بن القاسم عليه السلام: الفرهون: كلمة عربية تقوم مقام فرحين، والفرَ[ه] الفرح المفرط في فرحه..)) الخ.

ويؤكد هذا ما في (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام) على ما أظنه الصواب في النسخة: ((معناه: بنحتها)) انتهى. ويؤكد ما روي عن المرتضى عليه السلام قول (صاحب الصحاح): ((وفَرِه ـ بالكسر ـ أشِر وبطِر، وقوله تعالى: ﴿وَتَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا فَرِهِينَ﴾ فمن قرأه كذلك فهو من هذا، ومن قرأه (فارهين) فهو من فرُه بالضم)) انتهى.

وفي (مفردات الراغب): ((الفَره: الأشر)). انتهى المراد. وقال: ((الأشر شدة البطر ـ ثم قال ـ : فالأشر أبلغ من البطر والبطر أبلغ من الفرح، ثم قال: والأشر لا يكون إلا فرَحا بحسب قضية الهوى)) انتهى.

فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا

وهذا يفيد: أن الخلاف لفظي بين (تفسير المرتضى) و(تفسير محمد بن القاسم عليهما السلام) وفي (الصحاح): ((البطر: الأشر، وهو شِدة الفرَح)). انتهى المراد.

فظهر: أن الذم لقوم صالح لأجل شدة فرحهم بدنياهم وهي لا يوثق بها، فهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص:٧٦] وسياق كلام رسولهم يفيد: أنهم لن يتركوا في ذلك ولا في جنات وعيون ونخل طلعها هضيم لأنهم قد عرَّضوا نعمتهم للزوال.

﴿١٥٠-١٥٢﴾ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ * الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ ذكرهم رسولهم بنعمة الله تعالى ليشكروها وحذّرهم زوالها وأكد ذلك بقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ وجعله تقدمة لقوله: ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾ أي كبراءهم الذين يصدونهم عن طاعة رسولهم، كقوله تعالى في (عاد): ﴿وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [هود:٥٩] وهكذا سائر أهل الباطل يتبعون كبراءهم المترفين، وحذرهم رسولهم من اتباع المسرفين بقوله: ﴿الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ ففي اتباعهم تمكين فسادهم في الأرض، وهو ضرر عظيم، لأنه سبب هلاكهم وسوء عاقبتهم في الآخرة، وقوله: ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ يبيّن: أنه لا فائدة في اتباعهم تدعو العاقل إلى اتباعهم بل فسادهم خالص عام.

﴿١٥٣-١٥٤﴾ ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ * مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ الذين قد تكرر عليهم السحر

شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ

بأن سُحروا مراراً حتى غلب السحر على عقولهم، واستمر زوالها هذا الظاهر الذي جرت به عادة بعض الأمم واشتقاقه من المصدر أظهر من اشتقاقه من اسم جامد الذي هو السَّحَر بمعنى الرئتين مع أن الاشتقاق منه سماعي يحتاج إلى إثباته عن العرب، مع أن اشتقاقه من السَّحر يقلب المعنى ويصير مثل رآه أصاب رئته، فيكون المعنى ممن أصيبت رئاتهم، والسياق في الآية يبطل هذا والأول أرجح مثل: ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَسْحُوراً﴾ [الفرقان:٨] ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَامُوسَى مَسْحُورًا﴾ [الإسراء:١٠١] ﴿وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات:٣٩] ﴿فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر:٢٤] وكذلك جعلوا المعجزات سحراً ولا يمكن فيها التأويل بالسّحر بمعنى الرئتين، وقالوا: ﴿مَجْنُونٍ﴾ والمجنون والمسحور متقاربان فلا موجب للعدول عن هذا المعنى.

وقال الشرفي: ((أجابوه بأن قالوا: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ الذين سُحروا كثيراً حتى غلب عليهم السحر، فالمسحَّرين مبالغة في المسحورين)). انتهى. على ما هو الصواب، وفي النسخة غلط واضح.

وقولهم: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ احتجاج منهم على نفي صدق رسولهم كما جرت به عادتهم في تكذيب الرسل، واتصل بقولهم: ﴿من المسحرين﴾ لأنهم جعلوه مبررا لدعواهم أنه من المسحرين، وبهذا الاعتبار صح ترك العطف، وفي بعض الآيات: ﴿وَمَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ﴾ لاعتبار غير ما ذكرت وقولهم: ﴿فَأْتِ بِـَٔايَةٍ﴾ الراجح: أنه من كفرهم يعتبرون الآية التي جاء بها ليست آية، ولذلك أجيبوا كما قال تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ﴾ [القمر:٢٧].

يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصۡبَحُواْ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾ كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ

﴿١٥٥-١٥٦﴾ ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ * وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ﴾ آية لكم؛ لأنها ناقة معينة عظيمة ﴿لَّهَا شِرۡبٞ﴾ تشرب الماء كله في يومها، فجُعل لها الماء في يوم ﴿وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾ كما لها شرب يوم معلوم، قالوا: وكانت تكفيهم لبناً في اليوم الذي تشرب فيه الماء - والله أعلم - فالحجة في عظمها واقترانها بأن أخذ مائها أو منعها منه أمر محذر ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾ [الشمس:١٣] وبأنهم إذا مسوها بسوء أخذهم عذاب يوم عظيم يعمهم بالهلاك.

﴿١٥٧-١٥٩﴾ ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصۡبَحُواْ نَٰدِمِينَ * فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ عقروا الناقة ﴿فَأَصۡبَحُواْ نَٰدِمِينَ﴾ إما أصبحوا في اليوم الذي بعد وقت عقرها كما روي أن صالحاً جعل لهم علامة العذاب تغير ألوانهم في الثلاثة الأيام التي بين عقرها ونزول العذاب، وعلى هذا فالندم لتيقنهم أنهم بعقر الناقة قد تورطوا في الهلكة، أو ﴿فَأَصۡبَحُواْ نَٰدِمِينَ﴾ يوم نزول العذاب حين رأوه قبل هلاكهم به وهو الرجفة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ﴾ أي أخذ العذاب لهم آية أو في الناقة وأخذ العذاب لهم ﴿وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ وذلك تسلية لرسول الله محمد ﷺ بأن الرسل قبله قد كُذّبوا ففيهم أسوة له ﷺ.

﴿١٦٠﴾ ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ كذبوا رسولهم لوطاً ومن قبله ومن بعده من المرسلين لعله بدعوى أن الرسالة لا تكون للبشر.

﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ

﴿١٦١-١٦٤﴾ ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قد مضى تفسير هذه الآيات عند ذكر نظائرها من هذه السورة.

﴿١٦٥-١٦٦﴾ ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ ﴿أَتَأْتُونَ﴾ إنكار عليهم وتوبيخ لهم بإتيانهم للذكور أي نكاحهم وقوله: ﴿مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ وصف للذكران يدل على أنهم كانوا يشيعون هذه الفاحشة فيمن قدروا عليه من ضيف أو غريب أو عابر سبيل أو غيرهم من أي قوم كانوا، ولذلك نهوا نبيهم عن العالمين أي عن إضافة أي فرد من أفراد العالمين أو إدخالهم بيته فهم لا يحترمون أحداً ولا يستحيون من أحد، ولذلك راودوا نبيهم عن ضيفه في آخر أيام حياتهم وهم لا يعلمون أنهم الملائكة الذين نزلوا عند نبيهم لتعذيبهم.

وقوله: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم﴾ أي تتركون نكاح نسائكم التي خلقها الله لكم، وأعدّها لكم للنكاح فتتركون الحلال النزيه إلى الحرام القذر، وفي (تفسير الإمام زيد عليه السلام): ((معناه: ما أصلح لكم يريد به الفرج)) انتهى.

وقوله: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ معتدون متجاوزون للحق إلى الباطل، لستم أهلاً للنزاهة ولا للعفاف.

إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾

وهذه الرذيلة معارضة لسنة الله في طريقة التناسل الإنساني فلو تركوا وشأنهم حتى طبقت الأرض فاحشتهم وعمت الناس طريقتهم لانقطع الجنس الإنساني، وفي بلاد الكفر حيث تباح الفواحش باسم الحرية انتشر مرض يقال له: (الإيدز) بسبب هذه الفاحشة.

﴿١٦٧﴾ ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾ ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ﴾ عن الكلام الذي تقوله لنا وتتركنا وشأننا ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾ من قريتنا المطرودين عن بلدهم، وظاهر هذا أنه كان منهم نسباً لا مجرد صهارة.

﴿١٦٨﴾ ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾ قال الراغب: ((القِلى شِدّة البغض)) انتهى المراد، والسياق يفيد هذا.

﴿١٦٩﴾ ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ من شر ما يعملون فعملهم سبب للعذاب فكأنه هو الهلاك، والدليل على أن المراد النجاة من عذاب ما يعملون قوله: ﴿وَأَهْلِي﴾ فعمّ بناته، فظهر أنه أراد نجني ونجِّ أهلي من شر سببه ما يعملون.

﴿١٧٠-١٧١﴾ ﴿فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَـٰبِرِينَ﴾ العجوز امرأته وهي وإن كانت مسلمة فقد كانت خائنة للرسول والراجح أن خيانتها له إبلاغ قومها أو بعضهم بما هو سر كإخبارهم بوجود ضيفه وبذلك تجر عليه المصيبة فاستحقت العذاب معهم؛ لأنها خائنة لنبي، ولكونها شريرة، ناسب السياق ذكر أنها عجوز وذلك لأن الحجة عليها أعظم من حيث أن الذنب ممن قد كبر وصار مظنة اقتراب أجله هو أحوج إلى تقصير الأمل،

والاستعداد للموت ومن حيث أنها امرأة لا يليق بها إلا معاونة النساء في الحق فعاونت الرجال على الباطل لأن حاجتها الجنسية قد ضعفت فلم تبال بغيرها من النساء، وكل ذلك لأنها شريرة بعيدة من الصواب.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ إن كان معنى الغابرين الماضين فمعناه أنها في الهالكين المعذّبين قد حكم بذلك عليها ربها، وإن كان معنى الغابرين الباقين فالمعنى أنها لا تنجو مع أنها بين الناجين فتؤخذ وحدها دونهم وهذا لشرارتها مع أنها كانت بين الصالحين فلم يكن يليق بها إلا الاقتداء بهم، والسير على طريقتهم فحين لم تكن إلا شريرة هلكت مع قومها، ولكن المعنى الثاني أي في الباقين لا يستقيم في قوله تعالى: ﴿قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [الحجر:٦٠] فترجح المعنى الأول، ويناسبه الآيات فيها، ومنها قوله تعالى: ﴿إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ﴾ [هود:٨١] لأن أكثر الآيات بـ(من) وبعضها بـ(في) قال في (الصحاح): ((والغابر: الباقي، والغابر: الماضي، وهو من الأضداد)) انتهى.

نعم يحتمل أن يكون ﴿ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ بمعنى: الذين لا يخرجون من القرية بل يبقون فيها ليهلكوا، وهذا الاحتمال عندي غير قوي، والله أعلم لأن الباقين في القرية هم الأكثر لا يصح أن يعتبروا بقية كما يقال بقية للشيء الباقي مما تلف مثلاً لأن البقية تكون القليل، ولأن الله تعالى قال في آية: ﴿قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [الحجر:٦٠] وهذا التأكيد باعتبار أنها مهلكة مع القوم وهي امرأة نبي فلو أريد الباقين بمعنى الذين لا يَسرون مع (آل لوط) لما كان إلا كناية عن هلاكها فتفسير الغابرين بالماضين أقرب في الكناية عن هلاكها أو هو صريح فيه ـ والله أعلم.

وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ

﴿١٧٢-١٧٣﴾ ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ ﴿ثُمَّ﴾ بعد إنجاء لوط وأهله إلا العجوز ﴿دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ﴾ الذين هم قوم لوط وامرأته عند تدمير قريتهم بجعل عاليها سافلها كما في (سورة هود) قال تعالى: ﴿جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ﴾ [آية:٨٢] وفي (سورة الحِجر) قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾ [آية:٧٤] فيظهر أنها ريح شديدة أو رجفة دمرت قريتهم واقترن بها مطر الحجارة، فكان هلاكهم بدمار قريتهم عليهم وبالحجارة.

فالحاصب: رميهم بالأحجار والريح أو الرجفة دمرت قريتهم ولا يصح أن نقول إن الله أهلكهم بدون رميهم بالحجارة لأن الله تعالى قال في (سورة الأعراف): ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [آية٨٣-٨٤] فدل على أنه أهلكهم بهذا المطر لأنه رتب عليه قوله تعالى: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف:٨٤] أي الهلاك بهذا المطر وكذلك في (سورة هود): ﴿مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [آية:٨٣] أي أن تصيبهم الحجارة كما أصابت قوم لوط، وكذا في (سورة الحجر): ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ * فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾ [آية:٧٣-٧٤] فدل على أنه أهلكهم بالحجارة وبجعل عاليها سافلها.

وفي (سورة الفرقان) ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا﴾ [آية:٤٠] فدل على أنه أهلك القرية بالمطر المذكور.

وكذلك في (سورة النمل): ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾ [آية:٥٧-٥٨] فدل على أنه تعالى أهلكهم بالمطر المذكور الذي هو الحجارة، وكذلك في (سورة العنكبوت): ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلاَّ امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ * إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [آية:٣٣-٣٤] وهذا الرجز هو المطر المذكور أو المطر والريح أو المطر والرجفة، والقرية باق أثرها، وبعضها لقوله تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت:٣٥] ولذلك قال تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ [العنكبوت:٤٠] وهم قوم لوط كما في (سورة اقتربت) وفي (سورة الذاريات): ﴿إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ * لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ * مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ [آية:٣٢-٣٤] فدل ذلك على أن الله أهلكهم بالحجارة المذكورة، واحتج بها الإمام الهادي عليه السلام في (الأحكام) على رجم الزاني.

وقد دلت هذه الآيات على إهلاكهم بالحجارة فأما الريح فلم تذكر في شيء منها إلا أن يكون الحاصب يدل عليها فقد ذكر في القرآن مرتين ولكنه يقال: حصبه، بمعنى رماه بالحصباء وليس من مفهومه إرسال الريح في الهواء، قال الشرفي في تفسير (سورة اقتربت): ((قال الهادي عليه السلام: الحاصب هو الرمي الذي وقع بهم والرجم الذي نزل من السماء عليهم)) انتهى. وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام) لـ(سورة اقتربت) ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾ [آية:٣٤]: ((معناه: حجارة)) انتهى.

وقال في (الصحاح): ((وحصبت الرجل: أحصبه ـ بالكسر ـ أي رميته بالحصباء ـ ثم قال ـ : والحاصب: الريح الشديدة التي تثير الحصباء)) انتهى. ولم يذكر الريح إلا لإثارتها الحصباء لا لأنها لازمة لاسم (الحاصب).

والحاصل: أن الحاصب: هو المطر الذي به أصابتهم الحصباء أي الحجارة الصغار، وأن الصيحة التي أخذتهم يحتمل أنها الريح مع الحجارة، ويحتمل: أنها رجفة، ويحتمل: أنها صيحة حقيقية أي صوت شديد رجفت منه أرضهم حتى صار أعلا بيوتهم في أرضهم وهذا هو تدميرها المشارك للحجارة في إهلاكهم هذا فأما تفسير هلاكهم بقلب أرضهم وجعل عاليها الذي هو الدور والأشجار سافلها أي تحت الأرض، فهذا لا يساعد عليه القرآن، وإن كان قد روي والذي يدل عليه القرآن بقاء خراب القرية يشاهد في قوله تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً﴾ [العنكبوت:٣٥] وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ..﴾ الآية [الفرقان:٤٠] وقوله تعالى: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ﴾ [الذاريات:٣٣] وقوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ..﴾ [الأعراف:٨٤] وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات:١٣٧-١٣٣] وغير ذلك.

فدلّ ذلك: على بقائها ظهر الأرض، وأن الله تعالى جعلها باقية عبرة لمن يمر عليها ولم يصيرها تحت الأرض، أو في جوف الأرض، واتباع القرآن هو الصواب، وتأويله لأجل الروايات غلط، لأن الروايات تستلزم أن الله تعالى لم يعذب قوم لوط بالحجارة التي أرسلها عليهم ولم يهلكهم بها فكيف يعتمد ما يستلزم مخالفة القرآن ويفسر به القرآن.

وقوله تعالى: ﴿فَسَاءَ﴾ ما أسوأ مطر المنذرين الذين كذبوا النذير ولم يقبلوا إنذاره فهم عبرة لغيرهم وتفسير ساء بصيغة التعجب ذكره الزمخشري في تفسيره لقول الله تعالى في (سورة المائدة): ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [آية:٦٦].

ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ شُعَيۡبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا

وموقعها في القرآن يناسبه، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان:٦٦] وقوله: ﴿سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ [الأعراف:١٧٧] وفي الآية إشارة إلى أن المطر في العادة يكون نعمة ورحمة، لكن هذا المطر نقمة وغضب وعذاب.

﴿١٧٤-١٧٥﴾ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ﴿إِنَّ فِي﴾ إنزال هذا العذاب على قوم لوط ﴿لَأٓيَةٗ﴾ تدل على صدق الرسول وعلى قدرة الله تعالى، وعلمه وأنه يمهل ولا يهمل ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ يا رسول الله ﴿لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ الغالب الذي لا ينال، وهذا العذاب من دلائل عزته، وهو ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ فقد أرسل الرسل وقدم الإنذار ودعا إلى التوبة وفتح باب المغفرة لمن تاب وغير ذلك من رحمته.

﴿١٧٦-١٧٩﴾ ﴿كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ * إِذۡ قَالَ لَهُمۡ شُعَيۡبٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ * فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ ﴿أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ﴾ نسبوا إليها، ولا ندري لماذا، فأصل الأيكة: الشجر الملتف، ولعلهم جعلوا صنمهم في ظلها، قال الشرفي في (المصابيح): ((﴿أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ﴾ قوم شعيب أرسل إليهم وإلى مدين، قال الحسين بن القاسم عليه السلام: والأيكة: اسم لمعبودهم وصنمهم ويمكن أن يكون اسما لبلدهم وقريتهم ودارهم ومحلهم ومسكنهم)) انتهى.

قلت: لا يبعد ما ذكره الحسين بن القاسم فقد يغلب اسم الشجرة على المحل الذي كانت فيه أو هي فيه، قال في (الصحاح): ((الأيك: الشجر الكثير الملتف الواحدة أيكة، ومن [قرأ] ﴿أَصْحَابُ الأَيْكَةِ﴾ فهي الغيضة ومن كتب ﴿أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ﴾ فهي اسم القرية)) انتهى المراد.

عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَـٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ

ولا يبعد أن أصله الأيكة فتصرف فيه بنقل حركة (الهمزة) على (اللام) فحَذْف الهمزة، فاستغنى عن ألف الوصل، وصار ليْكة لكثرة استعماله، وتكذيبهم المرسلين مثل تكذيب من سبقهم.

وقوله: ﴿إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ يفيد: أنه لهم لو أطاعوه لنفعهم ودلّهم على طريق نجاتهم من العذاب العاجل والآجل، وهكذا سائر الرسل، وقد مر تفسير نظائر هذه الآيات وشعيب وإن لم يكن من أصحاب لئيكة فلا بد أنها كانت لهم به معرفة كاملة تقوم مقام كون رسولهم منهم، بسبب أنهم كانوا أخواله أو أصهاره أو سكن فيهم مدة طويلة ـ والله أعلم.

﴿١٨٠﴾ ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَـٰلَمِينَ﴾ ﴿مِنۡ أَجۡرٍ﴾ في ﴿مِنۡ﴾ تأكيد للنفي أي ما أسالكم أي أجر لا كثيراً ولا قليلاً ولا مالاً ولا خدمة، وقوله: ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَـٰلَمِينَ﴾ لأنه الذي أرسل عبده شعيباً إلى بعض عباده.

﴿١٨١﴾ ﴿أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ﴾ قال لهم مثل قوله لمدين، ولعلهم كانوا على طريقة مدين مطففين، مخسرين.. الخ، والمخسر يعم منقص الكيل والوزن عن القدر المستحق.

﴿١٨٢﴾ ﴿وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ﴾ استعملوا الميزان الذي لا يجور بل يزن بالعدل والحق، وقد مر تفسير (القسطاس) فقد مر في (سورة الإسراء) وأما الراغب فقال: ((القسطاس: الميزان، ويعبر به عن العدالة كما يعبر عنها بالميزان)) انتهى. وإذا كان القسطاس هو الميزان فالمعنى زنوا بالميزان المستقيم أي الذي يعدل ولا يجور، وقد كفى قوله تعالى: ﴿ٱلۡمُسۡتَقِيمِ﴾ عن تعيين نوع الميزان.

فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ

قال الشرفي في (المصابيح) في تفسير (القسطاس): ((أي العدل الثابت من الأشياء وهو عربي، وأصله من القسط، ومنه قوله: ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [آل عمران:١٨] أي بالعدل، ميزان كان بالشام من أعدل الموازين، فأراد الله من المخلوقين أن يقتدوا بعدل ذلك الميزان في جميع ما به يتعاملون، قال: ومثل هذا ذكره المرتضى عليه السلام في (الإيضاح))) انتهى. ولعل الأصل وميزان بالواو العاطفة فينظر إن شاء الله في نسخة من (المصابيح) أو في (الإيضاح).

﴿١٨٣﴾ ﴿وَلَا تَبْخَسُوا ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ ﴿وَلَا تَبْخَسُوا ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ أي لا تنقصوا عليهم قال الشرفي: ((والبخس: هو النقص، والنهي عام لكل نقص في ملك أو حق)) انتهى.

قلت: ولكل نقص في عين أو وصف وقد مر فيه بسط، وقوله: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أي لا تشيعوا الفساد وقد قدمت أن كلمة في الأرض تفيد: إشاعة الأمر بحيث ينتشر في البلدان، وقوله: ﴿مُفْسِدِينَ﴾ حال مؤكدة لقوله: ﴿تَعْثَوْا﴾ وجاز لاختلاف اللفظ وليس ذلك شرطاً في قبح الفساد، ولكنه قال ذلك لأنه أقبح وأضر ولعلهم كانوا كذلك فنهاهم عما هو عادتهم.

﴿١٨٤﴾ ﴿وَٱتَّقُوا ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام): ((﴿وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ معناه: والخلق)) انتهى. ولعلهم كانوا يقلدون في باطلهم آباءهم الأولين، فقال لهم ذلك أي اتقوا الله الذي خلقكم وخلق الأولين، فهو ربكم عليكم أن تعبدوه وحده، فإن أشركتم كنتم أنتم مثل آبائكم في ضلال مبين، وقد أفاد الحسين بن القاسم عليهما السلام أنهم كانوا مشركين.

ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم

﴿١٨٥-١٨٧﴾ ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ * وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ * فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ ﴿ٱلۡمُسَحَّرِينَ﴾ المسحورين الذين كرّر عليهم السحر، وما أنت إلا بشر أرادوا أن البشر لا يكون رسولا لله، وهذا منهم احتجاج لقولهم : ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ ورتبوا على تكذيبهم لرسولهم طلبهم للعذاب إن كان من الصادقين، مبالغة في الجدال كأنهم يقولون لولا اعتقادنا أنك كاذب ما قلنا ﴿فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي أسقط علينا قطعا من السماء نعذب بها إن كنت من الصادقين في دعواك أنك رسول.

﴿١٨٨﴾ ﴿قَالَ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ قال رسولهم ربي أعلم بما تعملون من الشرك أو غيره ومن التكذيب والعناد وطلب العقوبة تمرداً فهو إذا شاء عذبكم.

﴿١٨٩﴾ ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ بعد أن خوفهم من الله ﴿فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِ﴾ أخذتهم الرجفة فأظلهم غبارها، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): ((نشأت لهم سحابة فاستظلوا تحتها، فأخذتهم الرجفة وأخذهم عذاب يوم الظلة)) انتهى.

ولم يذكر أنها أمطرت عليهم ناراً، ورواية أنها أمطرت عليهم ناراً بعيدة لأن القرآن لم يذكر ذلك، وقد سمّى الله عذاب الأمم المذكورة في القرآن لتخويف المكذبين وإنذارهم أن يصيبهم مثل ما أصاب من قبلهم.

مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن

وقد جمع لذلك في آية واحدة أنواعاً من العذاب فقال تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا..﴾ [العنكبوت: من الآية٤٠] ولم يذكر إمطار نار في شيء من القرآن والتخويف به أعظم من الأنواع التي قد ذكرها فلو كانت الرواية صحيحة لكانت مظنة أن يذكرها الله تعالى كما ذكر غيرها بل هي أولى بالذكر فظهر أن رواية أنها أمطرت عليهم ناراً غير صحيحة ـ والله أعلم.

﴿١٩٠-١٩١﴾ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ التعذيب يوم الظلة ﴿لَءَايَةً﴾ تدل على الله، وأنه لم يهمل عباده بل أرسل إليهم الرسل، وجعل لهم دلائل صدقهم وعذب من ذكر أنه عذبهم ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ يا رسول الله ﴿لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب الذي لا ينال، ولذلك يعذب ولا يهمل، وهو ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ فمن رحمته أرسل الرسل، وبين الهدى لمن يهتدي.

﴿١٩٢-١٩٥﴾ ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي هذا القرآن ﴿لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الذي هو مالكهم وملكهم وهم كلهم عباده فلم يكن ليهمل عباده ويترك هدايتهم إلى ما فيه نجاتهم وسعادتهم الدائمة لأنه حكيم عليم عزيز رحيم ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ﴾ وهو جبريل عليه السلام ﴿ٱلْأَمِينُ﴾ الذي بلغه بكامله لم ينقص ولم يزد ولم يغير شيئاً منه ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ يا محمد أنزل القرآن على قلبك فوصل إلى قلبك ﴿لِتَكُونَ مِنَ﴾ الرسل ﴿ٱلْمُنذِرِينَ﴾ الذين أرسلهم الله

يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِي قُلُوبِ

لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ كما هي سنة الله في إرسال كل رسول بلسان قومه ليبين لهم، وفي هذا حجة على من يزعم أن القرآن رموز خفية لا يعلمها إلا الإمام.

﴿١٩٦-١٩٧﴾ ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ * أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي هذا القرآن ﴿لَفِي زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي ﴿لَفِي﴾ كتب ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ إما بمعنى أنه مخبر به فيها فهو مذكور فيها جملة، كقوله تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات:٢٢] وإما بمعنى أنه مصدق لكتب الأولين مطابق لها في أصول الأديان التي هي متفقة فيها كالأمر بتوحيد الله تعالى والتحذير من الشرك والتبشير والإنذار بالجنة والنار وغير ذلك من الأصول، ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ﴾ أي لقومك يا محمد ﴿ءَايَةً﴾ دليل على أنه في زبر الأولين، وأنه من الله أن يعلمه من الله ﴿عُلَمَٰٓؤُا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

قال الشرفي في (المصابيح): ((وتقريره: أن جماعة من علماء بني إسرائيل أسلموا ونصوا على مواضع في التوراة والإنجيل ذكر فيها الرسول ﷺ بصفته ونعته، وقد كان مشركوا قريش يذهبون إلى اليهود ويتعرفون منهم هذا الخبر)) انتهى المراد.

والأولى ما أفاده كلام محمد بن القاسم عليه السلام وهو: أن العرب كانوا يسمعون ذكره من علماء بني إسرائيل قبل مبعث محمد رسول الله ﷺ حكاه الشرفي في (المصابيح) وهو تقرير للاحتمال الأول، فأما الثاني وهو وجود أصول الديانات، فقد دل عليه القرآن في مواضع وأنه مصدق لما بين يديه من الكتاب ولو كان معارضاً لها لما صح أنه مصدق لها.

ﭐلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُواْ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾

﴿١٩٨-٢٠٠﴾ ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ * فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ * كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ الأعجم: من لا يفصح، وكانت العرب تسمي المخالفين لها في اللغة أعاجم لأنهم لا يفهمون كلامهم، وفي (معلقة عنترة):

تأوي له قلص النَّعام كما أوت حزق يمانية لا عجم طِمطم

قال شارحها: ((وأراد بالأعجم: الحبشي)).

وقوله تعالى: ﴿فَقَرَأَهُۥ﴾ أي ﴿بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ﴾ قرأ هذا القرآن ﴿عَلَيْهِم﴾ أي على الكفار من العرب في (مكة) وما حولها ما كانوا به أي بالقرآن مؤمنين مع أن المرسل به في هذا التقدير بعض الأعجمين لأن الكفار المذكورين معاندون لا يريدون الحق، فهم معرضون لا ينفع فيهم شيء مع بقائهم على اختيارهم.

﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي كما هو في قلوب هؤلاء المجرمين مكروه مرفوض لا تقبله ولا يؤمنون ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ﴾ أي أدخلناه ﴿فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ كلهم من هؤلاء الذين حول الرسول ﷺ ومن غيرهم لأن إجرامهم يسبب لضيق قلوبهم عنه، قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ * لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ﴾ [الحجر:١٢-١٣].

﴿٢٠١-٢٠٣﴾ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ * فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَيَقُولُواْ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي المجرمون

أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا

﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ فعند رؤيتهم للعذاب يؤمنون فلا ينفعهم الإيمان ﴿فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ إما عاجلاً وإما آجلاً ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ قبل أن يبغتهم ﴿فَيَقُولُوا۟﴾ عند مجيئه ﴿هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾ لنكون من المؤمنين المحسنين وهيهات.

﴿٢٠٤﴾ ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ السؤال للإنكار عليهم والتوبيخ لهم على استعجالهم بعذاب الله لأنه عذاب أليم شديد كما عذب الأولون إن كان المراد العذاب العاجل، وإن كان المراد الآجل فيومئذ لا يعذب عذابه أحد، ولا يوثق وثاقه أحد، فكيف يستعجله عاقل سواء جدَّ في ذلك أم أراد به الجدال لأنه خطر يفوق كل خطر.

﴿٢٠٥-٢٠٧﴾ ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ * مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾ قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ سؤال تعجيب من حال الكفار إن متعهم الله سنين ﴿ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ وقد كانوا طلبوا الإنظار فما أغنى عنهم الإنظار وبدالهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون إنها حال سيئة ويجتمع شدة العذاب والخزي والهوان والندم بلا نهاية لشيء من ذلك فما أسوأ حالهم يكذبون وهذا مصيرهم، هذا بالنسبة إلى السؤال فأما الفاء فهي للتفريع على قوله تعالى: ﴿حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الأَلِيمَ * فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ * فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ﴾ فكأنه أضيف تقدير التمتيع سنين أي الإنظار سنين في نعمة ثم مجيء العذاب الذي كانوا يوعدونه إلى تقدير سؤالهم الإنظار عند مجيء العذاب.

فكأنه قيل: ولو أنظرناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ما أغنى عنهم الإنظار، وفائدة هذا التقدير وإضافته إلى التقدير الأول الموعظة البليغة والإنذار بسوء عاقبتهم وإن متعهم الله سنين والتمتيع هو الإمهال والإنعام مدة قصيرة واعتبرت السنين المحدودة مدة قصيرة لأنها قليل بالنسبة إلى الخلود الذي تقل في جنبه هذه الحياة الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد:٢٠].

وقوله تعالى: ﴿مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ أي العذاب، فإن عجل لهم العذاب بعد أن جاءهم ثم كشف صدق على العذاب العاجل ما كانوا يوعدون وكذا إن لم يجيء ويكشف بل جاءهم بعد التمتيع سنين لأن هذه الآيات الثلاث لا تختص بحال الإنظار بعد مجيء العذاب بل هي صالحة لكل حالة.

فإن قيل: فكيف صح تفريعها على طلبهم الإنظار؟

قلنا: صح لأن الإنظار إن كان سنين فليس بأكثر من تمتيعهم سنين من دون أن يأتيهم العذاب قبلها إنما جاءهم الإنذار المقرون بالدليل على صدقه، فكأنه قيل: ليس الإنظار بأكثر من تمتيعهم سنين بعد الإنذار البالغ المقرون بالحجة أفرأيت إن متعناهم إلى آخر الآيات، ومن هنا كانت هذه الآيات موعظة لهم ولكل عاقل سواء كان كافراً أم عاصياً غافلاً قد غره الإمهال.

وحاصل معنى ﴿مَآ أَغْنَىٰ﴾ ما دفع سواء كان من الغِنى أم من الغَناء بفتح الغين، قال تعالى حاكياً: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ﴾ [غافر:٤٧] وقال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا..﴾ [الطور:٤٦] ونظير استعمال (أغنى) في هذا المعنى استعمال (كفى) فيه قال تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [الحجر:٩٥] وقال تعالى: ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ [الأحزاب:٢٥] وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة:١٣٧].

مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾

فقوله تعالى: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ﴾ المراد به: ﴿مَآ﴾ دفع العذاب ﴿عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ﴾ سواء كان بواسطة جعله بمعنى أجزى أم من دون ذلك، قال في (الصحاح): «وأغنيت عنك مغنى فلان، إذا أجزأت عنك مُجْزَاه ويقال: ما يُغني عنك هذا أي ما يجزي عنك وما ينفعك» انتهى.

وتفسير المتعدي إلى مفعولين أحدهما بواسطة (عن) بالدفع أوضح من تفسير بالنفع، وإن صح اعتبار النفع أنه بالدفع وهذا فيما تتبعه كلمة (عن) فقط مثل: ﴿مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَه﴾ [الحاقة:٢٨]﴿يَوْمَ لاَ يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئًا﴾ [الدخان:٤١] ﴿إِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [يونس:٣٦].

﴿٢٠٨﴾ ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ أي ﴿مُنذِرُونَ﴾ قامت بهم الحجة على أهل القرية.

﴿٢٠٩﴾ ﴿ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ ﴿ذِكْرَىٰ﴾ لأهل القرية تكشف عنهم الغفلة، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ [الأنعام:١٣١] ﴿وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ بتعذيبهم قبل أن نقيم عليهم الحجة.

﴿٢١٠-٢١٢﴾ ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ * وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ * إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ﴾ أي بهذا القرآن ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ [يس:٦٩] فهم لا يتهيأ لهم.

وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ

ولعل ذلك من جهة مخالفته للغتهم وعجزهم عن حفظه لو سمعوه، كما لو سمع العربي كلاماً أعجمياً لتعسر عليه حفظه كما هو ـ والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أي وما يستطيعون التنزل به ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ فهم يرمون بالشهب كلما حاولوا استراق السمع ﴿إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات:١٠] فأين الشياطين من الآيات القرآنية وأخذ السور.

﴿٢١٣﴾ ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ﴾ ﴿فَلَا تَدْعُ﴾ التفريع على ما مر في السورة من بيان أنه رسول من الله، وأن القرآن من الله، فقد تبين الحق فاثبت يا محمد على ما أنت عليه من عبادة الله وحده، واجتناب الشرك والوعيد هذا تعبد له ﷺ وتحذير لغيره، كقوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر:٦٥].

﴿٢١٤﴾ ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ وهم بنو عبد المطلب وقد زاد بعض الرواة غيرهم ولعلها مساعدة لبني أمية كما هي عادة كثير من الناس من الميل مع الأمراء والملوك.

وقد روى الطبري في (تاريخه) الحديث في بني عبدالمطلب، ولم يغير لفظه «أيكم يؤازرني على أن يكون وصيي ووارثي» أو نحو هذا اللفظ لأن النسخة ليست عندي، وفي تفسيره تجد الرواية مغيرة بلفظ وكذا وكذا.

عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ

وفي (شواهد التنزيل) تأليف أبي القاسم الحسكاني الذي ترجم له الذهبي في (التذكرة) بسنده وخرجه المحقق عليه المحمودي من عدة كتب: ((أنه لما نزلت هذه الآية جمع رسول الله ﷺ بني عبد المطلب وهم يومئذ أربعون رجلاً الرجل منهم يأكل المسنة ويشرب العسّ فأمر علياً برجل شاة فأدمها ثم قال: ادنوا بسم الله فدنا القوم عشرة عشرة فأكلوا حتى صدروا ثم دعا بقعب من لبن فجرَع منه جرعة ثم قال لهم: اشربوا بسم الله فشرب القوم حتى رووا، فبدرهم أبو لهب فقال: هذا ما أسحركم به الرجل، فسكت النبي ﷺ يومئذ فلم يتكلم ثم دعاهم من الغد على مثل ذلك من الطعام والشراب، ثم أنذرهم رسول الله ﷺ فقال: يا بني عبد المطلب إني أنا النذير إليكم من الله ـ عزَّ وجل ـ والبشير بما لم يجئ به أحد جئتكم بالدنيا والآخرة فأسلموا وأطيعوني تهتدوا ومن يؤاخيني ويوازرني ويكون وليي ووصيي بعدي وخليفتي في أهلي ويقضي ديني فسكت القوم وأعاد ذلك ثلاثاً كل ذلك يسكت القوم ويقول علي: أنا فقال: أنت، فقام القوم وهم يقولون لأبي طالب أطع ابنك فقد أمّره عليك)) انتهى.

﴿٢١٥﴾ ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ واخفض جناحك تواضع لهم تواضع رحمة وعطف ولعله مأخوذ من خفض الطائر جناحه لفراخه ـ والله أعلم.

﴿٢١٦﴾ ﴿فَإِنۡ عَصَوۡكَ فَقُلۡ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ صارحهم ولا تداهن واستغن بالله عنهم إن خالفوك.

﴿٢١٧﴾ ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ كقوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ..﴾ إلى آخر الآية [التوبة:١٢٩] فإذا توكلت عليه استغنيت عن العاصي

ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَـٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ

لأنك تلجئ أمرك إلى الله ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ الغالب الذي لا ينال ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ الذي لا يخذلك وأنت في طاعته بل هو بك أرحم منه بغيرك.

﴿٢١٨﴾ ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾ لعله القيام في الصلاة بقرينة ما بعده أو القيام لإنذار الناس وتبليغهم الرسالة أو هما معاً وهو تعالى يراه في كل حال لكن ذكر سبب الرحمة.

﴿٢١٩﴾ ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّـٰجِدِينَ﴾ أي يرى تقلبك ﴿فِى ٱلسَّـٰجِدِينَ﴾ المصلين تسجد وتقوم وتقعد معهم قال الشرفي في (المصابيح): ((قال في (البرهان): يعني قائماً وجالساً وعلى سائر حالاتك في الصلاة والركوع والسجود)) انتهى المراد، وهذا يناسب قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ...﴾ [البقرة:١٥٣] حيث ذكر هنا سبب الرحمة والنصر ـ والله أعلم.

﴿٢٢٠﴾ ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ فهو يسمعك حين تدعوه وكل ما تقول، ويعلم ما أنت عليه في كل أحوالك من الصبر والإخلاص وغير ذلك.

﴿٢٢١-٢٢٣﴾ ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَـٰذِبُونَ﴾ ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ﴾ تأكيد لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ ببيان أن محمداً صلى الله عليه وآله وسلم ليس ممن تنزل عليه، وقوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ بيان للفرق بين محمد صلى الله عليه وآله وسلم وبين من تنزل عليه الشياطين ببيان من تنزل عليه الشياطين وهو كل كذاب يقول الزور، والصد عن الحق إلى الباطل أثيم ذو إثم واضح الفجور وليس كذلك محمد صلى الله عليه وآله وسلم فهو من تعرفونه بالصدق والأمانة والعفة والطهارة.

وقوله: ﴿يُلْقُون﴾ أي الشياطين حين يتنـزلون على الأفاك الأثيم ﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ وهو ما سمعوه من الملائكة وهم لا يسمعون شيئاً ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات:١٠] وهذه الخطفة نادرة تكون فيها فتنة للكاهن الذي يلقونها إليه ولمن يسأله لأنها أساس الكهانة لأنهم يجعلونها سبباً لتصديق الكهان، وسؤالهم لأنه قد جرّب فيها صدقهم فيقبلون بها كذبهم في غيرها، وكذب شياطينهم ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): ((والضمير للشياطين)) انتهى.

قلت: هو صحيح لأنه راجع إلى قوله: ﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ فهو الظاهر لئلاً تختلف الضمائر في سياق واحد بدون قرينة، أي وأكثر الشياطين كاذبون فيما يلقونه إلى ﴿كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ هذا والسياق يقتضي جعل قوله تعالى: ﴿كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ خاص هنا بالكهان الذين يخبرون ببعض ما سيكون فيكون بعضه صدقاً والقرينة السياق والحال، أي الجملة الحالية وهو قوله: ﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ فلا ينبغي أن يذكر معهم من لا تلقي إليه الشياطين السمع لأن الحال قيد للعامل، وهو﴿تَنَزَّلُ﴾ وصف للصاحب وهو ضمير الشياطين.

فإن قيل: فلم جعلت الجملة حالية؟

قلنا: لأن الضمير معرفة والجمل بعد المعارف أحوال، وفي مثل هذا يكون الحال هو الظاهر إذا قلت: جاءني زيد يضحك، ولو كانت الجملة صفة للشياطين لكان المعنى واحداً، لأن المعنى يكون كما لو قيل تنزل الشياطين الذين يلقون السمع.

فإن قيل: فلم لم تجعل الجملة مستأنفة، كأنه قيل: ما تنـزل به عليهم، فقال: ﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ وهو كذلك يقتضي تخصيص الكلام بالكهان كما لو كان حالاً أو صفة لأنها تصير الجملة ﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ خاصة بالكهان

لأنهم الذين تنزّل إليهم الشياطين بالخطفة التي يسمعونها من السماء، والظاهر: أنها حالية أو صفة على قول لأن الكلام يستقيم معها أحسن لأن السياق في الرد على الكفار بقول الله تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ أما جعلها مستأنفة فهو بعيد، لأنها لا تكون قيداً بل بياناً بدون تقييد وبذلك يكون البيان أخص من المبيّن ـ بفتح الياء ـ لأن ﴿كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ يكون عاماً للكهنة وغيرهم وقوله: ﴿يُلْقُونَ﴾ خاصاً بهم، فصح أن ﴿يُلْقُونَ﴾ قيد للجملة قبله، وبالله التوفيق.

(٢٢٤) ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ فحاشا رسول الله ﷺ أن يكون كما قال الكافرون هو شاعر وهو إنما يدعو أهل مكة ومن حولها وسائر الناس إلى التوحيد لله تعالى، وعبادته وحده، واجتناب الشرك وإلى ترك تحريم ما أحل الله وأنعم به على عباده من الأنعام، وإلى ترك الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وإلى طاعة الله تعالى، والحذر من الشيطان وغير ذلك، فكيف يدعو الناس كلهم إلى ذلك ويريد أن يطيعوه ويتبعوه في دينه، ثم لا يجد حجة لصدقه إلا الشعر، وهو يعرف أن الشعر لا يتبعه أهل العقول الراجحة إنما يتبعه الغاوون الذين ينقادون للتغرير ولا يتثبتون في أمورهم هذا في شعر الجاهلية الذي هو المعروف في أول دعوة الرسول ﷺ حين كان بمكة، وهو المتبادر في وصفهم له ﷺ بأنه شاعر، وكان الشعر عمدته التخييل وتصوير الكذب في صورة الصدق والباطل في صورة الحق، وتحريك الفتن بواسطة التحريض، وتحريك الغضب بما لا يوجب أو بواسطة المدح الذي أكثره كذب ومغالاة والهجاء كذلك وإثارة غير الغضب كالحزن والسرور والخوف والأمن مع أن رسول الله ﷺ يعرف الشعر في ذلك الزمان والشعراء

يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾

ومن يتبعهم ومن لا يتبعهم فكيف يقوم يدعو الناس وليس له حجة إلا الشعر مع أنه صلى الله عليه وآله وسلم هو المعروف برجاحة العقل والحكمة وسداد الرأي فهذا يبين أنهم إنما نسبوه إلى الشعر جدلا بدون توهم ولا غلط، وهذا أيضا يلفت أنظار الكفار إلى أن يراجعوا أفكارهم وينظروا ليعرفوا الفرق بينه صلى الله عليه وآله وسلم وبين الشعراء فليسمعوا إلى قول الله تعالى في الفرق بينهما:

﴿٢٢٥-٢٢٦﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ ﴿فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ قال في (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام): ((معناه: في كل فَنّ يجورون)) انتهى المراد. قال الشرفي في (المصابيح): ((وهذا تمثيل لحالهم بحال من ظل عن الطريق وتاه في أودية مشعبة)) انتهى المراد.

فهم يطوّلون في أمر لا طائل فيه كوصف ناقة لهم أو فرس أو امرأة أو نحو ذلك أو مدحهم أنفسهم أو غيرهم فيسترسلون فيما لا يفيد، أنظر (معلقة امرئ القيس) وغيرها من (السبع المعلقات) وغيرها مما يتقنون فيه الكلام ويجيدون التشبيه، وفنون المجاز، ويعجب سامعه لبلاغة المنطق، وقدرتهم على الكلام مع كونه شعراً يصعب فيه حسن البلاغة مع تكلف الوزن الواحد ومع تكلف القافية الواحدة فهم في ذلك كمن يمشي في الأودية المتعددة لغير قصد صحيح أو غلطاً لضياع الطريق عليه.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ إما بمعنى يقول القائل في مدح نفسه ما لم يفعل فلتكرر ذلك قال: ما لا يفعلون، ليفيد: استمرار العادة وليعم الماضي والمستقبل.

وإما بمعنى: أنهم يقولون سوف نفعل كذا ثم لا يفعلون فيكون المعنى هنا مثل قوله تعالى: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ..﴾ الآيتين [الصف:٢-٣].

والأرجح: أنهم يجمعون الوصفين فيقولون ما لم يفعلوه وما لن يفعلوه، وهذا من الفرق بينهم وبين رسول الله ﷺ فهو ﷺ الصادق المصدوق المنزه عن اللغو وعن الكذب، الذي إذا قال صدق، وإذا وعد أوفى يعرفه قومه بهذا ولم يجربوا منه إلا الصدق والأمانة وكذلك هو ثابت على دعوته حكيم فيها لا يتلون ولا يغالي فالفرق بينه وبين الشعراء واضح لا يجهلونه وإن قالوا بل هو شاعر.

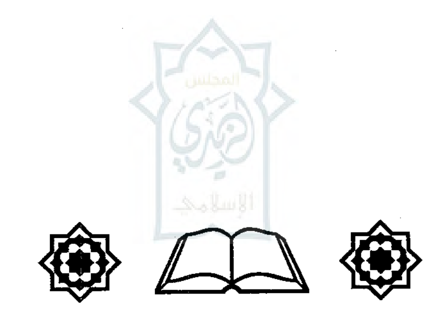
(٢٢٧) ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ وهم رسول الله ﷺ ومن آمن به وبما جاء به واتبعوه فليس من شأنهم اللغو ولا الكذب ولا خلف الوعد، ولا الغفلة والتلهي عن ذكر الله كثيراً، وهذا مما يفيد: الفرق بين رسول الله ﷺ وبين الشعراء الذين رموه بأنه منهم فاتباعهم الغاوون، واتباعه أهل الصدق والحكمة والوفاء.

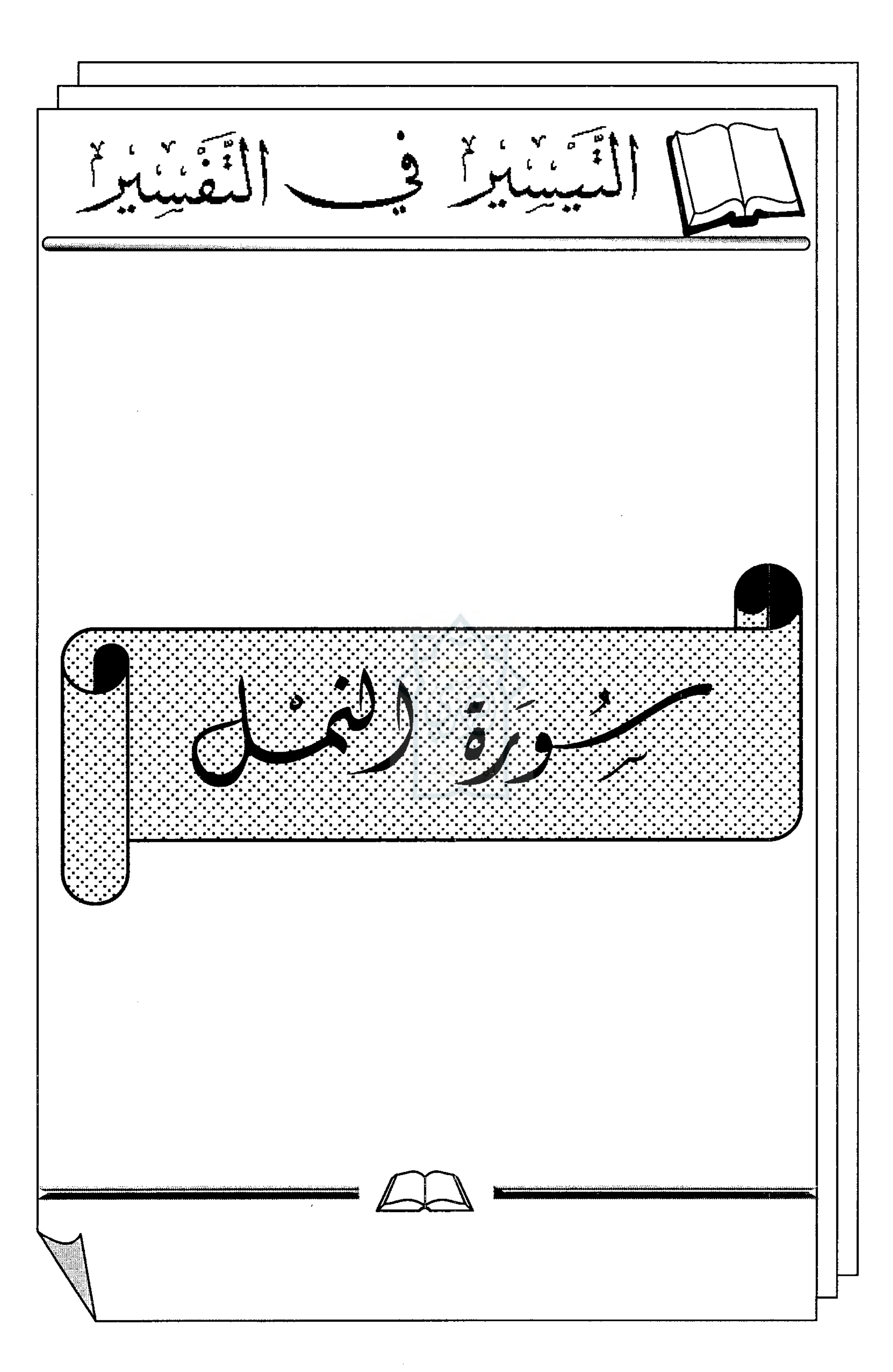
وقوله تعالى: ﴿وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ [الشورى:٣٩] إلا أن رسول الله ﷺ والمؤمنين معه قد ظلموا فناسب حالهم أن يقول: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ﴾ بدل (إذا ظلموا) وفيه وعيد لأعدائهم بمكة وحولها الذين كانوا يظلمونهم بالتكذيب والسب وبتعذيب بعضهم وبتشريد بعضهم أن المؤمنين سينتصرون منهم ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ من هؤلاء وغيرهم ﴿أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ وهؤلاء داخلون في عموم الذين ظلموا دخولاً أوّليّاً.

وهي عامة للظلمة من الكفار وممن ينتمي إلى الإسلام من حكّام الجور وغيرهم، فالكل سيعلمون مرجعهم ومصيرهم الذي هو عذاب النار نعوذ بالله من عذابه، ونسأله التوفيق، وصلى اللّه على محمد وآله وسلم، والحمد لله رب العالمين.

تم بعون الله ما كتبت من تفسير (سورة الشعراء)

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم




التيسير في التفسير
سورة النمل



سورة النمل

مرتبتها ٢٧ — آياتها ٩٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ۝١ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٣

ابتداء تفسير لـ(سورة النمل)

قال الشرفي في (المصابيح): «مكية» انتهى

۝١ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ قد مر تفسيرها في أول تفسير (سورة الفاتحة) من (الجزء الأول) ﴿طسٓ﴾ وكذلك سبق الكلام في الحروف المذكورة في أول بعض السور.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿تِلْكَ﴾ إشارة، والراجح: أنها إلى الحروف، ومعنى أنها ﴿ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ﴾ أنها مادة بنائه سواء كان مقروءاً أم مكتوباً، وقوله تعالى: ﴿مُّبِينٍ﴾ أي بين واضح المعاني للعرب لا يحتاجون إلى ترجمة له، وليس مثل الألغاز تحتاج إلى من يحلها؛ ولذلك قال تعالى: **﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا﴾** [النساء:٨٢] وغير ذلك، وقد بسطت في هذا في (تحرير الأفكار) في الرد على من زعم من المخالفين: أن السنة حاكمة على القرآن.

وتفسير ﴿مُّبِينٍ﴾ بالبين مأخوذ من لغة العرب. قال في (أساس البلاغة): «وبَان لي الشيء، وتبيّن، وبيَّن، وأَبان، واستبان» انتهى. وقال في (الصحاح): «وبان الشيء بياناً: اتضح فهو بيّن، وكذلك أبان الشيء فهو مبين» انتهى المراد، ومثله في (لسان العرب) وفي (القاموس): «وضحته وعرّفته فبان وبيّن وتبين وأبان واستبان كلها لازمة متعدية» انتهى.

﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ

هذا ويصح أن يكون ﴿مُّبِينٍ﴾ من أبان الشيءَ بمعنى بيَّنَه، ولكنه مجاز هنا؛ لأن فاعل البيان هو الله تعالى، قال تعالى:﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ..﴾ [آل عمران:١١٨] وفي عدول قوله تعالى:﴿وَكِتَابٍ﴾ عن التعريف بـ(أل) إلى تركها تعظيم للقرآن، ودلالة على أنه أنفع وأهدى ما يقرأ أو نحو هذا المعنى.

﴿٢﴾ ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿هُدًى﴾ بيان لطرق الحق والنجاة، قال تعالى:﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ..﴾ [المائدة:١٥-١٦] فأما تفسير ﴿هُدًى﴾ بأنه يهدي فهو عدول عن الحقيقة إلى المجاز، ولكنه صحيح بمعنى أنه مصدر في معنى (اسم الفاعل) وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ كله بشرى لهم بمعنى أنهم يفرحون به، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة:١٢٤] أو بشراً بمعنى مبشراً لهم بالجنة وغيرها، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء:٩] وهذا من المجاز من حيث نسبت البشرى إلى جملته وهي في بعضه.

قال الراغب: «ويقال للخبر السارِّ: البشارة، والبشرى» انتهى.

﴿٣﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ هذه صفة المؤمنين تحقق أن مَن ليس كذلك فلا يستحق اسم الإيمان كما تفيدها نظائرها من صفات المؤمنين؛ وهذه لأن المؤمن الصادق الإيمان

يبعثه يقينه بالآخرة وما فيها من الجنة للمتقين والنار للمجرمين، يبعثه يقينه بذلك على إقامة الصلاة سواء كانت الإقامة بمعنى إحيائها مثل: قامت السوق، أم بمعنى التسوية بجعلها كاملة، فكأنها بذلك سليمة من الاعوجاج، فمرجع المعنيين واحد وهو أنها كاملة في أوقاتها.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال في (البرهان): في إقامتها وجهان: أحدهما: إقامة شرائطها واستيفاء فرائضها وسننها، والثاني: المحافظة على مواقيتها» انتهى.

قلت: هما لا بد أن يجتمعا في المؤمن يحافظ على صلاته في أوقاتها ويتمها بشروطها وفروضها، ومرجع المحافظة على أوقاتها إلى إحيائها واجتناب إماتتها؛ فلذلك قلتُ: مرجع المعنيين واحد؛ لأن من ترك الصلاة في وقتها لا يوصف بإقامتها وإن قضاها؛ لأن القضاء غير الأداء فقد فوتها بتركها في وقتها وهو أبلغ ممن جعلها عوجاء في وقتها؛ ولذلك فتسويتها تستلزم فعلها في وقتها، هذا والراجح في إقامتها هو إحياؤها من قامت السوق؛ لأن الإقامة بالمعنى الثاني إنما هي حقيقة في الأعيان فيما كان أعوج فسوّي بعد العِوَج أو أقيم بعد السقوط أو القعود، مثل: ﴿يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ﴾ [الكهف:٧٧].

فأما ما جعل قيماً من أول تحصيله فلا يقال أقامه، إنما يقال: سوّاه، فكذلك في المجاز، والصلاة لا توجد عوجاء وتصير بعد ذلك قابلة للتعديل والتسوية بل تذهب إلى غير رجعة، فظهر أن إقامة الصلاة هي إحياؤها بجعلها كاملة بشروطها وفروضها في أوقاتها كما أمر الله.

(٤-٥) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ * أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ الإيمان بالآخرة

يستدعي الإعداد لها؛ فلذلك لا يزال المؤمن خائفاً وإن خادعته الغفلة والأمل في الحياة، فهو يدافع الغفلة ويدافع الأمل ويفيق تارة ويغفل أخرى لا يستمر على الغفلة؛ لأن الخوف في قلبه يطالبه بالإنتباه والإستعداد.

وعلى هذا: ينبغي لمن لا يحذر الآخرة أن يعلم أنه غير مؤمن بها وإن أقر بها ومن البعيد أن يدعي الإيمان بها، فما أسوأ حال كثير من الناس قد رفضوا التمسك بالدين وتفرغوا للدنيا لا غير وإن قاموا ببعض أعمال الدين فهو فرار من أن يقول الناس فيهم وجري على العادة؛ ولذا لا يقبلون من الدين شيئاً غير ما اعتادوه وإن دعاهم إليه القرآن، وعلى هذا فهم داخلون في هذه الآية الكريمة: ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي فهم يسيرون في تصرفهم سير الأعمى الذي لا يهتدي للطريق ولا يقوده قائد؛ لأن بصائرهم قد عميت نعوذ بالله، وهذا معنى ﴿يَعْمَهُونَ﴾ وتزيين أعمالهم أنها قد صارت كما يحبون ويهوون في حال أن غرضهم هو ما تهواه أنفسهم، فالدنيا تشغلهم بأعمالها ومطالبها لا يتفرغون للدين أصلاً في حال أن ذلك هو الذي تهواه أنفسهم قد تزين لهم؛ لأنه لا مطلب لهم في غيره وكيف يطلبون الثواب وهم غير مؤمنين بالآخرة أو يعملون للنجاة من النار وهم غير مؤمنين بالآخرة بل هم عنها غافلون؛ لأن تصديقهم بها لم يبلغ درجة الإيمان فلا مطلب لهم إلا الدنيا، هذا فأما نسبة التزيين إلى الله فهو من المتشابه وهو حق وصدق ولكن ليس بمعنى تزيين الباطل أنه من الله تعالى من حيث هو باطل، بل المزين له بهذا المعنى هو الشيطان ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ ﴿لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ﴾ [الحجر:٣٩].

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ سوءه شدّته وخزيه، نعوذ بالله، وهذه الكناية عن العذاب السيء أجمل من قول عنترة:

لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ

فتركتـه جَـزَرَ السـباع ينُشـنَه يَقْضُـمن حُسـنَ بَنَانـه والمعصـمِ

﴿وَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ قد خسروا أنفسهم وأهليهم وفاتهم كل خير وصاروا في عذاب الله خالدين، فأيّ خسارة أشد منها، وقد جرت عادة القرآن بإتباع الوَعد بالوعيد أو الوعيد بالوعد، وهذا يرجح أن معنى قوله تعالى: ﴿وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أنه يبشرهم بالجنة والفوز في الآخرة.

﴿٦﴾ ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ تُلقّى يلقى إليك القرآن فتأخذه مثل تلقّن ﴿لَّدُنْ حَكِيمٍ﴾ هو الله جل جلاله؛ ولحكمته فكلامه محكم؛ ولذلك وصف القرآن بقوله تعالى: ﴿وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ [يس:٢] وهو كله مطابق للحكمة محكمه ومتشابهه، وكل ما فيه حق وصدق لا يأتيه الباطل من جهة سهو ولا غلط؛ لأن قائله علام الغيوب الذي لا يخفى عليه شيء ولا ينسى، فوعده حق وصدق ووعيده حق وصدق، وما فيه من القصص حق وصدق، وكل ما فيه من خبر صدق، وكل ما فيه من إنشاء حق؛ لأنه كلام الحكيم العليم.

﴿٧﴾ ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ ﴿إِذْ قَالَ﴾ اذكر هذه القصة التي وقعت لموسى في مرجعه من مدين أو مسيره من مدين، ومن العجيب سفره ذلك إن كان ابتداؤه بقصد الرجوع إلى مصر بعد أن خرج منه خائفاً من القتل وفيه فرعون وقومه، إن ذلك دليل على رغبة غالبة خارقة للعادة أو دافع للخروج من مدين شديد اقترنت به الرغبة في العودة.

وقوله: ﴿إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ﴾: قال (صاحب الصحاح): «وآنسته: أبصرته» انتهى، وكذلك قال في إيناس الصوت: «سماعه» انتهى، وفي (معلقة الحارث بن حلّزة):

آنَسَت نبأة وأفزعها القنا ص عصراً وقد دنا الإمساءُ

قال في شرحها: «النبأة الصوت الخفي يسمعه الإنسان أو يتخيَّله» انتهى. وفي (أساس البلاغة): «وآنست ناراً، وآنست فزعاً، وآنست منه رشداً» انتهى. ومثله في (لسان العرب).

وهذا يترجح منه أن مفهوم آنست أبصرت أو أبصرت شيئاً خفيًّاً، ولم أجد في مفهوم آنس بمعنى أبصر اعتباراً أن يكون المبصَر مما يؤنَسُ به، فلعل الشرفي رحمه الله ذكره على طريقة التفسير للآية؛ لأن موسى عليه السلام أبصر ما يأنس به لظنه تحصيل نار لدفع البرد أو خبر عن الطريق ـ والله أعلم.

والشهاب قال فيه الراغب: «الشعلة الساطعة من النار الموقدة ..» إلخ.

وفي (الصحاح): «والشهاب شعلة نار ساطعة» انتهى.

وقوله:﴿قَبَسٍ﴾ على قراءة تنوين (قبس) يكون قبس بدل في معنى البيان، أو عطف بيان على القول بصحته في النكرة.

قال الراغب: «القبس: المتناوَل من الشعلة» انتهى، وموسى عليه السلام أراد أن يأخذ من النار ما يوصله إلى أهله ليوقَد عندهم ليدفئهم.

وقوله:﴿تَصۡطَلُونَ﴾ أي تقربون عند النار للدفئ منها، وهذا يفيد: أنهم كانوا في حاجة إلى النار من أجل البرد.

رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ

﴿٨-٩﴾ ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ فلما جاء النار التي آنسها ﴿نُودِىَ﴾ قيل له بصوت رفيع.

وقوله تعالى: ﴿أَنۢ بُورِكَ﴾ إلى آخر كلامه لموسى تفسير للندى الذي نودي به، بورك أصله دعاء بالبركة وهي ثبات الخير في الشيء ونموه، قال الشاعر:

بورك الميّت الغريب كما بو ... رك نضح الرمان والزيتون

وفي (الصحاح): «والبركة: النماء والزيادة» انتهى، وقال الراغب: «والبَرَكة: ثبوت الخير الإلهي في الشيء» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿مَن فِى ٱلنَّارِ﴾ لعلهم الملائكة الذين أوقدوا النار ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ موسى وكان محتاجاً إلى النار لدفع البرد في ذلك المحل ليبقى مدة استماعه للوحي فهي تفيده دفئاً ونوراً، فلا موجب للتأويل بأنها ليست ناراً حقيقة وإنما هي نور؛ لأن الله تعالى قد أخبر أنها نار في قوله تعالى: ﴿إِذْ رَأَىٰ نَارًا﴾ [طه:١٠] وهنا لا بد أن موسى قد خوطب بما ترجمته في العربية نار ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا﴾ [طه:١٠] أي ابقوا مكانكم منتظرين لي حتى أذهب إلى النار وأرجع .

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ أي المكلم لك الله، و(أنا) تسمى ضمير المتكلم، وأنا أرجّح أن لا ينسب إلى الله تعالى صيغة التفعّل فليس في القرآن كلمة التكلم ولا فيما صح من كلام رسول الله ﷺ بل يقال المكلم بدون (تاء) والقائل وقال ونحو ذلك لا تقل تكلم، فهذا أحوط.

لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِي تِسْعِ

وقوله: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ تعليم لموسى بعزة الله وحكمته؛ ولعله يشير إلى أن الوحي إلى موسى تابع لعزة الله وحكمته ليعرف أهمية ما يؤمر به ويستعد لطاعة ربه ـ والله أعلم ـ فأما الإبتداء قبل هذا بالتسبيح فلعله ليعلم أن كل ما يوحى إليه حق وصواب؛ لأنه منزه عن كل نقص وكل عيب أو لتنزهه سبحانه عن الشركاء والأنداد؛ لأنه قد شاع الشرك في الأرض والله أعلم.

أما قوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ فهو مناسب ليكون مقدمة لأمره وإرساله إلى فرعون وقومه؛ ولذلك قال له موسى: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء:١٦] كما مر.

﴿١٠-١١﴾ ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ * إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ أمره أن يطرح عصاه ليجعلها معجزة تدل على أن الوحي من الله وأنه هو أرسله وهو أهون على موسى مما لو حولها حية وهي في يده كما أن تحويلها حية في ضوء النار أوضح للمعجزة وأهون على موسى مما لو كانت الظلمة باقية، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا﴾ أي العصى ﴿تَهْتَزُّ﴾ قد أحياها الله وجعلها حية تسعى.

قال في (الصحاح): «هززت الشيء فاهتزّ حركته فتحرك، يقال: هزّ الحادي الإبل هزّاً فاهتزّت هي إذا تحركت في سيرها لحُدائه» انتهى.

وقول الشاعر:

وإني لتعلوني لذكراك هزّة ... كما انتفض العصفور بلله القطر

يفيد: أن الإضطراب يسمى اهتزازاً، وقد قيد التحريك صاحب [لسان العرب] فقال: الهزّ تحريك الشيء كما تُهَزّ القناة فتضطرب انتهى المراد. ولعله إشارة إلى قول الشاعر:

كهَزّ الرديني تحت العجاج جرى في الأنابيب ثم اضطرب

فالراجح: أن الهزّ تحريك الشيء في مكانِه في جهتين أو في سيره، والإهتزاز بزيادة التاء منه ـ والله أعلم.

وقوله تعالى:﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ قال في (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام): «وهي جنس من الحيَّات» انتهى. وقال الشرفي في (المصابيح): «قال في (البرهان): والجان الحية الصغيرة سميت بذلك لاجتنانها واستتارها» انتهى. وقال في (الصحاح): «والجانّ أيضاً حية بيضاء» انتهى.

وقوله تعالى:﴿وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا﴾ أي هرب وفر؛ لأنه استوحش منها، وقوله تعالى: ﴿مُدۡبِرٗا﴾ يفيد أنه هرب وخلّف العصى وراءه ﴿وَلَمۡ يُعَقِّبۡ﴾ استمر في الفرار ولم يلتفت أو لم يرجع.

قال الشرفي في (المصابيح): «يقال: عقّب المقاتل، إذا كرّ بعد الفرار، قال:

فما عقبوا إذْ قيل هل من معقّبٍ ولا نزلوا يوم الكريهة منزلا»

انتهى.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام) معناه: «لم يرجع، وقال لم يلتفت» انتهى. وفي (الصحاح): «وتقول ولى فلان مدبراً ولم يعقب: أي لم يعطف ولم ينتظر» انتهى.

ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَقَوۡمِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ

والحاصل: أنه استمر في الفرار حتى نودي ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ ليفيده أنه رسول ويذهب خوفه بقوله: ﴿لَا تَخَفۡ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ﴾ أي عند أن أوحي إليهم لا يخاف من البقاء في ذلك الموضع؛ لأنه ليس موضع خوف بل موضع رحمة وكرامة، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ استثناء بمعنى لكن من ظلم فخاف ﴿ثُمَّ بَدَّلَ حُسۡنَۢا﴾ بالإستغفار ﴿بَعۡدَ سُوٓءٖ﴾ أي بعد ظلمه أي معصيته، وهذا يشير إلى زلته بقتل القبطي واستغفاره منها، وفيه استدراك إلى أن الخوف من المعصية أمر آخر غير الخوف من الحضور لمكان الوحي.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال بعض علماء أهل البيت عليهم السلام: أما إخوة يوسف فمعصيتهم كبيرة وكانت وهم غير أنبياء وقد اختلف في نبوتهم من بعد التوبة، وأما معصية غيرهم من الأنبياء عليهم السلام فلا تكون إلا على جهة التأويل لا التعمد فلا يجوز عليهم صلوات الله عليهم عصيان الله سبحانه. قال الشرفي: وهذا قول كثير من أئمتنا عليهم السلام وقد مر للهادي عليه السلام شيء من ذلك..» إلخ.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ تأمين لموسى لئلا يخاف العقاب على زلته المذكورة، فهي له زيادة على تأمينه من الحية.

﴿١٢﴾ ﴿وَأَدۡخِلۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖۖ فِي تِسۡعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَقَوۡمِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾ ﴿فِي جَيۡبِكَ﴾ الجيب للقميص مدخل رأس لابسه وهو في لغتنا الفِقرة.

ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ عِلۡمٗاۖ وَقَالَا ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّنۡ عِبَادِهِ

وفي (معلقة طَرَفة بن العبد):

رحيب قطاب الجيب منها رفيقة بجسّ الندامَى بضّةُ المتجرّدِ

قال شارحها: «قِطاب الجيب: مخرج الرأس منه» انتهى.

﴿تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ﴾ تخرج يدك بيضاء ﴿مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ﴾ ليس بياضها برصاً ولا غيره مما هو عيب في الجسد بل هو بياض جميل ﴿فِي تِسۡعِ ءَايَٰتٍ﴾ هاتان الآيتان انقلاب العصى حية، وخروج اليد من الجيب بيضاء من غير سوء هما في جملة تسع آيات أرسلك بها إلى فرعون وقومه، ولعل التسع هاتان الآيتان وصرفهم عن قتله الذي عبّر عنه بقوله: ﴿وَإِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمۡ أَن تَرۡجُمُونِ﴾ [الدخان:٢٠] والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، وتلقف العصى لسحر السحرة ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾ فهم محتاجون إلى نذير ينذرهم، ويخلص بني إسرائيل من ظلمهم، والقصة هنا موجزة.

﴿١٣-١٤﴾ ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ * وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ ﴿ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ﴾ نيّرة لأهل البصائر فهي تبصّرهم إن قبلوها ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا﴾ أي بالآيات التي جاءتهم، فزعموا أنها سحر ﴿وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ﴾ تيقّنت أنفسهم أنها آيات تدل على صدق موسى، ولكنهم كتموا هذا اليقين وأخفوه في أنفسهم ﴿ظُلۡمٗا﴾ حيفاً وجوراً ومخالفة للعدل والإنصاف ﴿وَعُلُوّٗا﴾ ترفعاً واستكباراً عن الإيمان بها ﴿فَٱنظُرۡ﴾ يا رسول الله ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ أي فرعون وقومه الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد، فقد عرفت كيف كانت عاقبتهم أنا أغرقناهم أجمعين جزاء عاجلاً على إفسادهم فهلكوا وهم على ظلمهم، فهذا الجزاء عجّلهم إلى النار.

ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ

﴿١٥﴾ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿عِلْمًا﴾ أي خصصناهما بعلم فضلناهما به، فهو علم نافع؛ ولعل منه علم داوود بصناعة الدروع وتقدير سرد حِلَقها وتعليمه الحكمة وفصل الخطاب، وسليمان الحكم ومنطق الطير وغير الطير مع علمه بالحكمة الدينية كأبيه فهما مشتركان في علمه.

﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي فضلناهما على كثير من عبادنا المؤمنين بالعلم وغيره، فقالا الحمد لله أي فشكرا النعمة التي فضلا بها؛ وخصّا المؤمنين لأن نعمة المؤمنين كلهم أفضل مما متع الله به الكافرين وسائر المجرمين مما هو فتنة لهم، وقد أنعم الله على سليمان وداود بما خصهما به وفضلهما به على كثير من عباده المؤمنين فهو نعمة كبرى.

﴿١٦﴾ ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ حدّث سليمان بنعمة الله، وأما ميراثه لأبيه فهو كميراث يحيى بن زكرياء لأبيه إلا أن ميراث داود مملكة مع زهده في الدنيا، لكنها قوة في الحق ونصر على الأعداء مع الحكم بها لهما، ففائدة ميراث سليمان لها مع زهده في الدنيا كفائدة ملك داود لها وكفائدة ما أوتي سليمان من الزيادة عليها مما يعمله الجن وما يغوصون له.. وغير ذلك.

فإن قيل: إن الملك الحقيقي هو نفس الولاية على الأمم كما مر في تفسير قول الله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ﴾ [آل عمران:٢٦]؟ *فالجواب*: أن إيتاء الولاية المذكورة يكون بالحكم من الله بها، كإيتاء طالوت الملك،

لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا

ويكون بالحكم والتمكين في الأرض الذي به ينفذ الأمر والنهي ويقوم الجهاد في سبيل الله بالمال والجيوش المطيعة والسلاح، فكل ذلك من إيتاء الملك فلا تعارض بين ما هنا وما مر.

وأما تعليمه منطق الطير فهو تعليمه معنى ما تعبر به من أصواتها عما تريد من المعاني التي تقدر على التعبير عنها مثل منطق الهدهد الذي تأتي ترجمته في هذه السورة.

وقوله:﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ فهو يعني كل شيء من الأشياء المحتاج إليها في الملك والتي بها تمكينه في الأرض وقهره لأعداء الله كما قال الهدهد: ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾.

وقوله:﴿إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾: أي البين الواضح وهو الفضل في النعم، وهذا من التحدث بنعمة الله ومن الدعوة إلى طاعته.

﴿١٧﴾ ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ ﴿وَحُشِرَ﴾ قال الراغب: «الحشر: إخراج الجماعة عن مقرهم وإزعاجهم عنه إلى الحرب ونحوها» انتهى.

وفي (الصحاح): «وحشرت الناس احشِرهم واحشُرهم حَشراً جمعتهم ومنه يوم الحشر» انتهى. ومثله في (القاموس).

فالأولى أن الحشر يستعمل بالمعنيين، وتفسير الآية بجمعهم لسليمان أظهر لتفريع: فهم يوزعون عليه، أي يُنَظَّمون حتى لا يضر بعضهم بعضاً بسبب الإزدحام، والوزع: المنع، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام) ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾: «معناه: يُدفَعون ويجبئون» انتهى.

يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ

كذا في (المطبوعة) ولعل الصواب: (ويحثون) والنسخ المخطوطة كثير منها يقل فيه العجم أي النقط فضلاً عن الإعراب وكذلك تحذف الهمزة حيث تثبت؛ فلذا زيدت في المطبوعة لظنهم أنها يجيئون.

والصواب: يحثون أي ليجتمعوا يحث المتأخر ليلحق الجند ويدفع المتقدم عن التقدم ليبقى مع الجند.

وفي (مصابيح الشرفي): «قال في (البرهان): ﴿يُوزَعُونَ﴾ يعني: يردّ أولهم إلى آخرهم مأخوذ من وَزَعَه عن الظلم أي كَفَّه عنه، وقيل: لا بد لله من وَزَعَةٍ يعني ممن يمنع الناس، ومنه قول النابغة:

على حين عاتبتُ المشيب على الصِّبا ... فقلت ألَمَّا تصحُ والشيبُ وازع»

انتهى.

كتبته على الصواب، والذي أحفظه «ألما أصحُ» كما في (مغني اللبيب) والذي في (المصابيح) فيه بعض تصحيف من الناسخ وفي (مغني اللبيب). وقلت: ولعل الصواب ما في (المصابيح)؛ لأنه كالتفسير لعَاتبت، والحاصل: أن حشر جنود سليمان له جمعهم له.

﴿١٨﴾ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟﴾ حشروا لسليمان حتى إذا أتوا، فحتى غاية لحشرهم، والأقرب هنا: أنه الحشر بمعنى الإخراج، كقوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا**﴾ [الحشر:٢].

وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ

وعلى هذا: فسليمان وجنوده في الأرض ليسوا في الهواء؛ لأنه الأصل وليس في الآية دليل أنهم ركبوا البساط وحملتهم الريح في هذه المرة، وهو أظهر للناس ليروا كثرتهم حين يرونهم في الأرض، فالمعنى أخرج جنده ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ﴾ أي بلغوا حول واد النمل من جهة أعلى الوادي ولا يجب أنهم فوقهم في الهواء؛ لأن الله تعالى قال في (الأحزاب): ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ [آية:١٠] وهم حول (المدينة المنورة) في الأرض، فسليمان وجنوده أشرفوا على الوادي وظنت النملة أنهم يمرون منه.

﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ أي لا يكسرنكم فتهلكوا ﴿سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي لا يعلمون أنهم يحطمونكم لصغركم في الأرض وعدم تأملهم، وهذا يفيد أنها عرفت عدل سليمان وأنهم لا يتعمدون حطم النمل لعدالتهم.

﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ﴿١٩﴾ ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا﴾ ضحك ولم يقهقه بل أبدى أسنانه من الضحك، وهذا أدب كريم وهو من إقلال الضحك، وسبب هذا الضحك سروره بكلامها حيث عرفت عدله ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ﴾ ويحتمل: أنه عليه السلام تعجب من قولها، من حيث بادرت بنداء النمل مما يدل على عنايتها بمجتمعها.

مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ

وقال الشرفي في (المصابيح): «قال في (البرهان): يعني: تبسم من حذرها بالمبادرة واستبقائها للنمل فوقف سليمان بجنوده حتى دخل النمل مساكنه» انتهى. والأول أرجح لعطف قوله: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ﴾؛ لأن نعمة الهدى للعدل أعظم النعم وهو عليه السلام مظنّة أن يلاحظ ذلك قبل غيره.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام): «معناه: سدّدني للشكر» انتهى، وقد مر قوله تعالى: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ بمعنى: يكفّون عن التقدم إذا كان الحشر بمعنى الجمع وبمعنى يكفون عن الإضرار بسبب كثرتهم وازدحامهم فلا يضر بعضهم بعضاً ولا يضرون ما مروا عليه إذا كان الحشر الإخراج، وتفسير يوزعون بالتسديد هو المناسب لمعنى الوَزع أي الكف والمنع؛ لأن التسديد يستلزم أن يزع نفسه عن الميل عن الحق والصواب، وهنا يزع نفسه عن الميل عن الشكر إلى الكفر وعن العمل الصالح إلى السّيئ .

وفي قوله: ﴿ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ دلالة أن النعمة على الوالدين توجب على الولد شكرها إما لأنه برّ للوالدين وإما لأن الإحسان إليهما إحسان إليه من حيث أنه غرض له، والإنسان يعرف هذا في الإحسان إلى الولد فيعتبره الوالد إحساناً إليه نفسه. وقوله: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي اجعلني منهم في الآخرة.

﴿٢٠-٢١﴾ ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ * لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ﴾ نظر إليها ليعرف حالها أو إن كان شيء منها فقد أو لئلا يفقد ﴿مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾ سؤال لمن حوله جرى فيه على الحكمة

وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَـٰبِى

والعدالة حيث لم يكن أول سؤاله ما للهدهد قد غاب ثم قال: ﴿أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾ إضراب عن السؤال الأول إلى سؤال أهو كان من الغائبين دخل في جملة الغائبين وصار منهم من وقت سابق قبل انتباهي لغيابه ثم فرع على غيابه المفروض المقدر من دون أن يجزم به.

﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ كنتف ريشه الذي يقيه الحر والبرد أو غيره من أنواع العذاب، فالكلام مطلق ليس فيه تعيين عذاب ﴿أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ﴾ وهذا لأنه عليه السلام مخير بحكم الله تعالى: ﴿هَـٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [ص:٣٩].

وفائدة هذا الكلام: تخويف من سمع لئلا يخالف أمره؛ لأن الملك لا يستقيم إلا بالخوف من معصية الملك.

وقوله: ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ﴾ بحجة تدل على براءته من المخالفة الموجبة له العقوبة وتسلُّطه على ما صنع.

﴿٢٢-٢٦﴾ ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ * إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا

عَرۡشٌ عَظِيمٞ * وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ * أَلَّا يَسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ * ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ۩﴾ ﴿فَمَكَثَ غَيۡرَ بَعِيدٖ﴾ السياق في الهدهد فالضمير له أو لسليمان إلا أنه يترجح جعل الضمير للهدهد لئلا تختلف الضمائر؛ لأن الضمير فاعل قال هو للهدهد وعلى كون فاعل مكث هو ضمير الهدهد قيل في تفسيره فمكث غائباً غير بعيد أي زمناً غير بعيد أي لم تطل مدة غيابه.

والراجح عندي: ﴿فَمَكَثَ﴾ الهدهد عند سليمان ﴿غَيۡرَ بَعِيدٖ﴾ منه لوثوقه بعدله، وحرصه على تطهير الأرض من الشرك، ووثوق الهدهد بأن له عذراً نافعاً فلم يبعد عن سليمان بعد الخائف من مبادرته قبل سماع عذره ولا وقع وقوع الخائف الذي يعجله الخوف بل مكث عند سليمان يبيّن له عذره وهو مطمئن، وهذا المعنى أنسب من حيث الترتيب بالفاء على كلام سليمان عليه السلام.

أما الغياب فهو من قبل كلامه فلا يناسب مكث مرتباً على كلام سليمان، وأيضاً إذا جعلنا مكث أي عند سليمان ناسبه ترتيب قوله تعالى: ﴿فَقَالَ أَحَطتُ﴾ إلى آخره.

أما ذكر قوله في سياق ذكر غيابه دون إشعار بحضوره فإنه يكون ترتيب قوله: ﴿فَقَالَ﴾ على غيابه وهو غير مناسب ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ﴾ أي علمت يقيناً ما لم تعلم، بدأ اعتذاره بما يلفت انتباه سليمان ويبعثه على سماع قصته، وبإفادة أن عنده خبراً بقوله: ﴿وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ﴾ ﴿مِن سَبَإِۭ﴾ من بلد بعيد هي (سبأ) مدينة في (مأرب) باليمن.

وكل هذا الكلام يدعو سليمان إلى استماع النبأ أي الخبر المهم فليقل الهدهد آمناً مطمئناً ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ﴾ وهذا خبر عجيب لأن المرأة ضعيفة فحالتها تبعد بها عن الملك ﴿وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾ حاجات الملك وتوابعه في ثروة وتمكن من تحصيل ما طلبت ﴿وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ﴾ سرير ملك تواجه الناس عليه كبير مزخرف، وهذا لا يهم سليمان إنما هو من تمام الخبر العجيب.

ولكن المهم قوله: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فالشرك عندهم دين الدولة والرعية ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ فصارت أنفسهم تهواها وتكره العدول عنها وتكره التفكير في تركها ﴿فَصَدَّهُمۡ﴾ الشيطان بذلك ﴿عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ الذي من سلك غيره تاه في غير سبيل ﴿فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ﴾ لأنهم قد تاهوا في غير سبيل لإعراضهم عن النظر والتفكير الذي يفيدهم معرفة الصواب؛ ولاتباعهم ما تهوى أنفسهم ﴿أَلَّا يَسۡجُدُواْ﴾ إما صدهم لئلا يسجدوا، وإما لا يهتدون أن يسجدوا مثل: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ﴾ [الأعراف:١٢].

﴿لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ﴾ يخرج المخبوء الذي لا يعلمه الناس أو لا يقدرون على إخراجه، والخبأ ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ يفسر بالمطر، ويحتمل: أنه الوحي بما كان من الهدى في السموات، فإخراجه إعلام البشر به ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾ مثل الكنوز وأول نبت الزرع والبترول، فالله هو الذي يهدي عباده لما كان محجوباً عنهم في السموات والأرض، فهو الذي يعلم عبادةَ من عبده ولا يخفى عليه دعاء من دعاه ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لاَ يَهِدِّي إِلاَّ أَنْ يُهْدَى﴾ [يونس:٣٥].

هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ

وكذلك الله يعلم ما يخفون وما يعلنون، فهو الذي ينبغي أن يرجى ويخشى ويدعى ويعبد دون المخلوقات كلها ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فلا الشمس ولا غيرها من المخلوقات؛ لأن الله هو رب كل شيء، والعباد عباده وحده ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ ملك الملوك الذي له الملك العظيم في الدنيا ويوم الدين، فهو الذي يستحق أن يطاع ولا يطاع غيره في معصيته.

﴿٢٧-٢٨﴾ ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ✽ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ ﴿قَالَ﴾ سليمان ﴿سَنَنظُرُ﴾ لم يعجل على تصديقه لاحتمال أنه لفق له عذراً كذباً من الخوف من سليمان، وهذا يدل على أن كلام الهدهد كلام اختياري؛ ولذلك احتمل الصدق والكذب، ولو كان الله أنطقه كما أنطق عيسى في المهد لكان ذلك معجزة من الله تدل على صدقه وإن كانت بلغة الطير فلم تكن تخفى على سليمان، لأنه قد عُلم منطق الطير فمن شأنه أن يكون عارفاً ما هو في قدرتها من الكلام وما يتهيأ لها من الفهم والعلم وما لا يكون من شأنها الذي أعدت فطرتها له حتى يفرق بين المعتاد والأمر الخارق المعجز.

﴿فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾ ارم به إليهم، وكأنه عليه السلام لم يعترف للمرأة بالملك فلم يقل إليها ﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ لا تنتظر جواباً ولا تتأخر لتنظر ما يقولون بينهم ﴿فَٱنظُرْ﴾ بعد ذلك ﴿مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ أي ماذا يرجعون إلينا وما يردون به على كتابنا ﴿يَرْجِعُونَ﴾ أي يرجعونه.

ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُواْ

﴿٢٩-٣١﴾ ﴿قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ * إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾ ﴿قَالَتۡ﴾ ملكتهم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ﴾ تعني وزراءها وأكابر قومها ﴿إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ﴾ وصفته بالكرم لما فيه من تواضع سليمان وجعله الأمر لهم باسم الله، فهو مبلغ عنه لم يذكر ملكه وقدرته عليهم في هذا الكتاب وذكر أنه يدعوهم ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فهو يدعوهم إلى رحمة الله، واكتفى بنهيهم عن العلو والتكبر عليه بدلاً من أن يأمرهم بالإنقياد له والطاعة لأوامره ﴿وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾ لله وجوهكم غير مشركين به، هذا الكتاب حمله الهدهد لأنه أوجز فيه.

﴿٣٢﴾ ﴿قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ﴾ أهمّها الكتاب؛ لأنه من سليمان فلم يكن لها بدّ من النظر فيما هو الرأي فقد دعاهم إلى الإسلام وهو أمر ثقيل عليهم ومعصية سليمان أمر ثقيل لما قد اشتهر من قوّة ملكه؛ ولذلك اكتفى بقوله: ﴿مِنۡ سُلَيۡمَانَ﴾ دون أن يذكر لها قوّته، فأرادت أن تشاور قومها، وقالت لهم:﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ﴾ أي تحضروني وتروا وتسمعوا ما أقطع وأجزم به، وهذا يفيد أنها طلبت حضورهم؛ لتقول لهم ذلك، وقولها: ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ﴾ يفيد أنها مستعدة للقطع في هذا الأمر وأنها لم تطلبهم أن يفتوها لعجزها عن الرأي والبتّ في الأمر، بل إن كان عندهم رأي أتوا به وإلا فالرأي عندها تبيّنه لهم وتقطعه بحضرتهم.

﴿نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتۡ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ

﴿٣٣﴾ ﴿قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ﴾ ﴿أُوْلُواْ قُوَّةٖ﴾ في الأبدان والعدة ﴿وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ﴾ أهل قتال شديد أي نحن أبطال مجربون للحرب، وهذا غاية التشجيع لها لتثق بقومها إن أرادت أن يقاتلوا ﴿وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ﴾ فالفتوى من عندك لا منّا ﴿فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ﴾ وما أدّى إليه نظركِ فأمرينا به، وهذا ـ أيضاً ـ تشجيع من حيث دلالته على الطاعة الكاملة بلا تردد؛ لأن القتال يحتاج فيه إلى القوة ثم إلى الشجاعة والصبر متى كانوا في المعركة ثم إلى الطاعة الكاملة فلا تخاذل ولا تواكل ولا تردد، وجوابهم هذا: الأمر إليكِ تخلص من القطع في القضية وإحالة الأمر إليها تلجئها إلى التثبت في الأمر؛ لأنها إن غلطت كانت هي المسئولة في اعتقادها، وصواب الرأي هو المقدم قبل الدخول في أمر بغير بصيرة، كما قال الشاعر:

الرأي قبل شجاعة الشجعان   هو أول وهي المحل الثاني

﴿٣٤-٣٥﴾ ﴿قَالَتۡ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ * وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ ﴿قَالَتۡ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ﴾ تشير إلى ترجيح ترك القتال في أول الأمر؛ لأن الملوك ﴿إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً﴾ أي إذا فتحوها فدخلوها ﴿أَفۡسَدُوهَا﴾ بالجيش الذي يقتل ويهدم وينهب ويفعل ما أراد لا يمتنع أهلها من ضرهم.

خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا

﴿وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾ تذكر لهم أمراً خاصاً بالملأ فهي لا تلاحظ سقوطها عن عرشها بل ما يصير إليه الملأ كلهم ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ أي سليمان وجنده إذا قاتلونا فعلوا ما هو عادة الملوك إذا دخلوا قريتنا فقد رأت رأياً يرضاه الملأ للتثبت في أمرهم؛ ولعله يكفيهم أي سليمان وقومه أن نكون لهم صديقاً لا نعارضهم ولا ننازعهم ونبقى على ما نحن عليه وهو ﴿إِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ﴾ أي فانظر ﴿بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ بالهدية من قبول للهدية ورضى أو من رد لها وسخط ثم نرى رأينا بعد ذلك.

﴿٣٦-٣٧﴾ ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ * ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ﴾ أي جاءه المال الذي أهدته الملكة، ذكّر الضمير على المعنى ﴿قَالَ﴾ سليمان لرسول أهل سبأ: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾ ينكر عليهم ويوبخهم؛ لأنه لا يريد المال إنما يريد إسلامهم وهو غني عن مالهم ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ﴾ فالذي آتاني الله من المال وغيره ﴿خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾ وهذا تحقير لهديتهم ليعرفوا أنه لا قيمة لها عنده ﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ بل ظننتم أن هديتكم تدفع عنكم وتبقيكم على شرككم فأنتم بها تفرحون، يقول هذا لرسول الهدية ليبلغ أهل سبأ.

ثم يقول له: ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ﴾ هكذا يأتي باسم الجمع لا يذكر الملكة من أول الكلام إلى آخر هذه الآية تحقيراً لها، كأنها غير معترف لها بالملك ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم﴾ أي إن أصروا ﴿بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ لا طاقة لهم بدفعها.

ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ

قال الشرفي: «أي لا طاقة لهم بها أي بمحاربتها، وحقيقة القِبَل المقاومة والمقابلة يعني لا يقدرون أن يقابلوهم» انتهى.

وقال الراغب ـ في (قِبَل) بكسر القاف وفتح الباء ـ : «ويستعار ذلك للقوة والقدرة على المقابلة أي المجاراة، فيقال: لا قِبَل لي بكذا أي لا يمكنني أن أقابله، قال: ﴿بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ أي لا طاقة لهم على استقبالها ودفاعها انتهى. وفي (الصحاح): «ومالي به قِبَل أي طاقة» انتهى.

قلتُ: لا قبل لهم بها في سياقه مثل: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ [البقرة:٢٤٩] في نفس السياق، وقوله: ﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ﴾ أي من سبأ التي هي عاصمتهم ﴿أَذِلَّةً﴾ كما قالت: ﴿وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ أي قد بطلت دولتهم وقوتهم ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ من الصَّغار بفتح الصاد فهم مع الذلة في هوان لا كرامة لهم.

قال الراغب: «والصاغر الراضي بالمنزلة الدنيَّة» انتهى. ومثله في (الصحاح) وهذا الرضى سببه الخوف من القتل أو التعذيب فيرضى الإنسان بالضيم مقابل سلامته.

﴿٣٨﴾ ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾

نبي الله سليمان لعله جاءه الوحي بأن ملكة سبأ وقومها يسلمون، وبناء على أنهم يأتونه مسلمين أي ليسلموا قال لملائه: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا﴾ الذي وصفه له الهدهد وأراد عليه السلام أن يكون سبقه أي العرش لها آية تدل على أنه رسول من الله من حيث أنه أمر خارق بالنسبة إلى البشر وبالنسبة إلى الجن؛ لأنهم لا يتمكنون من مثل ذلك إلا بأمر خارق أي تخلية خارقة للعادة.

﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ (٤٠)

---

(٣٩) ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾ قال الشرفي: «والعفريت: هو المارد القوي» وقال الراغب: «هو العارم الخبيث» انتهى.

وفي (الصحاح): «قال أبو عبيدة: العفريت من كل شيء المُبَالغ، يقال: فلان عفريت نفريت» انتهى المراد؛ فلعل الراغب بنى على أنه المبالغ في طريقة الشياطين.

وقوله: ﴿قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ قال الشرفي: «أي من مجلسك وسمي مقاماً لإقامة صاحبه فيه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ [الدخان:٥١] وكان سليمان يجلس للقضاء من غدوه إلى نصف النهار» انتهى المراد، والقرينة قوله:﴿تَقُومَ﴾.

فظهر: أن قوله:﴿مِن مَّقَامِكَ﴾ أي من المكان الذي أنت فيه مقيم.

(٤٠) ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ هذا القائل لا بد أنه من جند سليمان من الملأ الذين قال لهم سليمان: ﴿أَيُّكُمْ﴾ وعمدة هذا القائل هي علمه وليس علمه قدرة على المجيء بالعرش، فقيل: كان يعلم (الإسم الأعظم).

وهذا بعيد؛ لأنه قال: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ﴾ ولو كان إنما يدعو الله أن يأتي بالعرش فيستجيب له لكان الله هو الذي يأتي بالعرش، فكان الجواب الصحيح إنما يأتي به الله، وأيضاً الدعاء يحتاج إلى وقت والإجابة بعد الدعاء وذلك يستوعب المدة المضروبة للإتيان بالعرش قبل أن يرتد إليك طرفك فظهر أنه غير ذلك، وأنه ربما كانت لديهم علوم عظيمة يستطيع الإنسان بواسطتها أن يحقق كثيراً من الأمور التي لا يقدر على تحقيقها بقدرته الطبيعية.

وهذا الفارق بينه وبين العفريت أن العفريت إنما قال نظراً إلى قوته واعتقاده أنه يقدر عليه بقوّته الطبيعية فليس كمن قال ذلك لعلمه الحاصل له من الكتاب والله أعلم.

أما قوله: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَ﴾ فمعناه إذا نظرت إلى جهته أو جهة (سبأ) أتيت به قبل أن يرجع نظرك إليك بأن تغمض مثلاً بعد أن نظرت، وهذا بناء على الظاهر؛ لأن مجرد الإستبعاد لا يوجب التأويل للقرآن.

﴿فَلَمَّا رَءَاهُ﴾ أي سليمان عليه السلام رأى العرش عنده ﴿مُسۡتَقِرًّا﴾ غير متحرك لأثر نقله من سبأ إلى القدس ﴿قَالَ﴾ سليمان عليه السلام ﴿هَٰذَا﴾ أي التمكين للملك إلى هذا الحد ﴿مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُ﴾ أي إنه من الله اختبار ليتبين به ءأشكر الله عليه أم أكفر نعمة الله فيه، وهكذا كل خير دنيوي فهو ابتلاء أي اختبار، كما قال تعالى: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِالشَّرِّ وَالۡخَيۡرِ فِتۡنَةً﴾ [الأنبياء:٣٥] ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦ﴾ نفع الشكر لنفسه؛ لأن الله غني عنه ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيّٞ﴾ أي عن شكره أو عن كل شيء من شكره وغيره ﴿كَرِيمٞ﴾ يستحق الحمد والشكر ولو لم يشكره أحد.

قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى

﴿٤١﴾ ﴿قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾

﴿نَكِّرُواْ لَهَا﴾ غيّروا بعض التغيير في العرش بحيث يمكنها إنكار أنه عرشها كما يمكنها الإيمان أنه عرشها باختيارها.

وهذه فائدة التنكير لتؤمن بهذه الآية العظيمة مختارة لا مضطرة ﴿نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ﴾ بأن تؤمن أنه سريرها جاء بأمر خارق من حيث أنه على يد نبي الله ﴿أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ فتأبى الإيمان أنه سريرها.

﴿٤٢-٤٣﴾ ﴿فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ * وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ ﴿أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ﴾ على هذا الشكل والعظم والزينة.

﴿قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ نظرت إلى ما فيه من التغيير فسوّغ لها نفي أنه سريرها ودعوى أنه مثله، واتبعت في هذا هوى نفسها ﴿وَصَدَّهَا﴾ عن الإيمان بأنه عرشها ﴿مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي حب ما كانت تعبد، فكرهت المسارعة إلى الإيمان ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ بما جاءت به الرسل من التوحيد، فبقي أثر الكفر في قلبها وبعّدها عن الإيمان.

وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ

﴿٤٤﴾ ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿قِيلَ لَهَا﴾ بعد أن رأت عرشها وسئلت عنه وأجابت، وهذا يفيد أنها كانت خارج الصرح الذي فيه سليمان، وكان القائل لها: ﴿أَهَكَذَا عَرْشُكِ﴾ غير سليمان، و كذلك كان القائل لها ﴿ادْخُلِي الصَّرْحَ﴾ غيره.

قال في (الصحاح): «الصرح: القصر، وكل بناء عال» انتهى. وقال في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: القصر» انتهى.

﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ﴾ قبل أن تدخل ﴿حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾ ماء كثيراً، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: ماء» انتهى. وفي (الصحاح): «ولُجّة الماء - بالضم - معظمه، وكذلك اللجّ» انتهى.

﴿وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾ لـئلا تبتل ثيابها ﴿قَالَ﴾ سليمان ﴿إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾ صرح من قوارير أي من زجاج، قال الراغب: «ممرد: أي مملس من قولهم: شجرة مرداء، إذا لم يكن عليها ورق، وكأن الممرّد إشارة إلى قول الشاعر:

في مجدل شيّد بنيانه يَزلّ عنه ظُفُر الطائرِ»

انتهى.

وهذا القصر لا بد أن الزجاج كان يصب صباً فيجمد ومع ذلك لا يظهر فيه أثر سيلان الزجاج في خارج البناء، وكذلك ساحة هذا القصر فهو شيء غريب.

تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ

وكذلك كثرة الزجاج إلى هذا الحد، ولم يكن في ذلك الزمان يعرف منه إلا القوارير، فحصوله لسليمان بهذه الكثرة وهذا الشكل خارق؛ فلذلك أسلمت عند أن رأت هذه الآية وعظم شأنها بإسلامها، فذكر إسلامها دون ذكر إسلام قومها لأنهم تبع لها؛ ولعل سبب ذكر إسلامها أنه بعد النظر في الآية ليس لمجرد غرض سياسي، أما قومها فهم تبع لها؛ ولعل إسلامهم لمجرد التبعية فلم يذكر في القرآن.

﴿٤٥﴾ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ آمنت من ثمود طائفة وكفرت طائفة أو أسلمت طائفة وكفرت طائفة، وقوله تعالى: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ تفسير لما أرسل تعالى به صالحاً، أي اعبدوا الله وحده، واختصموا لتعصب الكفار ضد الرسول والمؤمنين أو المسلمين كما هي عادتهم.

﴿٤٦﴾ ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ﴿قَالَ﴾ رسولهم للكفار من قومه ﴿يَا قَوْمِ﴾ رفقاً بهم وتذكيراً بأنهم قومه ﴿لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ حيث قمتم ضد من أسلم وضد رسولكم قبل أن تنظروا وتفكروا فيما جاء به من دليل صدقه لتؤمنوا به إن كان صادقاً، ويترجح عندي أنه قد جاء بينة تدل على صدقه قبل الناقة، وإنما الناقة فتنة لهم لتمردهم، والوجه في هذا: قوله: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ [هود:٢٨] وقوله تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ﴾ [القمر:٢٧] وذُكِرت الناقة؛ لكونها سبب هلاكهم وليعتبر بها من بعدهم،

أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُواْ

كما يفيده قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَنْ كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾ [الإسراء:٥٩] ولعل الناقة كان ذكرها باقياً قبل نبيئنا ﷺ فالتذكير بها مناسب جداً.

وقول رسولهم: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ غاية الرفق مع بيان حاجتهم إلى الإستعجال بالحسنة؛ لأنهم بالشرك وغيره قد تعرضوا لغضب الله فهم على خطر عظيم وفي أمس الحاجة لطلب المغفرة والرحمة قبل أن ينزل بهم عذاب يعجلهم إلى النار.

﴿٤٧﴾ ﴿قَالُواْ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ ﴿ٱطَّيَّرْنَا بِكَ﴾ تشاءمنا بك وتنحّسنا فأرادوا أن يكف عن إنذارهم؛ ولعل سبب التشاؤم أن نوحاً وهوداً هلك قومهما فجعلوا السبب وجود الرسول إليهم؛ لأنهم قوم يفتنون بالتغرير والدعاية الكاذبة يفتنهم الشيطان وكبراؤهم، ولو فكروا لعرفوا أنهم إنما هلكوا لمعصية الله وتمردهم وهمهم برسوليهما؛ فلذلك أجابهم رسولهم ﴿طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي شؤمكم وعذابكم عند الله فمتى شاء أنزله بكم وجعله عند الله؛ لأنهم قد استحقوه وصار تعذيبهم حقاً وصواباً في حكم الله، فعليهم أن يستغفروا الله رجاء رحمته.

﴿٤٨-٤٩﴾ ﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ * قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ ﴿رَهْطٍ﴾ أي قرابة، قال تعالى حاكياً: ﴿وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..قَالَ يَاقَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ [هود:٩١-٩٢].

قال في (الصحاح): «رهط الرجل: قومه وقبيلته، يقال: هم رهط دنية، والرهط ما دون العشرة من الرجال لا تكون فيهم امرأة» انتهى، فمفهوم الرهط ليس العدد وإنما العدد شرط أي لا يقال: رهط للقرابة إلا إذا كانوا دون العشرة ليس فيهم امرأة، فالتسعة المذكورون في الآية الكريمة متقاربون بينهم فهم عصبة. قال الراغب: «الرهط العصابة» انتهى. وفي (لسان العرب): «رهط الرجل: قومه وقبيلته» انتهى.

وإنما خصصت الرهط هنا بأنهم قرابة؛ لأنهم قد خصهم الله تعالى بأنهم رهط مع أن الكل قوم صالح، فكلهم رهط بالمعنى العام لكل واحد منهم فظهر أن الرهط هنا أخص كما في رهط شعيب عليه السلام المذكور في (سورة هود) وقد أفاده (صاحب الصحاح) حيث قال: «يقال: هم رهط دنية، أي قريبة».

﴿يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ عادتهم أن يفسدوا في الأرض من قبل تآمرهم على رسولهم، وهكذا المعاصي تورط أهلها المعتادين لها ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ﴾ قال بعضهم لبعض وهم يدبرون لهذا الفساد الأخير ﴿تَقَاسَمُوا﴾ أي ليحلف كل منا ﴿بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ أي لنبيتنه أي ليهجمن لنقتله في الليل وأهله.

قال الشرفي: «والبيات: القتال في الليل، وقال الراغب: والبيات والتبييت قصد العدوّ ليلاً» انتهى. فجعل البيات الهجوم على العدوّ، وفي (الصحاح): «وبيّت العدوَّ: أي أوقع بهم ليلاً والاسم البيات» انتهى.

﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ ثم بعد أن نقتله فيطلب وليه أي قريبه كابن عمه بدمه نقول له: ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ﴾ أي نجحد بذلك قتله وقتل أهله.

مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا

قال الشرفي في (المصابيح): «والضمير لوليه» انتهى، يعني نقول لوليه: ما شهدنا مهلك أهلك أي أهل وليه، قال الراغب: «الشهود والشهادة: الحضور مع المشاهدة إما بالبصر أو بالبصيرة» انتهى.

وقولهم: ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ من مقول القول لوليه تأكيد للجحد، فحاصل المعنى: نقول لولي صالح ما حضرنا قتل أهلك، سواء كان هذا كناية عن جحد قتل صالح وأهله من حيث نفي الحضور وإن كان كذباً أو كان كناية عن الجحد من حيث نفي الحضور مع المشاهدة؛ لأنهم كانوا في ظلمة الليل لا يشاهدونهم بالبصر على معنى أنهم احتالوا للجحد من دون أن يكذبوا، ولا حاجة إلى هذا في التفسير إلا إذا جعلنا قولهم: ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ حالاً من فاعل ﴿لَنَقُولَنَّ﴾ لا من مقول القول، لكن كونه من مقول القول أظهر، فقد اتكلوا في دفع وليه على جحد القتل وأن وليه لا يجد بينة على القاتل لكونه بيتهم والناس نيام.

﴿٥٠-٥٢﴾ ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ * فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿وَمَكَرُوا﴾ بتدبيرهم لقتل صالح وأهله، ولا بد أنه كان يوم عقروا الناقة بل بعده ﴿وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾ شديداً عليهم؛ لأنه تعجيلهم إلى النار فهو تدبير شقوتهم المؤبّدة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ لجهلهم وكفرهم.

وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ

﴿فَٱنظُرْ﴾ أيها السامع، أو يا رسول الله والمراد لأجل غيره من كفار قريش ومن حولهم؛ لأن في قوم صالح عبرة لهم، وقراءة ﴿إنا دَمَّرْنَٰهُمْ﴾ بكسر (الهمزة) على استئناف بيان عاقبة مكرهم، أما قراءة ﴿أَنَّا﴾ بفتح (الهمزة) فالجملة خبر كان أي فانظر كيف كان عاقبة مكرهم تدميرهم، وقوله تعالى: ﴿وَقَوْمَهُمْ﴾ أي دمرنا التسعة الرهط وقومهم لاشتراكهم في السبب الذي هو المكر المذكور، أما مشاركة قومهم فبالرضى، أو بالأمر والرضى.

﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً﴾ بيان لأثر تدميرهم ليعتبر بهم، ومعنى ﴿خَاوِيَةً﴾ خراب، وقوله تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ﴾ يفيد أن بقايا الخراب باقية يشاهدها من مر عليها في وقت نزول القرآن ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي هلاك الكفار بسبب كفرهم وعدوانهم ﴿لَأَيَةً﴾ تدل على أن الله عليهم قدير وأنه يمهل ولا يهمل، بل يجازي الظالمين، فكذلك يجازيهم في الآخرة، وقوله تعالى: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ لأنهم الذين يتدبرون الآيات ويعلمون ما تدل عليه؛ لأنهم من شأنهم أن يعلموا ما علّمهم الله.

﴿٥٣﴾ ﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ ﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ من قوم صالح ﴿وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ الله بطاعته أنجاهم الله من عذاب قومهم.

﴿٥٤-٥٥﴾ ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۞ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ ﴿وَلُوطًا﴾ أرسلناه ﴿إِذْ قَالَ﴾ اذكر قصته ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ منكراً عليهم

لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ

وموبخاً لهم بما لم يستطيعوا إنكار قبحه ولا دعوى حسنه ﴿أَتَأْتُونَ﴾ سؤال توبيخ ﴿الْفَاحِشَةَ﴾ الفعلة القبيحة الفاحشة في قبحها ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ والمبصر يميّز بين الذكر والأنثى فلا يجامع الذكر غلطاً، فكأنه أراد أنهم يتعمدون الفاحشة، أو أراد وأنتم تبصرون الذكر والأنثى فتميزون بين ما هو صالح للجماع وما هو غير صالح.

ثم كرّر التوبيخ؛ ليفسر الفاحشة ما هي؟ ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً﴾ أي لأجل الشهوة تبعثكم على إتيانهم ﴿مِّن دُونِ النِّسَاءِ﴾ التي خلقها الله وأعدها للجماع، فتأتون ما لا يصلح بل إتيانه الفاحشة، وتذرون ما يصلح ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ قوم عادتكم الجهالة والسفاهة بهذه الفاحشة وبغيرها.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ ﴿٥٦﴾ ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ بذكر مبرّر أو دعوى عذر بل إنما قالوا ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ﴾ فهنا حصر وقصر لكنه إضافي بالإضافة إلى أنهم لم يجيبوا بجواب مخلص من سبب التوبيخ والإنكار عليهم، فلا ينافي هذا الحصر أنهم أجابوا مع هذا الجواب بقولهم: ﴿ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [العنكبوت:٢٩] ونظير هذا الحصر قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ [الأنعام:١٦٤] أي لا على غيرها فلا ينافي أنها تكسب بعض الأنفس لها عملاً صالحاً ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ﴾ أي لوطاً وأولاده ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ أي لأنهم أناس يتنزهون من قذارة اللواط فيجتنبون قذرها، أو يتطهرون من القبائح، وهذا استهزاء منهم وسخرية بآل لوط حيث يجرّون على أنفسهم بالتطهر المصيبة الكبرى التي هي إخراجهم من قريتهم.

﴿٥٨﴾ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ

﴿٥٧﴾ ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ أي لوطاً ﴿وَأَهْلَهُۥٓ﴾ أنجيناهم ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا﴾ كتبناها وحكمنا عليها بأن تهلك مع قومها ﴿ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ وقد مر الكلام في معنى ﴿ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ في تفسير (سورة الشعراء) فراجعه.

﴿٥٨﴾ ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم﴾ على قوم لوط ﴿مَّطَرًا﴾ مطراً مخصوصاً هو رميهم بالحجارة ﴿فَسَآءَ﴾ فما أسوأ ﴿مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ الذين أنذر رسولهم فكذبوه، ففيهم عبرة للمنذرين الذين أنذرهم رسول الله محمد ﷺ وكذلك في ثمود قوم صالح.

﴿٥٩﴾ ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الذي أنعم على عباده بالرسل المبشرين المنذرين ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ أي اصطفاهم واختارهم للرسالة إلى قومهم فبلغوا الرسالة وأقاموا الحجة على قومهم وصبروا على المشاق في سبيل الله والمشاق اللاحقة بهم تبعاً لإبلاغ الرسالة وإقامة الحجة.

والخطاب بقوله: ﴿قُلِ﴾ لرسول الله محمد ﷺ وبقية هذه الآية من مقول القول وما بعدها إلى آخر الإحتجاج على المشركين بقوله مبلغاً عن الله تعالى ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ﴾ الهمزة للسؤال يسأل المشركين وهم يعلمون أن الله خير بيده الخير ومنه الخير، فقوله: ﴿أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وهم يعلمون أنه لا يقاس بالله شيء من خلقه ولكن تعصبوا للباطل، ولكنهم لا يستطيعون أن يقولوا بل ما نشرك خير، ولو قالوا لكانوا عالمين بأنهم كاذبين، فما أوضح هذه الحجة!

مَآءً فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ

﴿٦٠﴾ ﴿أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ﴾ ﴿أَمَّنۡ﴾ سؤال وإضراب إلى الإنكار على المشركين الذين جعلوا لله أنداداً بل أمَن ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ جعلتم له أنداداً لا يخلقون شيئاً ولا يملكون نفعاً ولا ضراً جعلتموهم أنداداً لمن خلق السموات والأرض ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ﴾ وقال ﴿فَأَنۢبَتۡنَا﴾؛ لأنه أوضح في الدلالة على أن المراد فأنبت الله، ولو قال: فأنبت لاحتمل الكلام أن الضمير الذي هو فاعل أنبت عائد على المطر وهو وإن صح بمعنى لكن ليس المراد هنا بل المراد بيان أن الله أنبت لعباده بالمطر نعمة عليهم ﴿حَدَآئِقَ﴾ بساتين فيها الأشجار النافعة كالنخل والعنب.

قال (صاحب القاموس): «والحديقة: الروضة ذات الشجر أي جمعها حدائق أو البستان من النخل والشجر أو كل [أعرب كل بالرفع، ولعل الصواب الجر عطفاً على النخل ليكون وصفاً للبستان تمت مؤلف] ما أحاط به البناء أو القطعة من النخل» انتهى.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «﴿فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ﴾ معناه: جنات واحد[تها] حديقة وذات بهجة ذات حُسْن ويراد بها النخل» انتهى.

وفي (الصحاح): «والحديقة: الروضة ذات الشجر، وقال تعالى: ﴿وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا﴾ [عبس:٣٠] ويقال: الحديقة كل بستان عليه حائط» انتهى، وفي (القاموس): «البهجة: الحسن» انتهى.

خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ

﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ﴾ ما صح ولا استقام أن تنبتـوا، أي ليس من شأنكم كما نقول: لا يتصور منكم أن تنبتوا شجرها؛ لأنـه لـيس في قدرة المخلوقين وإنما يقدرون على التسبيب بالبـذر أو الغـرس مـع السـقي بالماء إن حصل الماء ولا يحصله إلا الله تعالى، أما شركاء المشركين فلم يخلقـوا سموات ولا أرضاً ولا شيئاً ولم ينـزلوا من السماء ماء ولم ينبتوا شجراً.

وقوله تعالى:﴿فَأَنۢبَتۡنَا﴾ عدل بـه عـن ضـمير الغيبـة؛ لأن الحـاكي للفـظ الغيبة فيما قبله هو الفاعل فناسب ذلك العدول عـن ضـمير الغائـب كقـول امرئ القيس:

جاءت لتصرعني فقلت لها اقصري إنـي امـرؤ صـرعي عليـكِ حـرام

فقال: صرعي عدولاً عن صرعه.

وقوله تعالى:﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ سؤال للمشـركين في معنـى النفـي بـالتوبيخ لإثبـات أنـه لا إلـه مـع الله بهـذه الحجـة ﴿بَلۡ هُمۡ﴾ أي المشـركون ﴿قَوۡمٌ يَعۡدِلُونَ﴾ عادتهم العدول عن الطريق إلى التيه.

﴿٦١﴾ ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾

﴿أَمَّن﴾ انتقال إلى احتجاج آخر في صورة الإضراب ثانياً عن قوله تعـالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ تأكيـد للإضـراب الأول ﴿جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارًا﴾ جعلها قراراً للإنسان بأن مهدها له وجعل فيها ما يعيش به من الأوكسـجين للتنفس، والماء للشرب والسقي، والطعام للإنسان وأنعامه.. وغير ذلك.

وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ

﴿وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ﴾ في بطنها ﴿أَنْهَٰرًا﴾ مجاري للماء تجري فيها حتى يبلغوا منابعه من ظهر الأرض والآبار ونحوها؛ لينتفع بـه الإنسـان ولا يتلـف عليـه في بطن الأرض ﴿وَجَعَلَ لَهَا﴾ أي للأرض ﴿رَوَٰسِىَ﴾ أي جبـالاً راسـيات في أماكنها راسـخات في الأرض لـئلا تميـد بأهلـها ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ يحجز كل واحد منهما عن البغي على الآخر وخلطه بنفسـه وهمـا حول البلد المشهور المسمى البحرين، والحاجز الـذي بينهمـا معنـوي خفـي، فهما يلتقيان ولا يختلطان، وهذه دلائل عظيمة تدل على الله تعالى وعلى أنـه قادر على كل شيء وعليم بكل شيء عز وجل عن أن يكون له ندٌّ أو عـديل ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ﴾ أي المشركين ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ لأنهم مهملون لعقـولهم لا ينظرون بها ولا يتفكرون في الآيات والدلائل المفيدة للعلم.

﴿٦٢﴾ ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿أَمَّن﴾ إضراب يؤكد الإضرابين الأولين ﴿يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ الله الذي يجيبه، أما شركاء المشركين فلا يدعونها عند الضرورة الملجئة إنما يدعون الله مثلاً إذا خافوا الغرق في البحر اضطرتهم حالتهم إلى أن يلجئوا إلى الله فيدعونه؛ ولعله خص المضطر بالذكر لأنه الذي يدعو الله من المشركين دعاء خالصاً بالله بحضور ذهن وخضوع لله؛ فلأجل تجربة المشركين في هذه الحالة ذكرهم بها ﴿وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ عن المضطر إذا دعاه ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ تعمرون وتتصرفون لحاجتكم فيها بالحرث والغرس واستخراج ما أودع لكم فيها من النعم لما لا يتهيأ لكم إلا مع العافية والسلامة من حالة الإضطرار لكشف السوء.

ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ

﴿أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ سؤال للمشركين بعد إقامة الحجة على أنه لا إله إلا الله الذي يجيب المضطر إذا دعاه؛ لأن شركاءهم لا تنفع ولا تضر ولا تسمع ولا تبصر، فسؤالهم تبكيت لهم وتوبيخ، وقوله تعالى:﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ لأنه تعالى قد ذكرهم بما جربوه في حالة اضطرارهم من إجابة دعائهم فقليلاً ما يتذكرون؛ لكثرة إعراضهم وإصرارهم على الشرك.

﴿٦٣﴾ ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ بما جعل من النجوم التي تنير بعض الإنارة وتُتخذ علامات للجهات يعرف بها جهة شرق وجهة غرب وكذلك الشمال والجنوب فيهتدَى بها للجهات التي يريدها المسافرون في الليل سواء في البر أم في البحر، ونور القمر في أول الشهر لأول الليل، وفي آخر الشهر للمسافرين في آخر الليل، ويعرف بالقمر أيضاً الجهات فالله تعالى هو الذي خلق النجوم وقدر لها أماكنها في فلكها وقدر لها سيرها بنظام محدد، وهو الذي خلق القمر وقدره منازل بنظام محدد، أما شركاء المشركين فلا تهديهم أيَّ هداية في أيِّ حال من الأحوال.

وقوله تعالى:﴿وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾ أي متقدمة للمطر يرسل الرياح فتثير سحاباً تنشره في الهواء ويأتي الله بعد الرياح بالمطر، وقرئ بشراً بالباء أي مبشرات بالمطر، وشركاء المشركين لا يفعلون شيئاً من ذلك ﴿تَعَـٰلَى ٱللَّهُ﴾ تعالى بما أظهر من دلائل عظمته وجلاله وقدرته على كل شيء وعلمه بكل شيء وفضله على عباده ورحمته لهم.

وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ

﴿تَعَٰلَى﴾ بذلك وبغيره ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ من الأوثان التي لا تنفع ولا تضر ولا تسمع ولا تبصر فعزّ وجلّ عن أن يكون له ند أو عديل أو شريك.

﴿٦٤﴾ ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ ﴿يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾ يخلقه أول مرة ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ في النشأة الأخرى، وقدرته على الإعادة يدل عليها أنه قدر على الإبداء وخلاف المشركين في ذلك ليس الشرك مبنياً عليه بمعنى أنهم رتبوا الشرك على نفي البعث بل كل واحد من الشرك ونفي البعث مستقل عن الآخر، فيمكن أن يثبتوا البعث مع إصرارهم على الشرك، أو يقروا بوحدانية الله وبطلان الشرك مع إصرارهم على نفي البعث، فصح الاحتجاج عليهم ببدء الخلق وقدرة الله تعالى على إعادته وأنه سيعيده في إبطال شركهم بمن لا يقدر على بدء ولا إعادة، سواء أقروا بالإعادة أم جحدوا؛ لأن قدرته على الإبداء بإقرارهم دليل على قدرته على الإعادة؛ وبذلك قد احتج عليهم في القرآن في مواضع متعددة، وليس من شرط الاحتجاج أن يكون بما يثبته الخصم ويقر بصحته، بل إما بذلك وإما بما قد لزمه الإقرار به؛ لثبوت الحجة عليه وعدم المعارض لها عنده.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ حجة واضحة على أنه المنعم على عباده مع أن شركاءهم لا يرزقونهم لا بكثير ولا قليل لا من السماء ولا من الأرض، والله تعالى هو الذي ينزل المطر رزقاً لهم وينبت لهم به الزرع وغيره كما فصله في (سورة النحل) وغيرها من القرآن، وهم يعلمون ذلك، فالله هو ربهم الخالق الرازق، فعليهم أن يعبدوه وحده.

يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْأَٓخِرَةِۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَاۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ تذكير لهم بأنه لا برهان لهم على ما يدعون من الشرك وقد قام البرهان الواضح على بطلانه، فما بقي إلا أن يرجعوا إلى الحق أو يعاندوا الحق بلا حياء من الكذب ولا خوف من عذاب الله.

﴿٦٥-٦٦﴾ ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ * بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْأَٓخِرَةِۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَاۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ﴾ إعادة الأمر بالقول لرسول الله ﷺ ليحتج ثانياً على المشركين ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ﴾ أي لا يعلم أحد الغيب ونص على من في السموات؛ ليعلم المشركون بالملائكة أنهم ليسوا أنداداً لله، وكذا من في الأرض ممن يشرك به نوع من المشركين لا يعلمون الغيب، ولما كان المراد بقوله تعالى: ﴿لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ﴾ لا يعلم أحد الغيب جاء الاستثناء منه على المعنى برفع الجلالة؛ لأنه سواء عند العرب الذين يفهمون من عموم ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ كل أحد، فسواء قيل من في السموات والأرض أو قيل لا يعلم أحد، وإن شئت قلت: لا يعلم من في السموات والأرض مضمن معنى لا يعلم أحد، فجاء الاستثناء على المعنى المضمن؛ لأن المقصود التعميم وبالله التوفيق.

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي من في السموات والأرض ﴿أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ وهذه خصلة من الغيب تشير إلى أنهم عباد مربوبون يرجعون إلى الله ليجزيهم بما كانوا يعملون.

لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَـٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ

﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْأَخِرَةِ﴾ وقع الخروج من الاحتجاج على المشركين لنفي الشرك إلى إنذارهم في نفيهم للبعث، وهذا الخروج يسمى في علم البيان تخلصاً، وذلك بواسطة قوله تعالى:﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾.

فقوله تعالى:﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ﴾ إضراب مع الرد عليهم في الشرك إلى بيان جهلهم بالآخرة، وذلك يفيد: أن جرأتهم على الشرك وعلى الإعراض عن آيات الله والتكذيب بها بسبب جهلهم بالآخرة؛ لأنهم لو علموا أنهم يسألون يوم القيامة ويعذبون لخافوا واستمعوا للنذير ولم يعرضوا عن آيات الله ولا تجرؤوا على التكذيب بها، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ * كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ * فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ * بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً * كَلاَّ بَلْ لاَ يَخَافُونَ الآخِرَةَ﴾ [المدثر:٤٩-٥٣].

فقوله تعالى:﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْأَخِرَةِ﴾ نظير هذا تدارك علمهم تتابع في التهافت والسقوط ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا﴾ فليسوا عادمين العلم فحسب، بل أشد من ذلك أنهم في شك، ففاقد العلم قد يكون معتقداً اعتقاداً جازماً أو ظاناً ظناً قوياً، لكن هؤلاء المشركون أسوأ حالاً من فاقد العلم.

﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا﴾ تردد هل هي حق أو لم تكن ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ عميت بصائرهم لاستحقاقهم الخذلان فهم لا يهتدون للعلم بها كالأعمى لا يهتدي للطريق، وهذا أبلغ من الشك؛ لأن الشك يرفعه العلم إذا كانت البصيرة سليمة ونظر في الدليل، أما إذا عميت فهو لا يزال في شك.

أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾

﴿٦٧-٦٨﴾ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ * لَقَدْ وُعِدْنَا هَـٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ عميت بصائرهم وشكوا في الآخرة فتجرؤوا على الجدال بالباطل في الآخرة وفي صدق الرسول وفي القرآن.

وقالوا في جدالهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا﴾ أي في القبور قد استحالت عظامنا تراباً ﴿وَءَابَآؤُنَآ﴾ قد تربت أجسادهم كذلك ﴿أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ من القبور ونحن تراب فيها، فجعلوا هذا الإستبعاد حجة لهم بنفي البعث ولتكذيب الرسول؛ لأنه أبلغهم أنهم يبعثون في الآخرة؛ ولتكذيبهم بالقرآن؛ لأنه أنذرهم الآخرة، وقد أبطل الله تعلقهم بهذا الإستبعاد بقوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ [الأنبياء:١٠٤] وقوله: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ [يس:٨١] وغيرهما، فلم يرد عليهم هنا إلا بالوعيد.

نعم تعلقوا بذلك، وأكدوه بقولهم: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَـٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ﴾ على لسان الرسل الماضين أي فلم يقع ما وعدنا به كأنهم قالوا: قد جربنا هذا في الوعد الماضي لم يقع ما وعدنا به وآباؤنا، فكذلك هذا الوعد في القرآن سيكون مثل الوعود السابقة، وهذا الأسلوب في إيراد الشبهة شديد على من يريد الجواب؛ لأنهم طووا في كلامهم ما هو شبهتهم واقتصروا على ذكر الوعد الماضي.

والجواب لإبطال شبهتهم يكون أولاً بالتصريح بما طووه، ثم بإبطاله، لكن القرآن أعرض عن جدالهم؛ لأنهم لا يريدون الحق، وبطلان شبهتهم واضح؛

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى

لأن الوعد بالبعث غير محدد بسنين معدودة أو مدة معينة، فلا يصح قولهم: لم يقع؛ لأنه سيكون ما وعد به الأولون أو الآخرون وعند ذلك يعلمون صدق الوعود كلها فيقولون هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون، وقولهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ يعنون به ما هذا أي القرآن ﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ﴾ جمع أسطورة وهي ما سطر من أخبار الماضين وأرادوا ما هذا من عند الله ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ [الفرقان:٥].

﴿٦٩﴾ ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿قُلْ سِيرُوا۟﴾ أي قل يا رسول الله لهؤلاء المكذبين الذين لا يخافون الآخرة ﴿سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لتروا آثار المكذبين قبلكم الذين دمرهم الله فانظروا كيف كان عاقبتهم أهلكهم الله؛ لأنهم كانوا مجرمين كذبوا رسلهم وعادوهم فاحذروا العذاب العاجل أن ينزل بكم كما نزل بهم.

﴿٧٠﴾ ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ لا تحزن عليهم فهم ظلموا أنفسهم وتعرضوا لعذاب الله ﴿وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ لا تكن في ضيق بأن تخاف على دين الله أن يضيع بما يمكرون بما يدبرون من المكائد ضدك وضد ما جئت به لا تخف بل توكل على الله فهو مظهر دينه ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة:٣٣].

﴿٧١﴾ ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي أخبرونا ﴿مَتَىٰ﴾ اليوم الموعود به الذي هو يوم القيامة ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في دعواكم أنه سيكون.

ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنۡ غَآئِبَةٖ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ

وهذا منهم إما على توهم أن من يعلم أنه سيكون فيلزم منه أن يكون عالماً متى يكون؛ لأن الأمرين كلاهما مغيب، فمن يعلم الغيب يعلم اليوم إن كان واقعاً ويعلم متى يكون، وجوابه: ﴿قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [الملك:٢٦] لا أدعي علم الغيب إلا ما علمني الله وإما تعنُّتٌ منهم ليجعلوا هذا الإقتراح وسيلة لتكذيب الوعد بالقيامة، وليس لهم حق في هذا؛ لأنه تحكم على الله تعالى.

﴿٧٢﴾ ﴿قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ ﴿رَدِفَ لَكُم﴾ لحقكم قريباً. قال الشرفي في (المصابيح): «﴿قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم﴾ أي ردفكم بعضه وهو عذاب يوم بدر، واللام مزيدة للتأكيد؛ لأن معناه تبعكم ولحقكم، أو ضمن ردف معنى دنى لكم» انتهى. وفي (الصحاح): «وكل شيء تبع شيئاً فهو ردفه» انتهى.

فأما الترجي بقوله: ﴿عَسَىٰٓ﴾ فصحيح؛ لأن الكلام الذي هو مقول القول كلام الرسول فإذا أمره الله أن يقول:﴿عَسَىٰٓ﴾ وهي للترجي فقد أمره أن يرجوَ، والآية هذه مثل قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾ [الإسراء:٥١] إلا أن المترجَّى هنا يوم البعث، وفي آية ﴿رَدِفَ﴾ بعض ما يستعجلون أعم من العذاب العاجل أو الآجل، وقوله: ﴿بَعۡضُ ٱلَّذِي تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ يفيد: أنهم قالوا: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ استبطاء له بمعنى طلب تعجيله إن كان حقاً كقول قوم صالح: ﴿ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف:٧٧].

﴿٧٣﴾ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضۡلٍ﴾ إنعام ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ بالرسول والقرآن وبكل الآيات،

مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي

فنعمة الهدى أعظم النعم لمن اهتدى وكذلك فضل على الناس بتأخيرهم إذا عصوا حتى يراجعوا أنفسهم ويتوبوا إن شاؤوا، ومع ذلك لا يمنعهم فضله بل يمتعهم إلى آجالهم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ فالمسئولية عليهم في كفرهم وله الحمد والشكر وإن لم يشكروا وهو الغني الحميد.

﴿٧٤-٧٥﴾ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ * وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ الذي أرسلك ﴿لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ أي ما تخفي صدورهم وهو ما يضمرون من عقيدة باطلة أو من نية سيئة أو من غير ذلك ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ ما يظهرونه لك أو لغيرك فهو عالم بذلك كله ومجازٍ لهم بما يستحقون ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ﴾ وهي ما غاب عن المخلوقين أو ما أخفي عن بعضهم فغابت عنه في السماء غابت أو في الأرض، فكل ذلك لا ينساه الله، بل لا يزال عالماً به، فأعمالهم وسرائرهم لا ينسى منها شيئاً.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: معناه في علم الله [أي في كتاب مبين] والكتاب مثل من الأمثال يستدل به على حفظ الله ذي الجلال» انتهى.

﴿٧٦-٧٧﴾ ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ * وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ معجزة أنزله الله ودل على أنه منه بوجوه:

منها: إعجازه للعرب أن يأتوا بسورة من مثله فلم يفعلوا كما أخبر تعالى أنهم لن يفعلوا.

بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟

ومنها: إخباره بمغيبات مثل أن الروم سيغلبون، ومنها: قصص الحق المطابق لما في كتب أهل الكتاب.

ومنها: القصص بالحق فيما قد اختلف فيه بنو إسرائيل فبين القرآن الحق في المختلف فيه بينهم، مع أن محمداً ﷺ لم يقرأ الكتب ولم يخط كتاباً مع أن هذا لا يمكن مثله بل يحتاج من يستعرض أقوال المختلفين وينتقدها ثم يختار أصحها وأوفقها للحق وأسلمها من النقد يحتاج من يفعل هذا إلى اطلاع كامل في الكتب وتمكن من تحصيل الكتب التي يحتاجها للبحث، وبعد البحث الكامل يحتاج إلى أن يكون له علم بسنن الله في الكون وعلم بنفسيات الناس؛ ليستطيع التفوق على المختلفين فيما يختاره ويعينه من قوله في موضوع الخلاف، ونبيئنا محمد ﷺ ليس له شيء من ذلك إلا العلم بسنن الله في الكون والعلم بنفسيات الناس إن كان يعلم ذلك قبل نزول القرآن، فما جاء في القرآن من بيان الحق في المختلف فيه يتبين بلا شك أنه من الله علام الغيوب.

﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي القرآن ﴿لَهُدًى﴾ يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام، وهو هدى للمؤمنين إلى صراط مستقيم، ورحمة؛ لأنه شفاء يؤدي إلى سلامة القلب من كل عيب فيؤدي إلى السلامة من عذاب يوم عظيم.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾﴾ ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا رسول ﴿يَقْضِى بَيْنَهُم﴾ أي بين بني إسرائيل فيما كانوا فيه يختلفون، يحكم بينهم يوم القيامة فينصر المؤمنين ويعاقب المخالفين للحق بعدما جاءهم العلم؛ لأنهم لم يختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم.

مُدۡبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ ﴿٨١﴾ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِمۡ أَخۡرَجۡنَا لَهُمۡ دَآبَّةً

وقوله تعالى: ﴿بِحُكۡمِهِۦ﴾ اما حكمه على المبطل بأنه مبطل لا عذر له وأنه مستحق للعقاب وحكمه للمحق بأنه اتبع الحق واستحق الثواب، وإما بحكمه الذي هو الجزاء بما يستحقون ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ فلعزته يجزي أعداءه بالعذاب العظيم ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ العليم بما قدموا في الدنيا من الجرائم وبكل شيء فيجزيهم الجزاء الأوفى.

﴿٧٩﴾ ﴿فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ﴾ توكل على الله في قيامك بما يجب عليك من تبليغ الرسالة في حال تكذيب المكذبين وعناد المعاندين وعداوة المعادين ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ﴾ وأعداؤك على الباطل فكِلْ أمرك إلى الله واثبت على ما أنت عليه، فمن حق المحق أن يثبت على أمره وأن لا يبالي بمن خالفه، ومن حق المؤمن وبالخصوص الرسول ﷺ أن يكل أمره إلى الله فيما كلف به فيطيعه مفوضاً أمره إلى الله إن شاء نصره وقهر أعداءه وإن شاء ابتلاه بالكفاح بينه وبينهم وإن شاء رزقه الشهادة، فهذا معنى التوكل على الله، وفائدته الثبات على طاعة الله، وأن لا يصرفه عنها تجويز قهر الأعداء واحتمال أن يقتلوه وفي ذلك أجر عظيم، والتوكل واجب على الرسول ﷺ وعلى كل مؤمن.

﴿٨٠﴾ ﴿إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ﴾ ﴿لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ تشبيه للمكذبين بالموتى، وهذا فيمن خذل واستولى عليه الشيطان فهو كالفاقد للحياة الذي لا يسمع من دعاه؛ لأن قلبه قد فقد الصلاحية لقبول الإنذار أو قبول النصح أو قبول الحق، فهو لا يتأثر بإنذار ولا بحجة واضحة كأنه ميت.

﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ﴾ لا تُسمِعهم إذا دعوتَهم إلى الهدى؛ لأنهم صم وقد ولوا عنك لا يريدون سمعك، فاجتمع فيهم ثلاثة موانع: الصمم، والإدبار؛ لأن الأصم إذا واجه من يكلمه يفهم كلامه بحركة شفتيه، فربما سمعه لانضمام الرؤية إلى السمع، فأما المدبر فقد فاتته هذه الوسيلة.

والثالث: أنه لا يريد أن يسمعه؛ لأنه في هذه الحالة يعرض عن استماعه، فيكون أبعد عن سمعه، وقد شبه المكذبون بأهل هذه الموانع، وفائدة هذا أن ييأس الرسول ﷺ منهم فلا يتعب نفسه في محاولة إيمانهم بعد أن قد بلغهم وقامت عليهم الحجة ولم يبقَ له سبيل إلى جعلهم مؤمنين باختيارهم.

(٨١) ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلْعُمْيِ﴾ أي لا تجعلهم مهتدين للطريق في حال ضلالتهم عنها، وهؤلاء المكذبون مثلهم، لأن بصائرهم قد عميت فضلوا ولن تهديهم ﴿عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ لأن بصائرهم قد عميت عن الهدى.

وقوله تعالى: ﴿إِن تُسْمِعُ﴾ أي لا تسمع ﴿إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ حين يسمعها؛ لأن نيته قبول الحق، ليس متكبراً ولا حاسداً ولا متعصباً، فمتى سمع آيات الله آمن بها؛ لأنه ما زال على فطرة سليمة ﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ وجوههم وأنفسهم لله لا يشركون به شيئاً؛ لأنهم قد آمنوا بآيات الله، فبعثهم الإيمان إلى الإسلام، ولا يدل هذا على أن الإسلام يتوقف على الإيمان؛ لأن إسلام الوجه والخروج من الشرك قد يكون لسبب سابق قبل الإيمان كما يكون بسبب الإيمان ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات:١٤].

مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا

﴿٨٢﴾ ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ ﴿وَقَعَ ٱلْقَوْلُ﴾ صدق ﴿عَلَيْهِمْ﴾ وتعينوا في دلالته عليهم، والقولُ: الوعيد مثل: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ..﴾ الآية [الأعراف:١٨] وذلك بما ظلموا وأصروا على الإعراض عن آيات الله وترك الإيمان بها حتى صار بينهم وبين الإيمان بُعْد، وعلم الله أنهم لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية.

﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ وهذا خارق للعادة؛ لأن الدواب إنما تحصل بالتناسل وإذا ماتت لم تخرج إلا أنها ستخرج يوم البعث فهي آية عظيمة تدل على قدرة الله تعالى على البعث، فهي من مصداق قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ..﴾ الآية [فصلت:٥٣] وأعظم من ذلك أنها ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ فالدوابَ لا تتكلم، فإذاً كلمت الدابة كان تكليمها أمراً عظيماً وهائلاً لمن كلمته، وكفى بهذا الكلام دلالة على هذا الأمر المغيب الذي سيكون قبل يوم القيامة وعند وقوعه بهاتين الصفتين: الخروج من الأرض، والتكليم للناس فعند ذلك يعلم أنها هي ما وعد الله به في القرآن، فتكون دليلاً على أن القرآن كلام الله كما هي دليل على إمكان البعث.

وقوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ تعليل لهذه الآية العظيمة التي تضطرهم إلى العلم بإمكان البعث وبأن القرآن كلام الله سواء أقروا أم جحدوا، فهي كناقة الله لقوم نبيه صالح عليه السلام.

نعم.. هذه الدابة الله أعلم بها أهي دابة واحدة، أم هي جنس يخرج منه في كل قطر دابة أو أكثر، كقوله تعالى: ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ﴾ [سبأ:١٤] فإن الظاهر: أن الذي أكل منساته جنس دابة الأرض أي عدد كثير اجتمع فأكلها حتى انكسرت وخر سليمان عليه السلام.

جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِي وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا

﴿٨٣﴾ ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ الراجح في هذا الحشر: أنه حشرهم إلى جهنم، كقول الله تعالى: ﴿**ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا**﴾ [مريم:٦٩] والفوج: الجماعة الكبيرة، وقال تعالى: ﴿**وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا**﴾ [الزمر:٧١] فالأكابر من الأمم يقدمون قبل الأتباع وهذا تحذير من التكذيب بآيات الله، وقوله تعالى: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ كقول الله تعالى: ﴿**وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ**﴾ [فصلت:١٩] والوزع: المنع، ولعله هنا ـ والله أعلم ـ وزعهم عن محاولة العدول عن التوجه إلى النار يميناً أو شمالاً في المحشر ـ والله أعلم ـ فأما تفسيره: بحبس أولهم حتى يلحق آخرهم أو برد أولهم إلى آخرهم فهو بعيد.

﴿٨٤ـ٨٥﴾ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِي وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو﴾ حيث حشرهم إلى جهنم، فالراجح أنهم جاؤوا جهنم قبل الوقوع فيها أو بعده.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَكَذَّبْتُم﴾ توبيخ لهم واحتجاج عليهم يبين أنهم قد وقع القول عليهم، وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْمًا﴾ يبين أنهم كذبوا بها مع إعراضهم عنها وترك النظر في صحة دلالتها تكبراً وظلماً، وقوله تعالى: ﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي حين كذبتم بها من دون أن تنظروا فيها وتسمعوا قول النذير الذي جاء بها أيّ عمل شغلهم عن النظر والتفهم للآيات وهم قد أنذروا جهنم، فلم يكن لهم عمل يستحقوا الإشتغال به عن النظر في آيات الله.

ٱلَّيۡلَ لِيَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن

﴿وَوَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِم﴾ صدق عليهم الوعيد ﴿بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمۡ لَا يَنطِقُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ..﴾ الآية [فصلت:٢٠] وقال تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ...﴾ الآية [يس:٦٥].

﴿٨٦﴾ ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِيَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ احتجاج بقدرة الله تعالى التي لا تقاس على قدرة المخلوقين وبنعمته على عباده التي تستدعي منهم الشكر والإيمان بآياته الدالة على الآخرة وعلى صدق الرسول الذي بلغهم الآيات الماضية التي تنذر المكذبين عذاب الآخرة.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي في جعل الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصراً لمعاشهم ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾ دلائل تبطل شركهم بمن لا يقدر على شيء ولا ينعم عليهم بشيء، وتبطل تكذيبهم باليوم الآخر لمجرد استبعاد القدرة على بعث الأموات وتبطل احتجاجهم بهذا الإستبعاد لتكذيب النذير، كما أن آيتي الليل والنهار تدل على قدرة الله تعالى وعلمه بكل شيء ورحمته وفضله لعباده بتسخير الشمس لهم وتيسير تحديد مواجهتها للناس بحيث لا تضرهم بحرها ولا تجفف أشجارهم وغيرها ولا يتعبهم طول النهار عليهم، وكذلك تحديد غيابها عنهم حتى لا يطول عليهم الليل فيحاصرهم عن طلب المعاش ويشتد الجوع والبرد..

وغير ذلك من الآيات في تصرف الخالق في الأرض والشمس مع بُعد المسافة بينهما ومع استمرار هذا التصرف لحاجة الإنسان إليه.

شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾

وقوله تعالى: ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ لأنهم هم المنتفعون بالآيات دون المعاندين المكذبين سواء كان المراد يؤمنون بالآيات إذا جاءتهم أي شأنهم أن يؤمنوا أم يؤمنون بالفعل.

وقد جاءت هذه الآية بعد الوعيد كما هي عادة القرآن في ذكر الدلائل بعد الوعيد مثل سورة الواقعة.

﴿٨٧﴾ ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ أُعيدَ ذكرُ الوعيد بعد ذكر الآية على صدقه كما يؤتى به في القرآن في بعض المواضع بعد ذكر الآيات مثل (سورة عم) وتجديد لذكر الآخرة ليتذكر الإنسان كما وقع في (سورة الروم): ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [آية:١٢] ثم قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ [آية:١٤].

﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ الراجح: أنها عبارة عن الصيحة المذكورة في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ [ق:٤٢] ﴿فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لثقل الساعة وخوف المخلوقين منها ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أن لا يفزعوا فهم لا يفزعون، وهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾.

﴿وَكُلٌّ﴾ أي وكلهم أي أهل السموات والأرض ﴿أَتَوْهُ﴾ ليسألهم ويجزي كل نفس بما تسعى، فلا بد من حضورهم في موقف السؤال.

مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ

وقوله: ﴿دَٰخِرِينَ﴾ قال فيه في (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام): «أي صاغرين خاضعين» انتهى. ومثله في (مصابيح الشرفي) قال (صاحب الصحاح): «الدخور: الصغار والذل» انتهى.

﴿٨٨﴾ ﴿وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ﴾ ﴿وَتَرَى﴾ عطف على ﴿فَفَزِعَ﴾ وما بعدها ترى الجبال يوم القيامة في حال كونك ﴿تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ﴾ على أصلها ﴿وَهِيَ تَمُرُّ﴾ في الجو ﴿مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ لأنها قد صارت غباراً يحمله الهواء، وفسروا ﴿جَامِدَةٗ﴾ بأنها ساكنة، ويحتمل: أن المراد به أنها باقية على أصلها غير متفتتة مجاز من جمود السوائل.

ولعل بعضهم أخذ التفسير بسكونها من مقابلته بقوله تعالى: ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ ولكن مرورها لازم تحطمها ومصيرها غباراً والله أعلم، ويمكن أخذ الجمود للسكون مجازاً؛ لأن الجامد يسكن والسائل يتحرك، وقوله: ﴿صُنۡعَ ٱللَّهِ﴾ قال الراغب: «الصنع: إجادة الفعل، فكل صنع فعل وليس كل فعل صنعاً» انتهى المراد.

فالعبارة تدل على أن تسيير الجبال فعل محكم لا مجرد تخريب، كما أن تشقق السماء وتساقط النجوم وتغيير الشمس والقمر كل ذلك مطابق للحكمة ﴿ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍ﴾ لأنه حكيم فكل صنعه في الدنيا والآخرة محكم ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ﴾ فلذلك جاء بالقيامة لتجزى كل نفس بما تسعى.

﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٩١ وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا

(٨٩-٩٠) ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ * وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ ﴿مَن جَآءَ﴾ موقف السؤال والحساب ﴿بِٱلۡحَسَنَةِ﴾ مصحوباً بالحسنة أو أحضرها معه؛ لأن عمله لازم له ﴿فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا﴾ أضعافها، فله عشر حسنات أو أكثر ﴿وَمَن جَآءَ﴾ ذلك الموقف بالسيئة، كما قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ [الإسراء:١٣].

وقوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ﴾ ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ تفصيل لقوله تعالى: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ ﴿فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ﴾ جعلت وجوههم أسفل مباشرة لجهنم، وهذا كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ﴾ [القمر:٤٨] والسيئة هذه هي التي خرج بها من التقوى تعم الشرك والجرائم التي أصر عليها صاحبها حتى مات، كما أن الحسنة هي الإيمان والعمل الصالح الذي هو شأن المتقين؛ لأن هذه الآية فسرها القرآن في مواضع كثيرة، فالإجمال فيها على وجه الإحالة على غيرها من القرآن، وقوله تعالى: ﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ أي يكون مع تعذيبهم إخبارهم أنهم إنما يجزون ما كانوا يعملون، وذلك تعذيب بالإهانة وإدخال الندم عليهم.

(٩١) ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ أي قل يا رسول الله ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ﴾ الله أي وحده لا شريك له؛ لأنه ﴿رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ﴾ وهي مكة حرم الكعبة ﴿ٱلَّذِي حَرَّمَهَا﴾ فلا يجوز القتال فيها.

يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾ ليس ملكه خاصاً بهذه البلدة بل له كل شيء، فأنا عبده وكل الناس له ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام:١٦٤] فهو المستحق للعبادة لا غيره ﴿وَأُمِرْتُ﴾ أي أمرني ربي ﴿أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أسلم نفسي له لا أشرك معه غيره.

﴿٩٢﴾ ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟﴾ عطف على ﴿أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي أمرت أن أتلو القرآن على الناس ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ لسماعه المعجزة الكبرى والهدى والنور ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦ﴾ لينقذها من عذاب الله ويفوز بثوابه، فالنفع له ولا يزيد في ملك الله شيئاً؛ لأنه غني عن عمله ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ عند سماع القرآن فلم يؤمن ﴿فَقُلْ﴾ لهم ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ بعذاب الله لمن ضل ولستُ مكلفاً بإجباركم على الإيمان.

﴿٩٣﴾ ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿وَقُلِ﴾ عطف على أمره بالقول الماضي المقدر في تلقينه بقوله: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ﴾ أي قل: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ﴾ ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ فقد عظمت نعمته بما نزل من الهدى وأوضح من البينات ﴿سَيُرِيكُمْ﴾ أيها الكافرون ﴿ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ آيات ودلائل تدل على صدق وعده ووعيده وصدق رسوله وكتابه.

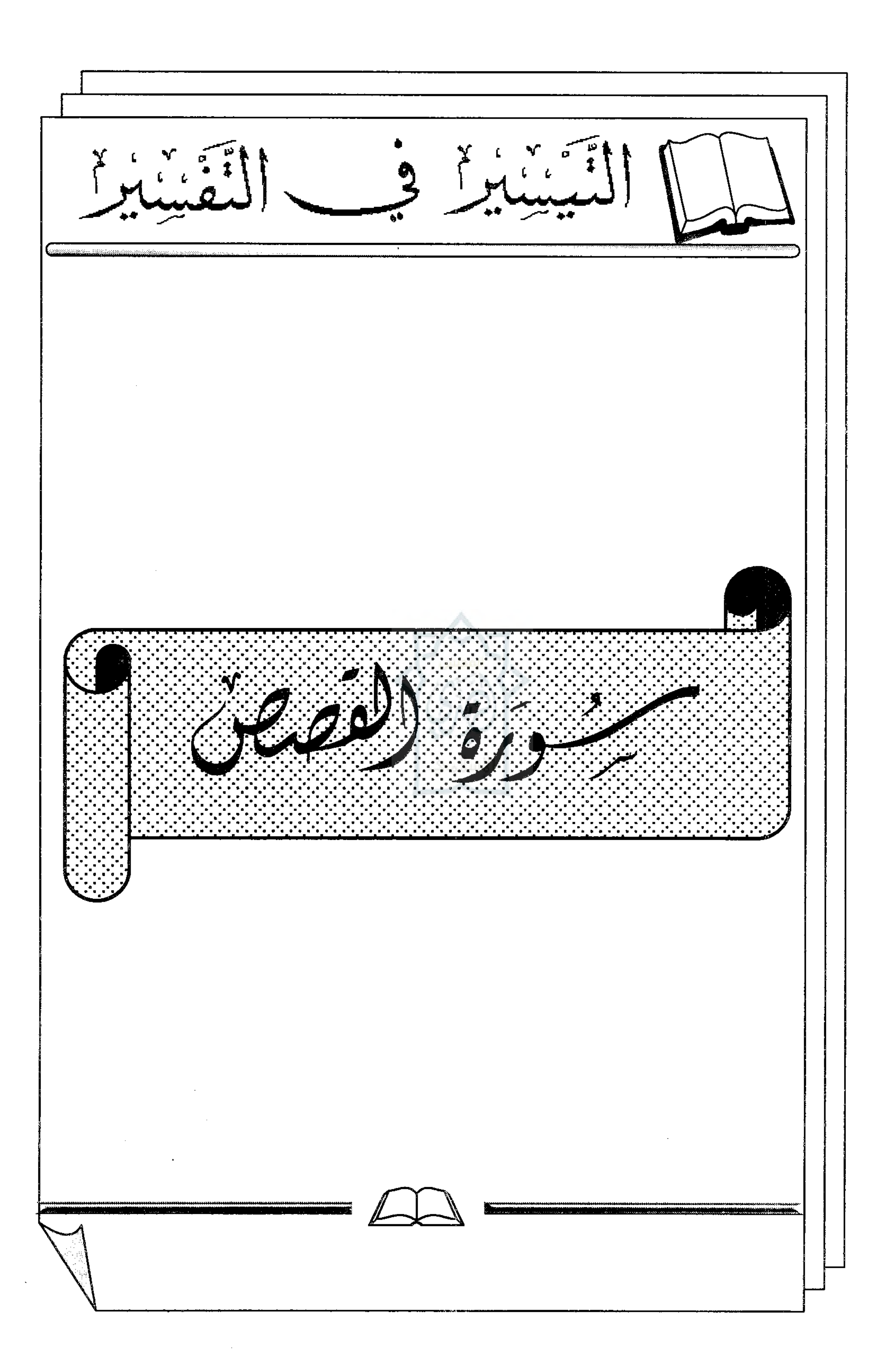
قال الشرفي في (المصابيح): «في قول الله تعالى: ﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ تهديد لهم بما يريد من آيات الآخرة الملجئة لهم إلى المعرفة حين لا تنفعهم في الآخرة، فيعرفونها على ما قال في الدنيا» انتهى المراد. وعند ذلك يقولون: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس:٥٢].

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿وَمَا رَبُّكَ﴾ يا رسول الله ﴿بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فليس بغافل عما تقوله للمشركين، وما يجيبون به، وما تبلغهم، وما يقابلونك به من التكذيب وغيره وكل ما تعملون هو عالم به، فهو يجزي كلاً منكم بعمله.

والحمد لله رب العالمين






التيسير في التفسير
سورة القصص



سُورَةُ القَصَص

ترتيبها ٢٨ — آياتها ٨٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ

ابتداء تفسير (سورة القصص)

قال الشرفي في (المصابيح): «مكية، قال في (البرهان): إلا آية منها نزلت بين مكة والمدينة وقيل: بـ(الجحفة) وهي: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾» انتهى.

﴿١-٢﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ طسٓمٓ * تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ﴾ الإشارة إلى الحروف التي تألّف منها القرآن، والدليل على ذلك أن هذه الإشارة إنما تأتي في أوائل السور بعد الحروف، مثل: ﴿الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ..﴾ [البقرة:١-٢] ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ [يونس:١] ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [يوسف:١] ﴿المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ..﴾ [الرعد:١] ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ [الحجر:١] ﴿طسم * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [الشعراء:١-٢] ﴿طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [النمل:١] ﴿طسم * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [القصص:١-٢] ﴿الم * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ [لقمان:١-٢] ﴿حم * عسق * كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الشورى:١-٣] ولا نعلم سورة أولها الإشارة بدون ذكر الحروف، فظهر أن الإشارة إلى الحروف يبين أن القرآن مؤلف منها، وأوحي كلاماً مؤلفاً منها فهو وحي للكلام حقيقي بلفظه وحروفه لا مجرد وحي المعنى.

وقوله: ﴿ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ يصفه بأنه يبين للناس الهدى وبينات من الحق في أنواعه من أمر ونهي ووعد ووعيد وقصص وأمثال وغير ذلك، أو هو كتاب مبين بمعنى بيِّن واضح الدلالة على معانيه، والأول أرجح وإن كان مجازاً في الإسناد فهو قريب.

وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ

وقد تكرر إسناد (البيان) إلى القرآن مثل: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ..﴾ [الإسراء:٩] ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ..﴾ [المائدة:٤٨] وغير ذلك، وقد مر أبسط من هذا.

﴿٣﴾ ﴿نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿نَتْلُواْ عَلَيْكَ﴾ خطاب لرسول الله ﷺ الذي أنزل الله عليه هذا القرآن ﴿نَتْلُواْ﴾ نقرأ ﴿عَلَيْكَ﴾ والتعبير بالتلاوة لعله باعتبار أن جبريل عليه السلام متبع في قراءته لما علمه الله فكان تالياً له على محمد ﷺ؛ وأسنده إلى الله لأنه بأمره أرسل به جبريل إلى محمد فهو تلاوة من الله تعالى على عبده ورسوله محمد ﷺ.

وقوله: ﴿مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ﴾ أي من خبرهما العظيم ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ راجع إلى قوله: ﴿نَتْلُواْ﴾ أي نتلو بالحق، ليس فيما نتلو خلاف الحق؛ لأنه الحق الذي هو صدق، والإخبار به مطابق للحكمة ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ نتلوه بالحق لقوم يؤمنون وهم رسول الله ﷺ وسائر المؤمنين الذين بلغهم، فالتلاوة لهم؛ لينتفعوا بها من حيث دلالتها على أنك رسول الله؛ لأنك جئت بهذا القصص الكامل المفصل مع أنك لم تقرأ كتاباً ولم تكتب ولا تعلمت من أهل الكتاب كما هو واضح لقومك؛ لأنك باق في مكة لا تغيب عنها مدة يحتاجها المتعلم، فهذه التلاوة نافعة لقوم يؤمنون بآيات الله ودلائله؛ لأنهم مقبلون عليها بقلوبهم.

﴿٤﴾ ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ ﴿عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ طغى طغياناً منتشراً في الأرض ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ جعل

ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ

أهل الأرض ﴿شِيَعًا﴾ أحزاباً كل حزب يشايع بعضه بعضاً، ونسبة هذا إلى الأرض جملة قيل: المراد به مصر فقط، وهو خلاف الظاهر.

ويمكن أن فرعون جعل أهل مصر أحزاباً وجعل مَن عداه دولاً متفرقة كما يفعل طغاة هذا الزمان؛ فيقوي الدولة الضعيفة لتبقى ضد دولة أخرى، فالأولى حمل الكلام على ظاهره وهو أن فرعون طغى في الأرض عموماً كطغيان أمريكا في هذا الزمان وجعل أهل الأرض شيعاً كل حزب يشايع بعضه بعضاً في حال كونه ﴿يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ﴾ من أهل الأرض وهم بنو إسرائيل، واستضعافهم ظلمهم في حال ضعفهم وبسبب ضعفهم؛ لأنه تمكن من ظلمهم فظلمهم.

قال في (لسان العرب): «واستضعفه، وتَضَعَّفه: وجده ضعيفاً فركبه بسوء الأخيرة عن ثعلب» انتهى.

﴿يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ﴾ طغياناً وفساداً ﴿وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ﴾ يتركهن لا يقتلهن؛ ولعل غرضه في النساء تحميل أهلهن كلفة الإنفاق عليهن؛ ليبقوا فقراء ضعفاء خدماً وليخدمنَ إذا كبرنَ ـ والله أعلم ـ ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي فرعون ﴿كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ فاستضعافه لبني إسرائيل جزء من فساده الذي هو عادته.

۝٥ ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾ ﴿نَّمُنَّ﴾ ننعم نعمة زائدة على النعم الأولى التي كانت في حال استضعافهم في الأرض، وهذه عامة فمثلاً منَّ على آل إبراهيم بتمكين يوسف، ثم منَّ على بني إسرائيل بتمكينهم، ثم منَّ على العرب بتمكين الإسلام في عهد الرسول ﷺ وبعده.

تَحْذَرُونَ ۝٦ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ

ونرجو أن يمنَّ على ذرية الرسول المستضعفين في هذا الزمان، فقد استضعفوا في عهد الأموية وبعض عهد العباسية ثم مكنوا في اليمن والمغرب وبعض إيران، ثم استضعفوا إلى اليوم شهر ربيع الثاني من عام (١٤٢٤هـ).

﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ متبوعين يقتدى بهم لعزتهم بعد الذل ﴿وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ للأرض بدولتهم، كقوله تعالى: ﴿**وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ..**﴾ الآية [الأعراف:١٣٧] وفي تمكين آل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تجديد للدين، وتمكين للإسلام، فقد استُضعف المسلمون وقامت أمريكا بإفساد الإسلام والتعدي على المسلمين والتغيير عليهم في الدين والدنيا، فنسأل الله تعجيل الفرج.

۝٦ ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام - أي في ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ -: ونمكنهم بالأمر والنهي ونحكم لهم بالخلافة والإمامة ونورثهم الأرض من بعد أهلها، يعني بذلك كل من يستحق الإمامة من بني إسرائيل الذين كانوا يستضعفون» انتهى.

﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم﴾ أي من المستضعفين ﴿مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ من غلبة المستضعفين وهلاك فرعون وقومه على أيديهم، ففرعون في جبروته وطغيانه يسعى في تقوية ملكه وضعف بني إسرائيل، والله تعالى يدبر لذهاب ملكه وهلاكه ونصر بني إسرائيل.

ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ

﴿٧﴾ ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ﴾ ظاهره أنه وحي من الله ولو بواسطة الملائكة فيه أمرها بإرضاع موسى وإلقائه في البحر إذا خافت عليه من فرعون وفيه نهيها عن الخوف، بمعنى أنه لا بأس على موسى ونهيها عن الحزن عليه؛ لأنه لا موجب له لأن الله يرده إليها، وفيه بشارة بذلك وبجعله من المرسلين.

فظهر: أنه وحي حقيقي تفهمه وتوقن به وتوقن بأنه حق؛ ولذلك امتثلت فجعلت مولودها في تابوت وقذفته في اليم.

﴿٨﴾ ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ﴾ التقطه آل فرعون أخذوا موسى من الساحل حيث كان البحر قد ألقاه وانحسر عنه ﴿لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًا﴾ التقطوه لينجوه من القتل ويعيش حتى يكون لهم عدواً وحزناً، أي أخذوا موسى وهم لا يعلمون أنه موسى ولا أنه سيكون لهم عدواً وحزناً، ولكن الله دبّر له ذلك وهم لا يريدونه، فكان لهم عدواً حين أرسله الله إليهم وكذبوه وحزناً حين خافوا ذهاب ملكهم وحين هلكوا في البحر.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ﴾ أي وزير فرعون ﴿وَجُنُودَهُمَا﴾ عسكرهما الذين هم أنصارهما وأعوانهما ﴿كَانُواْ﴾ كلهم ﴿خَٰطِـِٔينَ﴾ مذنبين مستحقين ليكون لهم عدواً وحزناً.

ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۝٩ وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝١٠

۝٩ ﴿وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ ﴿قُرَّتُ عَيۡنٖ﴾ أي هذا الوليد قرة عين سبب لسرورنا ﴿لِّي﴾ أسرُّ به ﴿وَلَكَ﴾ سبب لسرورك وذلك لأنهما أحباه فرؤيتهما له سبب لسرورهما.

﴿لَا تَقۡتُلُوهُ﴾ فيذهب قرة العين ﴿عَسَىٰٓ﴾ إذا بقي ﴿أَن يَنفَعَنَآ﴾ بالخدمة ﴿أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا﴾ نسرُّ به وبحضوره عندنا ويكون قوة لنا ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ لا يعلمون بعاقبة أمره، أما امرأة فرعون فكانت مؤمنة وكانت نجاة موسى تسرها على كل حال.

۝١٠ ﴿وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ ﴿فَٰرِغًا﴾ لا لبّ فيه من خوفها على ابنها، كقوله تعالى: ﴿وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ﴾ [إبراهيم:٤٣] فقد غلبها الخوف وغيّر ذهنها ﴿إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ﴾ لتظهر سر أمره وتخبر به خطأ وانقياداً لداعي النفس إلى إظهار الحزن والخوف ﴿لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا﴾ فانتبهت وحفظت سرها، والربط على القلب تقويته بحيث تحمَّلت فقده وتقوّى رجاؤها لسلامته وتذكرت وعد الله لها بردّه إليها وجعله من المرسلين، فآمنت بوعد الله لها ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ لتؤمن بوعد الله في تلك الحالة فتكون من المؤمنين الذين يؤمنون بوعد الله ويعلمون أنه الحق.

وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ

﴿١١﴾ ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾

﴿وَقَالَتْ﴾ أم موسى ﴿لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾ اجثي عنه بطلب أثر له تعرفينه به وتعرفين حاله. وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: اتبعي أثره» انتهى، ولعلها تريد أن تنظر لعلها ترى خِرقة من خرقه قد غسلت وجعلت في الشمس فتعرفه بها أو نحو ذلك ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ﴾ أخته علمته بطريقة فطنت لها بذكائها ﴿عَن جُنُبٍ﴾ بصرت به بواسطة مكان مجانب لمكانه بعيد عنه وقعت فيه فرأت موسى وعرفته حياً، قال في (الصحاح): «وبصرت بالشيء: علمته» انتهى ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أنها تبحث عنه وأنها قد علمته.

﴿١٢﴾ ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ﴾ جعلناه يأبى الرضاع ولا يطاوع عليه؛ لأنا منعناه المرضعات بصرفه عنهن ﴿مِن قَبْلُ﴾ أن تطلع عليه أخته؛ ولعله من حين التقطوه فلم يرضع عندهم أصلاً حتى خافوا عليه الموت من العطش والجوع ﴿فَقَالَتْ﴾ أخته، لعلها احتالت بعدما علمته لتصل عنده، مثلاً أهدت لامرأة فرعون هدية حتى وصلت عندها فوجدتهم في مشكلة من امتناعه من الرضاع.

﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ﴾ كأن أصل الدلالة على الشيء أن تكون لطالبه كدلالة المسافر على الطريق ودلالة المريض على الدواء؛ فلكون آل فرعون في مشكلة وخوف على موسى من عدم الرضاع قالت أخته: هل أدلكم لحل مشكلتكم ﴿عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ﴾ يحفظونه ويحضنونه ويرضعونه.

عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَ وَلِتَعۡلَمَ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ

قال في (الصحاح): «والكافل الذي يكفل إنساناً يعوله، ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ [آل عمران:٣٧]» انتهى، ونحوه في (لسان العرب) و(القاموس).

وقولها: ﴿لَكُمۡ﴾ في سياق السؤال؛ لأنهم يريدون من يكفله لهم لحل مشكلتهم ﴿وَهُمۡ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ فلا يقصرون في كفالته ولا يفرطون في حفظه.

قال الشرفي في (المصابيح): «والنصح: إخلاص العمل من شوائب الفساد» انتهى. وقال الراغب: «النصح: تحري فعل أو قول فيه صلاح صاحبه..» إلى قوله: «وهو من قولهم: نصحت له الودّ أي أخلصته» انتهى.

﴿١٣﴾ ﴿فَرَدَدۡنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَ وَلِتَعۡلَمَ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ ﴿فَرَدَدۡنَٰهُ﴾ بواسطة سعي أخت موسى، وهذا من أفعال الله تعالى التي تكون بواسطة فعل العبد بخلق الرغبة في الفعل ومنع الصارف عنه ليقع، وقد تكررت هذه النسبة ولها حكمها، فالله تعالى يحمد عليها ويشكر، وذلك دليل صحة إسنادها إليه تعالى.

والمراد أن الفعل الواحد في بعض الحالات يكون له نسبة إلى العبد بحيث يمدح على الفعل ويثاب عليه ونسبة إلى الله تعالى بحيث يحمد عليه ويشكر، وقد يكون من آيات الله تعالى وإن كان فعل العبد، نحو قوله تعالى: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُ فِي قَرَارٖ مَّكِينٍ﴾ [المرسلات:٢١] فهو آية باعتبار نسبته إلى الله تعالى، وهو من فعل العبد قد يثاب عليه، قال تعالى: ﴿وَٱبۡتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ [البقرة:١٨٧] فلا تنافي بين النسبتين؛ لأن المراد بهما جهة استحقاق المدح والحمد وتعلق

أحكام الفعل بالفاعل مع أنه استعمال عربي، يقولون: مثلاً بَنى الملك المدينة، مع أن أفعال البناء من الرعية، وقال الشاعر في ملك قد خافه:

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

ويقولون: «بنى المسجد» لمن أعطى تكاليف البناء، وفي الحديث الشريف: «من بنى مسجداً لله بنى الله له بيتاً في الجنة» وقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ..﴾ [الكهف:١] وقال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ﴾ [الشعراء:١٩٣] فلا تنافي بين كونه تعالى أنزله، وكون جبريل عليه السلام نزل به؛ لأن جهة النسبة وسببها قد صح تعدده؛ لأنه غير خاص بالمباشرة ولا بالاختراع، ومما يدل عليه قوله تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ..﴾ [التوبة:١٤] وقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا..﴾ [التوبة:٥٢].

وفي القسم الثاني من (مجموع رسائل الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة عليه السلام) في الرد على من قال في أفعال العبيد إنها لا تعدوهم ولا توجد في غيرهم قال عليه السلام: «والدليل على بطلان قوله: أن هذا الفعل يحمد عليه العبد ويذمّ ويثاب ويعاقب ويتعلق به الأمر والنهي، وهذه حقيقة إضافة الفعل إلى الفاعل، وقد ذكر ذلك جدنا الإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام في كتاب رده على المجبرة في قوله عليه السلام: ولو لم تكن الشجّة في رأس المشجوج من فعل الضارب الشاجّ لما أمر الله الحكّام أن يدعوا في رأس الضارب الشاجّ شجّة مثلها» انتهى.

وعلى هذا: ينبني وجوب شكر نعمة الله في إنزال كتابه وغير ذلك من نعَمه، كشفاء المرض بواسطة الدواء ورجوع بصر نبي الله يعقوب بواسطة إلقاء ثوب يوسف عليه السلام على وجهه، والحمد لله على كل نِعَمه.

وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ

وقوله تعالى: ﴿كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ أي تُسرّ، فقرار العين كناية عن السرور، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ على موسى لأنه قد نجا من فرعون وصار عند أمه ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ بصدق وعده لها بقوله تعالى: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص:٧] لأن رده سبب لتذكر صدق وعد الله وذلك سبب للنظر في أن وعد الله لا بدّ أن يكون صدقاً؛ لأنه غني عن الكذب وعالم أنه غني وعالم أن الكذب قبيح ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن وعد الله حق، أو لا يعلمون أنا رددناه إلى أمه، أو لا يعلمون أنا رددناه إلى أمه للحكمة المذكورة أي يجهلون الرد وحكمته، وهذا أرجح.

﴿١٤﴾ ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿وَلَمَّا بَلَغَ﴾ أي موسى ﴿أَشُدَّهُۥ﴾ قال في (الصحاح): وقوله تعالى: ﴿حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ [الأنعام:١٥٢] أي قوّته، وهو ما بين ثماني عشرة إلى ثلاثين، وهو واحد جاء على بناء الجمع» انتهى.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال في (البرهان): «الأشد: ثلاثة وثلاثون سنة، وقيل: عشرون سنة، وقيل: أربعون سنة ﴿وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ يعني اعتدال القوة وانتهاء الشباب واستحكام عقله» انتهى، وتفسير ﴿ٱسْتَوَىٰٓ﴾ يحتمل أنه من الشرفي لا من الحكاية عن (البرهان) وهو صحيح.

وقوله تعالى: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ أي علمناه حكماً وعلماً فهو يعلم الحكم بالحق يستطيع أن يحكم بين الناس بالحق، والعلم علمه بما يجب الإيمان به وعلمه كيف يطيع الله وكيف يهدي غيره وغير ذلك من علوم الدين.

فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي كما جزينا موسى بأن آتيناه حكماً وعلماً ﴿نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فنؤتيهم حكماً وعلماً، وهذا يفيد: أن موسى عليه السلام من المحسنين؛ ولذلك آتاه الله حكماً وعلماً، والإحسان: الإيمان والطاعة لله ومكارم الأخلاق، وقد دل على ذلك أول (سورة لقمان).

﴿١٥﴾ ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ ﴿غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ لا ينتبهون لمن دخل في ذلك الحين مثل حين قيلولة أو أكل أو راحة عن الأعمال وشرب، وهذا يشير إلى أنه كان خائفاً من انتباه آل فرعون له.

﴿فَوَجَدَ فِيهَا﴾ أي في المدينة ﴿رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ﴾ من أصحابه وأعوانه ومحبيه فهو من المستضعفين من بني إسرائيل ﴿وَهَٰذَا﴾ الآخر ﴿مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ من القبط ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ﴾ طلبه أن يغيثه وينقذه ﴿عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ بأن يعينه على الذي من عدوه ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ﴾ قال الشرفي: «والوكز: الدفع بأطراف الأصابع» انتهى.

وقال الراغب: «الوكز: الطعن والدفع والضرب بجميع الكف» انتهى، وفي (الصحاح): «الأصمعي: وكزه مثل نكزه أي ضربه ودَفَعه، ويقال: وكزه أيضاً ضربه بجمع يده على ذقنه» انتهى، وفي (الصحاح): «وقال الأصمعي: نكزه أي ضربه ودفعه» انتهى، وفي (أساس البلاغة): «وكزه وكزة شديدة ضربه بجمع كفه» انتهى.

إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِي

والذي يترجح: أن موسى دفعه ولكزه بيده، بحيث أنه لم يتعمد قتله ولا ظن أن اللكزة تقتله ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ قتله بتلك الوكزة ﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي القتل هذا من عمل الشيطان باطل من العمل الذي يدعو إليه الشيطان ﴿إِنَّهُۥ عَدُوٌّ﴾ أي الشيطان عدو للإنسان ﴿مُّضِلٌّ﴾ له ﴿مُّبِينٌ﴾ بيِّن العداوة والإضلال، ويحتمل: أن قوله ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ يعني به القتل والوكز.

﴿١٦﴾ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ بادر إلى التوبة؛ لأنه تعمد الوكز ولم يؤذن له في القتل والأصل تحريمه؛ ولعله يؤخذ منه أن تعمد سبب القتل يعتبر تعمداً للقتل أعني أن تعمد سبب القتل تعمد لما أدى إليه، ولا يشترط قصد القتل، وهذا إذا كان السبب غير مأذون فيه؛ لأن الطبيب البصير إذا جرح بما يظن أنه لا يقتل فهو غير قاتل وإن أدى الجرح إلى الموت، وعلى هذا فلا بد أن موسى عليه السلام اعتبر الوكز معصية؛ لأن دفع القبطي كان يكفي فيه أقل من الوكز، لكنه خطأ لأنه لم يتذكر غير الوكز أقلَّ منه لتضيُّق الحادثة.

﴿١٧﴾ ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ بالهداية لطاعتك وبالقوة ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا﴾ معيناً ﴿لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ فلن أستعمل نعمتك في معصيتك؛ لأن معاونة المجرمين إجرام، فقد أعطى من نفسه ميثاقاً على أن لا يكون ظهيراً للمجرمين سواء كانوا من القبط أم من غيرهم، وعزم أن لا يستعمل قوته في معصية الله، وذلك العزم والعهد شكر على نعمة الله عليه بهدايته لطاعته واجتناب معصيته في حال أن المجتمع الذي هو فيه مجتمع ضلال.

ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ

وقد امتاز موسى من بينهم بنوع من الهداية؛ ولذلك عرف أنه قد عصى وبادر إلى التوبة، وهذا لا ينافي قوله: ﴿فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ [الشعراء:٢٠] لأن ضلاله كان بالنسبة إلى حال النبوءة، كقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى﴾ [الضحى:٧] وقد امتاز مع ذلك بأن الله آتاه حكماً وعلماً وعرف نعمة الله عليه بما قد آتاه من الهدى.

﴿١٨﴾ ﴿فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾ ﴿فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا﴾ من آل فرعون؛ لأن القتل لا بد أن يظهر.

﴿يَتَرَقَّبُ﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام): «معناه: ينتظر، وقال: يتلفت، وقال: كان خائفاً ليس معه زاد» انتهى.

ولعل هذا كان في حالة تردد هل يخرج من البلد فليس معه زاد للسفر أو يبقى فهو يتوقع الطلب بالقتل، وفي هذه الحالة فاجأه صراخ الإسرائيلي الذي استغاثه بالأمس وطلب أن ينصره على القبطي فهو اليوم في مشكلة أخرى يطلبه الإنقاذ منها ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾ لوقوعك اليوم في مشكلة بعد مشكلة أمس، فذلك يدل على غوايتك في معاملتك ومخالفتك لطريق الصواب التي هي أصلح لك وأقرب إلى سلامتك من العدوّ، فأنت بيِّن الغواية، وهذا زجر للإسرائيلي عن الدخول في المشاكل.

أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ

﴿١٩﴾ ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ﴾ موسى ﴿أَن يَبْطِشَ﴾ بخصم صاحبه الذي ﴿هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾ لأنه من القبط أعداء بني إسرائيل.

﴿قَالَ﴾ القبطـــي ﴿يَـٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِ﴾ وهذا يزيده خوفاً؛ لأنه يدل على أن قتله القبطي بالأمس قد ظهر وعرفه هذا الخصم الذي أراد أن يبطش به ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ما تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض تقتل من غضبت عليه ولا تبالي، وهذا يزيده خوفاً من ظهور قتله للقبطي وتفسيره بأنه يريد أن يكون جباراً في الأرض، ويظهر أن مشكلة اليوم قد انتهت بتحول القبطي إلى خطاب موسى ﴿وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ فقد كان ينبغي لك أن تسعى في الصلح بيني وبين خصمي دون أن تريد أن تبطش بي ولا بد أن موسى تركه لانقطاع الخصومة وتركه للإسرائيلي.

﴿٢٠﴾ ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ﴾ ﴿يَسْعَىٰ﴾ يسرع، قال الراغب: «السعي: المشي السريع وهو دون العَدْو» انتهى. لينذر موسى قبل أن يدركه طلب آل فرعون ﴿قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ﴾ منذراً له ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ﴾ كبار القوم ﴿يَأْتَمِرُونَ بِكَ﴾ ولعل هذا الائتمار تشاور بسبب أن موسى

قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ

كان محبوباً عند بعضهم فلم يعزموا على قتله بدون تشاور، ولكن الغرض من هذا الائتمار هو قتله؛ فلذا قال ﴿لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ﴾ هارباً منهم ﴿إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ لتنجو منهم.

﴿٢١﴾ ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا﴾ من المدينة ﴿خَآئِفًا﴾ لم يأمن بمجرد الخروج بل هو يتوقع أن يدركه الطلب من الملأ ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لجأ إلى الدعاء الذي هو سلاح المؤمن فنجاه الله منهم.

﴿٢٢﴾ ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ ﴿تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾ قال في (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام): «معناه: نحو مدين» انتهى.

قال الشرفي: «أي قَصْدَها ونَحْوَها وهي قرية شعيب سميت بمدين بن إبراهيم ولم تكن في ملك فرعون، وبينها وبين مصر مسيرة ثمان ليال، ولم يكن موسى يعرف الطريق إلا حسن ظن بربه» انتهى. وقال (صاحب الصحاح): «وجلس تلقاءه: أي حِذاءه» انتهى.

فالحاصل: أن موسى توجه مقابلاً لمدين ومستقبلاً لها ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ﴾ أرجو ربي ﴿أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي يرشدني لسواء الطريق.

قال الشرفي في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾: «أي أخطأ وسط طريق الحق» انتهى المراد.

عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ

فالمعنى على هذا: عسى ربي أن يهديني وسط الطريق، والمراد أرجو ربي أن يهديني؛ ولعله قال ذلك في نفسه وقد حقق الله تعالى له ما رجا.

﴿٢٣﴾ ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ ﴿وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾ أتاه ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً﴾ جماعة كبيرة ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ﴾ دوابَّهم أو أنعامهم، حذف المسقيّ؛ لأنه لا موجب لذكره ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ﴾ فيما بينه وبين الأمة ﴿ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ تمنعان غنمهما عن التقدم إلى الماء، وهذا يلفت النظر، الناسُ يسقون وهما تذودان فسألهما لما في قلبه من الخير ورحمة الضعيف ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾ ما شأنكما المهم الذي لأجله تذودان؟ ﴿قَالَتَا﴾ عادتنا أن ﴿لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾ أنعامهم عن الماء ﴿وَأَبُونَا﴾ ضعيف عن تولي السقي؛ لأنه ﴿شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ فمفهوم هذا تعذّر السقي عليهما مع الناس؛ لأنهما يتجنبان مزاحمة الرجال.

﴿٢٤﴾ ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ إحساناً ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ﴾ عنهما ﴿إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ وقد عرف قربه من مديَن أو أنه قد بلغه فانتهت مهمة السفر وبقيت حاجة المأوى والطعام وغير ذلك، فدعا الله دعوة جامعة ﴿رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ إني فقير لما أنزلت إلي من خير أيّ خير، والدعاء سلاح المؤمن.

لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ

﴿٢٥﴾ ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ﴿فَجَآءَتْهُ﴾ الفاء تفيد التفريع على دعائه ﴿تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ لأنها من أهل الدين، والحياءُ من الإيمان ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ﴾ بالتأكيد لئلا يرتاب في صدقها وبكلام نزيه مجرد حكاية عن أبيها تبلغها ﴿يَدْعُوكَ﴾ وهي الدعوة إلى الطعام.

قال في (الصحاح): «الدَّعوة إلى الطعام ـ بالفتح ـ يقال: كنا في دَعوة فلان» انتهى المراد.

﴿لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ تحقيق لصدقها فيما حكت عن أبيها فلولا هذا التعليل لكان صدقها مستبعداً من حيث أنه غريب، قال الشرفي: «يعني ليكافئك على ما سقيت لنا» ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ﴾ أي جاء موسى أباها ﴿وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ﴾ عن سبب إتيانه إلى مديَن ﴿قَالَ﴾ أبوها ﴿لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فكانت هذه أهم الحاجات قضيت له.

﴿٢٦﴾ ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ أبوها شيخ كبير ومثله يحتاج إلى التنبيه لحاجته، ووجود القوي الأمين فرصة خافت فواتها بأن يذهب موسى من عند أبيها، فلم يكن لها بدّ من المبادرة بالكلام ليستأجره أبوها فيكفيهما مؤونة السقي الذي كانتا عليه، ونبَّهت أباها على ما قد عرفته بذكائها من قوّة موسى وأمانته، فأما القوة فقد ظهرت عند سقيه لهما فكان ذلك الإحسان مفتاح الخير؛ لأنه كان سبب الدعوة وما ترتب عليها.

إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا

﴿٢٧﴾ ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ﴿قَالَ﴾ شعيب عليه السلام لموسى عليه السلام ﴿إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ﴾ وكان هذا تمهيداً لاستئجاره ثماني حجج أو عشراً ليبقى عنده أجيراً خاصاً، فالنبي شعيب عليه السلام قد عرف حاجة موسى للمأوى وللزواج ولسبب نفقته على نفسه وأراد سد خلته من الجهات كلها، يبقى عنده ثماني حجج أو عشراً ويقوم بعمل قد عرفاه جملة.

قال الشرفي رحمه الله: «وفي (البرهان) أسقط ذكر العمل واقتصر على المدة؛ لأنه مفهوم بينهما، والعمل رعي الغنم، وهذه الثماني حجج هي شرط للأب والمهر غيرها» انتهى.

قال الشرفي: «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: إن قال قائل أو سأل عن الإجارة سائل: هل يجوز النكاح على الأجرة وهي غَرَر، وقد حرم الله الغرر بين المسلمين، فالجواب في ذلك وبالله نستعين أن ذلك لا يجوز ولا يكون من أخلاق الصالحين، ولكن المعنى في ذلك ﴿إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى﴾ أي لتأجرني ﴿ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ﴾ فقامت (على) مقام (اللام) وذلك جائز في اللفظ والكلام؛ لأنه إنما زوّجه رغبة في الإقامة ولا يصبر أحد على طول الإقامة إلا مع الأهل والمقام وذلك معروف عند أكثر الأنام، ولم يدخل ذكر الصداق في شيء من هذا الخطاب دليل آخر أن المستأجر هو الشيخ عليه السلام وليس له الصداق وإنما الصدقات للنساء دون الرجال نحلة من الله ذي الجلال» انتهى.

وهذا صحيح؛ لأن كلام أبيهما ليس عقداً إنما هو ابتداء مواعدة، والدليل أنه قال: ﴿إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ﴾ ولا يصح العقد على متردد محتمل، ولو كان عقداً لقال: زوجتك دون ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ﴾ وعلى هذا فلا موجب لجعل الأجر صداقاً، ويصح أنه أراد أن يأجره موسى ليقوم بما كانت بناته تعمله خارج البيت وتبقى البنات في البيت، وأراد أن يزوجه لما في ذلك من المصلحة لموسى وللبنت التي يتزوجها؛ وليمكن بقاء موسى عنده بدون مشقة حيث يصير من الأسرة قد تزوج إحدى البنتين، والأخرى يرجى لها الزواج عن قريب.

فقوله: ﴿عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي﴾ بيان لعمل موسى؛ لأنه يريد أن يجعل له سبباً ويريد أن يكون السبب معه ليغني بناته عن الخروج، فرأيُ شعيب عليه السلام جامع مفيد لبنتيه ولموسى، وكلامه هذا مع موسى يعرف به أن دعوته قد أجيبت حين دعا ربه ﴿إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص:٢٤] لأنه مع قوته وشبابه محتاج إلى الزواج، وقوله: ﴿عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي﴾ أي على أن تكون أجيراً لي ﴿ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ﴾ ثماني سنين قمرية لأنها هي الحجج.

وقوله: ﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ﴾ فائدة لموسى إن أراد البقاء مع كونها تفيد زيادة العمل من موسى، وقوله: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾ ترغيب له في الأجر معه، وعلى هذا الترغيب يمكن أنه أجير خاص لم يعين له العمل قبل العقد، وإنما عينت له المدة كما هو شأن الأجير الخاص، وإن كان قد فهمه من حيث أن شعيباً عليه السلام محتاج لمن يعمل له الرعي ونحوه من أعمال خارج البيت، وقوله: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ترغيب آخر.

عُدْوَانَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ

﴿٢٨﴾ ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿ذَٰلِكَ﴾ المؤاجرة ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ معاملة بيني وبينك لا تدخل فيها البنتان، والتزويج عقده بيني وبينك، وقوله: ﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ﴾ إما ثماني حجج وإما عشراً ﴿فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾ لأن الخيار لي بينهما إن شئت أتممت عشراً وإن شئت ثماني حجج ﴿فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾ بإلزامي زيادة على ما اخترت منهما ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ﴾ أنا وأنت ﴿وَكِيلٌ﴾ نكل إليه الأمر فيه، فهو يحكم فيه بحكمه وهو شهيد عليه.

﴿٢٩﴾ ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ ﴿ٱلْأَجَلَ﴾ سواء كان ثماني حجج أو عشراً المهم أنه قضى ما عليه، وقد أبهم القرآن أي الأجلين قضاه فلا نتكلف معرفته، والقصص هذا مبني على ذكر ما تقتضي الحكمة ذكره دون غيره ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾ يظهر أنهم أسرة مؤلفة من زوج وأولاد ﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ﴾ من جانب الجبل المبارك، ولا بد أنه من أسفل الجبل ليكون موسى عند وصوله إليها بالواد المقدس طوى ﴿ءَانَسَ﴾ أي أبصر ﴿ٱمْكُثُوٓاْ﴾ ابقوا في هذا المكان منتظرين لي.

ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ

﴿لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا﴾ أي من النار التي أراها ﴿بِخَبَرٍ﴾ من أهل النار الموقدين لها؛ ولعله كان محتاجاً إلى خبر عن الطريق أو عن أحوال مصر أو غير ذلك، مثل مكان يبيتون فيه وينامون ليلتهم فهم في ظلمة الليل وفي البرد.

﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ قال الشرفي: «والجذوة ـ بالحركات الثلاث على الجيم ـ وقرئ بهن: العودُ الغليظ كانت في رأسه نار أم لا وأراد هنا ما فيه نار» انتهى. وقد أوضحها بقوله: ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ يعني نجعل لكم هنا ناراً تقربون منها لتدفئكم.

﴿٣٠﴾ ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا﴾ أتى النار التي آنسها ﴿نُودِىَ﴾ دعي بصوت رفيع: يا موسى ﴿مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ قال الراغب: «شاطئ الوادي: جانبه» انتهى، ومثله في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام) وفي (الصحاح): «وشاطئ الوادي: شطّه وجانبه» انتهى.

فقوله: «شطه» أي حافته أي المرتفع عن الوادي من أحد الجانبين، وجانبه أي جزء من الوادي يمينه أو شماله، والراجح: أن المراد في الآية جزء من الوادي؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [النازعات:١٦] فكان موسى في الجانب من الوادي نودي هناك من الشجرة.

﴿ٱلْأَيْمَنِ﴾ من اليُمْن ضد النحس ﴿فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ﴾ قال في (لسان العرب): «والبَقْعة والبُقْعة والضم أعلى قطعةٌ من الأرض على غير هيئة التي بجنبها» انتهى المراد. ومثله في (القاموس) والمباركة: باركها الله، قال الراغب: «والبَرَكة: ثبوت الخير الإلهي في الشيء» انتهى.

أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى

﴿مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ نودي من الشجرة: ﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ﴾ تفسير للنداء ﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ نداء أنشأه الله وسمعه موسى كما نسمع الكلام في (الراديو) يقول لموسى هذا القول ليستعد لسماع ما يأمره به رب العالمين.

﴿٣١﴾ ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ﴾ ﴿وَأَنْ﴾ ابتداء تفسير لما بعدها؛ لأن الوحي كان غير عربي، وإنما تفسيره بالعربية ما حكاه الله تعالى ﴿أَلْقِ عَصَاكَ﴾ اطرحها من يدك، فألقاها فصارت حية بقدرة الله؛ لتكون آية لموسى يعلم بها أن الكلام الذي يسمعه من الله ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾ متحركة ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ حنش كما مر تفسيره ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾ لأنه خاف منها ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ بل استمر في الهرب، فناداه الله ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ﴾ أي إلى جهة الكلام ﴿وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ﴾ الذين لا خوف عليهم؛ لأنك من أولياء الله.

﴿٣٢﴾ ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ﴾ أدخل يدك في جيبك، والجيب من الثوب: مدخل رأس اللابس له ﴿تَخْرُجْ﴾ يدك ﴿بَيْضَآءَ﴾

هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا

أي تخرج من جيبك بيضاء ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ بل بياضها جميل ليس بياض برص ولا غيره من المرض، فهذه آية من الله لموسى يُعْرَفُ بها أنه صادق ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾ يدك ضمها إليك ﴿مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾ وهو الخوف، فيزول عنك الخوف إذا ضممتها إلى جانبك، وهذه آية أخرى.

﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ﴾ ﴿فَذَٰنِكَ﴾ إشارة إلى الآيتين ﴿بُرْهَٰنَانِ﴾ أي دليلان وحجتان يُعرف بهما أنك رسول من الله ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ﴾ أكابر قومه ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ قد استمروا على فسقهم، فأنت نذير لهم من الله.

﴿٣٣-٣٤﴾ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ * وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ عرض لمشكلة لحلّها ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي﴾ لأن موسى كان في لسانه خلل فأراد أن يرسل معه أخاه هارون؛ ليبين لفرعون وقومه، ولكن فرعون كان يوجه السؤال إلى موسى ليجيب هو حتى يظهر ضعف كلامه، وقدح فيه بقوله: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ..﴾ [الزخرف:٥٢] فأراد موسى أن يعينه هارون.

وقوله: ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا﴾ وفي قراءة: ﴿رداً﴾ قال في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: مُعين» انتهى، وفي (مفردات الراغب): «الردء: الذي يتبع غيره معيناً له» انتهى، وفي (الصحاح): «تقول أردأته بنفسي، إذا كنت له ردءاً وهو العون» انتهى، ومثله في (لسان العرب) لم يخصاه بالذي يتبع غيره، وزاد في (لسان العرب) فقال: «الردء: العون والناصر» انتهى.

يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي

قال في (الكشاف): «وقرئ ﴿رداً﴾ على التخفيف كما قرئ ﴿الخب﴾» انتهى، يعني أن أصل (رداً) أن يقرأ بالهمز، ولكنه حذفت منه الهمزة للتخفيف كما حذفت في (الخب) للتخفيف.

﴿٣٥﴾ ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ ﴿قَالَ﴾ الله لموسى: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ﴾ أي سنقويك ﴿بِأَخِيكَ﴾ وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: سنقوّيك به ونُعينك عليه» انتهى.

وقوله: «عليه» مشكلٌ؛ ولعله تصحيف أو زيد غلطاً، أو أراد على فرعون فاستجاب لموسى دعاءه بذلك.

وقوله: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾ أي نجعل لك ولهارون سلطاناً على فرعون وملئه، بمعنى غلبة وقهراً، وذلك بالهيبة والرعب منهما ﴿فَلَا يَصِلُونَ﴾ تفريع على السلطان لا يصلون بقتل أو نحوه ﴿إِلَيْكُمَا﴾ وهذا لئلا يخاف فهو جواب على قوله: ﴿إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ [القصص:٣٣].

وقوله تعالى: ﴿بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ أفادهما أنهما ومن معهما سيغلِبون فرعون وملأه لكن بالآيات، فكانت عصا موسى وغيرها من الآيات سبباً لغلبة موسى بالحجة، فأما هلاك فرعون وملئه فلم يذكر هنا؛ ولعله ليبقى موسى راجياً لإسلام فرعون وملئه.

ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ

﴿٣٦﴾ ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ ﴿بَيِّنَٰتٖ﴾ فهي آيات لا تحتمل أنها سحر بل هي بينات أنها آيات بحيث علموا أنها آيات، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ..﴾ [النمل:١٤] ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاَءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ [الإسراء:١٠٢].

﴿قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ﴾ أي ليس آيات وإنما هو سحر ﴿مُّفۡتَرٗى﴾ أي مكذوب بدعوى أنه آيات، كقوله تعالى: ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ..﴾ [يوسف:١٨] وقولهم: ﴿وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ الإشارة إما إلى الآيات الخارقة فأرادوا أنهم ما سمعوا بآيات لرسول، أو إلى الرسالة من الله فأرادوا ما سمعوا بأن الله أرسل رسولاً في الأولين، فهو تكذيب للرسل الماضين سواء كانت الإشارة إلى المعجزات أم إلى الرسالة.

﴿٣٧﴾ ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ ﴿رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ﴾ ربي أعلم بي أني لست من أهل السحر ولا الكذب على الله؛ ولذلك أرسلني فجئت بالهدى من عنده، وهذا لا ينافيه تكذيبهم له؛ لأنهم قد علموا أنه صادق وعلم موسى أنهم قد علموا فكلامه لهم مبني على ما قد علموا.

وقوله: ﴿وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ أي وربي أعلم من تكون له عاقبة الدار الذي يرثها وتكون له العاقبة فيها، وهذا إشارة إلى أن العاقبة ستكون لموسى ومن آمن معه.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ

ولا يفيد أعداءهم التكبر والتكذيب والجدال بالباطل ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ لا تكون عاقبتهم الفلاح والظفر بالخير والفوز بل العاقبة للمتقين وعاقبة الظالمين الهلاك.

﴿٣٨﴾ ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى﴾ جحود منه بالله الذي خلقه ودعوى أن قومه يعبدونه بالطاعة، وليس يعني الإلهية الحقيقية وإنما هذا كقوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات:٢٤] جحود بالله ودعوى قيامه مقام الرب ومقام الإله فهي مشاكلة لقول موسى وهارون: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء:١٦] ودعوتهما له إلى عبادة الله وحده.

وقوله: ﴿فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا﴾ تفريع على نفي علمه بالإله وأنه يريد صرحاً قصراً عالياً ليصعد حتى يبحث عن إله موسى أهو موجود أم لا؛ ولعل غرضه الحقيقي أمران:

الأول: التضليل على قومه بإظهار القوة؛ لأن البناء يصف الغنى ليقابلوا بينه في ملكه وبين موسى وهارون في فقرهما.

الثاني: تطويل المدة بينه وبين موسى؛ لعجزه عن إبطال حجة موسى ورغبته في البقاء على الكفر، فهو يصور أنه ما زال في مقام البحث والنظر في صدق موسى، وختم قوله بدعوى أنه يظن أنه من الكاذبين لئلا يتوهم قومه أنه قريب من الإيمان.

إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى

﴿٣٩﴾ ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ في أماكن شتى نشروا استكبارهم بتصرفات تعبر عن استكبارهم مثل: بناء الصرح، وجمع السحرة، استكبروا ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ لأنهم عباد مربوبون ليس لهم من القوة إلا ما مكنهم الله فيه وبقدر ما مكنهم وفي حدود تمكينه وعن قريب تنتهي وينكشف ضعفهم وعجزهم، فاستكبارهم إنما هو عن توهم وتخيّل ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ يوم القيامة لظنهم أنه لا حياة بعد الموت، فلا مرد إلى الله في ظنهم الكاذب.

﴿٤٠﴾ ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ عاقبة استكبارهم عن الإيمان بموسى وإصرارهم على الظلم أخذهم الله فنبذهم أي طرحهم ﴿فِي الْيَمِّ﴾ في البحر، فالكبرياء لله وحده، أخذ فرعون وجنوده فألقاهم في اليم، أخذهم ﴿أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ﴾ [القمر:٤٢] كأنهم قليل من الدود أخذهم آخذ بيده وألقاهم في الماء فهلكوا.

وفي تفسير (سورة الذاريات) من (تفسير الشرفي): «عن الحسين بن القاسم عليه السلام: واليمّ: فهو البحر المالح الأعظم» انتهى، ولعله عنى البحر الذي أغرق الله فيه فرعون وجنوده دون مفهوم اليم في اللغة، وقد فسره الشرفي في (سورة القصص) بالبحر من غير زيادة.

وقوله تعالى: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ تنبيه على أن في ذلك عبرة فيتوقع من أجلها هلاك أعداء رسول الله محمد صلى الله عليه وآله وسلم المكذبين له ويتوقع بها أن النصر سيكون لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بهلاك الظالمين.

ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَـٰهُمْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ

﴿٤١﴾ ﴿وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾

﴿وَجَعَلْنَـٰهُمْ﴾ الضمير إما لفرعون وجنوده، وإما لفرعون وملئه ﴿أَئِمَّةً﴾ أي قادة متبوعين بتمكينهم، وكان ذلك فتنة للمتبوعين والتابعين، أي اختباراً أدى إلى أن كانوا أئمة حين أطاعهم التابعون، ونسبة ذلك إلى الله تعالى من المتشابه؛ ولعل من فوائدها الدلالة على أنه تعالى غني عنهم غير مبال بهلاكهم؛ لأنها لا تضره معصية العاصين، وقوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ أي إلى أسباب النار؛ لأنهم ومن تبعهم يصيرون إلى النار ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ لا ينصرهم أتباعهم الذين كانوا جنوداً لهم؛ لأنه ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس:٣٧] ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾ [النحل:١١١].

﴿٤٢﴾ ﴿وَأَتْبَعْنَـٰهُمْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ وأتبعنا الدعاة إلى النار ﴿لَعْنَةً﴾ من الله ومن الأجيال بعدهم والملائكة ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ قال في (لسان العرب): «أبو زيد: قبح الله فلاناً قبحاً وقبوحاً، أي أقصاه وباعده من كل خير» انتهى المراد.

أما الراغب فأرجعه إلى القبح ضد الحسن، فقال: «وقوله:﴿مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ أي من الموسومين بحالة منكرة..» الخ وهو خلاف المشهور في تفسير قبح ـ بتخفيف الباء ـ والذي في (الصحاح) و(أساس البلاغة) و(القاموس) نحو ما في (لسان العرب) وقد يقال: يمكن الجمع بأن الراغب أراد أن حالته المشوهة هي إقصاؤه من كل خير، ولكنه فسر الحالة المشوهة بغير ذلك وهو لازم الإقصاء من كل خير.

مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ ٱلۡأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ إِذۡ قَضَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلۡأَمۡرَ وَمَا كُنتَ

﴿٤٣﴾ ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ ٱلۡأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ يظهر: أن هذه الآية تشير إلى أول السورة ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فعند تمام المتلو من نبأ موسى وفرعون جاءت الآية في إنزال التوراة على موسى، وذلك دلالة لقريش على أنه ليس بِدعاً إنزال القرآن هدى للناس فقد أنزل الله قبله التوراة، ونظير هذا في (سورة الأنعام) ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ...﴾ وفي (سورة الأحقاف): ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿.. وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا﴾ [١٠-١٢].

وقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ ٱلۡأُولَىٰ﴾ وهم المكذبون للرسل الذين همُّوا بهم ليأخذوهم فنبه الله عباده على شدة بطشه بأعداء الرسل ليحذر قريش ومن حولهم من تكذيب القرآن والرسول.

وقوله تعالى: ﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾ أي تنويراً للقلوب يبصر بها المؤمنون بعقولهم ﴿وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ فهي في نفسها بصائر وهدى ورحمة، ولكن ذلك معدّ في التوراة للناس معروضاً عليهم فمن قَبِله وآمن أبصر به واهتدى به ونال الرحمة من الله به، ومن أبى فالعمى من عنده، ونظير هذا في القرآن ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ..﴾ [البقرة:١٨٥].

مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأۡنَا قُرُونٗا فَتَطَاوَلَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيٗا فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ تَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذۡ نَادَيۡنَا وَلَٰكِن رَّحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ

ومع ذلك قال تعالى في القرآن: ﴿**قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى..**﴾ [فصلت:٤٤] فلا تنافي بين كونه هدى للناس كافة وكون الذي يهتدي به المؤمن خاصة.

﴿٤٤﴾ ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ إِذۡ قَضَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلۡأَمۡرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ ﴿وَمَا كُنتَ﴾ يا رسول الله محمد ﴿بِجَانِبِ﴾ الجبل ﴿ٱلۡغَرۡبِيِّ إِذۡ قَضَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلۡأَمۡرَ﴾ وأتممناه بإنزال التوراة عليه، قوله:﴿وَمَا كُنتَ﴾ عطف على قوله: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ**﴾.

و(جانب الغربي): محل المناجاة بإنزال التوراة في الميقات الذي هو أربعون ليلة، والأمر إما بمعنى التكليف بما في التوراة وبإبلاغها، وإما بمعنى الشأن العظيم الذي هو إنزال التوراة ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ الحاضرين المشاهدين لتلك المناجاة، فقد أخبرت بما أنت غائب عنه وما ذلك إلا بوحي من الله إليك.

﴿٤٥﴾ ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأۡنَا قُرُونٗا فَتَطَاوَلَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيٗا فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ تَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ﴾ ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأۡنَا قُرُونٗا﴾ من بني إسماعيل وغيرهم ﴿فَتَطَاوَلَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُ﴾ فتطاول عليهم بسبب بُعدهم من عهد الوحي والنبوة العمر: المدة التي عاشوها في زمن الفترة وانقطاع الوحي؛ ولذلك احتاج الناس إلى رسول فأرسلناك يا محمد فأنت تبلغهم الأخبار عن موسى التي كنت غائباً عنها.

لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا

﴿وَمَا كُنتَ﴾ يا محمد ﴿ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ فتخبر بما كان من موسى في مدة الأجل الذي كان فيه أجيراً فأتمه ﴿تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ التي أنزلناها على شعيب، ومعنى﴿ثَاوِيًا﴾: مقيماً؛ ولعل المراد: أنه ﷺ لو كان ثاوياً في أهل مدين ما بقي إلا معلماً لهم ما تعلمه من نبي الله شعيب؛ لأن هذا شأن الصالحين أن يكون همهم إرشاد الناس وتعليمهم كما شأنهم تعلم العلم والمعرفة بآيات الله إذا حضروا عند من عنده العلم.

فلو كان محمد ﷺ ثاوياً في أهل مدين لكان قد تعرف آيات الله من نبي الله شعيب وصار يتلوها على أهل مدين نيابة عن نبي الله شعيب لضعفه بكبر السن أو معاونة له ومشاركة في الإرشاد ـ والله أعلم.

﴿وَلَٰكِنَّا﴾ أرسلناك كما سنتنا إرسال الرسل إلى الناس فأخبرت بخبر موسى عليه السلام حين كان في مديَن؛ لأنا أوحيناه إليك.

﴿٤٦﴾ ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ﴿وَمَا كُنتَ﴾ يا محمد ﴿بِجَانِبِ ٱلطُّورِ﴾ حيث آنس موسى ناراً فأتاها فناداه ربه وأرسله إلى فرعون وملئه كما مر في هذه السورة، ومرّ الجمع بين كون النار بجانب الطور وكون النداء بالواد المقدس، فأخبر محمد رسول الله ﷺ بذلك مفصلاً مع أنه لم يكن حاضراً؛ فما ذاك إلا لأن الله أوحاه إليه؛ لأن الله أرسله رحمة للعالمين وخصوصاً بني إسماعيل.

رَسُولاً فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ

﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ وهم قريش ومن حولهم ﴿مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ فهم في أمسّ الحاجة إلى نذير ينقذهم من النار؛ لأنهم في جاهلية جهلاء يعبدون الأصنام ويئدون البنات ويأكلون الميتة ويحرمون بعض نعم الله ويقتتلون على غير موجب، وعلى الجملة في ضلال مبين، فأرسل الله إليهم رحمة لهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ما هو مخزون في فطرتهم من توحيد الله والإيمان بما أخبر به واجتناب الظلم.

﴿٤٧﴾ ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ واستحقوا عليه العذاب؛ لأنهم أجرموا به بدون عذر كالشرك ووأد البنات وقتل الأبرياء وغير ذلك ﴿فَيَقُولُواْ﴾ عند إصابة المصيبة لهم ﴿رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً﴾ لترفع عنهم المصيبة ويكون لهم حجة، فولا ذلك لصح تركهم بلا رسول إما مطلقاً وإما مؤقتاً إلى حين؛ لأن جواب لولا حذف لدلالة السياق عليه جملة، ولكن الله أرسل إليهم ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥].

﴿٤٨﴾ ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُواْ سَاحِرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ﴾ ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ وهو القرآن والرسول محمد ﷺ ﴿مِنْ عِندِنَا﴾ من عند ملك الملوك رب العالمين لم يقبلوا الحق الذي هو من

فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ

عند الله، بل ﴿قَالُوا۟﴾ جدالاً ﴿لَوْلَآ أُوتِىَ﴾ محمد ﴿مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾ من الآيات الدالة على صدقه كقلب العصا ثعباناً مبيناً لنؤمن به، وليس لهم حق في اشتراط ذلك بل قد كفى وضوح الحق بالقرآن.

﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ إتيان رسول الله إليهم ﴿قَالُوا۟ سَاحِرَانِ﴾ موسى وهارون ﴿تَظَٰهَرَا﴾ تعاونا فعظم السحر بتظاهرهما ﴿وَقَالُوٓا۟﴾ بعد ذلك: ﴿إِنَّا بِكُلٍّ﴾ من محمد وموسى ﴿كَٰفِرُونَ﴾ فهم متمردون لا يريدون الحق.

﴿٤٩﴾ ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ غير التوراة والقرآن ﴿هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ﴾ أهدى من التوراة والقرآن ﴿أَتَّبِعْهُ﴾ إن أتيتم به ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في كفركم بمحمد وموسى، فإذا لم يكن عندكم شيء فأنتم تدفعون الحق بغير حجة وتزعمون أن الله أهمل عباده بلا نذير.

﴿٥٠﴾ ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ﴾ يا رسول الله لم يؤمنوا بك وبالقرآن ولم يأتوا بكتاب من عند الله فقد بان أنهم ﴿أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾ فاعلم ذلك؛ لأنهم يدافعون الحق بمجرد الكذب والتعلل ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾

ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم

حال كونه ﴿بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ ينقذه من ضلاله بل هو متروك في ضلاله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بمدافعة الحق وترك الإنصاف وباتباع هوى النفس والإعراض عن آيات الله والتكذيب بها والجدال بالباطل، فهو تعالى لا يهديهم بعد أن قامت عليهم الحجة بل يتركهم في ضلالهم يعمهون.

﴿٥١﴾ ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ﴿وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ﴾ قد يكون المراد هذا القول الماضي في هذه السورة أتبعنا بعضه بعضاً متصلاً بعضه ببعض، فجئنا بنبأ موسى وفرعون متصلاً غير مفرق في أوقات متباينة ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أن هذا القصص الكامل المفصل ما هو إلا من عند الله؛ لأن محمداً لم يقرأ ولم يكتب وإنما قرأ ما أوحاه الله إليه، وكان في بلد لا يقرؤون بل يرون القراءة في كتب أهل الكتاب أمراً بعيداً؛ لأنهم عرب وهي أعجمية وهم لا يؤمنون بها ولا يرونها إلا خاصة بأهل الكتاب، فإتيان رسول الله ﷺ وهو بينهم نشأ أمّياً لا يقرأ ولا يكتب إتيانه بهذا القصص مفصلاً آية لمن يتذكر تدل على أن الله أوحاه إلى محمد ﷺ ليكون رسولاً إلى أم القرى ومن حولها ثم إلى كافة الأمم.

﴿٥٢﴾ ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ من قبل هذا القرآن فيرون هذا القرآن مطابقاً لها ﴿هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ لمطابقته ما عندهم مع أن الذي بلغهم أمّي، والذين آتيناهم هنا بمعنى العلماء من أهل الكتاب الذين علمهم الله معاني كتبهم.

والكتاب يطلق على الجمع؛ لأن أصله مصدر وليس المراد الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها من جهلتهم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾ [البقرة:٧٨] وإيمان علمائهم بهذا القرآن كان في حال كون رسول الله ﷺ في مكة يَبْلُغُهم عنه بعضُ القرآن فيعلمون أنه الرسول الموعود به في التوراة، فأما حين هاجر رسول الله ﷺ فلعل بعض من كان آمن غلبهم الحسد فكذبوه، وهذا في علمائهم فأما غيرهم فلا إشكال في شيوع الكفر فيهم، وقد فصّل الله القول فيهم في (سورة البقرة).

﴿٥٣﴾ ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾ ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ القرآن ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ﴾ لأنه ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ﴾ من قبل نزوله ﴿مُسْلِمِينَ﴾ أنفسنا لله ربنا فلا نشرك به ولا نتعصب لأحد، ولا يمنعنا حسد؛ لأنا مسلمون أنفسنا لله لا يهمنا إلا أن نطيعه.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال في (البرهان): في سبب نزولها قولان:

أحدهما: نزلت في عبد الله بن سلام وتميم الداري والجارود العبدي وسلمان الفارسي أسلما [كذا] فنزلت فيهم هذه الآية والتي بعدها.

والثاني: أنها نزلت في أربعين رجلاً من أهل الإنجيل كانوا مسلمين بالنبي ﷺ قبل مبعثه، اثنان [كذا] وثلاثون [كذا] رجلاً من الحبشة أقبلوا مع جعفر بن أبي طالب وقت قدومه وثمانية قدموا من الشام منهم بحيرا وأبرهة والأشرف وعامر وإدريس ونافع، فأنزل الله فيهم هذه الآية» انتهى. وهذه الأسماء في (الميزان) إلا عامراً فبدله أيمن.

مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي

﴿٥٤-٥٥﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ * وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أهل الصفات التي مرّ ذكرها:

منها: أن الله تعالى آتاهم الكتاب فهم علماء ليسوا كمن قال تعالى فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ﴾ [آل عمران:٢٣].

ومنها: أنه إذا يتلى عليهم القرآن قالوا آمنا به بمجرد تلاوته عليهم، آمنوا به لأنهم عرفوا أنه الحق من ربهم.

ومنها: أنهم كانوا من قبله مسلمين لأنفسهم لله، فأهل هذه الصفات يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا قبل نزول القرآن، وبما صبروا بعد ما يتلى عليهم لم يمنعهم من الإيمان به خوف أذية السفهاء أو عدوان المتعصبين من أهل الكتاب.

﴿وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ يدفعون بالحسنة من كلمة طيبة أو فعل حسن أو عطاء يدفعون بذلك إساءة من كان لولا الحسنة يسيء إليهم ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ من مالهم الحلال ينفقون في وجوه الخير مثل: إطعام الفقراء المهاجرين في سبيل الله وغير ذلك ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ﴾ من السفهاء، واللغو: الكلام الذي ينبغي تركه مثل: سبهم من أجل أنهم آمنوا ﴿أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ﴾ فلم يجيبوا بل ولم يصغوا أسماعهم لقائله.

مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنًا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ

﴿وَقَالُواْ﴾ رداً لسفاهتهم ﴿لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾ فإيماننا لنا، وبقاؤكم على دينكم لكم، فلا يضركم إيماننا ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ لا نجيب على سبكم ولا نقابل إساءتكم بمثلها.

قال الشرفي: «وهو ـ أي هذا التسليم ـ عبارة عن التوديع؛ لأن من عادة المودع أن يسلم على من يودعه» انتهى.

قلت: ففي عرفنا يقال: مع السلامة أو خاطرك، وقولهم: ﴿لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ أي لا نطلب الجاهلين الذين يجهلون علينا، أي لا حاجة لنا فيكم.

قال الشرفي: «قال بعضهم: نسخ ذلك بالأمر بالقتال، وهو بعيد لأن ترك المسافهة مندوب وإن كان القتال واجباً» انتهى.

والمسافهة ـ بالسين المهملة ـ ولا تنافي بين الإعراض عن اللغو والقتال؛ لأن القتال لدفع إفساد المشركين لا جزاء على سفاهتهم بالكلام.

﴿٥٦﴾ ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ ﴿لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾ أي لا تجعله مهتدياً؛ لأنك تحبه فتشاء أن يهتدي، أي ليس اهتداء أحد تابعاً لمشيتك أن تهديه أو إرادتك بل هو تابع لمشيئة الله، فإذا شاء أن يهتدي هداه؛ لعلمه أنه أهل لذلك، وكون هداه له حسن في الحكمة؛ لأنه لم يستحق الخذلان بل هو أهل للألطاف، وجعله محباً للإيمان ﴿وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ الذين آمنوا وصدق إيمانهم كما أنه أعلم بمن يدعي الاهتداء وقلبه لم يدخله الإيمان.

شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا

روى مسلم وغيره عن أبي هريرة وغيره: أن هذه الآية نزلت في أبي طالب، أبى أن يقول: لا إله إلا الله عند موته فنزلت، وقد رد هذه الرواية علامة عصرنا عبد الله بن الهادي الحسن بن يحيى القاسمي في كتابه (حاشية كرامة الأولياء) رداً مفيداً.. فليراجع.

﴿٥٧﴾ ﴿وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قال الشرفي: «قال في (البرهان): نزلت هذه الآية في الحارث بن نوفل بن عبد مناف قال للنبي صلى الله عليه وآله وسلم: نحن نعلم أنك على الحق لكنا نخاف إن خالفنا العرب واتبعناك ونحن قليلون أن يتخطفونا [في الأم يتخطفون وهو غلط واضح تمت] من أرضنا لاجتماعهم على خلافنا، وقال الحسين بن القاسم عليه السلام: هذا نفاق حكاه الله من بعضهم فأسكتهم الله تعالى بقوله: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا﴾ ألزمهم الله الحجة بأنه مكّن لهم في الحرم الذي أمّنه وأمّن سكانه بحرمة البيت» انتهى المراد، وبقيته في (المصابيح).

قال الراغب: «الخطف، والاختطاف: الاختلاس بالسرعة» انتهى. وفي (لسان العرب): «الخطف: الاستلاب، وقيل: الخطف الأخذ في سرعة واستلاب» انتهى، والتخطف يفيد: تكرر الاختطاف باعتبار تعدد أهل الحرم، وقوله تعالى: ﴿يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي تجلب إليه وتجمع فيه.

وفي (مصابيح الشرفي): عن الحسين بن القاسم: «﴿يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي تجلب إليه وتحمل عبارة عن الكثرة» انتهى. أي كل شيء عبارة عن الكثرة، فلا خوف على أهل الحرم لا من القتل ولا من الجوع.

وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا

وقوله تعالى: ﴿رِّزْقًا﴾ أي هذه الثمرات جعلناها رزقاً، ولعل ذلك إجابة لدعوة إبراهيم عليه السلام ﴿وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ [إبراهيم:٣٧] وقوله تعالى: ﴿مِّن لَّدُنَّا﴾ أي من عندنا أي نحن أعطيناهم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنها منا؛ لأنهم لا ينظرون بل هم غافلون عن الله سبحانه.

﴿٥٨﴾ ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ قال الشرفي: «واعلم أنه تعالى لما بين تلك النعم أخبرهم أن الإصرار على عدم قبول الإيمان هو الذي يزيل النعم لا الإقدام على الإيمان» انتهى.

والبطر: تعريض النعمة للزوال بكفرها، وأصله كما قال الراغب: «دهش يعتري الإنسان من سوء احتمال النعمة وقلة القيام بحقها وصرفها إلى غير وجهها، ثم قال: ويقارب البطر الطرب وهو خفة أكثر ما يعتري من الفرح» انتهى المراد، فقد أفاد: أنه السفه من سوء احتمال النعمة؛ لأن الدهش نقص في العقل. قال في (الصحاح): «دهِش الرجل بالكسر يدهش دهشاً تحير ودُهِشَ أيضاً فهو مدهوش، وأدهشه الله» انتهى.

﴿فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ﴾ أي بعد هلاكهم ﴿لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ قال الشرفي: «قال ابن عباس: لم يسكنها إلا المسافر ومار الطريق يوماً أو ساعة» انتهى. قلت: هذا خلاف الظاهر؛ لأن السكنى لبث وبقاء وأما اليوم والساعة فلا يسمى سكنى، والأولى أن البلدة بعد المهلكين تغيرت مرافقها فلم تصلح للسكنى ﴿وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ أي لتلك البلدة كما أن الله تعالى يرث الأرض كلها.

ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ

﴿٥٩﴾ ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ﴾ يا رسول الله ﴿مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ لأجل بطرها ﴿حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِيٓ أُمِّهَا﴾ وهي القرية التي تؤمها القرى وهي مكة تؤمها القرى التي حولها ﴿رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ﴾ أي على القرى ﴿ءَايَٰتِنَا﴾ فتقوم عليهم الحجة بالنذير الذي يتلو عليهم آياتنا فيعلمون بالآيات أنه رسول من الله، فإذا تمردوا استحقوا الهلاك.

﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ لأنهم إذا سمعوا آيات الله فآمنوا بالرسول لم يهلكهم الله، وفي هذه الآية دلالة على أن المراد بإهلاك القرى تدميرها بحيث يهلك أهلها لا هلاك أهلها دون تدمير القرى، فأهل القرى يهلكون بالموت سواء آمنوا أم لم يؤمنوا، فظهر أن إسناد الهلاك إلى القرى ليس على حذف مضاف أي أهلها.

﴿٦٠﴾ ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ لعل هذا من الجواب على قولهم: ﴿إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ﴾ فالجواب الأول: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ والثاني: أن هذه الثمرات ونحوها إنما هي متاع ﴿ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فلا يتوقف الإسلام عليها؛ لأن الإسلام أهم من كل متاع الدنيا ﴿وَزِينَتُهَا﴾؛ لأن ما عند الله من الثواب لمن آمن واتقى ﴿خَيْرٌ﴾ من متاع الدنيا ﴿وَأَبْقَىٰٓ﴾ لأن متاع الدنيا قليل بالنسبة إلى الثواب في الآخرة؛ ولأن متاع الدنيا يفنى أو يقطعه الموت وما عند الله يبقى أبداً، فاتباع الهدى أهم من كل متاع الدنيا وزينتها، وقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ خطاب لمن يؤثر الدنيا على الآخرة كأنه لا يعقل الفرق بين المتاع القليل الفاني وبين النعيم العظيم الدائم.

لَـٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعۡنَـٰهُ مَتَـٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ هُوَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَـٰمَةِ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ أَغۡوَيۡنَـٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَا تَبَرَّأۡنَآ إِلَيۡكَ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعۡبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ

﴿٦١﴾ ﴿أَفَمَن وَعَدۡنَـٰهُ وَعۡدًا حَسَنًا فَهُوَ لَـٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعۡنَـٰهُ مَتَـٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ هُوَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَـٰمَةِ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ﴾ ﴿أَفَمَن﴾ آمن فشمله وعد الله لمن آمن بالجنة فهو لاقٍ ما وعده الله كمن عاقبته أن يحضر للحساب والعقاب وهو في الدنيا قد متعه الله بنعم تنتهي بالموت، فهل يساوي هذا الممتع ذلك الذي يصير في الجنة.

إن العقل يحكم بالفرق بينهما وإن السعيد من يصير في الآخرة إلى ثواب الله وإن كان في الدنيا فقيراً في شدة، وإن الشقي من يصير في نار جهنم وإن كان في الدنيا ملكاً مترفاً.

﴿٦٢﴾ ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ﴾ ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ﴾ لعله عطف على ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَامَةِ﴾ وإن كان يوم يناديهم هو يوم القيامة؛ لأن هذا مثل عطف الصفات لموصوف واحد، فالذي أبى الإسلام وبقي على الشرك يوم القيامة ﴿مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ﴾ وهو من المحضرين يوم يناديهم ﴿فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ﴾ في الدنيا ما بالهم لا ينصرونكم اليوم، وهذا توبيخ للمشركين وتذكير بجرمهم العظيم لهم ولمن يسمع يوم يناديهم.

﴿٦٣﴾ ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ أَغۡوَيۡنَـٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَا تَبَرَّأۡنَآ إِلَيۡكَ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعۡبُدُونَ﴾ ﴿حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾ شملهم الوعيد وصدق عليهم، وصاروا من أهل النار، وكانوا في الدنيا متبوعين.

فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا

﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الأتباع ﴿ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ﴾ في الدنيا ﴿أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ لأنهم كانوا تابعين لنا فكانت غوايتهم تبعاً لغوايتنا، ولو كنا مهتدين لهديناهم ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ﴾ منهم لا ننفعهم ولا نحمل عنهم بعضاً من عذابهم ﴿مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ ما انفردنا بإغوائهم وطاعتهم بل أطاعوا الشيطان.

﴿٦٤﴾ ﴿وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ﴾ ﴿وَقِيلَ﴾ للفريقين ﴿ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ﴾ الذين كنتم تزعمون ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ فلم يجدوا من ينصرهم منه، وتمنوا ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟﴾ في الدنيا ﴿يَهْتَدُونَ﴾ حين يدعوهم الهداة إلى الله وحده.

﴿٦٥﴾ ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ينادي المشركين كما يفيده السياق وعلى هذا فالنداء هذا وإن كان موجهاً إلى المشركين فهو يهم السامعين الذين أرسل إليهم كلهم، هل أطعتموهم أو عصيتموهم؟.

﴿٦٦﴾ ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ ﴿ٱلْأَنۢبَآءُ﴾ الأخبار لم يجدوا جواباً لهذا النداء يحل المشكلة؛ لأنهم كلما تذكروا جواباً عمي عليهم، فكل جواب لا يبصر لهم حلاً لمشكلتهم، بل كل جواب أعمى عن الإفادة إن قالوا في الجواب: آمنا بهم واتبعناهم، فهذا غير صحيح ولا يفيدهم الكذب يومئذ، وإن قالوا: (كنا مكرهين) فهو غير صحيح، وإن قالوا: (شغلتنا أموالنا وأهلونا..) فهذا غير صحيح، ولا يفيد الكذب.

فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلۡمُفۡلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ

وكذلك إن قالوا: ما بلغتنا دعوة المرسلين، وإن قالوا: كذبناهم فهذا لا يفيدهم، فكل جواب لا يهتدي إلى طريقة إفادة لهم ولا يجد لهم جدوى ليجيبوا به، فاعتبر أعمى، كأن الأجوبة لو كان فيها جواب فيه إنقاذهم لقال لهم: أنا الجواب المفيد؛ ولعل فائدة إسناد العمى إلى الأنباء أنه لا جواب مفيد، فلو قيل: فعموا عن الأنباء لاحتمل الكلام أن بعضها مفيد لكنهم عموا عنه.

وقوله: ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾ يفيد: تعليق العمى على يوم القيامة، يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولا يفيدهم الجحد، ولا يفيدهم الكذب، ولا يفيدهم الإقرار، بخلاف هذه الدنيا فإن الحاكم قد يغتر لأنه لا يعلم الغيب، أما الآخرة فالحاكم فيها علام الغيوب.

وقوله تعالى: ﴿فَهُمۡ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ لأنهم مع حاجتهم إلى السؤال عما يجيبون به هذا النداء ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ﴾ [عبس:٣٧] أو لأن كل واحد منهم يعلم أن الآخرين مثله قد عميت عليهم الأنباء؛ أو لهول الموقف وشدة الخوف؛ أو لأنهم لا يكلم أحد أحداً إلا بإذن من الله ولم يؤذن لهم في التساؤل؛ أو لأجل هذه الموانع كلها ـ والله أعلم.

﴿٦٧﴾ ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلۡمُفۡلِحِينَ﴾ ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ﴾ في الدنيا من الشرك أو أي معصية مما كان فيه من المهلكات ﴿وَءَامَنَ﴾ بالمرسلين وبكل ما يجب الإيمان به حتى جاء يوم القيامة وهو مؤمن ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ كذلك في الدنيا حين ينفع العمل ﴿فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلۡمُفۡلِحِينَ﴾ في يوم يناديهم فهو قريب من أن يكون

من المفلحين بدخول الجنة والنجاة من النار الظافرين بالسعادة الدائمة، وهذا النداء في موقف السؤال والعرض على الله؛ فلذلك يكون المؤمن قريباً من الفلاح باعتبار أن الفلاح نيل الثواب وتحقق النجاة من العذاب والنداء قبل ذلك.

(٦٨) ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿وَرَبُّكَ﴾ يا رسول الله الذي أرسلك لتنذر المشركين، ربك ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ لأنه على كل شيء قدير، وبكل شيء عليم، والمشركون يشركون ما لا يخلق ولا يقدر، وربك ﴿يَخْتَارُ﴾ من يشاء ليرسله إلى عباده أو لما شاء؛ لأن له الملك؛ لأنه المالك لمن في السموات والأرض، فاختياره لك رسولاً هو الحق ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ ما كان للمشركين أو لشركائهم الخيرة؛ لأنهم عباد مربوبون، فليس لهم الاختيار، فبطل اعتراضهم بقولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف:٣١] أو قولهم: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ [ص:٨].

﴿سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ﴾ تنزيهاً بليغاً لله جل جلاله ﴿وَتَعَـٰلَىٰ﴾ ترفع عما يشركون، فلا يرضاه كما يزعمون، بل يتنزه عنه ويتعالى كما هو شأن عزته وحكمته؛ لأنه لا يليق بجلاله وملكوته أن يكون له شريك ولا يليق بحكمته وعزته.

وقوله: ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ إن كانت (ما) موصولة أي عما يشركونه فالمعنى تنزيه الله وتعاليه أن يكون له شريك ما يشركونه من الأصنام والمخلوقين كلهم؛ لأنهم عباد ضعفاء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً فلا يليق بعظمته وجلاله أن يكونوا له أنداداً، وإن كانت (ما) مصدرية أي عن شركهم الذي يقع منهم ومنه دعوى أن لهم الخيرة إن ادعوا ذلك المعنى، أنه يتعالى عن شركهم ويتنزه؛ لأنه لا يليق به ولا يصح بل هو أبطل الباطل، فسبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً.

يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن

﴿٦٩﴾ ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ ﴿وَرَبُّكَ﴾ يا رسول الله ﴿يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ﴾ صدور المشركين هؤلاء المكذبين، أي ما تخفيه أي ما يضمرونه كله من عقيدة باطلة أو نية منكرة أو غير ذلك ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ ما يظهرونه من قول أو فعل، فكل أمرهم إليه، فهو المجازي لهم وتوكل عليه فهو ناصرك عليهم ولا يضرك ما أضمروا ولا ما قالوا فيك، ومن ذلك قولهم: ﴿أَؤُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [ص:٨] ونحو هذا.

﴿٧٠﴾ ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وربك هو ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لأنه رب العالمين ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ﴾ وهو مستحق الحمد في النشأة الأولى بما أنعم على عباده من كل النعم وأعظمها الهدى إلى الصراط المستقيم الموصل إلى السعادة الدائمة، وهو بإرسال الرسل وإنزال الكتب، وغير ذلك من أسباب الهدى ﴿وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي وفي الآخرة فهو المستحق للحمد في الآخرة كما دل عليه آخر سورة الزمر، فهو المحمود على حكمه في عباده بما هو الحق والعدل والرحمة لأوليائه والفضل، وسوف يتجلى في الآخرة أن له الحمد على حسن قضائه وحكمه بين عباده وجزائه لكل مكلف بما استحق من ثواب أو عقاب.

﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ وحده؛ لأنه المالك للعالمين فالحكم له ليس لغيره شيء من الحكم؛ لأن العبد لا يستحق الحكم في ملك سيده؛ ولذلك فليس للمشركين أن يحكموا لأصنامهم بأنها آلهة بل الحق حكم الله أنها ليست آلهة بل هي مملوكة لله ولمن ملكه الله.

جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۚ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٍ تَسۡكُنُونَ

﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ يوم القيامة أنت يا رسول الله وهؤلاء المشركين وكل العالمين ترجعون إليه؛ ليحكم بينكم ويحاسبكم ويحكم لكل مكلف أو عليه بما يستحق، فلا معقب لحكمه ولا معارض لقضائه ولا دافع لأمره ولا ناصر لمن قضى عليه؛ لأن الأمر يومئذ لله وحده ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٩٣].

﴿٧١﴾ ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۚ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ﴾ قال في (الصحاح): «السرمد: الدائم» انتهى، قال الشرفي في (المصابيح): «فقال تعالى لرسوله: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ﴾ أي أخبروني ﴿إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ أي دائماً متصلاً إلى آخر الدهر، والسرمد: الذي لا ينقطع» انتهى.

قلت: يعني لا يتخلله انقطاع بل يستمر دائماً وإن كان لدوامه حد كما في الآية، وقوله تعالى: ﴿مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾ أي خبروني: ﴿مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾؟ وهذا احتجاج على المشركين يبين لهم عجز من زعموا أنهم آلهة عن إصلاح حال عابديهم ونفعهم عند اضطرارهم، فهم يعلمون أنهم عاجزون عن ذلك فلِمَ يدّعون لهم ما ليس إلا لله فيزعمون أنهم آلهة شركاء في ملكهم بدون حجة وهم يعلمون عجزهم عن الخلق، وهذا احتجاج يكفيهم إن كانوا يسمعون؛ ولذلك قال تعالى: ﴿أَفَلَا تَسۡمَعُونَ﴾؟ فإنه يكفيهم أن يسمعوا هذه الحجة إن أنصفوا.

فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ

﴿٧٢﴾ ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ ﴿مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾؟ سؤال يبين أنه لا إله غير الله يقدر على الإتيان ﴿بِلَيْلٍ﴾ فالآية هذه والتي قبلها بيان لقدرة الله تعالى على الإتيان بالنهار والليل، والمشركون في وقت نزول القرآن من العرب لا يجحدون ذلك، والآيتان كما تذكران بقدرة الله تعالى تذكران بعجز شركاء المشركين وأنهم مبطلون في جعلهم أنداداً لله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ تنبيه على حاجة الناس إلى الليل؛ لأنهم لولا أن الليل يجمعهم لطلب الراحة من الأعمال والسكون بعد الحركة، وكانوا في نهار دائم لما انتظم لهم السكون بل كانوا يتعارضون فمنهم من يريد الحركة ومنهم من يريد السكون الذي يكون في النوم ويستعاد به القوة بعد التعب، ونحن نرى هذا التعارض في نهار شهر رمضان حيث يطلب البعض النوم والصبيان يطلبون اللعب والصياح، وكذلك من سهر الليل فحاول أن ينام النهار فيأتي من له به حاجة فيدعوه؛ وبذلك تبين حاجة الناس إلى الليل ليجمعهم على النوم والسكون، وفي البلاد الحارة عكس ذلك؛ ولعله سر قوله: ﴿بِضِيَآءٍ﴾ ولم يقل: بنهار، فالنهار قد يجمع الضياء وحر الشمس مما يؤدي إلى الراحة بالنهار.

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ إن أريد به إبصار العيون فالمعنى أن من له بصر يميز بين الليل والنهار ويعرف الحاجة إلى كل منهما وأن كل واحد منهما نعمة ورحمة إذا نظر.

شُرَكَاءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾ ۞ إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَـٰهُ

فقوله: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ سؤال لهم إذا لم يعرفوا الفرق بين الضياء والليل في الفائدة؛ لأنها تترتب على إبصار الأعين، فكأن من لا يعرف نعمة الضياء والليل لا يبصر، فكان أهلاً لأن يقال له: ألا تبصر؟

وإن أريد بقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾؟ إبصار البصيرة بالقلب إذا نظر العاقل وتذكر فعرف نعمة الله ورحمته فهو يبصر ببصيرته، ومن لم ينظر فلم يعرف كان أهلاً لأن يقال له: ألا تبصر بل أنت أعمى القلب، فالمعنيان صحيحان والأول أرجح ـ والله أعلم.

﴿٧٣﴾ ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ أي ومن رحمة الله الرحيم بعباده ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ خلفة، فجمع بين النعمتين لعباده: نعمة النهار ونعمة الليل ﴿لِتَسْكُنُواْ فِيهِ﴾ أي في الليل ﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ بالنهار بضيائه وبدفئه وبحر الشمس لتجفيف ما يطلب تجفيفه من الثمرات وغيرها وغير ذلك ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نعمته فتعبدوه وحده ولا تشركوا به، وقد يدخل في قوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ شكره تعالى على نعمة الهداية إليه والدلالة عليه بآياته في الليل والنهار والتخالف بينهما على نظام محكم ومناسب لحاجة الإنسان فيهما وفي تناوبهما.

﴿٧٤-٧٥﴾ ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ۞ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ إلى آخر الآية

مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ

جاءت هذه الآية مرتين، فرتب عليها في المرة الأولى ذكر براءة المتبوعين من التابعين مما يدل على شدة الحال عند ذلك النداء.

وفي المرة الثانية رتب عليها قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ أي شهيداً على الأمة، كما قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء:٤١] فالشهيد يشهد بما عاينه أو سمعه من الأمة التي هو شهيد عليها، وفي هذا إشارة إلى حالة المشركين الذين يقولون: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ وأفادت أنه لا يفيد الجحود من جحد ﴿فَقُلْنَا هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ﴾ على ما كنتم تزعمون في الدنيا من دعوى الشرك وغيرها ﴿فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ﴾ فيهم وفي كل مخلوق، فهم عباده وحده لا شريك له فيهم ولا حق لغيره فيهم مستقلاً ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ ضاع عنهم في ذلك الموقف ما كانوا يفترونه من أن شركاءهم شفعاء لهم عند الله يوم القيامة أو أنهم سينصرونهم في الشدائد أو نحو ذلك، فقد تبين في ذلك الموقف أنهم كذبوا فلم ينفعهم شركاؤهم ولا غيرهم.

﴿٧٦﴾ ﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ ﴿كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ من بني إسرائيل أو أقرب إلى موسى كأن يكون من السبط الذي منه موسى ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ على قوم موسى؛ ولعل هذا في أيام احتجاج موسى على فرعون فكان قارون مع فرعون كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ * إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر:٢٣-٢٤] فبغى قارون على قومه

معاوناً لفرعون على قومه، كما قال تعالى: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ﴾ [يونس:٨٣] فكان قارون من ملئهم ومعاونة قارون لعلها كانت بإبلاغ فرعون أسرار بني إسرائيل كإسلام من أسلم ووجود مولود ونحو ذلك كما تراه اليوم من بعض عملاء الظالم، وهذا يبعد ما يروى أنه خرج من البحر مع موسى بل الأقرب أنه كان مع فرعون حتى خسف الله به وبداره الأرض وإن كانت الروايات تخالف هذا؛ لأنها لا تبعد أنها جاءت من اليهود، وليس في القرآن ما يفيد صحتها.

﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ﴾ أعطيناه من المال الذي كان يكنزه لكثرته، قال الشرفي: «هي الأموال المدخرة» انتهى. يعني الكنوز.

﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ﴾ قال في (الصحاح): «والمفتاح: مفتاح الباب وكل مستغلق، والجمع: مفاتيح، ومفاتح أيضاً» انتهى. فأفاد أن مفاتح: جمع مفتاح، وقال الشرفي في (المصابيح): «جمع مفتح ما يفتح به» انتهى، والمعنى واحد فقد اتفقوا على تفسير المفاتح: بالمفاتيح.

﴿لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ﴾ قال في (أساس البلاغة): «نؤت بالحمل: نهضت به، وناءَ بي الحمل: مال بي إلى السقوط» انتهى، وفي (الصحاح): «ويقال: ناء بالحمل: إذا نهض به مثقلاً، وناء به الحمل: إذا أثقله» انتهى، وقال الشرفي: «أي لتثقل العصبة وتميل بهم ـ ثم قال ـ : أي لتثقلهم من نا[ءَ] به الحمل إذا أثقله» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿بِٱلْعُصْبَةِ﴾ قال (صاحب الصحاح): «والعصبة من الرجال: ما بين العشرة إلى الأربعين» انتهى، وقد دلت الآية على كثرة الخزائن التي كنز فيها الأموال؛ لأن كثرة المفاتيح تابعة لكثرة ما يفتح بها ودل على كثرة المفاتيح كونها تثقل العصبة أهل القوة إذا اجتمعوا لحملها.

وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِي ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ

وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ اذكر قصته إذ نصحوه حين أطغاه الغنى، قال في (الصحاح): «فرح به سُرّ والفرح أيضاً البطر» انتهى. ومثله في (القاموس) فالفرح هنا: إما السرور المفرط الذي هو لازم الثقة بدوام الغنى والاطمئنان إلى الدنيا، وإما البطر، قال الراغب: «البطر: دَهَش يعتري الإنسان من سوء احتمال النعمة وقلة القيام بحقها وصرفها إلى غير وجهها» انتهى.

﴿٧٧﴾ ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِي ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ ﴿وَٱبْتَغِ﴾ واطلب الدار الآخرة وهي الجنة اطلبها ﴿فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ من المال، فالدنيا مزرعة الآخرة إذا عمل فيها بطاعة الله كانت سبباً للجنة، فإذا أنفقت لله فيما يرضيه الإنفاق فيه نلت الجنة بالمال الذي آتاك الله، فجمع الله لك خير الدنيا والآخرة ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ فليس لك من الحياة الدنيا إلا نصيب محدود ينتهي فتموت وتفارق المال والقوة وينكشف أنه قد غرك طول الأمل ونسيان نصيبك من الحياة الذي لا تبقى بعده، فاذكر هذا ولا تنسه ليقل حرصك على المال وفرحك به إذا تذكرت أن الفاضل للوارث لا ينفعك أي نفع.

﴿وَأَحْسِن﴾ فتصدق على المساكين وأطعم الجائع وفرج عن المكروب وغير ذلك من الإحسان شكراً لله على إحسانه إليك بما آتاك ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ولا تحاول الفساد المنتشر في الأرض؛ ولعلهم أرادوا نهيه عن معاونة فرعون ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ فاحذر ذلك.

عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ

ويترجح: أن هذا كان في أيام فرعون؛ لأن موسى عليه السلام لم يذكر في القصة من أولها إلى آخرها في القرآن الكريم؛ ولأن مدة موسى عليه السلام في النبوة مع قومه بعد خروجهم من البحر ما كانت مظنة التعمير بل صاروا إلى العيش في غير مصر بل في التيه حتى توفي موسى عليه السلام.

فلا بد أن قصة قارون كانت قبل خروجهم من مصر، أو أنها كانت بعد وفاة موسى عليه السلام وبعد دخولهم القرية وتمكنهم، ولكن معنى هذا أنه أسلم مع موسى وخرج معه من البحر وعاش حتى دخلوا القرية واكتسب الأموال وبنى داره، فكيف لم يكن نُصْحُه من يوشع ولم يذكر في قصته وإسلامه بعيد في عهد فرعون وضعف موسى وقومه ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ﴾ [يونس:٨٣] ولأن القرآن قرنه بفرعون وهامان ﴿فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر:٢٤] فكون القصة وقعت في عهد فرعون أقرب، وعهده أقرب لتمكن قارون من ظلم قومه بخلاف عهد موسى عليه السلام ويوشع عليه السلام.

فالراجح: أن النصح من قومه كان في عهد فرعون في أيام أنهم مستضعفون ونصحوه لكونهم يُدِلّون بقربه؛ ولأن ظلمه لهم بعثهم على نصحه، وقد يشكل على جعل القصة متقدمة قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ..﴾ الآية؛ لأن عهد فرعون ليس مظنة أن يكون فيه أولوا علم لا من بني إسرائيل ولا من غيرهم، فالجواب أن هذا مجرد استبعاد، وقد حكى الله تعالى في (سورة غافر) ما يفيد: أن مؤمن آل فرعون أوتي علماً.

﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ

﴿٧٨﴾ ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ ﴿قَالَ﴾ قارون جواباً على نصح قومه الذين نصحوه بشكر نعمة الله ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ﴾ أي المال ونحوه ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ فعندي من العلم بطرق كسب المال وجمعه ما لأجله أوتيت هذا المال والقوة؛ ولعله أراد أنه كان له الإقبال والحظ بسبب علمه، ونظير هذا ما حكاه الله تعالى في قوله: ﴿فَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ [الزمر:٤٩] ولذلك رد الله على الإنسان بقوله تعالى: ﴿..بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ * قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ..﴾ [الزمر:٤٩-٥٠].

فالحاصل: أنهم يظنون أنه حظهم وإقبالهم بسبب ما عندهم من العلم والخبرة والبصيرة فكفروا بأنه نعمة من الله بجعل نعمته إنما حصلت لهم بالإقبال والحظ والعلم لا أنها نعمة من الله.

﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ﴾ عطف على مقدر، أي أعلم ما زعم ولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً، بل قد علم ذلك فكيف لم يتذكر ذلك ويعلم أنه لو كان بالحظ والإقبال بسبب ذلك العلم لاستمر الحظ والإقبال ولما تعقبه الهلاك وسلب النعمة، لكنها من منعم يفعل ما يشاء، إن شاء بسط، وإن شاء أمسك.

أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي سؤال تعرُّف عند إنزال العقوبة؛ لأن الله تعالى رقيب عليهم ولا ينسى ذنوبهم بل ينبئهم بما عملوا ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة:٦].

﴿٧٩﴾ ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ ﴿فَخَرَجَ﴾ بعد النصح له وجوابه المشئوم خرج من داره ﴿عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ﴾ التي هي تعبر عن ثروته، فعند ذلك ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ لجهلهم وغفلتهم عن الآخرة: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ﴾ معجبين به مستعظمين له؛ ولذلك قالوا: ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي قارون ﴿لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ لذو إقبال وَجدّ وفي لغتنا: بخت عظيم، نسبوا ما أوتي قارون إلى البخت كما فعل قارون.

﴿٨٠﴾ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ يفيد: أن الذين يريدون الحياة الدنيا لا يُعدّون من الذين أوتوا العلم؛ لأن جهلهم قد غلبهم فصار علمهم كلا علم ﴿وَيْلَكُمْ﴾ زجر للذين تمنوا واستعظموا ما أوتي قارون؛ لأنهم معرّضون بسبب ذلك للويل والهلاك كما قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ..﴾ [الإسراء:١٨] الآية ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ فيمكنكم أن تسعوا لما هو خير مما أوتي قارون بالإيمان والعمل الصالح، فلا تفوتوه بحب الدنيا.

مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصۡبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوۡاْ مَكَانَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَقُولُونَ وَيۡكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ

﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ فاصبروا لتكونوا من أهل الإيمان والعمل الصالح فتفوزوا بثواب الله، وقولهم:﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ لا يوفق لها ويهدى إليها ﴿إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ لأن من لا يصبر يتبع هوى نفسه فلا يكون أهلاً للتوفيق سواء كان الضمير للجنة المفهومة من قولهم: ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ﴾ أو للخصلة التي هي سبب الجنة، فمن كان يريد الجنة فعليه أن يصبر على الفقر وعلى ما ابتلي به وعلى تقوى الله.

﴿٨١﴾ ﴿فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ﴾ ﴿فَخَسَفۡنَا﴾ محقنا الأرض التي تقله وتقل داره فهَوَتْ بهما وهلكا.

قال الشرفي: «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: معناه: هَدمنا به وبداره، وأهبطنا موضعه في بعض الأرض بعد قراره» انتهى المراد.

وفي (الصحاح): «وخسف الله به الأرض خَسْفاً: أي غاب به فيها» انتهى.وعبارة الحسين بن القاسم عليه السلام أجود.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ﴾ يشير إلى أنه كان له أتباع وأعوان لكثرة ماله، ولكن لما جاء أمر الله لم يكن له أنصار يحولون بينه وبين عذاب الله.

قال الراغب: «والفئة الجماعة المتظاهرة التي يرجع بعضهم إلى بعض في التعاضد» انتهى. ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ﴾ من الخسف بأي قوة وبأيّ وسيلة.

لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُۖ لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا لَخَسَفَ بِنَاۖ وَيۡكَأَنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي

﴿٨٢﴾ ﴿وَأَصۡبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوۡاْ مَكَانَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَقُولُونَ وَيۡكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُۖ لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا لَخَسَفَ بِنَاۖ وَيۡكَأَنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ ﴿وَأَصۡبَحَ﴾ عطف على ذكر الخسف بقارون وداره.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَمَنَّوۡاْ مَكَانَهُۥ﴾ أي مثل ثروته، فالمكان كناية عن الحالة؛ ولعل الخسف كان في الليل فلما أصبحوا رأوا مكان داره قد هوى وعلموا أن الله قد خسف بقارون فكان عبرة لهم وتذكرة وحمدوا عاقبة الفقر أصبحوا يتعجبون مما بدا لهم من أمر الله وكانوا يظنون أن غِنى قارون من الحظ والبخت، فعلموا أو ظنوا أن الغنى من الله وتقدير الرزق من الله.

قال في (الصحاح): «وَيْ: كلمة تعجّب، ويقال: وَيْك ووَي لعبد الله، وقد تدخل وَي على كأن المخففة والمشددة، تقول: وَيْ كأنْ ووَيْ كأنَّ. قال الخليل: هي مفصولة تقول: وَيْ ثم تبتدئ فتقول كأن قال الشاعر:

وَيْ كأن مَّن يكن له نَشَبٌ يحـ ـبب ومن يفتقر يَعش عيش ضُرٌ»

انتهى. وقال الراغب: «وي: كلمة تذكر للتحسُّر والتندُّم والتعجُّب، ثم قال: وقيل: ويك كان ويلك فحذف منه اللام» انتهى.

قلت: فهي كلمة (ويل) اختصرت بخلاف (وي) التي للتعجب، وفي (القاموس): «وي كلمة تعجب، تقول: ويك ووي لزيد، وتدخل على كأن المخففة والمشددة، وقوله تعالى: ﴿وَيۡكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ﴾ زعم سيبويه أنها وي مفصولة من كأنَّ، وقيل: معناه ألم تر، وقيل: ويلك، وقيل: اعلم» انتهى.

ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟

وقول من قال: معناه: ألم تر هو قول من قال: (وي) للتعجب؛ ولعله أشكل على بعضهم وصلها في المصحف، وفي المصحف مخالفات لقاعدة الكتابة.

وفي (الكشاف): «(وي): مفصولة عن (كأن) وهي كلمة تنبُّه على الخطأ وتندُّم، ومعناه أن القوم قد تنبهوا على خطئهم في تمنيهم، وقولهم: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ﴾ وتندموا، ثم قالوا: ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي ما أشبه الحال بأن الكافرين لا ينالون الفلاح، وهو مذهب الخليل وسيبويه» انتهى المراد.

وجعل في (مغني اللبيب) من معاني كأنَّ: الشك، والظن، وهو معنى مستقيم؛ لأن الذي بعث عليه حادثة واحدة بكافر واحد، فصح منهم تظنن القاعدة الكلية، ولا يجب أنهم أرادوا القطع وهم عقيب الحادث قبل النظر المؤدي إلى العلم.

وحكى في (الكشاف) عن الكوفيين: أن معنى ﴿وَيْكَأَنَّ﴾ ألم تعلم وأن أصله: ويلك فحذفت (اللام) وهذا ذكره الشرفي في تفسيره للآية.

وقولهم: ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا﴾ قطعوا بذلك؛ لأنهم تمنوا مثل ما أوتي قارون وشاهدوا أن ما أوتي قارون أدّى به إلى الخسف، وليس كذلك قولهم: ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ لأنها عامة للكافرين على اختلاف أنواع الكفر، مع أنه يجوز عليهم أن يتظننوا ثم يقطعوا، ولو صح استعمال كأن للقطع لكان التفسير به محتملاً.

﴿٨٣﴾ ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ﴾ هي الجنة، كما قال تعالى:

يَعۡمَلُونَ ﴿٨٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٖۚ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ وَمَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ

﴿وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا..﴾ [يوسف:١٠٩] والإشارة إليها لعلها لسبق ذكرها في حكاية قول الذين أوتوا العلم: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ..﴾ الآية، وأما جعلها الإشارةَ إلى البعيد فلتعظيمها كما هو محقق في علم المعاني أو لبُعدها من حيث هي في الآخرة والإشارة في الدنيا.

وقوله تعالى: ﴿نَجۡعَلُهَا﴾ أي ندخلهم ونملّكهم إياها، وقوله: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي لا يختارونه ويؤثرونه، كقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ..﴾ [الإسراء:١٨] وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ..﴾ [الإسراء:١٩] والعلو في الأرض: التفوق على الناس بغير الحق أو إرادة العلو؛ لأنه رئاسة وارتفاع، أي لهوى النفس فيه لا لغرض صحيح بل من حيث هو علوّ في الأرض، وهذا أرجح.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا فَسَادٗا﴾ أي ولا فساداً في الأرض أي لا يريدونه، فالجنة لمن سلم من الأمرين واتقى ربه بدليل قوله تعالى: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ فكأنه قيل للمتقين الذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً، فقوله: ﴿لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا﴾ كقوله تعالى: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾ [النازعات:٤٠] مع قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ [النازعات:٤٠] وفائدة ذكر إرادة العلو أو الفساد: التحذير منهما، والدلالة على أنهما يمنعان من دخول الجنة، فأما التعبير هنا عن الجنة بالدار الآخرة فلعله في مقابلة الخسف بدار قارون.

﴿٨٤﴾ ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ ﴿مَن جَآءَ﴾ موقف الحساب مصحوباً

بالحسنة، كأنَّ الناس يوم القيامة يأتون موقف الحساب بأعمالهم حاملين لها، كما قال تعالى في الكفار: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلاَ سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [الأنعام:٣١] فمن جاء الموقف أو الآخرة ﴿بِٱلْحَسَنَةِ﴾ لأنه مؤمن تقي عمل صالحاً مقبولاً ﴿فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ لأنها تضاعف له أضعافاً كثيرة ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ في الدنيا ﴿إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ لا يزاد عليه، فعذاب كل واحد في شدته على قدر سيئاته لا يزاد عليه ﴿وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩].

(٨٥) ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ﴾ إن الله الذي فرض عليك ﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾ أوجبه عليك حتماً لتقرأه على الناس فتقيم به الحجة عليهم من حيث أنه الآية الكبرى التي يعرفون بها صدقك ولتؤمنوا به وتتبعوه، فلأنه فرض عليك هذا القول الثقيل الذي يشق عليك تبليغه إلى المكذبين بك وبه ويشق العمل بتكاليفه والاستقامة عليه ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ عظيم تنال فيه ثواب ما قمت به من تحمل ما حُمّلت ويحكم الله فيه بينك وبين المكذبين.

وقد أبهم هنا هذا المعاد، لكن كلمة الرد تشعر بالعودة إلى أمر كان فيه وكذلك كلمة المعاد تدل على العودة، فهي العودة إلى الحياة بعد الموت والردّ إلى ما فيها من الجزاء العظيم المسبب عن فرض القرآن على رسول الله المخاطب بهذا الخطاب والموعود بهذا الوعد ليصبر على تحمل هذا الواجب ويسهل عليه لما يرجوه من المعاد ﷺ قل لقومك المكذبين لك: ﴿رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ فهو يثيبه في الآخرة ﴿وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ فربه يجزيه؛ لأن مردنا إلى ربي فهو يحكم بيني وبينكم.

أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾

﴿٨٦﴾ ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ في هذه الآية الدلالة على أن القرآن وإن كان ثقيلاً فهو رحمة ونعمة ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟﴾ هذه النعمة العظمى والدرجة الرفيعة ﴿أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ هذا ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ الذي يكتب وتتوارثه الأجيال بعدك ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ لكن رحمة من ربك ألقاه إليك فرحمته في الآخرة أعظم؛ لأنها دار الثواب على العمل ورحمة الدنيا تفضل ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ بالقرآن والرسول لا تكوننَّ معيناً لهم، بل عليك أن تشكر هذه النعمة العظمى وتقوم بواجبك من التبليغ والمجاهدة لهم بهذا القرآن والثبات على الدعوة إلى الله وإلى ترك الشرك بالله.

والراجح: أن معنى هذا النهي: هو النهي عن التخلي عن أمر الله وعما حمل من الرسالة؛ لأنه لو تخلى عنها لكان قد أعان المكذبين له الكافرين بالقرآن؛ لأن غرضهم من الكفر به أن يتخلى عن دعوته ويتركهم على دينهم.

﴿٨٧﴾ ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ﴾ احذرهم أن يصدوك عن هذا القرآن الدال على أن الله أرسلك و ﴿عَنْ﴾ سائر ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الدالة على ذلك فهم جادّون في التحيل لصدك بالترغيب والترهيب وكل ما يستطيعون كالجدال بالباطل فاحذرهم لتثبت على آيات الله.

وقوله: ﴿بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ دلالة على أنها نعمة عظمى قد نالها، فلا يليق به إلا المحافظة عليها والثبات على التمسك بها ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ غير مبال بالكافرين ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ فهم على الباطل وأنت على الحق فلا تترك الحق وتكن من أهل الباطل، ومن فوائد النهي هذا أن يسمعه المشركون وغيرهم فيكون زاجراً لهم عن الشرك، وهو أيضاً تعبّد لرسول الله ﷺ كسائر التكاليف التي يطيع فيها ربه وله فيها ثواب.

(٨٨) ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾ لعله أعيد النهي ليرتب عليه بيان بطلان الشرك بقوله تعالى: ﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فدُعاءُ إله مع الله باطل ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ فالأصنام وغيرها مما يعبده المشركون كلها هالكة، وذلك من أوضح الدلالة على أنها عباد مملوكة يبقيها خالقها متى شاء ويفنيها متى شاء، فعبادتها لا تفيد عابدها شيئاً، بل هي ضر من حيث أنها باطل ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ رضوانه ورحمته، فإذا عبدته وحده فزت برضوانه الدائم.

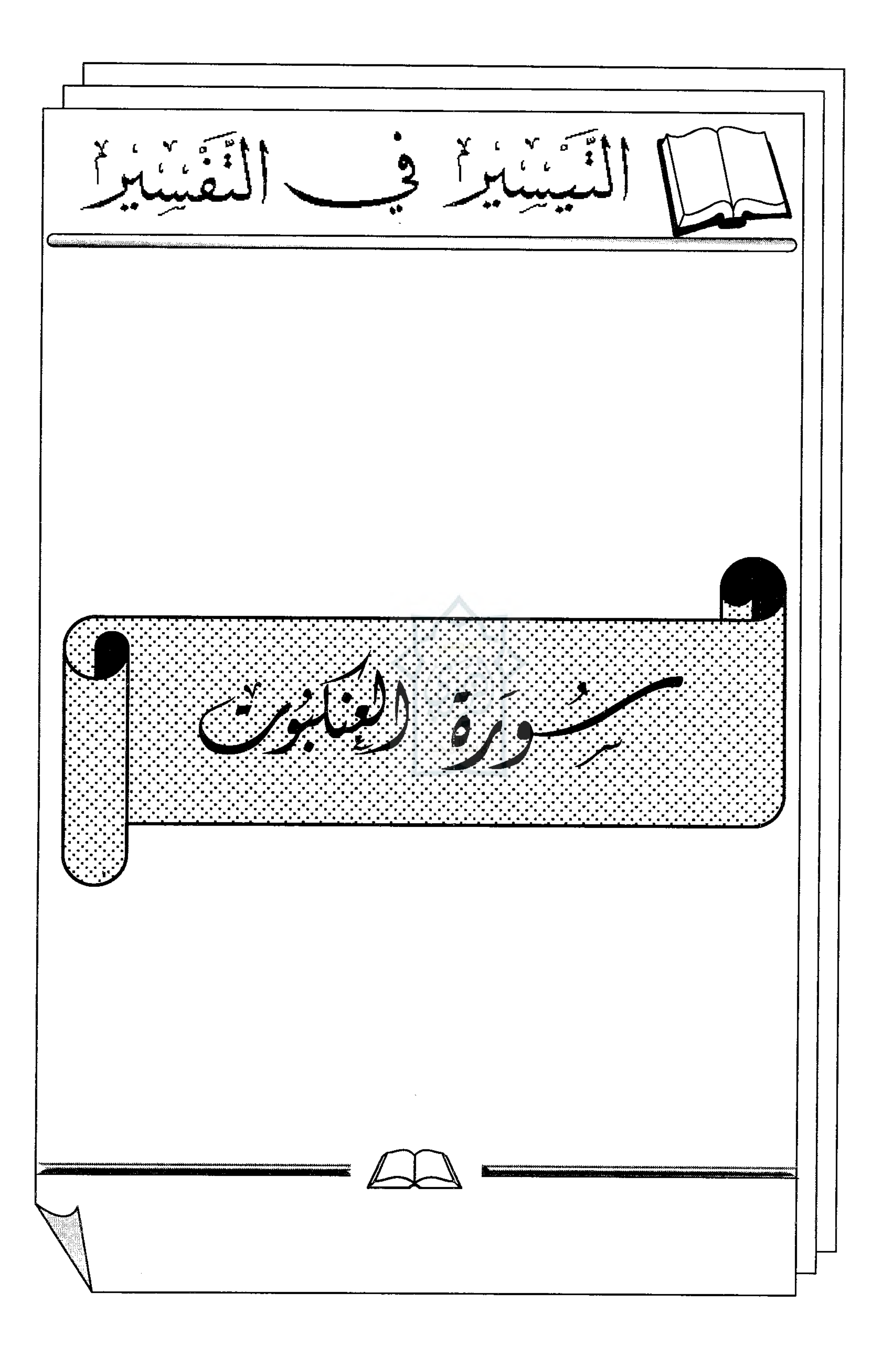
فالوجه كناية عن الرضوان، كقول أولاد يعقوب عليه السلام: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا..﴾ إلى قولهم: ﴿.. يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ [يوسف:٨-٩] أرادوا أن لا ينظر إلا إليهم؛ لأجل أنه يحبّهم وحدهم لا يجد من يحبه غيرهم، فالوجه كناية عن الحب؛ لأن المحب يكثر النظر إلى من يحب، فكما قال تعالى في أعدائه: ﴿وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ﴾ [آل عمران:٧٧] أفاد في أوليائه أنه ينظر إليهم أي يحبهم ويرضى عنهم؛ ولذلك يذكر الوجه عند القرب مثل: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾ [الإنسان:٩] ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام:٥٢] ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ [الروم:٣٨].

وقوله تعالى: ﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ دليل على إبطال الشرك كما قال يوسف عليه السلام: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ..﴾ الآية [يوسف:٤٠] فالمشركون يجعلون آلهة هم سموها آلهة مع أن حكمهم ليس له معنى ولا حجة فيه بل هو باطل؛ لأنهم ليس لهم أن يحكموا؛ لأنهم عباد مملوكون، والحكم في عباد الله إنما هو لله؛ لأنه مالكهم ولكن المشركين لجهلهم يجعلونها آلهة لحكمهم بذلك حين سموها وجعلوها، فهذا وجه لإبطال الشرك بقوله تعالى: ﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ والوجه الثاني: أن الله تعالى قد أبطل الشرك وحكم بأن لا إله إلا هو وهو الذي له الحكم؛ لأنه رب العالمين، فحكمه الحق وحكم العباد الباطل.

وقوله تعالى:﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي يوم القيامة ترجعون إلى الله وحده فيحكم فيكم بما شاء لا ترجعون إلى غيره، فدعواهم أن شركاءهم سيشفعون لهم دعوى باطلة؛ لأن الأمر يومئذ لله وحده، فالمشركون هم الخاسرون والعابدون لله وحده هم الفائزون.

والحمد لله رب العالمين،،،


التيسير في التفسير
سورة العنكبوت



سُورَةُ العَنكَبُوت

مكية 29 — آياتها 69

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ سَآءَ مَا

ابتداء تفسير (سورة العنكبوت)

ويظهر من مواضيعها أنها نزلت بعضها في (مكة) وبعضها في (المدينة) فأما الغالب فالله أعلم

﴿١-٢﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ الٓمٓ * أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾ ﴿الٓمٓ﴾ من حروف المعجم، وقد مضى في تفسيرها كلام مكرر فنكتفي بما مرّ ﴿أَحَسِبَ﴾ (الهمزة) للسؤال، بمعنى إنكار الحسبان، وعيبه على أهله، وسماها (صاحب مغني اللبيب): (همزةَ الإنكار التوبيخي) ومعنى (حسب): ظن، وظاهر قوله تعالى: ﴿ٱلنَّاسُ﴾ أنها نزلت وقد كثر المسلمون، وذلك بعد هجرة رسول الله ﷺ ومعنى ﴿أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾ أن يتركوا على قولهم: ﴿ءَامَنَّا﴾ دون أن يفتنوا.

والحاصل: أحسبوا أنهم لا يفتنون بالنسبة لقولهم: ﴿ءَامَنَّا﴾ ومعنى ﴿يُفۡتَنُونَ﴾: يختبرون بما يميز الصادق في قوله: آمنت، والكاذب الذي يدعي الإيمان وقلبه غير مؤمن، فإنكار حسبان عدم الفتنة يؤكد الخبر بأنه لا بد منها.

﴿٣﴾ ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ تأكيد أنه لا بد من الفتنة، فيدل على أن سنة الله في الماضين لا تبدل كما قال تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلًا﴾ [فاطر:٤٣].

ومن فوائد التأكيد: أن يهتم المؤمن ويقوى عزمه على الثبات متى وقعت الفتنة، ويحذر أسباب الافتتان، ويدعو الله أن ينجيه من مضلات الفتن. ومن أسباب الافتتان: المعاصي، والميل إلى الدنيا، ومن أسباب الثبات: التقوى، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والصدقة، وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ﴾ بمعنى فليفتننهم حتى يثبت الصادقون، ويفتتن الكاذبون من قبل الفتنة أو من حين جاءت، فيعلم الله من ثبت، ومن افتتن، فيعلم هذا ثابتاً، وهذا مفتوناً، وهو سبحانه علام الغيوب، لكن الإخبار بعلمه هذا بالثابت والمفتون دلالة على أنه يجزي كلاً منهما بما يستحق.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال المرتضى عليه السلام: سألت أبي الهادي إلى الحق ـ صلوات الله عليه ـ عن الفتنة؟

فقال: هي أربعة وجوه، **فوجه منها**: العذاب، وهو كما قال تعالى في حديث ابن قيس: ﴿**أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا**﴾ [التوبة:٤٩] يريد في العذاب وقعوا، ومن ذلك قوله تعالى في أهل الأخدود: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ**﴾ [البروج:١٠] يريد عذبوهم بالنار في الأخدود. **والوجه الثاني** هو: الإعجاب بالشيء والمحبة له، تقول العرب: فلان مفتتن بصاحبه مفتتن بزوجه [في نسخة (المصابيح): بزوجته، ولعل الصواب: بزوجه] مفتتن بماله، محب له معجب به.

والوجه الثالث فهو: الحرب، تقول العرب: بين بني فلان فتنة شديدة تريد حرباً شديداً، **والوجه الرابع** فهو: على معنى المحنة، وذلك قوله تعالى: ﴿الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ..﴾ يقول: امتحنا الذين من قبلهم» انتهى المراد.

تَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَـَٔاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَـٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَـٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ

﴿٤﴾ ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ ﴿أَمْ حَسِبَ﴾ إضراب عن السؤال الأول إلى سؤال الذين يعملون السيئات، أي بل أحسب ﴿ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا﴾ والسيئات: المعاصي القبيحة، ومعنى ﴿أَن يَسْبِقُونَا﴾ أن يفوتونا فلا نتمكن من أخذهم إن حسبوا ذلك فذلك الحسبان أقبح من حسبان من آمن أن لن يفتنوا، وهذا الحسبان مقرون بحكمهم لأنفسهم بالنجاة؛ لأن الواحد منهم يقول: ﴿وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى﴾ [فصلت:٥٠] ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ فهو حكمٌ سيء ما أسوأه! لأنه باطل وغرور خادع لهم يوقعهم في جهنم؛ ولأجله يسألون، أحسبوا أنهم يفوتون الله حتى حكموا لأنفسهم بالنجاة لأنه لا حجة لهذا الحكم فلماذا يحكمون به ألأنهم يحسبون أنهم يسبقوننا؟!.

﴿٥﴾ ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَـَٔاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ ﴿مَن كَانَ﴾ مؤمناً ﴿يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ﴾ يوم القيامة لإيمانه بالآخرة إيماناً صادقاً فإن رجاءه غير خائب بل هو واقع، وإن أجله الله فإن أجله ﴿لَـَٔاتٍ﴾ لا يتخلف، وبذلك يبلغ المؤمن ما أمله من لقاء الله ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لقول من آمن ولكل قول ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بإيمانه ورجائه وبكل شيء فهو يجزي المؤمن ولا يضيع عليه مثقال ذرة؛ لأنه لا يخفى عليه إيمان المؤمن ولا شيء من أقواله وأعماله.

﴿٦﴾ ﴿وَمَن جَـٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَـٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ ﴿وَمَن جَـٰهَدَ﴾ أي قاتل أو أعم من ذلك مهما كان مشروعاً فإنما يجاهدهم لنفسه؛ لأنه وإن جاهد لله وفي سبيله فنفع الجهاد للمجاهد؛ لأن ثوابه له.

أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَـٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ

أما الله ـ جلَّ جلاله ـ فهو غني عن جهاد المجاهد وعن أعماله كلها، فإن الله غني ﴿عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ لا تزيد ملكه طاعتُهم ولا تنقصه معصيتُهم، وهذا حث على الجهاد مفسر في آخر آية من هذه السورة.

﴿٧﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ ﴿لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ نغطيها يوم القيامة ولا نظهرها حتى لا تسوءهم في الآخرة؛ وذلك لأن من لوازم الإيمان التوبة من المعاصي، وترك الإصرار عليها، والعزم على اجتنابها، والحب للطاعة، والكراهة للمعصية ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أحسن الذي كانوا يعملون يخرج به السيئ ويخرج المباح؛ لأنه حسن غير قبيح فالإيمان والعمل الصالح أحسن الذي كانوا يعملونه، وجعل ثوابه إياه لأنه سببه، وهذا وعد عام بعد الوعد الخاص للمجاهد والمجاهد داخل في هذا على جهاده، وعلى سائر عمله وعلى إيمانه.

﴿٨﴾ ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَـٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ عطف على الوعد للمؤمن العامل صالحات؛ ولعله باعتبار أنه حث على الإيمان والعمل الصالح ومعنى التوصية من الله تعالى الأمر كذا قالوا؛ ولعل جعله وصية باعتبار انقطاع الوحي بموت الرسول ﷺ لأن الإنسان مأمور بذلك إلى آخر الحياة الدنيا حين انقطاع التكليف، وقوله تعالى: ﴿حُسْنًا﴾ أي إحسانا أو حسن المحاورة والمعاملة والمرافقة وغيرها.

لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا

وقوله تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ﴾ بمعنى: شدَّدا في المطالبة لك بالشرك وتحمّلا الجهد والعناء في ذلك، وتحمّلت الجُهد في دفعهما والامتناع من طاعتهما في ذلك، فلا تطعهما بعد ذلك وبالأولى أن لا يطيعهما لمجرد الأمر بدون عناء وكفاح، والحاصل: أنه لا يجوز له أن يطيعهما وإن غضبا من امتناعه وهجراه أو ضرباه، أو حبساه، فأما دفع ضرهما بالتقية بإيهام الموافقة مع اطمئنان القلب بالإيمان فيجوز من ذلك ما يجوز بسبب الإكراه، لأن الله تعالى يقول: ﴿إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالأِيمَانِ﴾ [النحل:١٠٦].

وقوله تعالى: ﴿إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ﴾ أي إليّ لا إلى أحد غيري فاحذروا عذابي لأن مرجعكم للحساب والجزاء إليّ، ولا تطيعوا والديكم في معصيتي، وقوله تعالى: ﴿فَأُنَبِّئُكُم﴾ أي حين ترجعون إليّ يوم القيامة أنبئكم وأخبركم أو أعلمكم ﴿بِمَا كُنتُمۡ﴾ في الدنيا ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ لأني علمته كله ولم أنسَ منه شيئاً، وأنا أجزيكم به.

﴿٩﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وإن هجرهم والدوهم وجاهدوهم على أن يشركوا ولم يطيعوا مخلوقاً في معصية الخالق، وهذا من الإيمان والعمل الصالح؛ لأن العمل الصالح لا يصلح إلا مع التقوى ﴿لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ لندخلنهم في جملة الصالحين الذين يدخلون الجنة، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً﴾ [النساء:٦٩].

كُنَّا مَعَكُمْۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ

وهذا ترغيب في الثبات على الإيمان وإن قطعه الوالدان فضلاً عن غيرهم، فهو يصير في جملة الصالحين رفيقاً لهم وهم خير له من الوالدين المشركين، فلا يبالي بمن هجره في الدنيا من المشركين.

﴿١٠﴾ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ﴿مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ قولاً بلسانه بدون إيمان في قلبه؛ لأنه لو آمن قلبه لثبت على الإيمان وصبر على الأذى في الله، ولكنه قال: آمنا قولاً بلسانه ﴿فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ﴾ من أجل أنه أظهر الإيمان بالله وإخلاص الدين لله ضعف ولم يصبر على الأذى وخوف التعذيب بل ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ﴾ له ﴿كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ في الآخرة، ففر من فتنتهم له إلى الكفر وترك الإيمان، وارتد كما يفر المؤمن من عذاب الله فيفر مما يؤدي إليه ويحذره.

﴿وَلَئِن جَآءَ﴾ المؤمنين الثابتين على الإيمان ﴿نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ يا رسول الله ينصر به دينك الذي بلغته ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ أي المرتدون ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ أي لم نرتد عن الإسلام، بل كنا معكم وإن أظهرنا للكفار الردة ﴿أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فلا يفيدهم دعوى أنهم كانوا معكم يضمرون الإيمان في صدورهم ويظهرون الردة تقية؛ لأن الله تعالى أعلم بما في صدورهم وأنهم قد شرحوها بالكفر.

﴿١١﴾ ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ الراجح: أن هذا عطف على قوله تعالى: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا..﴾ الآية بمعنى أنه

ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡ

لا بد من الفتنة المميزة بين المؤمن والمنافق، والفرق بين الآيتين أن الكاذب في قوله: آمنا قد لا يكون منافقاً؛ لأن المنافق يتولى الكفار سراً، وقيل: المنافق يضمر الكفر وليس كذلك من يقول آمنا ولم يتول الكفار، ولا أضمر الكفر كما حكاه تعالى في قوله: ﴿**قَالَتِ الأَعْرَابُ..**﴾ إلى قوله تعالى: ﴿**..وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ**﴾ [الحجرات:١٤].

﴿١٢﴾ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ أراد الذين كفروا أن يرتد الذين آمنوا واستعملوا هذا التغرير ﴿وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ﴾ وهكذا يفعل المبطلون ليخدعوا أتباعهم، وقد أبطل الله هذا الخداع بقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ وأبطله ـ أيضاً ـ بقوله تعالى: ﴿**وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى**﴾ [فاطر:١٨] فأفاد تعالى بقوله: ﴿**وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى**﴾ أن الولد لا يحمل ذنب والدته ولا ذنب أبيه ولا ذنب ابنه فضلاً عن ذنب أخيه.

وأفاد بقوله: ﴿**وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ**﴾ العموم فلا يحمل رئيسٌ ذنب عسكره ولا ذنبَ جلاده أو قتّاله أو صاحب حبسه أو قيده، كلهم خطاياهم عليهم، ولا يحمل عنهم منها رئيسهم شيئاً وإن زعموا لهم أنهم الحاملون فهم كاذبون لكنه شريكهم من حيث أنه أمرهم بالظلم.

وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَصْحَـٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَـٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ

﴿١٣﴾ ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ﴾ أي هؤلاء الذين قالوا: ﴿**اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ..**﴾ فهذا قول الله ـ جلَّ جلاله ـ أنهم يحملون ذنوبهم ﴿وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ وهي صدهم عن سبيل الله وإفسادهم، فهم يحملون خطاياهم التي هي كفرهم وشركهم وغير ذلك وخطاياهم التي هي إفسادهم كما قال تعالى: ﴿**الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ**﴾ [النحل:٨٨] وليس معنى ذلك أنهم يحملون ذنب غيرهم، وإنما المراد أنهم يحملون ذنبهم بفسادهم، ومع ذلك ذنبهم المضاف إلى ذنبهم بإفسادهم من غير أن ينقص من ذنوب غيرهم شيء.

﴿وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ فيحاسبون على كذبهم بقولهم: ولنحمل خطاياكم؛ لأن من معناه إمكان ذلك وجوازه، وأنهم إن اتبعوهم حملوا خطاياهم؛ ولذلك قال تعالى: ﴿..**إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ**﴾ فيسألون يوم القيامة عن هذا الافتراء وغيره من افترائهم كل ما كانوا يفترونه في الدنيا.

﴿١٤﴾ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ﴾ في هذا إنذار للكفار الذين أرسل الله إليهم محمداً ﷺ كما أن فيه تسلية له ﷺ بأن نوحاً عليه السلام كذّبه قومُه مع طول لبثه فيهم وصبره عليهم، وقوله تعالى: ﴿فَلَبِثَ﴾ أي بقي بينهم مبلغاً ومحتجاً وواعظاً ومنذراً ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ والعام: هو السنة

﴿١٥﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ﴾ وهو الماء الذي أغرقهم لكثرته عليهم كما بيّنه الله في (سورة هود). قال في (الصحاح): «والطوفان: المطرُ الغالبُ، والماء الغالب، يغشى كل شيء» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ أي أخذهم في حال أنهم ظالمون لم يتوبوا من ظلمهم، فحقت عليهم الخسارة العظمى والشقوة الدائمة؛ لأنهم بذلك يصيرون في جهنم خالدين فيها أبداً.

﴿١٥﴾ ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ أي نوحاً أنجيناه مما عذبنا به قومه ﴿وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ وأصحابه في السفينة أنجيناهم، فقوله تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ كقوله: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ..﴾ [يوسف:٣٩] وعلق نجاتهم على صحبته في السفينة؛ فلعل ذلك لأنها كانت علَماً للإيمان من ركبها فهو مؤمن ومن تجنبها غرق؛ لأنه ليس مؤمناً.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ كانت سفينة نوح آية للعالمين؛ لأنها دليل على صدق نوح في رسالته كما أنها دليل على الله الذي دبّر نجاة نوح ومن معه بها من بين قومه، وكذلك هي دليلٌ على أن الله تعالى ينجي المؤمنين، وقوله: ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ لأن الأمم توارثت ذكرها.

﴿١٦﴾ ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ﴾ أرسلناه ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ مبلغاً للرسالة: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ وحده ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ فلا تشركوا به، ولا تفعلوا ما يوجب عليكم عذابه

إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ العبادة والتقوى ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ علمتم أنه خير لكم؛ لأنه يؤديكم إلى السعادة الدائمة والنجاة من الشقوة الأبدية، وقبل ذلك الحياة الطيبة، وقد قامت الدلائل على أنه خير لكم فانظروا لتعلموا إن كنتم ممن يعلم بواسطة النظر في الآيات فمن شأنه أن يعلم.

﴿١٧﴾ ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ في (مفردات الراغب): «الوَثَنُ: وَاحِدُ الأوثانِ، وهو حجارةٌ كانت تُعْبَدُ» انتهى. وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام): «معناه: أصنام من حجارة، واحدها وثن» انتهى.

أما (صاحب الصحاح) ففسر الوثن: بالصنم، والصنم بالوثن، فكأنه لا يخص الوثن بالحجارة، أما (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام) فيحتمل أنه فسر الأوثان بالحجارة؛ لأنه يعني أوثان قوم إبراهيم لا لمجرد تسميتها أوثاناً، ويظهر من قوله تعالى: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ [الصافات:٩٥] يظهر منه: أن أوثانهم من الأحجار صنعت تماثيل؛ لقوله: ﴿مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ﴾؟ [الأنبياء:٥٢] فإبراهيم عليه السلام ينكر عليهم الشرك ويحتج على أنهم مبطلون ببيان ما يعبدونه أنه لا يسمع ولا يبصر ولا ينفع ولا يضر، بل هو جماد.

وقوله: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ أي تختلقون وتفترون ﴿إِفْكًا﴾ قولاً باطلاً كذباً؛ ولعله عليه السلام يعني دعواهم أن أصنامهم آلهة وما ادعوا لها من نفع أو ضرّ وبين لهم أنها لا تملك لهم رزقاً وهو أعظم ما يهمهم.

وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ

ثمّ قال: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾ أي لأنه الذي يرزق عباده، ثم قال: ﴿وَٱعْبُدُوهُ﴾ أي لأنه الخالق الرازق فهو ربكم المالك لكم فهو المستحق للعبادة ﴿وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ﴾ نعمه عليكم بالعبادة والإقرار بأنه المنعم ﴿إِلَيْهِ﴾ وحده ﴿تُرْجَعُونَ﴾ اضطراراً ليجزيكم بما قدمتم ولا ترجعون إلى أصنامكم ولا تفيدكم يوم القيامة نفعاً ولا دفعاً.

﴿١٨﴾ ﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ يقول إبراهيم عليه السلام لقومه: ﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ﴾ رسولكم ﴿فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ رسُلَهم فانظروا كيف كانت عاقبتهم.

﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ أن يبلغ الرسالة بلاغاً مبيناً إما بيناً في نفسه، وإما مبيِّنا والمعنى واحد؛ لأن المراد بلاغ يبين ما أرسِل به، وهذا دليل على أن قد مضى قبل قوم إبراهيم أمم، وقد قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ﴾ [إبراهيم:٩] فلا يجب أن نعلمهم كما كان قوم إبراهيم عليه السلام يعلمونهم.

﴿١٩﴾ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أو لم ير الذين كفروا وقالوا: ﴿اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا﴾ فجحدوا رسالة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم؛ لأنهم اعتمدوا في تكذيبهم بالرسالة على استبعاد النشأة الآخرة التي أخبر بها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم مع أنهم يرون بعقولهم كيف ينشئ الله النشأة الأولى، وهي بدء الخلق كخلقهم أنفسهم في بطون أمهاتهم.

ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُۖ وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي

فإذا عرفوا ذلك فكيف يخفى أن الله يعيده تارة أخرى؛ لأن ﴿ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ كما دل عليه بدء الخلق، فقوله: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾ عطف على جملة الكلام من أول الآية كما يأتي قريباً في قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ﴾ ويحتمل كيف يبدئ الله خلق بعض المخلوقات وهو المرعى ثم يعيده بالمطر بعد أن يبس وتكسر فبدء المرعى خَلْقُه أول ما خُلق، وإعادته في عرف العرب واعتبارهم إعادة المرعى بعد أن ذهب.

وقد احتج الله عليهم بهذا في (سورة الحج) فقال تعالى: ﴿وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج:٥] وفي (سورة الروم): ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الروم:٢٤] وفيها: ﴿فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى﴾ [الروم:٥٠].

﴿٢٠﴾ ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ ﴿قل﴾ يا رسول الله للمكذبين بالآخرة ﴿سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ لتروا صنعاً من صنع الله غير الذي ترونه في بلدكم ﴿فَٱنظُرُواْ﴾ فيه ﴿كَيۡفَ بَدَأَ﴾ الله ﴿ٱلۡخَلۡقَ﴾ بقدرته التي لا تقاس على قدرة المخلوقين ﴿ثُمَّ﴾ بعد أن بدأ الخلق ﴿ٱللَّهُ﴾ الذي هو على كل شيء قدير الذي دلت عليه مخلوقاته ﴿يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ كما بدأ الخلق، ودل بدء الخلق على أنه على كل شيء قدير ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ ولذلك بدأ الخلق وهو يعيده.

ﭐلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقۡتُلُوهُ أَوۡ

﴿٢١﴾ ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُۖ وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ﴾ لعلّ هذه كالنتيجة لتقرير النشأة الآخرة، ففي الآخرة ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ أو هو من الاحتجاج على النشأة، أي أن الله سيعيد الخلق؛ لأنه يعذب من يشاء ويرحم من يشاء كما في الدنيا ﴿وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ﴾ في الآخرة أي ترجعون إليه دون غيره؛ فاتقوه لأنه غالب على أمره.

وفي تفسير (الإمام زيد بن علي عليه السلام): «﴿وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ﴾ معناه: ترجعون» انتهى. وقال الراغب: «والانقلاب: الانصراف» انتهى.

﴿٢٢﴾ ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾ ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ لا تفوتون الله إن فررتم منه لا تفوتونه حال كونكم ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا﴾ حال كونكم ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ لو فررتم في السماء؛ ولعل هذا يشير إلى الطائرات التي هي اليوم أسرع وسائل الفرار من بلد إلى بلد والذي يكون فيها في الهواء يكون بعيد المنال.

﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ﴾ يتولى أموركم، ويحسن رعايتكم فتكتفون به عن ولاية الله، أو فيدفع عنكم عذابه بالشفاعة، وقوله: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي يكون بزعمكم أقرب إليكم من الله أو متدخلاً بينكم وبين الله، فهذا لا يكون ﴿وَلَا نَصِيرٖ﴾ ينصركم كذلك.

﴿٢٣﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ راجع إلى الذين قالوا: ﴿ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا﴾ من حيث أنهم كفار،

حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ يَوۡمَ

تقدّم أولاً الرد عليهم باعتبار كذبهم من حيث قالوا: ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ﴾ ثم هذا الوعيد على كفرهم بآيات الله حيث جحدوا كونها آيات من الله، وعلى كفرهم بلقاء الله الذي هو الحضور في موقف العرض والسؤال والحساب؛ لأنهم كفروا بالبعث بعد الموت.

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي﴾ يئسوا من رحمة الله في الآخرة التي هي الجنة فهم في الدنيا يئسوا منها؛ لأنهم يئسوا من الآخرة وهم يوم القيامة ييأسون من رحمة الله ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ففاتت عليهم الجنة وعاقبتهم العذاب الأليم في الجحيم، وهذه الآيات دخلت بين قصة إبراهيم عليه السلام من قول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا..﴾ لأنها ناسبت قول إبراهيم من حيث هي تنذر المشركين وتحتج لصدق الإنذار، ولأن ذلك المراد من حكاية قصة إبراهيم لقوم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

﴿٢٤﴾ ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقۡتُلُوهُ أَوۡ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يُؤۡمِنُونَ﴾ هذا راجع إلى احتجاج إبراهيم على قومه ونصحه لهم فما أجابوه بجواب حسن، إنما أجابوه بقولهم: اقتلوه أو حرقوه ثم تموا على إحراقه ﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ حيث كانت برداً وسلاماً على إبراهيم ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يُؤۡمِنُونَ﴾ إن في إنجاء إبراهيم من النار ﴿لَأَيَٰتٍ﴾ لأنه دليل على الله الذي جعل النار برداً وسلاماً، ودليل على علمه وقدرته ونصره لرسله وإخسار أعدائه.

ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ

وقوله تعالى: ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي يؤمنون إذا جاءتهم الآيات التي تدل على الحق لأنهم ينظرون فيها نظر من هو طالب للحق، ولا يعرضون عنها ولا يستكبرون من الإيمان بها، فكان من شأنهم أن يؤمنوا.

﴿٢٥﴾ ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾ وقال إبراهيم، ولعل هذا بعد خروجه من نارهم لأنه أُخّر بعد ذكر إنجائه ولم يذكر مع احتجاجه وقوله: ﴿مَّوَدَّةَ﴾ أي اتخذتم أوثاناً من أجل المودة بينكم تحاببتم على اتخاذ الأوثان فتم بينكم اتخاذها لأنكم تعاونتم على الإثم وتآخيتم على الباطل، ويحتمل: جعلتم أوثاناً سبباً للمودة بينكم تعصباً لها، فمن كان معكم أحببتموه لحبها ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ تعرفون أنكم أهلك بعضكم بعضاً، بتسببه للشرك، فتنقلب المودة عداوة، فيكفر بعضكم ببعض، كقوله: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ [الممتحنة:٤] ﴿وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ عداوة وبغضاً وغيظاً، وقد حكى في (لسان العرب) تفسير الكفر بالبراءة في بعض المواضع فلا يبعد هنا، وفي قوله: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ أنه بمعنى برئنا منكم، وقد قال الشرفي بعد أن فسرها بغير هذا قال: «والمعنى أنكرناكم وقطعناكم» انتهى.

وقوله: ﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي بشرككم وما اكتسبتم من أسبابها، وقوله: ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾ تحذير من توهم أن أصنامهم سينصرونهم إن بعثوا.

إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ

﴿٢٦﴾ ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾

فآمن له لوط تفريع على إنذاره لقومه، آمن له: أجابه إلى الإيمان وأطاعه وصدقه ولعله آمن له حين كلم قومه بما حكاه الله عنه فأظهر لوط إيمانه لأن من البعيد أنه كان مشاركاً لقوم إبراهيم في محاولة إحراقه، فلا بد أنه كان يكتم إيمانه ثم أظهره في آخر الأمر حين أنجا الله إبراهيم من النار، وبطل أمر قومه، وصاروا الأسفلين.

وقال إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾ لأنه قد أذن له بفراق قومه فهاجرهم ولم يبق بينهم مع إصرارهم على الشرك، وكانت هجرته إلى ربه لأنه يريد أن يعبد ربه حيث لا يرى المنكر، ولا يسمعه فكانت هجرته في طاعة الله إلى الله.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ فهو الذي من شأنه أن يعز من هاجر إليه، ويحفظه أو فهو الذي لا يرضى لأوليائه بالبقاء حيث يعصى الله دون أن يخرجوا إليه لأن بقاءهم بين المشركين وهم مستضعفون ينافي عزتهم بالإيمان وذلك لا يناسب عزة ربهم، ولذلك قال تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:٧١] كما أن بقاءهم بينهم في غير المعصومين مظنة ضعف إيمانهم؛ لأن مشاهدة المعاصي وسماعها على الاستمرار يقلل نفار النفس منها ويقرب من الرضى بها، ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:٦٩] فمن الحكمة الأمر بالهجرة من بينهم وأن لا يكون البقاء بينهم مرضياً عند الله.

﴿٢٧﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ

وهذا في غير المعصوم، فأما المعصوم فإنما بقاؤه بينهم ينافي مباينتهم ومعاداتهم؛ لأن فيه إيناساً لهم حيث يشركون وهو يرى ويسمع، ويكذبون بآيات الله وهو ساكت فإن بقي مقاوماً لهم ومعارضاً فذلك مشقة عليه بغير موجب حيث قد جازت له الهجرة، وانتهت مهمته معهم، فليس من الحكمة بقاؤه بينهم حيث لا يستطيع الإنكار أو لا ينكر إلا بقوله، وهم لا يبالون بقوله، وقد أنكره بما يكفي لإبلاغ الحجة، وإنما يعارضونه بالتكذيب والسخرية، فبقاؤه فيهم ليس من الحكمة، فمن الحكمة إيجاب الهجرة عليه صيانة له وإكراماً، انظر إلى قول الله تعالى لعيسى عليه السلام: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [آل عمران:٥٥].

﴿٢٧﴾ ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ﴾ أي لإبراهيم عليه السلام ﴿إِسْحَٰقَ﴾ ابناً له ﴿وَيَعْقُوبَ﴾ ابن ابنه إسحاق، وهذا في حال أن قد هاجر، فحمد الله على ذلك وعلى أن وهب له إسماعيل كما في (سورة إبراهيم) ولعل ذكر إسحاق ويعقوب هنا لمناسبة دعوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لبني إسرائيل في المدينة المنورة.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ﴾ في البطنين بعد إسماعيل وإسحاق، فكانت نعمة لأبيهم إبراهيم وفضيلة لذريته على غيرهم فبطل بذلك إنكار العنصرية الإنكار المطلق، فأما العنصرية التي لم يدل عليها القرآن ولا السنة أو الغلو في العنصرية التي أصلها ثابت فذلك غير صحيح.

وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى

وقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ لعل ذلك ما جعل له في الدنيا من الفضل مثل اتخاذه خليلاً، ولسان صدق في الآخرين جعله له، ومِثْل زيادة الهدى والنور والحياة الطيبة وجعله إماماً للناس، والله أعلم ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ينال من الثواب والكرامة والنعيم ما نال الصالحون وهو مفضل فيه على قدر فضله، قال الشرفي: في أرفع الدرجات في الجنة.

﴿٢٨﴾ ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ﴿وَلُوطًا﴾ وأرسلنا لوطاً ﴿إِذْ قَالَ﴾ اذكر ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ هذا خبر مؤكد وبعده سؤال توبيخ ﴿أَئِنَّكُمْ﴾ تعدد إنكاره عليهم تارة بالخبر، وتارة بالسؤال الموبخ لهم، و﴿ٱلْفَٰحِشَةَ﴾: الزائدة في قبحها البالغة في القبح مبلغاً شنيعاً، يعني إتيانهم للرجال شهوة وقوله: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ﴾ دعوة إلى تركها كما لم يفعلها مَنْ قبلَهم؛ فتركها مع عدم القدوة فيها أهون، وليس لهم سلف يتأسون به، فهي منهم أقبح، ولأنهم سنوا سنة سيئة، وذلك زيادة في قبحها.

﴿٢٩﴾ ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ ﴿لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾ تنكحونهم ﴿وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾ وقطع السبيل: ظلم لمن مرّ واعتدوا عليه، ولمن ترك المرور خوفاً منهم ﴿وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ﴾ محل اجتماعكم ﴿ٱلْمُنكَرَ﴾.

قال في (الصحاح): «والنديّ على فعيل مجلس القوم ومتحدثهم، وكذلك الندوة والنادي والمنتدى، فإن تفرق القوم فليس بنديّ، ومنه سميت دار الندوة بمكة التي بناها قُصَيّ لأنهم كانوا يندون فيها أي يجتمعون للمشاورة» انتهى. وقال الشرفي: «والنادي: مجتمع القوم ما داموا فيه فقط، وإلا فهو مجمع ومجلس» انتهى المراد.

وذكر ذلك (صاحب لسان العرب) والمنكر هنا ما تنكره العقول، وكونه في ناديهم دلالة على تراضيهم به، وتوافقهم عليه، فلا ينكرون المنكر، ولا يعيبون المعيب، وفعله في حال حضورهم ومشاهدتهم دليل عدم المبالاة بالعار، وعدم الحياء، وخبث نفوسهم.

وقال الشرفي: «يعني ما كفاكم قبح فعلكم حتى تضموا إليه قبح الإظهار» انتهى، والذي في نسخة (المصابيح): قبيح فعلكم، ولعله غلط بزيادة الياء، وإنما هو: قبح فعلكم ـ بضم القاف وسكون الباء.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ تكذيباً لرسولهم ومبالغة في تكذيبه وإصراراً على باطلهم، ومبالغة في عنادهم، والحصر إضافي فلم يجيبوا بالموافقة والطاعة ولا بطلب حجة بل قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين، ونظيره في كون الحصر إضافياً قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا﴾ [الأنعام:١٦٤] أي لا على غيرها، وليس المراد العموم لأن الصالحين يكسبون لأنفسهم، ومعنى قولهم: ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ نفي صدقه والمبالغة في نفيه بطلب عذاب الله إن كان صادقاً، بمعنى أنهم لا يطلبون عذاب الله إن كان صادقاً إلا لأنهم واثقون أنه غير صادق.

ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ

﴿٣٠﴾ ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ رجع إلى الدعاء بعد إقامة الحجة عليهم وعنادهم وجدهم في فسادهم وإفسادهم، فإذا نصره الله نصر الحق، وزهق الباطل والدعاء سلاح المؤمن، ولم يكن له طاقة بقهرهم لعدم الأنصار معه مع أنه إنما أرسل لإنذارهم فكذبوه، وحاولوا أن يفضحوه في ضيفه فلم يكن له سلاح إلا الدعاء.

﴿٣١﴾ ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ ﴿رُسُلُنَآ﴾ الملائكة الذين جاءوا ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ عليه السلام فبشروه بإسحاق ويعقوب ﴿قَالُوٓاْ﴾ لإبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ التي هي قرية قوم لوط ﴿إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ قد استحقوا العذاب بظلمهم وظلمهم هو المعاصي التي فعلوها كلها ظلم لأنها تعدٍّ في حق ربهم وحيف وجور في معاملتهم لربهم لأن مقتضى العدل أن يعبدوه وحده ويشكروه، ويطيعوه، فإذا تركوا ذلك فقد جاروا وظلموا.

﴿٣٢﴾ ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ ﴿قَالَ﴾ إبراهيم عليه السلام مجادلاً في قوم لوط ﴿إِنَّ فِيهَا﴾ أي في القرية ﴿لُوطًا﴾ ليس من الظالمين، فإذا وقع العذاب على القرية وقع على من لم يظلم مع الظالمين ﴿قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا﴾ وهو لوط وأهله إلا امرأته ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ كانت ممن لا ينجون من العذاب بل يصيبها ما أصابهم، وقد مر الكلام في معنى ﴿ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ مبسوطاً فراجعه.

وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ

﴿٣٣﴾ ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا﴾ الملائكة الذين يهلكون أهل القرية وكانوا ممثلين بشراً ﴿سِيٓءَ بِهِمْ﴾ ساءه مجيئهم ومعنى ﴿سِيٓءَ﴾ ضد سُرَّ لأنه ظنهم أضيافاً من الناس وخاف أذية قومه على أضيافه، كما وقع منهم، انظر قصته معهم في (سورة هود) و (سورة الحجر) ﴿وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ﴾ فهم لن يصلوا إلى ما حاولوه من المنكر بأضيافك، وإنما نحن رسل ربك بإهلاكهم ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ﴾ من عذابهم ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾ كانت من الماضين بالعذاب، المهلكين الذين لا ننجيهم.

﴿٣٤﴾ ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ هذا مما قال الملائكة للنبي لوط عليه السلام حكاه الله عنهم والرجز الحجارة التي تنزل عليهم مع الحاصب فهي عذابهم الذي تكرر ذكره في القرآن، انظر (سورة الذاريات) وغيرها.

﴿٣٥﴾ ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ﴿مِنْهَآ﴾ أي من القرية التي أمطرت مطر السوء كما مر في (سورة الفرقان) قال الشرفي في (المصابيح): «ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ﴾ أي من القرية ﴿ءَايَةًۢ بَيِّنَةً﴾ أي عبرة ظاهرة لمن يعتبر هو آثار منازلهم الخربة». انتهى.

يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾

ومعنى ﴿ءَايَةً﴾ دليلاً وعلامة تذكر بأهل القرية المهلكين، فتكون عبرة لمن بعدهم فهي بقية من جدرانها، لو لم يكن إلا القاعدة التي هي الأساس الظاهر لمن مر بها، وقوله تعالى: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي يستعملون عقولهم فيعقلون الآية التي فيها عبرة لهم فيعتبرون بها.

﴿٣٦﴾ ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ وأرسلنا ﴿إِلَىٰ مَدْيَنَ﴾ قال الشرفي: «وهي قرية شعيب سميت بمدين ابن إبراهيم» انتهى، والمراد: أهل قرية شعيب، ولذلك قال: سميت بمدين بن إبراهيم، لأن القبائل تسمَّى بأسماء جدودها.

﴿فَقَالَ﴾ ــ عطف على ﴿أَرْسَلْنَا﴾ ـ ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ أي وحده ﴿وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾ بالإيمان والتقوى، لأن المؤمن المتقي يرجو رحمة ربه في اليوم الآخر وهذه خاصة للمؤمن ليست لغيره، وبها تسهل عليه مصائب الدنيا وفراق الحياة الأولى، ويمكن أنه أراد حصِّلوا الرجاء بالإيمان والتقوى ليحصل لكم المرجوّ ﴿وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ بإفساد المعاملة بالخيانة في المكيال والميزان وغير ذلك، وقد مرت قصته مبسوطة في (الأعراف) و(هود).

﴿٣٧﴾ ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ فكذبوا شعيباً فأخذتهم رجفة أرضهم بهم، ولعلها رجفت بهم لصيحة ملك لأن الصوت الشديد ترجف منه الأرض، ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ﴾ لعلها عبارة عن بلدهم، حيث قال: ﴿دَارِهِمْ﴾ ولم يقل: دورهم، ويقال لبلاد الإسلام: دار الإسلام، وبلاد الكفر: دار الكفر.

وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ

قال الشرفي: «وقوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ أي باركين على الركب مكبين ميتين، وعلى وجوههم وأيديهم ساقطين» انتهى.

وقال في (الصحاح): «جثم الطائر: أي تلبّد بالأرض، يجثم ويجثُم جثوماً وكذلك الإنسان، قال الراجز: إذا الكماة جثموا على الركب» انتهى المراد.

﴿٣٨﴾ ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ﴾ ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ﴾ أهلكناهم أو أرسلنا إليهم فكذبوا فأهلكناهم؛ لأنه عطف على قصة مدين ﴿وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ﴾ الخالية وآثارها الباقية: إما تبين لكم إهلاكهم تبين لكم من مساكنهم أي دلتكم مساكنهم على هلاكهم، وإما تبين لكم بعض مساكنهم أي الخالية منهم التي هي عبرة لكم أيها المكذبون لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم.

﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ فأصروا عليها ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي سبيل الله الذي هو الإيمان برسلهم واتباعهم ﴿وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ﴾ أي أغواهم الشيطان عن الطريق وكانوا قادرين على إبصارها وسلوكها، أو على جعلها مبصرة بالنظر فيها أو طالبين للبصيرة فلما جاءتهم صدوا عنها.

قال الراغب: وقوله ـ عزَّ وجل ـ : «﴿وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ﴾ أي طالبين للبصيرة، ويَصحُّ أن يُستَعَارَ الاستبصارُ للأبصار، نحو: استعارة الاستجابة للإجابة» انتهى.

وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟

قلت: يفسر هذه الآية قوله تعالى في (عاد): ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ [الأحقاف:٢٦] فالمعنى في هذه الآية صدهم عن السبيل وكانوا أهل بصائر لكنهم لم يستعملوا بصائرهم فلم تنفعهم. وقال الشرفي: «﴿وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ﴾ أي عقلاء متمكنين من النظر أو مستبدين برأي أنفسهم مستغنين بجهلهم والعرب تقول: فلان مستبصر برأي نفسه».

﴿٣٩﴾ ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ﴾ ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ﴾ أهلكناهم أو أرسلنا إليهم فكذبوا فأهلكناهم والثاني أرجح؛ لأنه أوفق للسياق ﴿جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الدالة على صدقه وأنه رسول من الله ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ استكباراً منتشراً شائعاً ذائعاً أظهروه في قومهم ولم يخصوا به أنفسهم.

ومن أمثلة ذلك ما حكاه الله تعالى في قوله: ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف:٥١-٥٢] وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ﴾ ما كانوا فائتين لنا بل أدركناهم فأخذناهم.

أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ

﴿٤٠﴾ ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ﴿فَكُلًّا﴾ من المذكورين من قوم نوح إلى هامان أخذناه بذنبه أخذاً حقاً مستحقاً؛ لأنه جزاء على ذنبه وبسبب ذنبه، فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً وهم قوم لوط، والحاصب الذي يرمى بالحصباء، وهي الحجارة الصغار، وقد أهلكتهم وشبهت بالمطر لنزولها عليهم، وإرسال الحاصب بأمر الله تعالى، وفعل الملائكة، أو الملائكة رموهم بها في خلال الحاصب، أو هم الحاصب نفسه لقوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ﴾ [الذاريات:٣٢ -٣٣] فكانوا في صورة ريح شديدة ترمي بالحصباء قوم لوط، ومنهم من أخذته الصيحة التي أدت إلى الرجفة وهذا عذاب مدين وثمود، ولعله أيضاً عذاب قوم إبراهيم، لأنهم قد ذكروا في هذه السورة بعد قوم نوح.

وقال تعالى: ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ [النحل:٢٦] قالوا: هم قوم إبراهيم، فترجح أن عذابهم كان بالرجفة التي سببها صيحة رجفت تحت بنيانهم فسقط فوقهم ومنهم من خسفنا به الأرض، وهو قارون ومنهم من أغرقنا، وهم قوم نوح وفرعون وهامان، ولعله خصهما بالذكر هنا مع أن الله أغرقهما وقومهما ليكونا عبرة للمستكبرين من قريش، وهذا السياق في الذين كذبوا الرسل فأخذهم الله بسبب تكذيبهم رسلهم وقد أهلك الله غيرهم لسبب آخر، مثل أصحاب الفيل، فلم يذكروا في هذا السياق.

لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ تأكيد لنفي ظلمهم ودلالة على أنه ليس من شأنه تعالى، كأنه لا يتصور منه، ونَفْي أنه ظلمهم تأكيد لكون هلاكهم بذنوبهم تحذيرا للمكذبين بمحمد ﷺ، وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ لأنهم أوقعوا أنفسهم في استحقاق العذاب بذنوبهم، فوقع عليهم العذاب بتسبيبهم فكانوا هم ظلموا أنفسهم بالذنوب الموجبة ولعله جاء التعبير بقوله: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ لتكرر أسباب العذاب منهم ليدل الكلام على ذلك، وهذه الآية وأمثالها في القرآن دليل واضح على بطلان القول بالجبر بأي صورة كان القول به.

﴿٤١﴾ ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ مثل المشركين الذين اتخذوا من دون الله أولياء يتولون أمورهم ويحفظونهم وينصرونهم أي شركاء يعبدونهم ليتولوهم فمثلهم في اتخاذ شركائهم أولياء ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ وهي دويبة تصنع أرق من القرطاس وأضعف بيتاً لها فهو بيت ضعيف مثّل به شركاءهم لضعفها عن نفع الذين اتخذوها وجعل أي العنكبوت مثلاً للمشركين لأنهم أشبهوا العنكبوت، وهذا تحقير لهم وتسفيه لعقولهم أما العنكبوت فإنها تستفيد بنسجها صيداً لها لأنها تصيد به الذباب، بخلاف المشركين فلا تفيدهم أصنامهم شيئاً، والتمثيل إنما هو في اتخاذ الضعيف ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ﴾ الوهن: ضعف ضد الصلابة، وقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ أي المشركون لو كانوا يعلمون لو كان من شأنهم أن يعلموا لعلموا أن مثلهم مثل العنكبوت.

يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ

﴿٤٢﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ الذي جعل الأصنام مثل بيت العنكبوت ﴿يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ من أي جنس كان من حجارة أم من نحاس أم من ذهب أم من غيره فهو عالم به وبضعفه عن نفع المشركين، ولم يمثله بالعنكبوت غلطاً بل هو الحق الذي ضربه مثلا بعلمه ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ فلا يرضى الشرك ولا يأذن به للمشركين كما زعموا.

﴿٤٣﴾ ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ﴾ الإشارة إلى المثل المذكور قريباً في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ..﴾ وإلى غيره من الأمثال المذكورة في القرآن، والأمثال تصور الأمر بما يوضح حكمه أو فائدته أو قبحه أو نحو ذلك، زيادة توضيح سواء كان فيها أداة تشبيه أو كلمة مثل أم لا، مثل قوله تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ..﴾ إلى آخر الآية [البقرة:٢٦٦] فقد بينت قبح إحباط العمل ومضرته على الإنسان، فقوله تعالى: ﴿نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ بيان لفائدة ذكرها وهي أنها تضرب للناس ليفهموا ويعقلوا فينتفعوا.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ وما يحفظها ويعقلها عقل رعاية ويعقل بذلك فائدتها إلا من يعلم؛ لأنه فكر واستفاد بالنظر في آيات الله المعرِّفة لمعانيها، لا من هو معرض عن كتاب الله لا يتفهم ولا يتدبر فبقي على جهله فهو لا يعقل الأمثال، كما لا يعقل غيرها من آيات الله ومعنى يعقلها يفهمها.

قال الراغب: «العقل يقال للقوة المتهيئة لقبول العلم، ويقال للعلم الذي يستفيده الإنسان بتلك القوة عقل، ثم قال: وأصل العقل الإمساك والاستمساك كعقل البعير» انتهى المراد. وفي (لسان العرب): «وعقل الشيء يعقله: فهمه» انتهى.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال الهادي عليه السلام: الأمثال فهي ما ضربه الله لعباده من الأمثال في كتابه مثل قوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ..﴾ إلى قوله: ﴿..وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور:٣٥] ومثل قوله: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ..﴾ إلى قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة:٢٦٦].

ومثل قوله: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ..﴾ إلى قوله: ﴿.. لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم:٢٨] وغير ذلك مما يطول شرحه، ويكثر في الكتاب ذكره، فلا يعلمه ولا يعقله إلا العالمون بغامضها الراسخون في تفسيرها، ومن عَقَلِها العلمُ بما كان فيه أمر أو نهي منها والرجوع إلى حكمها والتصديق بكل ما فيها» انتهى.

وفي نسخة (المصابيح): «ومِنْ عَقْلِها بالعلم» وعندي أنه غلط، وأن الصواب: العلم بدون باء، وهو مبتدأ خبره من عقلها، ولعله يعني أن من عقل أمثال الله فهم ما تدل عليه من أمر أو نهي مع الإيمان به، والتصديق به والعمل به، فلا يختص بعلم غامضها ـ والله أعلم.

(٤٤) ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ بالحق بالحكمة والصواب ليس باطلاً ولا عبثاً، وهذا يشير إلى أنه خلقها ليسكنها عباده ثم ليبتلي عباده بالأمر والنهي فيعبدوه، ويترتب على ذلك أنه لا بد من الجنة والنار، انظر ما حكى الله عن أولي الألباب: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران:١٩١] ولذلك لا بد من الرسل والكتب، فالمشركون المكذبون للرسل في جهل وغواية عما خلقوا لأجله وعما خلق الله السموات والأرض لأجله.

ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ومعنى آية علامة ودليل، فالمؤمنون يعرفون بها خالقهم وأنه على كل شيء قدير، وبكل شيء عليم، إلى غير ذلك.

﴿٤٥﴾ ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ ﴿ٱتْلُ﴾ يا رسول الله على الناس ﴿مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الذي هو القرآن ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أتمها بأركانها وفروضها وشروطها هذا هو معنى إقامة الصلاة المفهوم من قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ﴾ [النساء:١٠٣] وذلك لأنه عطف على ذكر صلاة الخوف، فالمعنى: فإذا اطمأننتم فلا تصلوا مثل صلاة الخوف، بل أتموا الصلاة وهذا هو المعنى الجامع لتفسير إقامة الصلاة بجعلها قيمة لا عوج فيها يكون بمخالفتها للمشروع، وجعلها غير ميتة بل يحييها المصلون من قولهم: «قامت السوق» والحمد لله.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ هو مثل قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود:١١٤] وتفسير الإذهاب بالنهي عنها حتى لا تقع هو الظاهر، بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ..﴾ [الأحزاب:٣٣] فالصلاة تنهى عن الفحشاء من حيث هي حسنة تذهب السيئات، وذلك لأنها طاعة لله مشتملة على حسنات من الخشوع والذكر والركوع والسجود وغير ذلك.

يؤكد أن الحسنات تمنع السيئات ما جاء في الإنفاق: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [البقرة:٢٦٥] وفي الجهاد: ﴿وَالَّذِينَ قاتلوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ [محمد٥:٤] وفي الصيام: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٨٣].

أما قوله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ فيحتمل ولذكر الله في الصلاة أكبر من نهيها عن الفحشاء والمنكر، ويحتمل ولذكر الله أكبر في الصلاة وغيرها أكبر من جملة الصلاة نهياً عن الفحشاء والمنكر، ويحتمل ولذكر الله بذكره للناس وتعليمهم توحيده وعدله وصدق وعده ووعيده أكبر.

قال الشرفي في (المصابيح): «وما أحسن قول الهادي عليه السلام فإنه قال: الذكر ها هنا الدعاء إلى الله وفي ذلك ما حدثني أبي عن أبيه أنه كان يقول في قوله الله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ هو الدعاء إلى الله، قال عليه السلام [لعله الهادي عليه السلام]: ويدخل مع ذلك مِنْ ذِكر الله شغل القلب في التفكر في جلال الله وقدرته وعظمته وسلطانه والذكر له بما ذكر به نفسه من توحيده وعدله وصدق وعده ووعيده. ذكره في الأحكام» انتهى من (المصابيح).

وهذا القول لم يذكر فيه المفضل عليه بقوله تعالى: ﴿أَكْبَرُ﴾ ولعلهم أرادوا أكبر من الصلاة لأن الخطاب للرسول صلى الله عليه وآله وسلم بقوله تعالى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾ إلى قوله: ﴿..وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ فالمعنى: اتل ما أوحي إليك وأقم الصلاة واذكر الله لأمتك فذكر الله أكبر من الصلاة وأعظم لأنه أساس الدين لأن أول الدين معرفة الله تعالى، والقول الأول هو أرجح عندي من حيث هو تفسير للآية، لأن الله تعالى قال: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي﴾ [طه:١٤] فهو ترغيب في الصلاة بأن ذكر الله فيها أكبر من كونها تنهى، والله أعلم ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ من صالح أو غيره فارغبوا في ثوابه.

أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ

﴿٤٦﴾ ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ التي هي أحسن، الكلمة المفيدة بالحجة الواضحة والتعبير اللين.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾ وهم المعاندون الطاعنون في الإسلام فهم أهل للغلظة قال تعالى: ﴿وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة:٧٣] ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ قولوا لهم في جدالكم لهم: ﴿ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿مُسْلِمُونَ﴾ أي مخلصون أنفسنا ووجوهنا أي عبادتنا لله وحده، فقوله: ﴿أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ وهو القرآن ﴿وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ التوراة والإنجيل آمنا بالكل، وأنتم لم تؤمنوا به ﴿وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ﴾ فلم نتخذ غيره، وأنتم اتخذتم عيسى وعزير والأحبار والرهبان في جعل الحكم لهم كما هو لله يحلون ويحرمون، ونحن أسلمنا لله وحده.

﴿٤٧﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [العنكبوت:٤٧] ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ومثل ذلك الذي قرأناه عليك يا رسول الله هنا مثله في أنه آيات بينات توجب على أهل الكتاب وغيرهم الإيمان به ﴿أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ على هذه الصفة ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ رزقناهم علمه كلامه ومعناه.

تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ

فهم علماء قد عرفوا ما فيه من التبشير بك وعلاماتك حتى عرفوا هذا القرآن كما يعرفون أبناءهم فهم يؤمنون به ﴿وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الذين حولك ﴿مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ أي بالقرآن، والراجح: أن الإشارة إلى أهل مكة أو إليهم وإلى من حولهم، وعلى هذا تكون هذه الآية مما نزل بمكة.

﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ بأنعم الله؛ لأن الله أنعم عليهم بالرسول والقرآن، وتبين لهم بالآيات صدق الرسول وأن القرآن كلام الله فكفروا تلك النعمة، وسائر نعم الله تعالى عليهم ولو شكروا لنالوا نعمة الهدى التي هي أعظم النعم.

﴿٤٨﴾ ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ ﴿مِن قَبْلِهِۦ﴾ من قبل هذا القرآن ما كنت تتلو من قبله أي ﴿كِتَٰبٍ﴾ صغير أو كبير ﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ﴾ أي لا تكتب أي كتاب صغير أو كبير ﴿إِذًا﴾ لو كنت تقرأ مكتوباً أو تخطه ﴿لَّٱرْتَابَ﴾ في صدقك ﴿ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ الذي لم يؤمنوا بالقرآن ولا بالرسول، فكان يحصل لهم ريب بسبب القراءة المتقدمة أو الكتابة لو كانت لأنهم يجوزون حينئذ أنك تعلمته من كتب متقدمة، وهذا في المبطلين الذين لم يؤمنوا بهذا الكتاب من أجل عجزهم عن الإتيان بسورة من مثله، فأما أهل الحق الذين نظروا في القرآن أنه لو لم يكن من الله لاستطاعوا أن يأتوا بمثله فآمنوا بأنه من الله فهم لا يرتابون لو كنت تتلو الكتاب أو تخطه لأن القرآن قد كفاهم آية بينة فسواء كنت كاتباً أم لم تكن.

بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَـٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْأَيَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا

﴿٤٩﴾ ﴿بَلْ هُوَ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ ﴿بَل هُوَ﴾ أي هذا الكتاب ﴿ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ﴾ لا ريب فيه؛ لأنه اشتمل على سور، وكل سورة آية تدل على أنه من الله لعجز العرب عن أن يأتوا بمثلها، وكذلك هو آيات بما فيه من القصص الحق المفصل المطابق لما في الصحف الأولى، وكذلك هو آيات بما فيه من الإخبار بالغيب، وصدق الإخبار مثل: ﴿وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ [الروم:٣] ومثل: ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا..﴾ [البقرة:٢٤] فغلب الروم كما أخبر ولم يأتوا بسورة من مثل القرآن. وعلى الجملة كل ما في القرآن من الدلائل على أنه من الله آيات بينات لمن نظر وطلب الحق.

وقوله تعالى: ﴿فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ إما بمعنى أن الذين أوتوا العلم يحفظونه غيباً وهم رسول الله ﷺ وعلي عليه السلام، وعبد الله بن مسعود رضي الله عنه، في وقت نزول هذه الآية، ويمكن أن أبا ذر منهم وغيره ولا يجب أن يكون في كل عصر كذلك، بل يكفي أنه كذلك في وقت نزول الآية مع أن كثيراً من العلماء يحفظونه في صدورهم وإما بمعنى بينات في صدور الذين أوتوا العلم أي بينات لهم.

﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ أهل الحيف والجور فهم يجحدونها مع علمهم أنها آيات الله ظلماً منهم وعلواً.

﴿٥٠﴾ ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَـٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْأَيَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ وقال الجاحدون الظالمون: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ﴾

عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِي

على محمد ﴿ءَايَٰتٌ﴾ تدل على صدقه ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾ وهذا نفي لكون القرآن آيات نزلت عليه من ربه فأرادوا أنه لم ينـزل شيء كفراً منهم.

﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْأَيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ فهو الذي يأتي بها، فأما أنا فلا أستطيع أن ينـزل الله عليَّ ما لم يشأ أن ينـزله هو سبحانه لا شريك له في ملكه ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أنذر المكذبين عذاباً شديداً وذلك لا يوجب لهم حقاً في اقتراح آيات من الله غير ما قد أنزل بل يوجب عليهم الحذر من العذاب وطلب الحق سعياً في نجاتهم والنظر فيما قد أنزل الله من الآيات والإيمان بها لينجوا من عذاب الله.

وقوله: ﴿مُّبِينٌ﴾ إما بمعنى يبين ما أنذر لأنه قد فصل ما أنذرهم أنه نار تلظى وأنه جهنم لا يموت فيها ولا يحيى، وأنهم خالدون فيها أبداً، وإما بمعنى بيّن أنه نذير صادق لما قد جاء به من الآيات الدالة على صدقه، وكلا المعنيين صحيح.

﴿٥١﴾ ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ﴾ صدقناك يا محمد بأن ﴿أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ فيسمعونه ويعلمون أنه خارق ليس من كلام البشر، فذلك يكفي من طلب الحق ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ في إنزاله عليك يتلى عليهم ﴿لَرَحْمَةً﴾ من رحيم أنزله رحمة للعالمين ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ موعظة تذكر بالحق وبالجزاء للمكذبين والجزاء للمؤمنين مما ينتفع به من شأنه أن يؤمن إذا سمع الآيات البينات، فأما المعاندون فلا حق لهم بعد آيات الله المنـزلة.

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ

﴿٥٢﴾ ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾

﴿قُلْ﴾ يا رسول الله للمكذبين لك ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾ يشهد أني قد بلغتكم ما أرسلت به، وأقمت عليكم الحجة ويشهد أنكم كذبتم بآيات الله فذلك يكفيني، ولا يهمني بعد ذلك تكذيبكم لأن الله تعالى يحكم بيني وبينكم يوم القيامة فيثيب المحق ويعاقب المبطل، لأنه ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فهو يعلم ما كان بيني وبينكم.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ بدون حجة ﴿وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ مع قيام حجته عليهم ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ لا من آمن بالله وبما أنزل وبالرسول فلن يكون خاسراً لأنه ينجو من عذاب الله أما المؤمنون بالباطل الكافرون بالله، فإنهم يخسرون يوم القيامة أنفسهم فلا يبعثون لحياة أنفسهم ولنعمة الحياة إنما يبعثون ليعذبوا في جهنم خالدين، فهم الخاسرون وذلك هو الخسران المبين.

﴿٥٣﴾ ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ ويطلبون منك تعجيل عذابهم لزعمهم أنك كاذب وإذا كنت صادقاً فعجل عذابهم وأنت صادق، فقد استعجلوك بالعذاب وتكرر منهم استعجالك بالعذاب ﴿وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ أجَّل الله العذاب بحكمته فلو جاءهم لزعموا أنهم كانوا يؤمنون لو لم يجئهم لأنهم في هذه الحياة التي دعوا فيها إلى الإيمان

بِٱلۡعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوۡمَ يَغۡشَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡ وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٥٥﴾ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ

فأما في الآخرة فإنما يطلبون العودة إلى دار العمل ولا يتهيأ لهم دعوى أنهم فيها، وكذلك أجل الله تعالى عذابهم العاجل الذي ليس دائماً إنما هو مهلك لهم أجله بحكمته ليفسح لهم المجال لينظروا ويتوبوا إن كانوا تائبين، ولتزداد الحجة عليهم وتتأكد بالإمهال والذي طلبوا تعجيله هو العذاب الذي أنذرهم الرسول وهو عذاب الآخرة، لأن السياق فيه، ولذلك قال تعالى:

﴿٥٤-٥٥﴾ ﴿يَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ * يَوۡمَ يَغۡشَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡ وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ فالعذاب آتيهم لا مجال لهم منه وإن أُجِّل وإن جهنم لمحيطة بالكافرين كلهم هؤلاء وسائر الكافرين فهي واسعة تحيط بهم كلهم ﴿يَوۡمَ يَغۡشَىٰهُمُ﴾ لعل يوم متعلق بمحيطة أي تحيط بهم في ذلك الموعد يوم يغشاهم ﴿ٱلۡعَذَابُ﴾ يشتمل عليهم كل واحد يشتمل عليه لهب جهنم من فوقه وجمرها من تحته: ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ..﴾ [الزمر:١٦] ﴿وَيَقُولُ﴾ العذابُ لهم ﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ أي جزاء ما كنتم تعملون.

﴿٥٦﴾ ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾ هذا إرشاد لعباد الله أرشدهم إليه برحمته ليتخلّصوا من عذاب المشركين ويحفظوا دينهم فقال تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ﴾ فاخرجوا من بين المشركين في أرض الله الواسعة فإنكم تجدون فيها منجاة من المشركين وحفظاً لدينكم.

ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا

﴿فَإِيَّـٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾ لا تشركوا غيري في عبادتكم فهاجروا لتعبدوني، ولئلا تشركوا وفي ذلك سعادتكم في الآخرة أرشدكم الله إليه برحمته.

﴿٥٧﴾ ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ فلا يمنعكم من الهجرة خوف الموت في الغربة وذلك أن الشيطان يخوفهم لئلا يهاجروا فذكرهم الله أن كل نفس ذائقة الموت فهم لا بد أن يموتوا وإن لم يهاجروا.

وإذا لم يكن من الموت بدّ فمن العجز أن تكون جبانا

﴿ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ فنثيبكم ثواباً عظيماً دائماً إذا كنتم قد هاجرتم وصبرتم في المحافظة على عبادته وحده وتقواه.

﴿٥٨-٥٩﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ * ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ التي منها الهجرة ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ لنجعلن لهم مباءة مرجعاً ومصيراً من الجنة ﴿غُرَفًا﴾ خيراً من بيوتهم التي هاجروا منها ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ وذلك خير من أوطانهم التي فارقوها ﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَا﴾ باقين فيها أبداً لا يموتون بخلاف أوطانهم لو بقوا فيها لماتوا وتركوها قسراً ﴿نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ في الدنيا على مفارقة الدور والأوطان والأهلين والعشائر، وصبروا على طاعة ربهم ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ فيهاجرون وإن خوفهم الشيطان الموت أو الجوع توكلاً على ربهم.

تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ

﴿٦٠﴾ ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ ﴿وَكَأَيِّن﴾ وكم ﴿مِّن دَآبَّةٍ﴾ في الأرض من السباع وغيرها ﴿لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا﴾ معها حيثما صارت فلا يترك المؤمن الهجرة لخوف الفقر، لأن الله قد تكفل بالرزق ﴿ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا﴾ أي الدواب ﴿وَإِيَّاكُمۡ﴾ يرزقكم فكيف يمنعكم الرزق إذا هاجرتم إليه.

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ فهاجروا إليه واسألوه أن يرزقكم وتوكلوا عليه فهو يعلم ما أنتم فيه من هجرتكم وما تكون عليه حالكم، وهذا كقوله تعالى: ﴿لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه:٤٦].

﴿٦١﴾ ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ رجع الكلام في المشركين وهذا احتجاج عليهم يقول الله لرسوله ﷺ ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم﴾ أي ولئن سألت المشركين ﴿مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ تجريان بحسبان ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ في الجواب على سؤالك: ﴿ٱللَّهُ﴾ أي هو الذي خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر.

يقول الله تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ مع إقرارهم بهذا فمن أين يؤفكون يصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره، ويجعلون له أنداداً عاجزة من الجمادات فيجعلونها أنداداً لمن خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر، ويحتمل يؤفكون أنه تشبيه لهم بالمأفوك في عقله بسحر أو غيره.

بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ

﴿٦٢﴾ ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فهو الذي يستحق العبادة لأنه الخالق الرازق وليس الرزق دليلاً على أن الله لا يعذب من يرزقه كما يزعم الكافرون أنهم لن يعذبوا إن رجعوا إلى ربهم، لأن الرازق هو الله لمن يشاء على ما يشاء من بسط للرزق، أو تقدير خلاف البسط، وليس الرزق بالحظ والبخت حتى لا يفارقهم في الآخرة كما هو في الدنيا، وقد يرزق الله العبد فيبسط له الرزق، ثم يقدر عليه الرزق فلو كان الرزق بالبخت وكان لا يفارق البخت صاحبه في الدنيا والآخرة لما اختلفت حالة بعض المرزوقين تارة غني وتارة فقير، لكن ذلك بفعل فاعل بكل شيء عليم يفعل ما يشاء ولعلمه بكل شيء يرزق عباده كما تقتضيه الحكمة من بسط أو تقدير.

﴿٦٣﴾ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ﴿وَلَئِن﴾ سألت هؤلاء المشركين ﴿مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ هو المطر ﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ﴾ فأنبتت النبات ﴿مِن بَعْدِ مَوْتِهَا﴾ بالجدب وعدم المطر ﴿لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ الذي أنزل الماء فأحيا به الأرض من بعد موتها، أقروا بالحق ولم يدّعوا لأصنامهم شيئاً من ذلك.

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ فقد تبين أن الله هو الرزاق لعباده كما أنه الخالق لهم فهو المالك لهم المستحق للعبادة دونْ شركائهم ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ﴾ أي أكثر هؤلاء المشركين ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾ لا يعلمون ما تدل عليه الآيات الربانية التي يشاهدونها لأنهم لا يستعملون عقولهم ولذلك يشركون.

لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ

﴿٦٤﴾ ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ اللهو: ما يتلهى أي يشتغل به الإنسان من أغراض نفسه ولذاته قال تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر:١] قال الراغب: «اللهو: ما يشغل الإنسان عما يعنيه ويهمه» انتهى.

وقال الشاعر ـ وهو امرؤ القيس ـ :

فألهيتها عن ذي تمائم محول

واللعب: معروف مثل اللعب بالكرة، قال تعالى حاكياً: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ [يوسف:١٢] فقوله تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ.﴾ [العنكبوت:٦٤] بمعنى أنها تشغل الإنسان عما هو أهم منها وهو الإعداد للآخرة؛ لأن اللهو واللعب فائدتهما لذة وقتية تنتهي في الغالب فتنتهي اللذة ولا تبقى فائدة بعدهما فكأن الحياة الدنيا من حيث أنها تشغل عن الآخرة وتذهب فائدتها بالموت إذا اشتغل الإنسان بها كأنها كلها لهو ولعب، والدنيا تشغل عن الآخرة فتفوت على من اختارها الدار الآخرة التي هي الجنة بما فيها من النعيم الدائم والملك الكبير.

﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: الحياة والبقاء» انتهى. وقال (صاحب الصحاح): «والحيوان خلاف المَوَتان» انتهى. وفي (لسان العرب): «وفي التنزيل ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ أي دار الحياة الدائمة» انتهى، وقال الشرفي: «أي ليس فيها إلا حياة مستمرة دائمة خالدة لا موت فيها فكأنها في ذاتها حياة» انتهى.

قلت: إذا كانت قد جعلت حياة فالأظهر أنه أعم من إفادة الخلود فهي حياة السعادة، وحياة النعيم، وحياة القوة، وحياة السرور، وحياة اللذة، كلها وحياة الملك لأن الأشياء المطلوبة توصف بالحياة إذا ظهرت وقويت مثل العلم فيقال: أحيى العلم وأحيى الدين وأحيى النار وغير ذلك.

وهذا لعله مراد الإمام زيد بن علي عليه السلام حيث قال: «الحياة والبقاء» ولم يقل: هي بقاء الحياة، فلعله أراد البقاء في الجنة باعتبار بقائه في نعيمها.

وقوله تعالى: ﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ الراجح أن معناه: لو كانوا يعلمون لعلموا ذلك بخبر الله أي لو كان شأنهم أن يعلموا وكانوا ممن يعلم في الجملة لعلموا أن الدار الآخرة هي الحيوان ولكنهم ليسوا ممن يعلم لأنهم لا ينظرون في دليل ولا يفكرون في طريقة علم بل هم معرضون مستمرون في جهلهم.

وقال الشرفي في (المصابيح): «لو كانوا يعلمون صحة ما قلنا لآثروا الآخرة ولم يؤثروا الدنيا ولرغبوا عن الفاني إلى الباقي» انتهى.

﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ ٦٥﴾ ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ﴾ مع شركهم وإصرارهم على الشرك مع احتجاج القرآن عليهم بقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم..﴾ فأبوا فإذا ركبوا في السفائن أو في السفينة، لأن الفلك يكون للفرد من السفائن وللمتعدد المجموع ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ﴾ خوفاً من الغرق ﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ الذي هو الدعاء لا يدعون إلا الله ولا يدعون أصنامهم وهذا دليل على أنهم يعلمون أنها لا تنجيهم من الغرق لا تسمع دعاءهم ولا تقدر على إنقاذهم فدعوا الله وحده.

ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُواْۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا

﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ﴾ فخرجوا من البحر بنعمة الله وصاروا في البر فأمنوا من الغرق ﴿إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ أي أنه لم يكن عندنا متوقعاً رجوعهم إلى الشرك بعد أن أخلصوا لله في البحر، وعلموا أنه لا ينجيهم من الغرق إلا الله ففاجؤوا بالشرك بعد ذلك حين خرجوا من البحر وصاروا في البر مسرعين إلى الشرك وإلى كفر نعمة الله.

﴿٦٦﴾ ﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُواْۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ ليكفروا إن كانت لام الأمر فهو تهديد للمشركين مثل: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ..﴾ [فصلت:٤٠] وهو الظاهر على قراءة ﴿وَلْيَتَمَتَّعُوا﴾ بسكون (اللام) فأما على قراءة كسرها فهي تحتمل التعليل لشركهم المفاجئ ليكفروا بما آتيناهم من النعم، ولكن قوله: ﴿وَلِيَتَمَتَّعُواْ﴾ لا يظهر فيه التعليل للشرك، فالأرجح: أن اللامين كلاهما للأمر وأنه تهديد لهم لعنادهم، وأكده بقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ أي يوم الجزاء وعند معاينة جهنم، ومفعول (يعلمون) محذوف، فهم سيعلمون ظلمهم لأنفسهم بالشرك وأن الشرك باطل وأن الحق لله وحده ولكن حين لا ينفعهم علم ذلك.

﴿٦٧﴾ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ﴾ أي قد رأوا ﴿أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا﴾ للكعبة ﴿ءَامِنًا﴾ يتمتعون فيه بالأمان؛ لأنه حرم الكعبة يعترف العرب بحرمته، وأن القتال فيه حرام فهو آمن أي ذو أمن أو آمن أهله مثل: ﴿عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ [الحاقة:٢١] ﴿وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ﴾ أي يقتّلون بأخذهم أخذاً سريعاً ﴿مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ خارج الحرم.

جَآءَهُۥٓۚ أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٦٩﴾

قال الشرفي: «كان العرب حول مكة ـ أي خارج الحرم ـ يغزو بعضهم بعضاً ويتغاورون وأهل مكة قارون آمنون مع قلتهم وكثرة من حولهم» انتهى. فهذه نعمة عظيمة على من في الحرم ﴿أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ﴾ وهو الشرك وغيره ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ بدون حجّة ﴿وَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَكۡفُرُونَ﴾ وهذا السؤال توبيخ لهم شديد.

﴿٦٨﴾ ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓۚ أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ﴾؟ سؤال في معنى النفي أي لا أظلم ﴿مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ وهم قد افتروا على الله كذباً في دعواهم: أن الله رضي منهم بالشرك، وأنه حرم ما حرموا من الأنعام ﴿أَوۡ كَذَّبَ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ﴾ وهم كذبوا بالقرآن والرسول وما أنذرهم من الآخرة ﴿أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ بأي كفر من الافتراء على الله أو التكذيب بما أنزل الله أو غير ذلك من الكفر فحسبهم جهنم مثوى لهم.

والراجح: أن تنكيره لتعظيمه فهو مثوى أي مثوى لهم، والمثوى محل الثواء أي البقاء قال الشاعر:

آذَنَتْنَا ببينها أسماء رب ثاو يُمَلّ منه الثواء

قال شارحه: «رب مقيم تمل إقامته» انتهى من (شرح المعلقات السبع).

وقوله: ﴿فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى﴾ وهي مثواهم هو من التجريد، مثل الصيد في الفرا وهو نوع من البديع وفيه مبالغة وتأكيد، وقد قال تعالى: ﴿وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ﴾ [محمد:١٢] فإذا كانت مثواهم فهي حسبهم جزاء على كفرهم وقوله تعالى: ﴿أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ﴾ تأكيد لذلك كقول الشاعر:

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

فإنه أبلغ مما لو قال: أنتم خير من ركب المطايا.

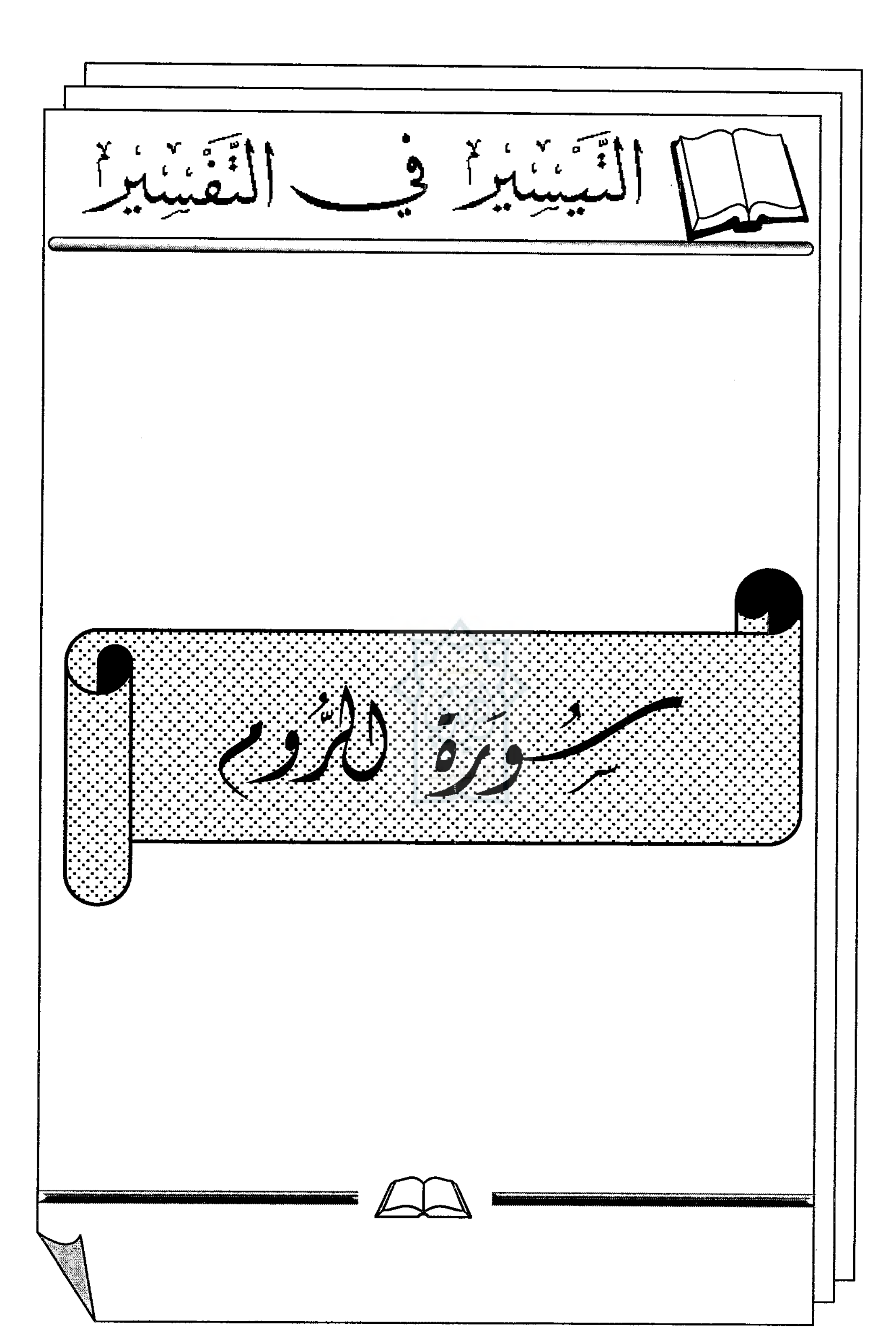
(٦٩) ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا﴾ أي في الله وهذا الضمير يفيد العظمة والجلال مما يحرك الغضب في المؤمن على أعداء الله الذين جعلوا له أنداداً أوثاناً وافتروا عليه الكذب وكذبوا بآياته فالجهاد في الله شأن المؤمن دفعاً للشرك به والكذب عليه والتكذيب بآياته وهو نوع من الجهاد في سبيل الله رفيع القدر عظيم الشأن، وعد الله أهله الهدى لسبله، وهي ما يقرب إلى الله ويوصل إلى رحمته والسبل جمع سبيل، وهي الطريق، وأفادهم أنه معهم لأنهم من المحسنين فإذا كان معهم فليثقوا بالنصر على أعداء الله ما كان جهادهم في الله.

والجهاد الحقيقي: هو المغالبة بين جهد وجهد، كما يفيده مادة الجهاد وإفادته المغالبة بصيغته، فهو القتال وغيره يسمى جهاداً مجاز، ولم يذكر في الصحاح إلا الجهاد في سبيل الله يعني الكفاح المسلح، فظهر: أنه الحقيقة مع أن الله تعالى قد أمر بالقتال ومعناه واضح.

تم تفسير (سورة العنكبوت) والحمد لله





التيسير في التفسير
سورة الروم



سُورَةُ الرُّومِ

ترتيبها ٣٠ — آياتها ٦٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ

ابتداء تفسير (سورة الروم) وهي (مكية)

قال الشرفي: قال في (البرهان): اتفاقاً

﴿١-٤﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ الٓمٓ * غُلِبَتِ ٱلرُّومُ * فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ * فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ ﴿الٓمٓ﴾ من حروف التهجي ومعناها مسمياتها المستعملة في الكلام وإنما وقع الخلاف في معناها باعتبار الحكمة في جعلها في أول السورة، فقيل: أقسم الله بها، وقيل: عجَّز بالقرآن، فأوردها لتحقيق ذلك، وقيل: الله أعلم بمعناها، وقيل: غير ذلك.

فإذا عرفنا أن معناها الأوّلي معروف وإنما الخلاف في المقصود من ذكرها صح أن نقول: إنها من المتشابه، ولا يصح أن نقول: إنها خطاب بما لا يعلم كما لو خوطب العربي بالفارسي، وأريد منه أن يفهمه قبل الترجمة فإن هذا لا يصح من الحكيم؛ لأن الحروف المذكورة قد فهم معناها في نفسها، وإنما التبس المقصود من إيرادها مع أنها مفهومة في نفسها، وكثيراً ما نجهل حكمة الله في بعض مخلوقاته ولا يقدح ذلك في حكمة الله، فكذلك جهلنا بالحكمة في إيرادها إن جهلناها وقد تقدم بعض ترجيح لمعنى أن الله أوحى القرآن بلفظه وحروفه في بعضها لا مجرد وحي المعنى وحده دون اللفظ.

وأتبع هنا هذه الحروف بذكر غلبة الروم ليبني على ذلك الخبر بالمغيب أن الروم من بعد أن غُلبوا وضعفوا سيغلبون، وتكون الدولة لهم في المستقبل، وذلك في بضع سنين، والروم كانوا نصارى فغلبوا في أقرب بلادهم إلى العرب، وكانت بلادهم الشام وغيرها.

وقوله تعالى: ﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَ﴾ بيان لموعد الغلبة التي ستكون. قال في (الصحاح): «وبضع في العدد بكسر الباء وبعض العرب يفتحها وهو ما بين الثلاث إلى التسع». انتهى المراد.

فإن قيل: كيف حدد الله تعالى تاريخ الغلبة المستقبلة بهذا التحديد مع أنه علام الغيوب قادر على أن يحدد بأعظم من هذا مثل سبع سنين؟

قلنا: هذا يكفي في المقصود لأنه مدة قريبة وإن لم تحدد بأعظم من هذه فهو دليل على أنه وحي الله حين يقع الغلب ﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَ﴾ وهو أيضاً يعارض فرح المشركين إن كانوا فرحوا كما قيل لأن الفرس مشركون يعبدون النار، والروم أهل كتاب، وإذا كانت المعجزة أعني دليل الوحي من الله على عبده ورسوله محمد ﷺ قد تحققت بذكر البضع فهو كاف، ولعله لو حدده الله بالحد الأقصى الدقيق لوجد الكفار سبيلاً إلى تكذيب خبر الله بأن يقولوا إن الغلبة وقعت قبل الموعد بيوم مثلاً، أو بعده بيوم، وأنه لم يطابق الواقع فأما البضع فلا يجدون سبيلاً إلى تكذيبه، وعلى الجملة الله أحكم سواء علمنا أم جهلنا وجه الحكمة، ولم يذكر الفرس في الآية وهم فيما يقال: كانوا هم الغالبين للروم، وهم الذين صاروا مغلوبين في بضع سنين على ما يقال في التفسير.

﴿٥﴾ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أَوَلَمْ

وقوله تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ أي من قبل الغلب ومن بعده فلو شاء لما غلبت الروم ولو شاء لما غلبت فارس، لكنه يسلط على أعدائه كيف يشاء ومتى شاء على ما تقتضيه حكمته في التعذيب العاجل أو في الفتنة والاختبار أو غير ذلك، وهو أحكم الحاكمين، وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي يوم تغلِب الروم عدوهم يفرح المؤمنون وهذا خبر آخر بمغيب وهو فرح المؤمنين بنصر الله ينصر من يشاء، فهذا وعد لهم وإنما جعل تاريخه غلبة الروم المستقبلة على عدوهم فأما فرحهم فقد بين ما هو الذي يفرحون به؟ فقال:

﴿٥﴾ ﴿بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ﴾ فبين أنهم يفرحون بنصر الله لهم إلا أنه جعل في الكلام بعض إيهام لحكمة حيث لم يقل لهم، ولكن أشار إليه بقوله: ﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُ﴾ فبين أنه نصر لمن يشاء الله أن ينصره وهم المؤمنون فأما تفسير فرحهم أنه بغلبة الروم فهو ضعيف:

أما أولاً: فإن الفرح بالأمور الدنيوية مذموم فبعيد أن يبشر به المؤمنون.

وأما ثانياً: فإنه كان يكفي أن يقول: ويومئذ يفرح المؤمنون ويقتصر عليه فيفهم منه فرحهم بغلبة الروم على عدوهم.

وأما ثالثاً: فمن البعيد أن يزيد في الكلام قوله بنصر الله ليفيد أن الروم سينصرهم الله، والنصر إنما هو لأوليائه فأما أعداءه فإنما يسلطهم لحكمة وقد أفاد قوله تعالى: ﴿لله الأمر من قبل ومن بعد﴾ فائدة أن غلبة الروم في المستقبل إنما هي بتسليط الله، ولو شاء لما غلبوا فكفى ذلك عن زيادة ذكر نصر الله للروم.

وأما رابعاً: فإن من شأن المؤمنين أن يُسروا بقهر المشركين إذا غلبهم الروم من حين نزلت البشارة بذلك لأنهم مؤمنون بخبر الله فلا يؤجل فرحهم لحين وقوع المخبر به.

وأما خامساً: فليس للإخبار بفرحهم بغلبة الروم أهميّة تقتضي ذكره في القرآن لأن الحال التي كانوا فيها كما زعم بعضهم أن المشركين فرحوا حين غلبت الروم لأن الفرس مشركون فهذه الحال تدل على أن المؤمنين سيسرون حين تغلب الروم فارس، ولا موجب لذكره فتبين أن الذي أخبر الله به هو فرح المؤمنين بنصرهم وأكد هذا بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ فالمناسب لعزة الله تعالى هو نصر المؤمنين فأما تغليب أعدائه فهو لحكمة ولا تقتضيه العزة بالنسبة إلى الغالبين لأنهم أعداؤه، فأما المغلوبون فلم يذكروا حتى نقول قهرتهم عزة الله، وتفسيره بما يناسب المذكور أولى كما قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:٧١] وكذلك المناسب لرحمة الله نصر المؤمنين فأما تغليب الكفار بعضهم لبعض فإنما هو فتنة ولا يسمى رحمة من الله أعني ليس من الحكمة جعله رحمة كما ليس من الحكمة جعله نصراً بخلاف نصر أوليائه فهو رحمة فهذه إشارات تحقق أن المراد وعد المؤمنين بنصر الله، ولذلك قال تعالى:

(٦) ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

أي أن الله تعالى وعد بنصره وعداً، فلما كان الكلام الماضي بمعنى أنه وعد بنصره نصب وعداً وحين لم يصرح بالعامل أضاف وعداً المنصوب إلى الله فأفاد أن الخبر بالنصر وعد الله، وهو للمؤمنين لأن الكلام ليس موجهاً إلى الروم حتى نجعله وعداً لهم لأنهم كفار بعيد عن موضع الرسول ﷺ لا يخاطبهم بهذا الكلام بخلاف كونه وعداً للمؤمنين فهم عنده يستمعون القرآن.

وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنه وعد الله لا يخلف الله وعده، أو لا يعلمون أن الله تعالى لا يخلف وعده وهذا أقرب لغفلة أكثر الناس، وجهلهم بالله تعالى، والأول مبني على أنهم لا يعلمون وعد الله فهم لا يعلمون أن الله تعالى لا يخلفه وقوله تعالى: ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ يعم وعده بالنصر ووعده باليوم الآخر والحساب والجزاء فيه، وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الأرجح أنه ابتدأ تحويل الكلام من ذكر النصر إلى ذكر الآخرة والمراد أنهم لا يعلمون أن الله تعالى لا يخلف وعده بالآخرة وهذا يسمى عند أهل المعاني والبيان حسن التخلص وهو من البديع كما أنه اشتمل على الادماج وهو من البديع أيضاً وليس من مهمة المفسر ذكر ذلك لكني أعجبت هنا، وفي (سورة المطففين) بحسن الانتقال في الكلام.

(٧) ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ من أغراض الحياة الدنيا فعندهم خبرة وبصر بالظاهر هذا لعنايتهم به وإقبالهم عليه، فوجهوا له أسماعهم وأبصارهم وأفئدتهم فصاروا فيه أهل خبرة وبصر كالتجارة وصنعة الثياب وغيرها من الصناعات في ذلك العصر.

ولعل قوله تعالى: ﴿ظَٰهِرًا﴾ إشارة إلى باطن من الحياة، وهو ما أدركه الناس في هذا العصر من اكتشاف الكهرباء، ووسيلة إبلاغ الصوت في الراديو.. وغير ذلك كثير، لكنه من الحياة الدنيا يذهب نفعه بزوال الحياة أي بالموت، والأمر الأهم هو العلم بالآخرة وما وعد الله به فيها وأوعد لأن الاستعداد لها هو المهم لدوام نعيمها ودوام عذابها، فالغفلة عنها مذمومة شأن من لا ينظر في العواقب فهو يعد من السفه فأما غفلة الكفار فأقبح وأضر، ولعلها هي المراد هنا بدليل ذكر الدلائل على أنها حق بعد هذه الآية.

يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ

﴿٨﴾ ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ﴾ ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ﴾ راجع إلى قوله تعالى: ﴿وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ أغفلوا ولم يتفكروا وهم يرون ويعلمون أن الله تعالى خلق السموات والأرض وما بينهما من القمر والنجوم النيرات والشمس إن كانت بينهما أغفلوا مع ذلك ولم يتفكروا فكراً ﴿فِيٓ أَنفُسِهِمۗ﴾ مثل قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾ [الأعراف:٢٠٥] أي في ضمائرهم بعقولهم.

وقوله تعالى: ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ أي يتفكروا تفكراً معناه أو فائدته قولهم في أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض إلا بالحق وأجل مسمى، فأما السؤال فهو بالنسبة إلى الكثير من الناس أو الأكثر سؤال الإنكار التوبيخي على ترك النظر مثل قول إبراهيم عليه السلام: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ [الصافات:٩٥] وقول الله تعالى: ﴿أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ [النساء:٢٠] فهو توبيخ على استمرار الغفلة وترك النظر، وهو إهمال للعقول وبقاء على الجهل، ما خلق الله الحكيم السموات والأرض عبثاً ما خلقها إلا خلقاً بالحق اقتضاه الحق أو صحبه الحق، وبأجل مسمى مصحوبة بأجل ومقترنة حين خلقها به فكأنه شرط في خلقها لولا هو ما صح في الحكمة ولا استقام فإذا كان العالَم لا بد أن يفنى فليس فناؤه كافياً في الحكمة، إنما الحكمة في فنائه تقدمة للآخرة لأن هذا العالم يترك الناس فيه يفعلون ما شاءوا ففناؤهم من دون جزاء للمحسن على إحسانه ولا إنصاف للمظلوم من الظالم يكون خلاف الحكمة فلا بد من الإعادة بعد الفناء ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾ [إبراهيم:٥١] ويميّز بين المحسن والمسيء.

فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ﴾ ﴿رَبِّهِمۡ﴾ الذي خلقهم ورزقهم فلم يشكروه بل كذبوا رسله الذين أنذروهم لقاء ربهم وعقابه لهم على ظلمهم وجاءوهم بالآيات البيّنات فكفروا بها وبلقاء ربهم وسؤاله لهم وحسابه وجزائه كفروا بالبعث فأداهم الكفر به إلى الكفر بما في القيامة.

﴿٩﴾ ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ﴾ أكفروا بلقاء ربهم ولم يسيروا أي بل قد ساروا ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ فرأوا آثار ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ الذين كفروا بلقاء ربهم ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ كيف هلكوا ودمر الله عليهم فيعتبروا بهم، ويحذروا أن ينـزل بهم مثل ما نزل على من قبلهم ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةً﴾ من هؤلاء الكافرين بمحمد وبإنذاره لهم فلم تدفع عنهم قوتهم بأس الله ﴿وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ﴾ في عمارتهم لها بالحرث والبناء ﴿وَعَمَرُوهَآ﴾ أحيوها بالحرث والبذر والغرس والسقي والبناء وغير ذلك ﴿أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ أي مما عمرها هؤلاء المكذبون لمحمد ﷺ الذين هم بواد غير ذي زرع إنما معظم عيشهم في التجارة والإجارة على الخدمة ﴿وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ كما جاءكم محمد بالبينات فكذبوا رسلهم ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ﴾ بإنزال العذاب عليهم وإهلاكهم ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ لأنهم أكثروا الفساد وكذبوا الرسل وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه، وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق كما صنع الكافرون بمحمد وبالقرآن.

ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿١٠﴾ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ

﴿١٠﴾ ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ ﴿ثُمَّ﴾ بعد أن أثاروا الأرض وعمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات ﴿كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ﴾ بأن ﴿كَذَّبُواْ﴾ رسلهم وباليوم الآخر وغير ذلك كانت عاقبتهم العاقبة السيئة بل ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ وهو أبلغ من السيئة لأن ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ تأنيث الأسوأ وذلك كان لأن ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ فالتكذيب بآيات الله أساس الفساد كما أن الإيمان بها أساس الصلاح، فلذلك كانت جريمتهم عظيمة، التكذيب بها والاستهزاء بها الذي هو مبالغة في التكذيب وإهانة لما عظم الله، فلذلك كانت عاقبتهم السوءا بسبب التكذيب والاستهزاء وما ترتب على التكذيب من الجرائم ولما كان كفرهم بالرسول واليوم الآخر وغيره من جرائمهم من الشرك وتحريم ما أحل الله والتظالم وغير ذلك لما كان ذلك كله أصروا عليه تبعاً لتكذيبهم بآيات الله صح جعل التكذيب سبب العاقبة ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ لأنه سبب مستقل من جهة وسبب السبب من جهة أخرى، فصحّ جعله السبب من الجهتين فهذا تحذير من التكذيب بآيات الله، والاستهزاء بها وتذكير بالمهلكين لأجلهما ليعتبر بهم الآخرون.

﴿١١﴾ ﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ ﴿ٱللَّهُ﴾ الذي هو القادر على كل شيء العليم بكل شيء ﴿يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ﴾ كما خلق السموات والأرض وما فيهما وما بينهما ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ كما بدأه ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ فهو الذي بدأ الخلق ثم إليه في موقف العرض والسؤال والحساب والحكم بين العباد ترجعون يرجعكم إليه ولا ترجعون إلى غيره.

يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾

فالملك له وحده يومئذ وكل المخلوقين يرجعون إليه، فيسألهم كما قال عزَّ وجل: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر:٩٣] وقال تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً﴾ [مريم:٩٣] فإذا كانوا إليه يرجعون فماذا يكون؟ قال تعالى:

﴿١٢-١٣﴾ ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ * وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ ﴿يُبْلِسُ﴾ قال في (الصحاح): «أبلس من رحمة الله: أي يئس ـ ثم قال ـ : والإبلاس ـ أيضاً ـ الإنكسار والحزن، يقال: أبلس فلان: إذا سكت غمّاً» انتهى، وفي (لسان العرب): «أبلس الرجل: قطع به عن ثعلب، وأبلس سكت، ـ ثم قال ـ : والمبلس: اليائس، ولذلك قيل للذي يسكت عند انقطاع حجته ولا يكون عنده جواب: قد أبلس ـ ثم قال ـ : والمبلس: الساكت من الحزن أو الخوف والإبلاس: الحيرة» انتهى المراد.

فقد ذكروا له ثلاثة معان: اليأس، والسكوت من الغم أو الخوف أو الحزن، والحيرة، وكل الثلاثة تحصل في المجرمين يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى..﴾ الآية [الحج:٢] وقال تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلا تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْساً﴾ [طه:١٠٨] وقال تعالى: ﴿وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات:٣٦] وقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي﴾ [العنكبوت: ٢٣] وإبلاسهم: بمعنى السكوت؛ لانقطاع الحجة لعله في موطن الحساب، ثم في جهنم بعد قول الله تعالى: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون:١٠٨].

فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلْأَٔخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ

وعند سكوتهم تجتمع الثلاثة المعاني، فيسكتون دهشة، وحيرة، ويأساً من الفرج، وعلى القول بحمل المشترك على معانيه لا إشكال في تفسير الآية بالمعاني كلها إذا عدم المرجح.

وقال الشرفي: «الإبلاس: السكوت بتحير، ففسرها به ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم﴾ أي للمجرمين ﴿مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُاْ﴾ وهذا رد على المشركين الذين قالوا: ﴿هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس:١٨] ﴿وَكَانُواْ﴾ أي المجرمون ﴿بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ حين لا ينفعهم الكفر بهم وإنما أيسوا منهم أشد من يأسهم في البحر وعلموا أن عذابهم هو من أجل الشرك بهؤلاء الشركاء، وغيره من جرائمهم فكيف يطمعون في شفاعتهم وكيف لا يكفرون بهم وهذا مثل ﴿كفرنا بكم﴾ في معنى الكفر.

﴿١٤-١٦﴾ ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ * فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ * وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلْأَٔخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ عطف على ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ لتعدد المعنى الواقع فيه أو عطف على ما عطف عليه الأول ﴿وَيَوْمَ﴾ ظرف لتفرق الناس وأعيد لعله لأنه كالسبب لتفرقهم لأنهم لم يتفرقوا في الدنيا مثل ذلك التفرق، لكنهم ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ لأنه يوم الجزاء ويوم التفريق بين المؤمنين والكافرين وفسر التفرق أو فرع عليه بما يفسر التفرق بأنه افتراقهم بين شقي وسعيد.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ﴾ إما أن الروضة وهي محل النبات الذي يجري فيه الماء إما أنها عبارة عن الجنة سميت كلها روضة كما سميت جنة أو أنهم في رياضها كل مؤمن في روضة والأول أظهر، قال الشرفي: «والروضة عند العرب: كل أرض ذات نبات وماء» انتهى. ومثله في (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام) وعبارة الراغب: «الروض: مستنقع الماء والخضرة» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿يُحۡبَرُونَ﴾ يسرون سروراً قوياً يظهر أثره في وجوههم، قال تعالى: ﴿تعرف في وجوههم نضرة النعيم﴾ قال الراغب: «وقوله: ﴿فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ﴾ أي يفرحون حتى يظهر عليهم حبار نعيمهم» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿يُحۡبَرُونَ﴾ أي هذه عادتهم المستمرة فهذا الفعل يفيد التكرار، وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الراجح: أن هذا كفر النعمة عطف عليه تكذيبهم بآيات الله ولقاء الآخرة، لأن الأمرين سبب لعذابهم ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ أهل هذه الصفة ﴿فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ﴾ محضرون بقدرة الله تعالى عليهم وقهره لهم لم يدفعوا عن أنفسهم حضورهم للعذاب، ولم يجدوا ناصراً فأحضروا فيه كما يُحضر الجاني عند الحاكم ليعاقبه.

قال الشرفي: في تفسير (سورة الصافات): «عن الهادي عليه السلام تفسير قوله تعالى: ﴿فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ [٥٥-٥٧] فأطلعه الله على أمره وأراه محله من النار وسوء القرار، وذلك قوله عزو جل: ﴿ فَاطَّلَعَ﴾ بمعنى: أشرف فرآه في سواء الجحيم أي في وسط النار فعند ذلك قال المؤمن لقرينه توبيخاً له: تالله إن كدت لتردين، يقال: كدت أن تهلكني بما كنت تغويني في الدنيا وتأمرني أن أكفر بربي ﴿وَلَوْلا نِعْمَةُ رَبِّي﴾ أي فلولا رحمة الله ﴿لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ في العذاب معك» انتهى المراد.

ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ

﴿١٧-١٨﴾ ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ الراجح: أنه تلقين لنا نقوله في الأوقات المذكورة وذكر مصيرنا فيها قرينة أن المراد التلقين لنا مثل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة:٥] ولو كان المراد إنشاء تسبيح من الله جل جلاله لنفسه لما كان وقته إلا حين أنشأه.

فإن قيل: المراد الخبر.

قلنا: فالخبر معناه إثبات مسبح غير مذكور وإذا كان مقدراً فهو العبد يسبح الله في الأوقات المذكورة ويكون الخبر بمعنى الأمر، كأنه قيل: تقولون: سبحان الله، وهذا لأن كلمة (سبحان الله) تستعمل إنشاء للتسبيح ولا يعرف استعمالها خبراً، وهذا الخبر في معنى الأمر لأنه لا معنى لإخبارنا بذلك مع أن بعض الناس لا يقولها في الأوقات المذكورة كلها.

فالمعنى قولوا: سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وعشياً وحين تظهرون، وفي تعيين هذه الأوقات ما يرجح: أن المراد به: التسبيح في الصلاة وقد فسر بالصلاة نفسها وهو محمول على أن الأمر بالتسبيح في الصلاة أمر بالصلاة.

قال الشرفي: «قال في (البرهان): ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ فيه قولان أحدهما: معناه فسبحوا الله ﴿حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ والثاني: معناه فصلوا.. إلى قوله: ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾ عنى به صلاة المغرب والعشاء ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ عنى به صلاة الصبح» انتهى المراد.

تُخۡرَجُونَ ۝١٩ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٞ
تَنتَشِرُونَ ۝٢٠ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «التسبيح في هذه الآية الصلوات الخمس فـ﴿حِينَ تُمۡسُونَ﴾ صلاة المغرب وصلاة العشاء الآخرة ﴿وَحِينَ تُصۡبِحُونَ﴾ صلاة الفجر ﴿وَعَشِيّٗا﴾ صلاة العصر ﴿وَحِينَ تُظۡهِرُونَ﴾ صلاة الظهر» انتهى.

ولا يخفى أن قوله تعالى: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ لا يصح تفسيره بالصلاة لأنه معين لقول سبحان الله، ولو كان فسبحوا الله لصح تفسيره بالصلاة على معنى أنه كناية عن الصلاة بذكر لازمها، فظهر أن تفسيره بالصلاة ليس بمعنى إخراجه عن ظاهره وإنما هو بمعنى إفادة الصلاة ووجوبها من حيث وجوب قولنا: سبحان الله في الصلاة بقرينة ذكر أوقات الصلاة، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَعَشِيّٗا وَحِينَ تُظۡهِرُونَ﴾ عطف على قوله تعالى: ﴿حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ﴾ وجملة قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ جملة معترضة لعل اعتراضها إشارة إلى أن التسبيح يجعل مع حمده وله الحمد هو مستحقه بإنعامه على أهل السموات والأرض، فاستحق الحمد فيهما وقوله تعالى: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ الفاء تفريع على ما قبلها من الوعد والوعيد الموقت بيوم تقوم الساعة، فهو أمر بالعمل الصالح استعداداً لذلك اليوم.

۝١٩ ﴿يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَيُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ وَكَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ﴾ هذه دلالة على قدرة الله تعالى على إقامة الساعة فقوله تعالى: ﴿يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ﴾ فسّره قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ [الأنعام:٩٥].

إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ۚ

وأما إخراج الميت من الحي فهو المولود الميت يخرجه من بطن أمه لأنها عاجزة عن إخراجه وهو ميت لا قدرة له على الخروج فما أخرجه إلا الله، وقوله تعالى: ﴿وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ بالمطر بعد موتها بالجدب ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ يوم القيامة لأن الله على كل شيء قدير فكما أخرج المرعى بعد أن يبس كذلك يخرج الناس من قبورهم ومن بطن الأرض أحياء بعد موتهم.

﴿٢٠﴾ ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ ﴿أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ وهو خلق أبينا آدم عليه السلام، وأصله التراب، ثم سواه وجعل فيه الحياة فصار بشراً وذريته بشراً وأصلهم التراب، فهذا دليل على إحياء الموتي بعد أن يصيروا عظاما وتراباً، وقوله تعالى: ﴿تَنتَشِرُونَ﴾ أي بالتناسل تكثروا في الأرض في آفاق متباينة أو تنتشرون بالسير في الأرض أحياء، وإنما أصلكم التراب، والمفاجأة في قوله تعالى: ﴿إِذَا أَنتُم﴾ بالنسبة إلى أن أصلنا التراب ويحتمل قوله تعالى: ﴿أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ أن أصل كل إنسان المني، وأصل المني الغذاء، وأصل الغذاء من النبات، وأصل النبات من التراب تمتصه عروقه مع الماء - والله أعلم - وكل ذلك آية على الإحياء بعد الموت.

﴿٢١﴾ ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ دلائل قدرته ﴿أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ فالبنات يخلقهن الله من الرجال، ثم تصير البنت زوجة لإنسان وهذه باعتبار خلق الإناث من الذكور والذكور من الإناث دلائل على قدرة الله تعالى وعلمه، لأن بذلك يتم تناسل الإنسان ويستمر حتى تنتهي الحياة الدنيا على البشر كلهم.

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبۡتِغَآؤُكُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنۡ

فكان خلق الزوجين الذكر والأنثى تقدمة لجعل الأزواج التي بها يسكن كل من الزوجين إلى الآخر وإذا فقده شعر بالعزلة والانفراد وشق عليه فقده ﴿وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةً﴾ فتدوم المؤانسة بواسطة الحب بينهما ويساعد كل منهما الآخر رحمة له إذا آلمه شيء، أو شق عليه، وذلك نعمة من الله على الزوجين وآية وبذلك تم التناسل بين البشر وكثروا في الأرض حتى يقدرون على الأعمال العظيمة بواسطة التعاون فهذه دلائل على قدرة الله تعالى وعلمه يعرفها من تفكر فيها.

﴿٢٢﴾ ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ﴾ ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ ومن دلائل قدرته على إحيائكم بعد الموت ﴿خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ على عظمهما واتساعهما لأهلهما ﴿وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ﴾ لغاتكم التي تتفاهمون بها فألهم الله أهل كل لغة لغتهم ليتفاهموا في تعاملهم بينهم ويقول بعضهم لبعض ما يريد أن يفهمه فيفهمه بواسطة إلهامهم اللغة ولولا ذلك ما تمت نعمة المفاهمة بالكلام، واختلافها دليل على أنه بفعل فاعل مختار علَّم كل جيل من الناس لغتهم كما يشاء، وكذلك اختلاف ألوان الناس آية ودليل على أن خالقها فاعل يفعل ما يريد كاختلاف صور الناس.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ﴾ بفتح (لام) (العالمين) وكسرها، فأما الفتح فمعناه أنها آية لكل عاقل، فمن تفكر عقلها، ومن لم يتفكر فجهله بسبب إعراضه عن التفكر لا لعدم الآية وأما كسرها فمعناه أنها آية يعلمها من تفكر فعلم فهو الذي يهتدي بالآية، فكأنها ليست إلا له بل هي له وحده من حيث أنه الذي يهتدي بها فانفراده بها بهذا المعنى.

ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ

﴿٢٣﴾ ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ ﴿مَنَامُكُم﴾ فالنوم يشبه الموت ثم الانتباه بعده يشبه الحياة بعد الموت، فالإنسان في حال نومه كالميت خارج من اختياره وإرادته وعلمه وسمعه وبصره فإذا انتبه رجع ذلك له ليبتغي من فضل الله، ففي النوم آية، وفي الانتباه آية، ويسّر للنوم الليل كما قدمت في تفسير (سورة القصص) وللانتباه النهار، وأشار إلى ذلك بذكر الليل والنهار مع أن النوم آية وإن كان في النهار.

والابتغاء من فضله آية وإن كان في الليل فقد يسر النجوم والقمر وعلم الإنسان كيف يبتغي من فضله بالليل كما في البلاد الحارة، فلا يجب هنا أنه من اللف والنشر، وأن أصل الكلام منامكم وابتغاؤكم من فضله بالليل والنهار على أن الليل راجع إلى منامكم والنهار راجع إلى ابتغائكم من فضله، لأن الآية في النوم لا تختص بكونه في الليل وكذلك الابتغاء من فضله والسياق في القرآن يختلف لحكمة مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ [الأنعام:٩٥] فعدل هذا السياق عن المعهود لحكمة فكذلك هنا.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ بمعنى يستمعون القول الذي تذكر فيه الآيات فيسمعون هذا إذا أريد أنهم هم الذين يتفعون بذكر الآيات، ويحتمل: يسمعون لهم قوة السمع ففي ذلك آيات لهم فإن استمعوا انتفعوا وإن لم يستمعوا فسبب جهلهم ترك الاستماع لا عدم الآيات.

﴿٢٤﴾ ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾

﴿يُرِيكُمُ﴾ بأن أنشأ لمعان ﴿ٱلْبَرْقَ﴾ فترونه مبشراً بالمطر لمن يطمع فيه ومنذراً به لمن يخافه كالمسافر ومن له شيء معرَّض للغرق كالغنم في مجرى السيل والبضاعة في موقع المطر أو في مجرى السيل ففي البرق حكمة ونعمة ورحمة فهو من الآيات؛ لأن المسافر يسرع إلى مكان يطلبه في جبل أو بناء أو شجرة، والبدوي يرفع غنمه من الوادي، وصاحب البضاعة يكفتها كل ذلك بسبب رؤيتهم للبرق، فذلك دليل وآية، فأما خوف الصاعقة فإن كان الخائف لها يتخذ وسيلة لصرفها صح تفسير الآية بالصاعقة، وبما ذكرت وإلا فلم يظهر صحة التفسير بها وإن كانت مما يخاف بسبب البرق.

﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ هو المطر وفيه آية ونعمة لأن الله تعالى يسوق السحاب الذي فيه الماء حتى يكون على البلد الذي يريد إنزال المطر لأهله فيقف السحاب عليه في حال نزول المطر منه حتى يتم سقياه.

﴿فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ ففي ذلك آية للبعث بعد الموت من جهتين جهة دلالته على قدرة الله تعالى وعلمه من حيث أنه تصرف عظيم لا يكون إلا من قادر عالم ألا ترى أنه عند إنزاله ينزل مفرقاً ولو اختلط في الهواء لضر ثم أنه ينزل وهو عذب صالح للإنسان يشرب منه وللحيوان كذلك وللنبات فيحيي به الأرض ولو كان ملحاً أجاجاً ما أحيى الأرض والجهة الثانية: أن الأرض تكون إذا طال عليها الجدب قد يبست وصارت كأنها لا تصلح للحياة فإذا أرواها المطر نبتت في منابتها الأولى ورجعت لها الحياة بعد موتها فهذا يعارض استبعاد الجاهل للحياة بعد الموت.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾ تدل على الخالق وعلى أنه قادر عالم، وعلى أنه المنعم الرازق لعباده، وعلى أنه قادر على الإحياء بعد الموت آيات من ابتداء

ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ

مقدمات المطر إلى وقوعه نافعاً مرويا محييا للأرض بعد موتها آيات ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ الآيات إذا فكروا فيها بعقولهم والراجح هنا: أن المراد بهم الذين ينظرون ويفكرون فيعقلون الآيات؛ لأنهم الذين يعرفون هذه الآيات.

﴿٢٥﴾ ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ ﴿أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ القيام الوقوف وهو وقوف الأرض على حالها فهي غير متحركة إلى السماء ووقوف السماء فهي غير ساقطة إلى الأرض، ولولا وقوفهما بأمر الله لهما لربما تصادمتا أو صادمتا النجوم في الجو، فكان ذلك سبب الخراب.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ ثم بعد خلقكم وخلق ما تحتاجون له في معاشكم بعد ذلك إذا دعاكم للبعث بعد الموت ﴿دَعْوَةً﴾ للخروج من الأرض ﴿إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ بقدرته التي دل عليها في الآيات التي مرَّ ذكرها من قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ وهو تمثيل لايقافهما، كأنه أمرهما بالوقوف، والدعوة يمكن أنها الصيحة قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ [ق:٤٢] وهذا البعث هو الذي ذكرت له دلائل قدرته تعالى لنعلم إمكانه في قدرته تعالى، ونؤمن بخبره تعالى بوقوعه.

﴿٢٦﴾ ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ﴾ ﴿وَلَهُۥ﴾ أي ولله عطف على قوله تعالى: ﴿إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ فأهل السموات وأهل الأرض

ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلٗا مِّنۡ أَنفُسِكُمۡۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي

كلهم عباد له مملوكون فيحضرون القيامة مملوكين كقوله تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً﴾ [مريم:٩٣] وقوله تعالى: ﴿كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ [الروم:٢٦] منقادون مستسلمون لقدرته يتصرف فيهم كيف يشاء فلا يمتنعون مثل الإحياء والإماتة والبعث ويحتمل أن الواو في أول الآية للحال أي إذا أنتم تخرجون وكل من في السموات والأرض عباد له قانتون فلا ملك يوم القيامة إلا لله، وهو مثل معنى العطف إلا أن واو الحال أظهر فيه وهي تفيد الرد على المشركين بالملائكة أو بغيرهم فيوم القيامة تنكشف الحقيقة فيحضرون موقف السؤال والحساب في حال أنهم عباد له كلهم العابد والمعبود منهم.

﴿٢٧﴾ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ وهذا رد على المشركين ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ﴾ لا يبدأه غيره ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ لا يعيده غيره فلا ند له؛ لأن كل شركاء المشركين عاجزون عن ذلك، وقوله: ﴿وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِ﴾ أي الخلق المعاد أهون عليه لأنه عبد ضعيف لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً فلا يستطيع خلق أن ينازعه في حكمه على عباده يوم القيامة بل لا يستطيع أن يدفع عن نفسه قضاء الله تعالى، وهذا من الرد على المشركين الزاعمين أن شركاءهم شفعاؤهم عند الله فبين أن الأمر يومئذ لله.

وقد فسَّروا هذه الجملة: بأن الإعادة أهون من الإبداء، ولو قال تعالى: وهي أهون عليه لتعين ذلك، لكنه تعالى قال: ﴿وَهُوَ أَهۡوَنُ﴾ فرجع الضمير إلى الخلق المعاد.

مَا رَزَقْنَـٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم

فصحّ تفسيره: بأنه أهون من أن يشاركه في ملكه أو ينازعه في حكمه، بل هو مملوك لله يحكم فيه بما شاء فكانت كقوله تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..فَرْداً﴾ [مريم:٩٣-٩٥] ويصح أن يكون تفضيله على نفسه في الدنيا فهو في الآخرة أهون ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾ [النحل:١١١].

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قال الشرفي: «أي الوصف الأعلى» انتهى. أي أنه المستحق له في السموات والأرض، كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الأعراف:١٨٠] فله الوصف الأكمل مثل: هو على كل شيء قدير، بالنسبة إلى عبد هو قادر على الصلاة من قيام أو على السير، أو نحو ذلك من إثبات قدرة محدودة للعبد وهو العزيز الحكيم، فعزته تنافي أن يرضى لنفسه شريكاً وحكمته تنافي أن يأذن بالشرك، فلا يرضى بالشرك ولا يأذن به لأنه ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ وبذلك بطل دعوى المشركين أنه قد شاء منهم الشرك.

﴿٢٨﴾ ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَـٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ﴿مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُم﴾ من عبيدكم وجواريكم كأن ملكهم خاص باليمين، لأنه حصل في الغالب إما بالغلبة واسترقاقهم في الحرب، وإما بصفقة البيع ودفع الثمن هل لكم ﴿مِّن شُرَكَآءَ﴾ من عبيدكم وجواريكم في مالكم الذي رزقكم الله.

بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ

يبيّن: أن العبد لا يكون شريكاً لسيده؛ لأن عبوديته وكونه مالاً لسيده تنافي كونه شريكاً لسيده في ماله كما يشاركه الحر فيخاف منازعة عبده له في ماله كما يخاف شريكه الحر فإذا كان هذا لا يمكن ولا يرضاه سيد لنفسه فكيف يرضاه الله تعالى وهو المالك الملك الحقيقي الكامل لكل من في السموات والأرض وهو الرازق لهم.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ تفريع على المشاركة المقدرة أي فالسيد وعبده سواء في ملك ماله واستحقاق التصرف فيه بحيث ﴿تَخَافُونَهُمْ﴾ على نصيبكم من مالكم كخوفكم من شركائكم الأحرار أن يتعدوا ويتجاوزوا نصيبهم إلى بعض نصيبكم.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ المثل المضروب وكذلك التفصيل والبيان ﴿نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ نبينها ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يفهمون ما يقال لهم من الحق الواضح المبيّن فينتفعون به، فقد تمت الحجة البالغة على المشركين في هذه السورة الكريمة، فإن الآيات الدالة على قدرته تعالى على البعث دالة أيضاً على أنه لا شريك له مما يدعيه المشركون شريكاً لله سبحانه وتعالى، وهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً، ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً.

﴿٢٩﴾ ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ ﴿بَلِ﴾ إضراب فالمشركون ليسوا بصدد حجة على الشرك أو على بطلانه؛ لأنهم اتبعوا أهواءهم بجهل ومن كان همه مع جهله إتباع هواه فلا يقبل إلا ما وافق هواه وإن خالف الحق؛ لأنه متبع لهواه

ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرّٞ دَعَوۡاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنۡهُ رَحۡمَةً

يقوده إلى ما قاده إليه لا يتبع غيره وإن كان الحق، وهذا هو الضلال المبين الذي استحقوا به أن يخذلهم الله ويتركهم للشياطين فلا يهديهم بعد ذلك أحد ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ يدفعون عنهم عقوبة الضلال، عقوبة هذا الظلم العظيم.

﴿٣٠-٣٢﴾ ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ * مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ * مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ﴾ ﴿فَأَقِمۡ﴾ فلا تتبع أهواءهم بل أقم ﴿وَجۡهَكَ لِلدِّينِ﴾ الحق وهذا تفريع بـ(الفاء) على بطلان الشرك وكون المشركين لا حجة لهم إنما يتبعون أهواءهم ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ﴾ اجعله قيما غير معوج اجعله مهيًا ومعدًا.

وقوله: ﴿لِلدِّينِ﴾ أي لطاعة ربك، فحاصل المعنى: أقم وجهك لطاعة ربك فالوجه الذي لا يستعد لإخلاص العبادة له وطاعته كما أمر يعتبر وجهاً غير قيم، والمراد التوجه بالوجه لعبادة الله وحده، وقال الشرفي: «﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ﴾ أي قوّم وجهك له وعدّ له غير ملتفت عنه يميناً ولا شمالاً» انتهى المراد.

وقوله تعالى: ﴿حَنِيفٗا﴾ قد سبق عن الإمام القاسم عليه السلام تفسير (الحنيف): بالمحب الخاشع، وسبق ترجيحه على تفسير (الحنيف بالمائل عن كل دين، قال الشرفي: «وفي (البرهان) وغيره: ﴿حَنِيفٗا﴾ أي مستقيماً مخلصاً معتدلاً خاشعاً» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ على معرفة أنه ربهم وحده، قال تعالى: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ [الأعراف: من الآية١٧٢] ففطرة الناس تعرف أنه الذي خلقهم ورزقهم وأنه لذلك ربهم المالك لهم فمقتضى ذلك أن يعبدوه وحده اعترافاً بأنهم عباده لا شريك له فيهم فتسميته فطرة الله باعتبار انه الذي تقتضيه فطرة الله التي فطر الناس عليها حيث جعلهم يعلمون أنها الحق.

فقوله تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ بمعنى أن عقولهم تعرف هذا ولا تتبدل عقولهم بل هي في البشر كلهم موحدهم ومشركهم تعلم ذلك أو مُعَدَّة لعلمه، ولا تزال كذلك إلا في المجانين ونحوهم.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ﴾ أي دين الله الذي أمر بإقامة الوجه له هو الدين القيم الذي لا عوج له لأنه أمر به الحكيم العليم وطابق العقول ولكن أكثر الناس لا يعلمون لأنهم لا ينظرون بعقولهم فيبقون على جهلهم ويتبعون أهواءهم، وقوله تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ أي راجعين إليه أي أقيموا وجوهكم للدين منيبين إليه وهذا لأن أمر الله لرسوله أمر لأمته؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [الأنعام: من الآية٦٨] الآية، ثم قال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ﴾ [النساء: من الآية١٤٠] وهذا لأن أمته مأمورة باتباعه.

فقوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ أمر للرسول ثم لأمته ولكون أمته مأمورة بذلك الأمر جاء قوله تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ بصيغة الجمع للرسول وأمته، واتقوه أي واتقوا الله باجتناب معاصيه.

إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ

وقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أمر ونهي للأهميّة في تقوى الله إقامة الصلاة واجتناب الشرك، أو تخصيص الصلاة من بين أعمال الإنابة لله، وتخصيص اجتناب الشرك من بين التقوى وهو اجتناب الكون من المشركين.

وقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ﴾ يعني: المشركين، فهو بدل البيان يبين أن المشركين فرقوا دينهم فكل فرقة مثلاً اتخذت إلهاً غير إله الفرقة الأخرى لأن دينهم تابع لأهوائهم ولو اتبعوا عقولهم لتوحدوا ﴿وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ من دينهم أو إلههم ﴿فَرِحُونَ﴾ وهذا يفيد: أن الحزب يشايع بعضه بعضاً أي يتعاون على نصرة دينه، وهم بما لديهم فرحون لأنهم يهوونه ويحبونه فهم به مسرورون مطمئنون إليه وهذه غاية الضلال إنهم مع كونهم في أشد الباطل فرحون به، فعلينا أن نحذر من أن نكون منهم لأنهم في غاية البعد عن الحق.

وقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ﴾ لا يخص عبّاد الأصنام؛ لأن تفريق الدين قد يكون من أجل الأصنام وقد يكون بسبب اختلاف العقائد وقد يكون باختلاف السياسة فالآية عامة للذين فرقوا دينهم من العرب وللذين فرقوا دينهم من أهل الكتاب المشركين بعيسى وعزيز والأحبار والرهبان.

﴿٣٣-٣٤﴾ ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الروم:٣٤] ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ﴾ أحسوا بألمه لأنه باشرهم

﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ فَرِحُواْ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ إِذَا هُمۡ يَقۡنَطُونَ ۝٣٦ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ ۝٣٥

المرض ومسهم الوجع ﴿دَعَوۡاْ رَبَّهُم﴾ يطلبون منه العافية ﴿مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ﴾ راجعين إليه ليكشف عنهم الضر، وهذا الرجوع ترك الشرك وإخلاص الدعاء لله ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنۡهُ رَحۡمَةً﴾ بأن كشف الضر ﴿إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ﴾ فاجأوا بالشرك بدل الشكر على كشف الضر؛ لأنهم إنما ﴿دَعَوۡاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ﴾ اضطراراً اضطرهم الوجع، فلما ذهب اضطرارهم رجعوا إلى شركهم اتباعاً لما تهوى أنفسهم فبادروا إلى الشرك ﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾ من النعم قال الشرفي ـ ونعم ما قال ـ: «اللام للتعليل المجازي، كأنهم أشركوا للكفر بما آتاهم من نعمة الخلاص» انتهى المراد.

والأولى أن التعليل ليكفروا بما آتيناهم من النعم كلها لا بمجرد نعمة الخلاص من الضر، ولذلك رتّب عليه قوله تعالى: ﴿فَتَمَتَّعُواْ﴾ أي تمتعوا بما آتيناكم من النعم كلها فسوف تعلمون سوء عاقبتكم على الشرك وذهاب ما آتيناكم في الدنيا فقوله تعالى: ﴿فَتَمَتَّعُواْ﴾ يشير إلى أنها متاع ينتهي عما قليل ثم يصيرون إلى العذاب الشديد وقوله تعالى: ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ تهديد عظيم والأمر بقوله تعالى: ﴿فَتَمَتَّعُواْ﴾ إشارة إلى أنه لا يفيدهم هذا التمتع نجاة من العذاب وأنه شيء قليل، فإن كان المراد فتمتعوا بالشرك فهو أمر تهديد.

۝٣٥ ﴿أَمۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشۡرِكُونَ﴾ ﴿أَمۡ﴾ إضراب، وسؤال بل ﴿أَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا﴾ برهاناً يسلطهم على الشرك؛ لأنه برهان غالب وحجة واضحة لا يصح دفعها، وهذا السؤال توبيخ بمعنى النفي، ويفيد: أن الشرك لا حجة له ولا برهان، وأنه لا ينبغي بدون إذن من الله المالك لهم المنعم عليهم الذي هو ربهم فحيث أشركوا بلا إذن منه تعالى فهم مبطلون.

وقولـه: ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ﴾ تفسـير للسـلطان المنفـي إنزالـه ﴿بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ﴾ يتكلم بما استمر وتكرر شركهم به من أصنامهم يتكلم بـه أي بأنـه إله وسبحان الله وتعالى عن إنزال ذلك، ولكنه تعالى يوبخهم على الشـرك بمـا لا برهان لهم به.

(٣٦) ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةً فَرِحُواْ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ إِذَا هُمۡ يَقۡنَطُونَ﴾ ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةً فَرِحُواْ بِهَا﴾ وهذا من السفه أنهم بادروا إلى الفرح بها عند أول حصولها، كأنهم ذاقوها بأفواههم قبل أن تنـزل في بطونهم والفرح سرور مع اطمئنان إلى النعمة وبقائها الذي يتخيلونه، وقد جربوا أن الأحوال تنقلب وإنما كان ينبغي لهم المسارعة إلى الشكر، قال الشرفي: «والفرح هنا: هو البطر الذي لا شكر فيه» انتهى.

والراجح: أن هذا في الآية كلام على الإنسان الذي هو يتخيل حالتـه الـتي هو فيها أنها تدوم فإذا كان في خصب تخيل أنه يبقى وإذا كان في جدب تخيل أنه يبقى فلذلك يفرح بالنعمة ويقنط في الشدة إلا المؤمنين الـذين يسـتعملون عقـولهم ويتـذكرون أن الله تعـالى يقـبض ويبسـط ومـن عـدا المـؤمنين كـأن طبيعتهم البشرية تتوهم استمرار ما هم فيه من خير أو شر أو سـعة أو فقـر، فالغني لا يتصور أنه يفتقـر والفقـير لا يتصـور أنـه يصـير غنيـاً، وقـد سـبق للشرفي تفسير الفرح بالسرور مـع الاطمئنـان، ولكـن هـذا المعنـى ذكـره في (الصحاح) فقال: «فرح به: سُرّ والفرح أيضاً البطر، ومنـه قولـه تعـالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص:٧٦]» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ﴾ السيئة ما يسوءهم مثـل الجـدب ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ وما أصابهم هو بسبب ذنوبهم.

وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ

وقوله تعالى: ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ يفاجئ سريعاً منهم القنوط بعد أن كانوا في نعمة وهذا؛ لأنهم يتخيلون ما هم فيه من السيئة يبقى، ولا ينظرون بعقولهم إلى رحمة الله أنها تجيء بعد الشدة، لأنهم نسوا الله، والقنوط: اليأس من رحمة الله، قال في (الصحاح): «القنوط: اليأس» انتهى. وفي (تفسير الراغب): «القنوط: اليأس من الخير» انتهى.

﴿٣٧﴾ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ هذا رد على القانطين فقد علموا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ لمن يشاء، فإذا كانت الشدة فيمكن أن يكشفها بفضله كما بسط الرزق لمن شاء ويمكن أن يكشفها بالتوبة؛ لأن سبب سوء الحال الذنوب، فإذا كان سبب الفرج التوبة فما بقي وجه للقنوط، بل عليهم أن يتوبوا فإذا لم يتوبوا فقد سببوا لتأخر الفرج إن تأخر مع أنه يمكن الفرج وإن لم يتوبوا لكنهم ينسون الله وفضله على عباده.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ﴾ في بسط الرزق وتقديره على ما شاء الله آيات ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ﴾ [الذاريات:٥٨] هو الذي إن شاء كشف الشدة لأنه يفعل ما يشاء ويبتلي بالخير وبالشر، والقنوط إما نسيان لله وإما سوء ظن بالله وهو جريمة كبرى.

﴿٣٨﴾ ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي أعطه

﴿حَقَّهُۥ﴾ عليك، فهو يستحق أن تعطيه إذا احتاج؛ لأن الله تعالى قد أمر بإيتائه فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾ [النحل:٩٠] وقال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى﴾ [البقرة:١٧٧].

ويمكن أن منه الخمس، إذ يمكن أن تكون السورة (مكية) وفيها آيات (مدنية) وقد روى الحاكم الحسكاني في (شواهد التنزيل) قال: ((ومن (سورة الروم) فيها قوله تعالى: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ [وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ] أخبرنا عقيل بن الحسين ـ وساق السند ـ عن عطاء عن ابن عباس قال: لما أنزل الله: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ﴾ [الإسراء:٢٦] دعا رسول الله ﷺ فاطمة وأعطاها فدكاً وذلك لصلة القرابة...)) الخ.

ولعل هذه الآية هي آية (الإسراء) لأنها هي التي أولها (واو العطف) أما آية (الروم) فهي بـ(الفاء) وفي بعض المصاحف أن (سورة الإسراء) مكية، إلا آية (٢٦) وغيرها، وآية (٢٦) هي قوله تعالى: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ﴾ فترجح: أن الآية هي (آية الإسراء).

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْمِسْكِينَ﴾ أي آته حقه، وله حق في الخمس وفي الزكاة وإذا كانت الآية مكية فحق المسكين غير محدد في القرآن وكذا ﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ له حق من الخمس ومن الزكاة وحقه في أول الإسلام غير محدد، ولكنه مفهوم بسد خلتهما أو المستطاع منه، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ أي ذلك الإيتاء خير للذين يريدون به أو به وبغيره وجه الله التقرب إلى رحمته ورضوانه، فلهم ثوابه بخلاف من أنفق للرياء والسمعة فلا ثواب له بل هو آثم وكذا من أنفق لا يريد به التقرب إلى الله بل لمجرد العاطفة فلا ثواب ولا عقاب، إذا لم يكن سبب العاطفة الخوف من الله.

عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ ثُمَّ رَزَقَكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ

﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾ الإنفاق لوجه الله خير من الإمساك أي هو خير للذي أعطى فلا يتوهم أن الإمساك خير له ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ فذلك الإنفاق سبب للفلاح والفلاح الظفر بالخير في الآخرة فهو دخول الجنة والنجاة من النار.

﴿٣٩﴾ ﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ﴾ هذه مقابلة بين إعطاء الربا والصدقة، فالربا لا يضاعف بل هو إثم والصدقة إذا كانت لوجه الله تضاعف.

ولعل هذه الآية (مكية) ولذلك ليس فيها زجر عن الربا لأن الحكمة كانت في تأخير الزجر عنه حتى يقوى الإسلام، وهي تفيد: أن مؤتي الربا يعطي ماله في غير فائدة له لأنه لا ثواب له فيه فلا ينال عوض ما أعطى لا مضاعفاً ولا غير مضاعف، أما الصدقة التي يُراد بها وجه الله فهي التي يكون صاحبها هو المضعف الذي ينال أضعافها فقوله ﴿فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ بمعنى: لا تثابون عليه فيضاعف لكم بل هو ضائع فما لكم ترضون به ولا ترضون بالصدقة، أو المعنى: لا يضاعف لكم ما أعطيتم لتربوا في أموال الناس، وعدم الإثابة بالمثل مسكوت عنه، لأن معطيه لا يطمع في ثوابه ولا بالمثل وإنما نفيت الأضعاف للمقابلة بينه وبين الصدقة لوجه الله لتتجلى فائدة الصدقة وبضدها تتميز الأشياء.

هذا الذي يترجح مع تحرير الفكر، فأما (صاحب الكشاف) فقال: «هذه الآية في معنى قوله تعالى: ﴿يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [البقرة: من الآية٢٧٦]» انتهى.

هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ

ولا يخفى أن قوله تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا﴾ هي في أخذ الربا وهذه الآية هي في إيتاء الربا ليربوا في أموال الناس، وقوله تعالى: ﴿لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾ تشويه لإيتاء الربا في مقابلة الزكاة لأنها لسد خلة المسكين وإيتاء الربا ليزيد في أموال الناس، وهو غرض ضعيف أن تتلف مالك ليزيد مال غيرك ويكثر.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ﴾ أي صدقة ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ فأولئك أهل هذه الصفة هم المضعفون الذين ينالون أضعاف ما أعطوا فالإشارة هنا للتعظيم، فأما الإلتفات من الخطاب إلى الغيبة فلعل السرّ فيه أن المخاطبين ليسوا أهل ذلك بل غيرهم، ونظيره تحويل الكلام من الخطاب إلى الغيبة في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ [يونس:٢٢] لأنه صار الكلام في فريق من المخاطبين هم المشركون ولكن الآية التي نحن فيها خلافها من حيث أن أول الكلام خطاب للمشركين وغيرهم، وتحول في فريق من المؤمنين يريدون وجه الله.

﴿٤٠﴾ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ احتجاج على المشركين عظيم يدل على أن الله هو المالك للخلق لا شريك له فيهم، وهو المتصرف فيهم كيف يشاء دون شركاء المشركين فهي لا تخلق ولا ترزق ولا تميت ولا تحيي، سبحان الله وتعالى تنزيه لله عن أن تكون شركاؤهم أنداداً له يقرن بها وتقرن به، وهي عاجزة لا تملك شيئاً ولا تقدر على شيء وتعالى عنها علواً كبيراً فإن إثباتها مجرد خرافة من خرافات الجاهلية يتعالى عنها الله الخالق الرازق المحيي المميت الذي يعيد الخلق ويجزي كل نفس بما تسعى.

لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ

﴿٤١﴾ ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ﴿ظَهَرَ﴾ غلب ﴿ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ سواء فساد بعض الزروع أو الثمار أو الأراضي بقلة الأمطار وغير ذلك، وفساد الصيد في البحر بتعسره، وفساد الريح التي تدفع السفن وغير ذلك، أو فساد حال الناس بظهور الجور من السلطان بتمكين الله والرشوة والتظالم والحروب وتعطيل شريعة الله، كل ذلك وقع ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ بمعاصيهم من الشرك وغيره ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ فلو صلحوا لتنزلت لهم البركات قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ [الأعراف: من الآية٩٦] وقال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً﴾ [الجن:١٦] وقال تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً﴾ [نوح:١٠] الآيات.

وكذلك في تمكين الظلمة قال تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرائيلَ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا﴾ [الإسراء:٤-٨] وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام:١٢٩] ولكن بجرائمهم سلط عليهم ليذيقهم بعض الذي عملوا.

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي يذيقهم بعض العقوبة أو عقوبة البعض وهو أرجح؛ لقوله تعالى في (سبأ): ﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ أي لا يغير نعمته بسبب بعض المعاصي التي تقع من بعضهم ولا توجب تعجيل النقمة وتغيير النعمة على كلهم بل يعاملهم تعالى بحلمه.

وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ

فإذا أعرضوا واستحقوا التأديب وكانت الحكمة في تعجيل الأدب لعلهم يرجعون عند ضعف حالهم وذهاب أسباب البطر، وتذكرهم أنهم كانوا في نعمة وأنها زالت بسبب ذنوبهم فيرجعون إلى ربهم ويتوبون إليه عجل لهم الأدب لعلهم يرجعون، فصحّ أن بعض المعاصي لا يعجل عقابها، وهو ظاهر قوله تعالى:

﴿٤٢﴾ ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله لقومك العاصين لك ﴿سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لتروا آثار عقاب المجرمين ﴿فَٱنظُرُوا۟﴾ عند ذلك ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾ كيف تغيرت نعمتهم أو هلكوا بإجرامهم ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ مثل المشركين منكم، فاحذروا أن ينزل بكم مثل الذي وقع عليهم وتوبوا إلى الله.

﴿٤٣﴾ ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ اجعله قيما غير معوج وذلك بجعله منقاداً صالحاً ﴿لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ﴾ الذي هو عبادة الله وحده فهي الدين أي الطاعة القيم الذي لا عوج فيه لأنه الحق، قال الشرفي: «يعني: استقم للدين المستقيم بصاحبه إلى الجنة» انتهى.

﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي من قبل أن يأتي يوم عظيم شديد على العصاة لا مرد له لا مرجع له عن نفوذ أمره على أعداء الله لأنه من الله الغالب على أمره القاهر فوق عباده فلا مرد لذلك اليوم حال كونه من الله ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ ينقسمون أي الناس يصيرون قسمين بحكم الله فيهم وقضائه عليهم أو لهم.

يَمۡهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرۡسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٖ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَلِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ بِأَمۡرِهِۦ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٤٦﴾

قال الراغب: «الصدع: الشق في الأجسام الصلبة كالزجاج والحديد ونحوهما، ثم قال: وعنه استعير صدع الأمر: أي فصله، قال: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ﴾ [الحجر:٩٤] ثم قال: «وتصدع القوم: أي تفرقوا» انتهى. ونحوه في (الصحاح) وقال فيها: «والتصديع: التفريق» انتهى.

﴿٤٤﴾ ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِأَنفُسِهِمۡ يَمۡهَدُونَ﴾ ﴿مَن كَفَرَ﴾ في الدنيا ﴿فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥ﴾ في الآخرة ﴿وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ في الدنيا ﴿فَلِأَنفُسِهِمۡ يَمۡهَدُونَ﴾ في الآخرة، فهذا تصدعهم في الآخرة، قال الراغب: «المهد: ما تهيئ للصبي - يعني فراشه أو ما فيه فراشه - والمهد والمهاد المكان الممهد الموطأ» انتهى، فقوله تعالى: ﴿يَمۡهَدُونَ﴾ أي يصلحون مكانهم في الآخرة إصلاحا بليغاً كما يمهد للصبي مكانه.

﴿٤٥﴾ ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ ﴿لِيَجۡزِيَ﴾ أي يمهدون ليجزيهم الله تعالى من فضله أي من عطائه جزاء على الإيمان والعمل الصالح قال الراغب: «وكل عطية لا تلزم من يعطي يقال لها: فضل» انتهى. ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ فلا يجعلهم مثل المؤمنين الذين يحبهم بل يفصل بينهم ﴿فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى:٧].

﴿٤٦﴾ ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرۡسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٖ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَلِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ بِأَمۡرِهِۦ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ ومن آيات الله الدالة على أنه هو رب الناس المنعم عليهم المستحق لأن يعبدوه وحده:

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ

﴿أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾ بالمطر ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ﴾ بإثارتها للسحاب وإنزال المطر منه ﴿وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ﴾ السفائن في البحر ﴿بِأَمْرِهِ﴾ للرياح أن تسيرها على الماء وذلك بجعلها ريحا غير عاصفة فلو سكنت تعطل السفر، ووقفت السفن على الماء، كما قال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ﴾ [الشورى:٣٣] ولو عصفت لاطلعت الماء على السفائن فدخل فيها فنـزلت في البحر مغرقة لأهلها ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ سخر الرياح لتبتغوا بالسفر في البحر من فضله من فضل الله رزقاً أو علماً وذلك بتسخير الرياح ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نعم الله عليكم فتعبدوه وحده وتجتنبوا الشرك.

﴿٤٧﴾ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿مِن قَبْلِكَ﴾ يا محمد ﴿رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ فكذبهم بعض قومهم وآمن بعض ﴿فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ ذلك الإجرام المذكور في (سورة غافر) ونصرنا المؤمنين برسل الله وأنبيائهم.

﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فثقوا بنصر الله لكم أنت يا رسول الله ومن معك، وهو نصر القضية التي قمتم بها والدين الذي دعوتم إليه، ونصر حزب الله وجنده فلا يمتنع أن يقتل بعضهم شهداء وينتصر جند الله جملة بحيث صارت كلمة الله هي العلياء وصار المؤمنون أقوياء غالبين آمنين هذا نصرهم في الدنيا فأما في الآخرة فينصرهم الله بالحكم لهم على أعدائهم وبمعاقبة أعدائهم وإثابة المؤمنين.

قال الشرفي: ((قال في (البرهان): يعني نصر الأنبياء والأئمة عليهم السلام بإجابة دعائهم على المكذبين لهم من قومهم)) انتهى.

قلت: يعني أن قوله تعالى: ﴿نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ عام للمؤمنين من الرسل وقومهم والأئمة وأنصارهم، وهذا إذا أخذوا بأسباب النصر المبينة في القرآن، وهي:

أولا: أن يكونوا جنداً وحزباً مؤمنين إذا بلغوا في الكثرة إلى حد يصيرون جنداً وحزباً، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:٦٤].

ثانياً: أن يتوحدوا ولا يتنازعوا لقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال:٤٦].

ثالثاً: أن يلزموا تقوى الله ولا يعدلوا عنها بمعصية متعمدة ما داموا في المعركة.

رابعاً: أن يصبروا على القتال.

خامساً: أن يدعو الله بأن يقولوا: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:٢٥٠] والدعاء من قبل القتال.

سادساً: أن تكون نيتهم في القتال نصر دين الله أو الدفاع عن دين الله.

فهذه ستة أسباب مأخوذة من القرآن، ودفع الكافرين إذا هجموا على المسلمين واجب على كل مسلم، سواء كان في سبيل الله أو لمجرد الدفع لقول الله تعالى: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا﴾ [آل عمران:١٦٧] ومن الواجب في القتال أن يعلموا أن الله مع المتقين، بمعنى: أن الله معهم ضد أعدائهم أعداء الله لأن الله تعالى قد أمر بهذا العلم فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: من الآية١٢٣] وهذا عارض لمناسبة الإعداد لقتال الكافرين.

ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِي ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ

﴿٤٨﴾ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِي ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ وما بعده يفعله إلى إنزال المطر الله الفاعل لذلك وحده لا شريك له فعليكم أن تعبدوه وتعرفوا قدرته على كل شيء وتشكروا نعمته.

وقوله تعالى: ﴿فَيَبْسُطُهُۥ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أي فيبسط السحاب في الجو ﴿كَيْفَ يَشَآءُ﴾ فقد يكون كثيراً وقد يكون قليلاً.

وقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا﴾ قال الشرفي: «أي وتارة يجعله قطعاً». انتهى. وقال غيره: «﴿وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا﴾ بتجميعه وتكثيفه» انتهى، يعني ليس مبسوطاً رقيقاً بل هو عبارة عن قطع كثيفة مجموعة ومثل هذا قول آخر: «يجعله قطعات متراكبة متراكمة» انتهى. وهذا لأن أصل السحاب رقيق فإذا كثر وتزاحم صار كأنه قطع إسفنج مركومة وقد رأيته في (الطائرة) وهو تحتها كأنه ركام من القطن. والله أعلم.

وقد أفاد هذا القرآن في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفاً مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطاً يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ﴾ [الطور:٤٤] فأفاد أن السحاب المركوم كسف مركومة ولذلك يشبهون بها الكسف من السماء، بل يدعون أنه هي إن يروه ساقطاً، وقوله تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ أي المطر يخرج من بين السحاب، فهذه آية تدل على قدرة الله وعلمه وفضله على عباده.

﴿٤٩﴾ فَانظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ

وقد فصّل تعالى في هذه الآية المطر، ومقدمته من إرسال الرياح المثيرة للسحاب، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ﴾ أي بالمطر ﴿مَن يَشَآءُ﴾ أي من يشاء الله إنزال المطر عليه ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ لأنهم يعلمون أنه يحيي بلدهم بالنبات والزرع وغيره فهو نعمة من الله عليهم ورحمة فأسرعوا باستبشارهم وفاجأوا به بعد أن كانوا في غم من الجدب.

﴿٤٩﴾ ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ﴾ قانطين من الفرج بعد شدة الحال عليهم ولكنه تعالى لكرمه لا يمنعه قنوطهم من إنعامه عليهم بالمطر وقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم﴾ بمعنى وإنهم كانوا من قبل أن ينزل عليهم وهم في حال الجدب فصاروا به بعد إبلاسهم مستبشرين مسرورين وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم فيروه قد نزل عليهم كانوا من قبل هذا الودق الذي قد أصابهم آيسين، فقوله تعالى: ﴿مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم﴾ يفيد أنهم كانوا آيسين؛ لأنهم ما زالوا في حال الجدب والشدة لم يروا ما يكشفها عنهم.

وقوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾ يفيد: أن سبب زوال إبلاسهم هو الماء الذي يحيي بلادهم الموجود عندهم حين أصابهم، فقوله تعالى: ﴿مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم﴾ يبين سبب بقاء إبلاسهم، وقوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾ يبين سبب زوال إبلاسهم السبب الحقيقي الذي هو الماء الذي يحيي أرضهم، والفارق بين قوله: ﴿مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم﴾ وقوله ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾ هو اختلاف الاعتبار، فالأول باعتبار بقاء سبب الإبلاس، والثاني باعتبار سبب زواله لأن معنى من قبله من قبل الودق أي من قبله موجوداً عندهم.

ونظير استعمال (قبل) بهذا المعنى في قوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾ استعمال (بعد) في ضده قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [الأعراف:١٤٨] وقال الشاعر:

وشريت بردًا ليتني من بعد برد كنت هامه

وهذا استعمال لا يحتاجون فيه إلى تقدير مصدر بل كفى فيه إفادة قوله تعالى من بعد موسى أنه قد غاب عنهم وإفادة قول الشاعر من بعد برد أنه قد غاب عنه لأنه باعه، ومثله قبل قال تعالى: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ﴾ أي ومن قبل هذا القرآن، وكذلك قبل في هذا الموضع في قوله من قبله أفاد أنه قد حصل فلا حاجة إلى تقدير قبل نزوله أو قبل إنزاله، وعلى هذا فلا تكرار في قوله تعالى: ﴿مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم﴾ وقوله: ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾.

وأما قول الزمخشري رحمه الله أنه تكرار للتأكيد فبعيد؛ لأن المحل ليس محل تأكيد لوضوح الفرق بين الحالتين قبل المطر وبعده في تسبيب القنوط، وإنما يؤكد وجود القنوط عندهم من حيث أنه لم يكن ينبغي القنوط من العقلاء بعد أن قد جربوا فضل الله عليهم في الماضي فهو منهم كالمستبعد الذي يحتاج إلى تأكيد الإخبار به ومن السهو تمثيله للتكرار بقوله تعالى: ﴿فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا﴾ [الحشر:١٧] فقوله تعالى: ﴿فِيهَا﴾ متعلق بـ﴿ خَالِدَيْنِ﴾ فلا تكرار؛ لأن قوله تعالى: ﴿أَنَّهُمَا فِي النَّارِ﴾ لم يصرح بالخلود، نعم التكرار للتأكيد في القرآن كثير في تركيب آخر مثل ما في (سورة الرحمن) و (سورة المرسلات).

(٥٠) ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ﴾ حياة الأرض بعد موتها بالجدب.

مُصۡفَرّٗا لَّظَلُّواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ يَكۡفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ ﴿٥٣﴾

وقوله تعالى: ﴿كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ﴾ تفسير راجع إلى قوله تعالى: ﴿فَٱنظُرۡ﴾ كأنه قيل: فانظر كيف يحيى الله الأرض بعد موتها فكما أن أهلها قد أيسوا من المطر كذلك يحييهم بعد أن أيسوا من الحياة بعد الموت، لأن يأسهم من الحياة بعد الموت استبعاد لما ليس بعيداً في قدرة الله تعالى مثل استبعاد نزول المطر بعد الجدب، وهو غير بعيد في قدرة الله تعالى وفضله فتبين أن الاستبعاد لا حكم له في نفي الواقع ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الذي أحيى الأرض بعد موتها ﴿لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ فلا يصح استبعاد الحياة بعد الموت لأن الله على كل شيء قدير، وقد وعد به وهو أصدق القائلين.

﴿٥١﴾ ﴿وَلَئِنۡ أَرۡسَلۡنَا رِيحٗا فَرَأَوۡهُ مُصۡفَرّٗا لَّظَلُّواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ يَكۡفُرُونَ﴾ ﴿وَلَئِنۡ أَرۡسَلۡنَا رِيحٗا﴾ تذهب خضرة الزرع والمرعى وتميل به إلى اليبس ﴿لَّظَلُّواْ﴾ أي هؤلاء الذين قنطوا ثم استبشروا ﴿لَّظَلُّواْ﴾ من بعد أثر رحمة الله ﴿يَكۡفُرُونَ﴾ يقنطون وقد جربوا فضل الله وإنزاله المطر وإنعامه عليهم لكنهم يسرعون إلى القنوط بغير نظر ولذلك حين اصفر الزرع والمرعى بادروا إلى القنوط واليأس من فضل الله الذي هو عادة الكفار ﴿**إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ**﴾ [يوسف:٨٧].

﴿٥٢﴾ ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ﴾ ﴿فَإِنَّكَ﴾ يا رسول الله في محاولتك لهداية هؤلاء الكفار ﴿لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ

فهم كالموتى في بعدهم عن سماع ما تقول؛ لأنهم كارهون له معرضون عنه، وقد خذلوا فلم يبق في قلوبهم حياة ليستعدوا لقبول الحق ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ وهم كالصم إذا ولوا مدبرين والأصم المدبر أبعد عن سماع الدعاء من الأصم المقبل، وهذا تشبيه عجيب لأن الكفار مولون عن سماع ما يقول لهم الرسول مدبرون عنه بقلوبهم فشبههم بالصم المدبرين.

﴿٥٣﴾ ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ كما شبههم بالصم شبههم بـ﴿ٱلْعُمْىِ﴾ الذين قد ضلوا الطريق وهؤلاء الكفار ضلوا عن الحق بكفرهم وصاروا كالعمي لخذلانهم وضيق قلوبهم عن قبول الحق حتى ذهب استعدادهم لإبصار الحق وللنظر في الآيات نظر من يريد الحق.

﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي لا تسمع إلا من يؤمن بآياتنا يؤمن بأنها من الله وبمعناها الذي تدل عليه من أن القرآن كلام الله ومحمداً رسول الله والبعث حق والجنة والنار حق ﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ تاركون للشرك مخلصون عبادتهم لله مسلمون وجوههم وأنفسهم لله ربهم فهؤلاء الذين تسمعهم لا الكفار المجادلون في آيات الله المكذبون والحصر بالإضافة إليهم.

﴿٥٤﴾ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ ليس في الآية الكريمة أنه تعالى خلق الضَّعف بل خلقنا من الضعف؛ لأنا في حال الطفولة ضعفاء، وقبلها حين كنا في بطون أمهاتنا عظاماً، وقبلها حين كنا مضغة،

ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ

وقبلها حين كنا علقة، وقبلها حين كنا نطفة، فنحن من الضعف بهذا المعنى، وهو مجاز مثل: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء:٣٧] وفيه دلالة على أصالتنا في الضعف ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ وهي قوة الشباب ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ لأنه تعالى حدد قوة الشباب كما شاء فجعلنا أقوياء بعد الضعف دليل على الله وعلى أنه قدير عليم ثم تحولنا عن حالة الشباب وقل استمرارنا في النمو بعد كثرته دليل على الخالق المدبر لأحوالنا فإن مقتضى الصحة فيما نتخيل أن يستمر النمو والقوة من الغذاء ما دامت أعضاء التغذية وتصريف الغذاء في البدن بل في خيالنا مقتضى ذلك أن يتطور النمو والقوة فلما شاهدنا تحديدها بوقت الشباب ثم تميل إلى النقص بتقدير وتدريج دل ذلك على خالقنا المدبر لأحوالنا وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ لم يقل خلق بل جعل لأن ذلك نقص وسلب قوة وقوله تعالى: ﴿وَشَيْبَةً﴾ أي بياض الشعر.

وقوله تعالى: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ تحقيق لأنه الفاعل لما يريد ليس ذلك طبيعة مجردة لأن اختلاف أحوال المخلوق وفق تدبيره تعالى دليل على أنه مخلوق بقدرة القدير العليم أما الطبيعة فإن كانت واحدة لم يصح أن تنتج أشياء مختلفة وإن كانت متعددة كان تعددها المخصوص على وفق نظام محدود دليل على أنها هي مخلوقة لخالق قدير عليم، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ بيان لما دل عليه الدليل في الآية، وبذلك بطل استبعاد الكفار للبعث بل هو القريب في قدرته الواجب في حكمته.

﴿٥٥﴾ ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ﴾ يستقل الكفار ما بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة فيقسمون

فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ

أي يحلفون ما لبثوا ما بقوا بينهما غير ساعة من الزمان، وهي مدة قليلة كما قال في (سورة الإسراء) ﴿وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء:٥٢] ولكنهم أقسموا على الظن ﴿كَذَٰلِكَ﴾ في اعتماد الظن والاغترار به ﴿كَانُوا۟﴾ في الدنيا ﴿يُؤْفَكُونَ﴾ يصرفون عن الحق لأنهم لا يتثبتون.

﴿٥٦﴾ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ العلم اليقين بالله وقدرته وعلمه وحكمته وعزته وسائر معرفته تعالى واليقين بالرسل والكتب واليقين باليوم الآخر وما وعد الله به من الحساب والجزاء وكل ما يجب العلم به والإيمان به أوتوه بالهدى من الله قالوا للمجرمين: ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ فيما كتب الله من الأجل الذي قضاه بين الدنيا والآخرة ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾ بعد الموت الذي وعد الله به ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فكنتم به تكذبون فقد صدق وعد الله، واستعمل اسم الكتاب فيما كتب الله مثل استعماله فيما كتب من العمر والرزق، قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ﴾ [الأعراف:٣٧] وقد ذكر الله أجل الفرد وأجل مجيء الآخرة أو ذهاب الدنيا في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُسَمًّى﴾ [الأنعام:٢].

﴿٥٧﴾ ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ ﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ قد قامت الساعة ﴿لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ لو أذن لهم في الاعتذار فلا ينفعهم ما كانوا يعتذرون به لأنه ليس عذرا صحيحاً.

فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا

ويحتمل: معذرتهم التي ليست معذرة وإنما اتخذوها كالاعتذار مثل قولهم: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ﴾ [المؤمنون:١٠٦].

﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ ولا يطلب منهم إزالة غضب الله عليهم وإرضاءه بالتوبة والإيمان كما كان يطلب منهم في الدنيا لأنه في الآخرة لا يقبل منهم لأنها دار جزاء وليست دار عمل، ولأنهم لو فعلوا ذلك فعلوه اضطراراً لمشاهدتهم القيامة فلا ينفعهم لأن الله تعالى لو شاء أن يؤمنوا اضطراراً لاضطرهم في الدنيا بحيث لا يكفروا كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ [السجدة:١٣].

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ ﴿٥٨﴾ ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ﴾ كلهم ﴿فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ الذي هو أعظم حجة ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ حجة بالغة وحكمة جامعة وقد سمى الله ما احتج به الكافر مثلاً فقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس:٧٨] فالمثل ما استعمل لينطبق على أفراد متماثلة يستعمل في كل منها ومنه أمثال العرب لكلماتهم المتداولة بينهم مثل قولهم المرء بأصغريه لسانه وجنانه وقولهم القتل أنفى للقتل، وليس خاصاً بالتشبيه وكذلك ما هو حجة وما هو موعظة قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقاً وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفاً وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾ [الكهف:٥٢-٥٤].

يَعۡلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾

وقال تعالى في تسمية الحجة مثلاً: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً﴾ [الإسراء:٨٨-٨٩] وقال تعالى في الموعظة: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر:٢١].

فقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ﴾ بمعنى من كل حجة، وكل موعظة، ولذلك عقبه بقوله تعالى: ﴿وَلَئِن جِئۡتَهُم بِـَٔايَةٖ﴾ فالهدى في القرآن بما فيه من الحجج والمواعظ يكفي عن الآيات التي يقترحها الكافرون وعن المزيد من الآيات على ما قد جاء فيه ﴿وَلَئِن جِئۡتَهُم﴾ أي هؤلاء المكذبين لئن جئتهم ﴿بِـَٔايَةٖ﴾ زائدة عما قد جاء في القرآن أو كما يقترحون ﴿لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ وكذبوا بهذا القرآن ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُبۡطِلُونَ﴾ أي لا تنفع عندهم الآيات ولو جئتهم بأي آية لاستمروا على كفرهم فقالوا بالحصر والقصر إن أنتم إلا مبطلون، لستم بمحقين في شيء مما أنتم عليه، وذلك لأنهم يقولون ما شاءوا لا يحجزهم إيمان ولا دين.

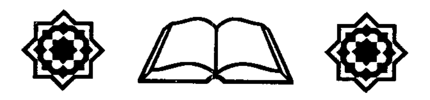
﴿٥٩﴾ ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ كما أنهم لا يؤمنون بل يبالغون في التكذيب إن جئتهم بآية لأنهم قد طبع على قلوبهم بسبب عنادهم واعتمادهم على هوى أنفسهم وظنهم وإعراضهم عن قبول الحق الواضح كذلك يطبع الله على قلوبهم وقلوب أمثالهم حتى أنهم لا يؤمنون، ولو جئتهم بكل آية وذلك لأنهم لا يريدون إلا ما تهواه أنفسهم فاستحقوا الخذلان وإرسال الشياطين عليهم فما بقي في إيمانهم مطمع لك يا رسول الله.

﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ (٦٠)

﴿فَٱصۡبِرۡ﴾ يا رسول الله على تكذيبهم وعنادهم حتى يأذن الله لك بهجرتهم وتركهم وحتى يأذن بقتالهم ﴿وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ﴾ لا يخرجوك عن الصبر والثبات والحكمة واتباع العقل بأن يحملوك على تركهم قبل أن يؤذن لك في الهجرة، وقوله: ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾ فقد وعد بإظهار دينه على الدين كله، وكذلك وعد بالآخرة وثوابك على الطاعة والصبر وعقاب المكذبين لك.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ فكل من لا يوقن بالثواب والعقاب لا يخشى عقوبة الجرائم ولا يبالي بالظلم والأذى للرسول ﷺ وإنما يصلح الإنسان يقينه بالجزاء يوم القيامة، ولكن عليك أن تصبر لحكم ربك ﴿حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [يونس:١٠٩].

تم بحمد الله تفسير (سورة الروم)



فهرس تقريبي لأهم المسائل والمواضيع التي تضمنها هذا المجلد

م	الموضـــــوع	اسم السورة	رقم الآية
٢١	معنى تعليم منطق الطير	النمل	١٦
٢٢	﴿وجعلنا في ذريته النبوة﴾ رد على الإنكار المطلق للعنصر	العنكبوت	٢٧
٢٣	كون الجهاد حقيقة في القتال مجازاً في غيره	العنكبوت	٦٩
٢٤	معنى ﴿ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله﴾ استدلال قوي	الروم	٥
٢٥	أسباب النصر مأخوذة من القرآن	الروم	٤٧
٢٦	معنى ﴿الذين أوتوا العلم﴾	الروم	٥٦

محتويات الجزء الخامس



